2020
4.1.2020

لاورا ريستريبو

هذيان

ترجمة محمد الفولي

رواية

لاورا ريستريبو

هــذيــان

روايــة

ترجمة عن الأسبانية

محمد الفولي

الكتب للنشر والتوزيع

هـذيــان

*

هذيان

رواية

الطبعة الأولى: ٢٠١٨
رقم الإيداع : ٢٠١٨/١١٠٦٧
الترقيم الدولي: ٣ ـ ٩٧٨ـ٩٧٧ـ٨٠٣ـ٠٦٩
الغـلاف: حاتم سليمان

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

©Laura Restrepo, 2004
© Penguin Random House Grupo Editorial S.A., 2004

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطّي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright ® 2018 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution. The Moral Rights of the author have been asserted. All rights reserved.

فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
ريستريبو، لاورا
هذيان: رواية/ تأليف لاورا ريستريبو، ترجمة : محمد الفولي، ـ ط١. ـ
القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٨
٤٣٢ ص، ٢٠ سم
تدمك: ٣ ـ ٠٦٩ ـ ٨٠٣ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ رواية
أـ العنوان
بـ الفولي، محمد (مترجمًا)
رقم الإيداع: ١١٠٦٧
الطبعة الأولى ٢٠١٨

إلى ابني بدرو

هذا الكتاب له

بقدر ما هو لي

"حذر هنري جيمس الكُتاب دائمًا وبكل حكمة
من استخدام مجنون كمحور لرواية، انطلاقًا
من أنه لانعدام أي مسؤولية أخلاقية عليه،
فلا وجود لقصة حقيقية يُمكن روايتها".

جور فيدال.

عرفت أن أمرًا لا يمكن إصلاحه قد وقع في اللحظة التي فتح فيها رجل باب غرفة الفندق هذه ورأيت زوجتي جالسة عند نهايتها وهي تنظر عبر النافذة بطريقة شديدة الغرابة. تزامن هذا مع عودتي من رحلة قصيرة لظروف العمل مدتها أربعة أيام فقط. أقولها وأنا أعلم أنه لدى رحيلي كنت قد تركتها بخير. حينما سافرت لم يكن بها شيئًا من الغرابة، أو على الأقل خارج الإطار المعتاد. حقًا لم يكن هناك شيئًا ينبئ بما سيحدث لها في غيابي، باستثناء هواجسها بكل تأكيد، لكن كيف لي أن أصدق كل ما تقوله زوجتي أجوستينا التي تتوقع المصائب دائمًا. حاولت دائمًا وبشتى السبل أن أعيدها إلى رشدها لكنها لا تترك لأحد فرصة لي ذراعها بل وتصر على امتلاكها منذ الصغر ما تدعوه "هبة العيون"، أو استبصار ما هو قادم ووحده الرب يعرف كيف قلب هذا الأمر حياتنا!. هذه المرة- مثل كل المرات- تنبأت أجوستينا، حبي أنا، بأن شيئًا ما سيسوء وتجاهلت كما اعتدت توقعها. رحلت عن المدينة يوم الأربعاء وتركتها تطلي جدران المنزل باللون الأخضر ولدى عودتي في الأحد التالي وجدتها في فندق بشمال المدينة، بعدما تحولت إلى كائن مذعور ومُرعب تعرفت عليه بالكاد. لم أعرف ما الذي جرى في غيابي، لأنها تسبني إذا سألتها. رؤيتها هي السبيل الوحيد لإدراك مدى الوحشية التي

تصل إليها حينما تتهيج. تعاملني كأنني لست أنا وكأنها ليست هي. أحاول شرح الأمر، وإن كنت لا أستطيع فالسبب هو أنني نفسي لا أفهم. المرأة التي أحبها تاهت داخل رأسها، ومنذ ١٤ يومًا أبحث عنها وقد أتخلى عن حياتي لأجدها، لكن الأمر صعب، بل خانق بدرجة مميتة ومعقد بشكل ملعون، كأن أجوستينا تقطن في عالم موازٍ للحقيقة، قريب لكن لا يمكن ترسيم حدوده. كأنها تتحدث لغة أجنبية أعرف ملامحها لكني أعجز عن فهمها. عقل زوجتي مختل مثل كلب يُكشر عن أنيابه، لكنه في نفس الوقت يناديني طلبًا للمساعدة بينما أعجز عن الرد. أجوستينا مثل كلب مسعور ومجروح يرغب في العودة لمنزله، إلا أنه عاجز، لكنها في ظرف لحظة تستحيل لكلب متشرد لا يتذكر إذا كان له مأوى ذات مرة.

***

سأحكي الأمر لك دون مواربة لأنه يحق لك معرفته، إذا لم يعد هناك شيء يتبقى لي، فبماذا أخاطر في النهاية حينما أخبرك بكل هذا؟ يدور زوجك كعوامة في دوامة محاولاً استقصاء ماهية الشياطين التي استحوذت عليك وأنت نفسك لا تعرفين شيئًا عن الأمر، لأنه كما ترين يا أجوستينا الجميلة، فإن كل قصة مثل كعكة كبيرة، يعرف كل شخص فيها القطعة التي يأكلها فقط، أما الوحيد الذي يعرف كل شيء فهو الحلواني، لكن قبل أن أبدأ دعيني أخبرك أن صُحبتك تسعدني، بل وأنه دائمًا ما أسعدتني صحبتك رغمًا عن كل شيء، والحقيقة أنه عقب

كل ما حدث فأنت أخر من توقعت رؤيته. أتصدقيني إذا قلت لك إن هذه الكارثة بدأت بمجرد رهان؟ حتى أنا نفسي أخجل من الاعتراف بهذا الأمر لكِ يا أجوستينا بعدما تعاملتِ مع المسألة بجدية ولحق بك ضرر مهول. كانت مجرد مزحة ثقيلة لتسمية الأشياء باسمها الصحيح، خدعة انتهت بالدم. أسموها "عملية لازاروس" لأن هدفها كان التحقق إذا كنت أنا "ميداس" وثلاثة من أصدقائي سنتمكن من إعادة الروح لعصفور سالاثار "العنكبوت"، ذلك العصفور الميت بين ساقيه منذ حادث نادي "لاس لوماس" للبولو. أتتذكرين يا أجوستينا الجميلة تلك الفضيحة؟ كانت في الحقيقة حادثة سوقية وقميئة، وإن كانوا حاولوا لاحقًا تزيينها وإضفاء طابع من البطولة عليها، بإشاعة رواية أن "العنكبوت" سقط من فوق الحصان أثناء مباراة ضد فريق من تشيلي، لكن الحقيقة كما سأوضح لك هي أن تجرع المرارة جاء بعدها وسط حماقة من مخمورين، فالمباراة كانت صباحًا وشاهدها "العنكبوت" من المدرجات، جالسًا في الصفوف الأولى لأنه كان بدينًا بدرجة لا تسمح له بالوصول للمقاعد العلوية، وأؤكد لك أن كل دوره البطولي اقتصر على الرهان لصالح التشيليين ضد الفريق المحلي، هذا "العنكبوت" كان دائمًا بدينًا بائعًا للأوطان. فاز التشيليون وكُرموا لاحقًا بغداء تقليدي، أفترض أنهم ابتلعوه دون شهية من باب الذوق، فمن يعرف ما هو نوع الطبق الفولكلوري الذي قدموه لهم؟ الـ"ليتشونا" أم الـ"تمال" أم الـ"بونيولوس" أم التين الشوكي بحلوى اللبن أم كل هذه الأشياء معًا، قبل أن يذهبوا نحو فندقهم ليعانوا من هضم كل هذا، بينما تواصلت

العربدة داخل النادي وتضاعفت وتزايد هيجانها. فاضت أنهار الويسكي وحينما حل المساء ولم يعد هناك سوى فريق البولو المحلي ومرتادو النادي التقليديون، شعر "العنكبوت" وأصدقاؤه برغبة في ركوب الخيل. أعتقد بل أعرف أنه حينما انطلقت المسيرة السعيدة ليلاً فإنهم جميعًا كانوا سكارى مثل القوازق، أشبه بعُصبة من المهرجين المتوترين، لا أعرف إذا كان شقيقك خواكو معهم، لكن أعتقد أنه كان معهم فخواكو لا يغيب أبدًا عن موعد للعربدة. امتطوا هذه الأحصنة، الهستيرية بفعل كينونتها والتي لا يعجبها أن يمتطيها أفظاظ ثقلاء الظل والوزن يضغطون على كليتيها ويجبرونها على الركض ليلاً فوق دروب يكسوها الطمي، وسط ملاحقات من سيارات (تويوتا) حُملت أبوابها الأربعة بحراس شخصيين. أنت تعرفين كيف تسير المسألة يا دميتي الحلوة؟ فأنت تأتين من هذا العالم، وإذا كنت هربت من هناك، فقد جاء هذا بعد شبع، لكن هل هو مذاق قابل للنسيان؟ لا يا ملكتي، فهذا الطعم الغائط يبقى في الفم مهما غرغرتِ فمك بغسول "ليسترين"، فخلف كل ثري في نادي "لاس لوماس" للبولو يسير خمسة أو ستة من الحرس الشخصيين إلى حيث يرغب، ويزداد الأمر سوءًا في حالة "العنكبوت" سالاثار، الذي يسبح في الذهب ويحتمي بقوة صغيرة من المجرمين المدربين في إسرائيل، لم يكن "العنكبوت" قد امتطى حصانًا قبلها بشهور لغرقه في بحور الكولسترول وكان يكتفي بالجلوس للمشاهدة من المدرجات، لكنه طلب أن يجلبوا له الحصان الأكثر هياجًا رغمًا عن سكرته المهولة، حصان أشقر ذو علو مذهل يدعى "بيريخيل"، وإذا ما أخبرتك أيتها

الأميرة أجوستينا عن اسمه، فهذا لأنه وسط الظلام والوحل والفوران، شب وألقى بـ"العنكبوت" في الهواء ليسقط بظهره فوق صف من الصخور، وبعدها لم يجد حارس ألمعي يدعونه الـ"تشوبو" فكرة أفضل لعقاب الحيوان سوى عبر ضربه بسيل من رصاص مدفعه الرشاش، ليترك جسده كمصفاة بينما نظرت عيناه نحو القمر، في مشهد صعود روح بائس، بسيل واحد من الرصاص أضاع "التشوبو" مائتي وخمسين ألف دولار هي قيمة "بيريخيل" لأن الحياة تسير هكذا، دميتي أجوستينا، في حفل عربدة واحد قد تذهب أموال طائلة للجحيم دون أن تهتز شعرة في رأس أحدهم.

* * *

تحتضن أجوستينا الصغيرة طفل آخر أصغر منها بقوة، هو شقيقها "بيتشي" ذو الرأس المكسو بشعر ملتف داكن، هو الرب في هيئة طفل حينما يُجسده الرسامون بشعر أسود وليس أشقر. تعده أجوستينا:

- هي أخر مرة لن يضربك أبي أبدًا مرة أخرى لأنني سأمنعه، لا تلوي ذراعك هذا كما لو كُنت دجاجة مكسورة الجناح، تعالَ يا "بيتشي"، يا شقيقي الصغير، يجب أن تصفح عن أيدي والدي الشريرة، فقلبه طيب. سامحه يا "بيتشي" ولا تمتعض في حضوره، وإلا رحل عن المنزل وكان الذنب ذنبك. هل يؤلمك ذراعك كثيرًا؟ تعال إلى هنا فهو ليس أمرًا جمًا، إذا توقفت عن البكاء ستدعوك أجوستينا لطقس القوى العظمى وسنفعل ما نعرفه، ستُخرج

الصور من مخبأها وسيفرد "بيتشي" القماش الأسود فوق الفراش، سنجهز أنا وأنت القداس الذي يضيء عينيّ، ستستدعي أجوستينا الـ"قوة العظمى" التي تتيح لها رؤية متى سيؤذي الأب أخاها، أنت "بيتشي" الذي أحبه كثيرًا.

تكررها أجوستينا مجددًا:

أنت "بيتشي" الذي أعبده، شقيق روحي، الطفل الجميل الذي ابتعد عني ولا أعلم عنه شيئًا لفترة قاربت عمري، سأداوي جناحك المكسور.

تغني له أجوستينا بينما تكومه حول نفسه:

- طبي طبي يا ساق الضفدعة إن لم تطبي اليوم ستطبي بعد يوم وساعة.

أسوأ شيء أن قوة التنبؤ تأتي وفقًا لهواها وليس حينما تستدعيها. تشكو أجوستينا من أنه أحيانًا لا تسفر الشعائر عن شيء، حتى ولو ارتدى الطفلان الثياب وفعلا كل الأمور كما يجب، رويدًا رويدًا ومع احترام كل خطوة: لأن هذه القوى أحيانًا تهجرها وتنعدم الرؤية أمامها ويبقى "بيتشي" بلا دفاع جاهلاً موعد حدوث الأمر، لكنها على النقيض حينما تصل تأتي مُعلنة برعشة في الجفنين تحمل اسم "النداء الأول"، لأن قوى أجوستينا كانت، بل ولازالت هي قدرة عيونها على استبصار ما قد يقع ولم يقع بعد، أما "النداء الثاني"، فيتمثل في المشيئة

الحرة التي يميل بها رأسها نحو الخلف، كسلم مائل، كأن عنقها تمزق لتتشنج وتهز شعرها مثل "الباكية المجنونة"[١] حينما تهيم في الجبل.

أنا أعرف جيدًا أن "البيتشي" يرتعب من "النداء الثاني" ولا يرغب في معرفة شيء عن "الباكية" أو الإيقاع المجنون لشعرها المفكوك، لهذا يرجوني ألا تبيض عيناي ويلتف شعري:

ـ لأنه إذا ما وصلت فعل هذا يا أجوستينيتا سأذهب لغرفتي.

ـ لا ترحل يا "بيتشي بيتشيتو"، لا ترحل فلن أفعل هذا مجددًا، سأكبح التشنج حتى لا ترتعب، فشعائرنا في النهاية غرضها الشفاء والحماية، لن أصيبك بسوء أبدًا، أنا أحميك فقط، ومقابل هذا عليك أن تعدني بمسامحة أبي حتى ولو ضربك، يقول أبي أنه لمصلحتك والآباء يعرفون أمور لا يعرفها الأبناء.

* * *

دأبت على مساعدة زوجتي منذ بدأت حالتها الغريبة، لكن لم أتمكن سوى من تكديرها ومضايقتها باهتمامي غير المجدي كسامري صالح، فعلى سبيل المثال دخلت أجوستينا مساءً أمس في نوبة غضب حينما حاولت استخدام قطعة قماش لتجفيف السجادة التي بللتها بعد أن أصابها هوس بخصوص رائحتها، والحقيقة أن رؤية الدلاء المملوءة

(١) أحد أساطير الفولكلور اللاتيني تتعلق بروح أم متألمة فقدت أو قتلت أبناءها وتبحث عنهم بينما تنتحب ليصاب من يسمع عويلها بحالة من الرعب.

بالماء التي تنثرها في كل أنحاء الشقة يصيبني بكرب رهيب، تقول إنها لحفلات تعميد وتطهير أو شعائر ما لاستدعاء آلهة تخترعهم، تغسل كل شيء وتدعكه بعزم ثائر، تلك النسخة من أجوستينا حبيبتي التي لا يمكن قراءتها، باتت أي بقعة على ملاءة أو اتساخ فوق زجاج النوافذ ألمًا لها، فهي تعاني لأن هناك تراب على الأفاريز وتحتد طباعها من آثار الوحل التي ترى أن حذائي يتركها، بل أنها باتت تشمئز من يديها الجميلتين اللتين باتتا حمراوين وجافتين وشاحبتين، فهي لا ترحمهما ولا ترحمني ولا ترحم نفسها. هي لا تتوقف- بينما تقيم شعائرها المجنونة- عن توجيه أوامر للخالة صوفي، التي عرضت نفسها وبكل رضا كشريكة عون، ليدور الاثنان معا بآنية مملوءة بالماء كأنهما هكذا سينجحان في طرد وحش القلق أو استعادة السيطرة المفقودة، فيما لا أجد دورًا لي في هذه القصة ولا أعرف كيف أكبح الجنون الغامض الذي يغزو منزلي على هيئة صفوف أكواب المياه التي تظهر مرصوصة عند نعل الجدران أو فوق مساند النوافذ. حينما أفتح بابًا ما أسكب دون قصد طبقًا كبيرًا مملوءً بالماء خبأته أجوستينا خلفه، وحينما أحاول الصعود للدور الثاني تمنعني الخردة المملوءة بالمياه الموضوعة على كل درجة.

- كيف أصل للأعلى يا خالة صوفي، إذا كانت أجوستينا نزعت عن الدرج فائدته؟

- لتبق حاليًا في الأسفل يا أجيلار، تحلَ بالصبر ولا تحرك الأواني من مكانها فأنت تعرف نوبة العصبية التي ستصيبها.

ـ وأين سنأكل، حبيبتي أجوستينا، إذا كنتِ قد ملأت الأطباق بالمياه؟

وضعتهم فوق المقاعد وفي الشرفة وحول الفراش، نهر جنونها يترك أثره حتى في أرفف المكتبة وخزانات الملابس، وأينما يصلح السير تنفتح عيون المياه الساكنة هذه التي تنظر للعدم أو للغموض، وما أشعر به أكثر من الكرب هو الفشل الخانق، الغم المنبثق من جهلي لماهية الفقاعات التي تتشكل وتتفجر داخلها، ماهية الأسماك المجنونة التي تسبح في قنوات مخها، ولهذا لا يخطر لي شيء أفضل من انتظار هفوة منها لأفرغ الآنية والأطباق والدلاء وأعيدها لمكانها في المطبخ، وأسألها بعدها:

ـ لماذا تنظرين لي بكره، أجوستينا حبي أنا، هل لأنك لا تتذكريني؟

لكن يبدو أحيانًا أنها تتعرف علي بشكل مبهم، بين الضباب ربما، وتتصالح عيناها معي للحظة، لكن للحظة فقط لأنني أخسرها فورًا ويعود لاكتساحي ذلك الألم العظيم، هي كوميديا غريبة، أو ربما مأساة ثلاثية الأصوات، أجوستينا بشعائر التطهير والخالة صوفي التي تساير اللعبة وأنا، أجيلار، المراقب الذي يتساءل في أي ساعة ضاعت سلامة العقل، هي شيء لا يرى لكنها حينما تغيب، تفقد الحياة معناها وكل ما هو بشري يفقد كينونته. ماذا كنا لنفعل دونك أيتها الخالة صوفي! كنت أمكث في البداية بالمنزل طيلة الـ٢٤ ساعة، أقضيها كلها في العناية بأجوستينا منتظرًا عودتها لرشدها في أي لحظة، لكن بمرور الأيام، بدأت أشك في أن الأمر سينتهي بين ليلة وضحاها وأدركت

اضطراري لوضع أمعائي مكان قلبي كي أعود لمواجهة الحياة اليومية، فأصعب شيء في كل هذا هو قبول سلسلة المصطلحات الطبية الموجودة بين سلامة العقل والخرف وتعلم السير بقدم هنا والأخرى هناك. بعد ثالث أو رابع يوم من الهذيان كانت قد انتهت مدخراتي وعادت الحاجات اليومية الملحة من الركن البعيد الذي تلبد فيه داخل ذاكرتي، إذا لم أخرج لاستلام مستحقاتي العالقة وتسليم طلبات الأسبوع، فلن أجد شيئًا لشراء الطعام أو سداد الخدمات، لكن لم يكن لدي ما يسمح بجلب ممرضة تجالس أجوستينا في غيابي، لتمنعها من الهروب أو ارتكاب فعل مجنون لا يمكن إصلاحه، وحينها دقت تلك السيدة التي قالت إنها تُدعى الخالة صوفي جرس الباب. ظهرت هكذا، دون مقدمات، كأن العناية الإلهية أرسلتها بحقيبتيها وقبعتها المصنوعة من الجوخ المزودة بريشة، وضحكتها السهلة وحضورها الواسع من الريف الألماني وقبل أن تُدعى للدخول، بينما لا زالت على عتبة الباب، شرحت أن علاقتها انقطعت بالعائلة منذ سنوات، فكانت تعيش في المكسيك وأنها جاءت بالطائرة للعناية بابنة أختها مهما طال الوقت. أنا لا أعرف بل وأشك أيضًا، فزوجتي لم تحدثني أبدًا عن أي خالة أو على الأقل لا أتذكر قيامها بالأمر، لكنها تعرّفت عليها أو على الأقل قبعتها لأنها ضحكت:

- لا يمكنني تصديق أنك لا زلت تستخدمين هذه القبعة المزودة بريش الأوز.

كان هذا هو ما قالته، بل كان ما قالته ببشاشة وثقة، لكن كان هناك أمر ما أشعرني بنغزة في صدري، فإذا كانت هذه السيدة قطعت

علاقتها بالعائلة، فكيف أدركت أزمة ابنة أختها؟ حينما سألتها لم تمتنع عن الإجابة وقالت:

ـ لقد عرفت هذا الأمر دائمًا.

اللعنة! إما أن الموضوع ينطوي على كذبة، أو أنني فزت بمتخصصة جديدة في علوم التنجيم، لكن ما هو حقيقي أن هذه الخالة صوفي لم تتمكن فقط من خفض وتيرة سُعار أجوستينا، بل أنها جعلتها أيضًا تتناول الطعام، هو تقدم هائل لأنها قبلها رفضت تناول كل شيء باستثناء الخبز البسيط والماء الطاهر ـ هذه هي كلماتها الخبز البسيط والماء الطاهر ـ طالما لم يكونا من بين يديّ، لكنها مع الخالة صوفي كانت تتناول عن رضا معجون نشا الذرة مع القرفة الذي عرفت الخالة جيدًا كيف تعده وأعطته لها ملعقة تلو الأخرى، كأنها طفلة.

ـ أخبريني أيتها الخالة صوفي، لماذا ترفض أجوستينا الطعام مني وتقبله منك؟

ـ حسنًا لأن معجون نشا الذرة مع القرفة هو ما كانت تتناوله من يديّ كلما مرضت.

ـ ماذا كنا لنفعل دونك يا خالة صوفي!

هكذا كنت أشكرها دون معرفة من هي الخالة صوفي في الحقيقة.

* * *

ـ قولي لي كيف هي شمس صيفنا، كيف تتجمع هذه السحب المستديرة الصوفية فوقنا كأنها خراف، كيف تسنكين روحي وادعة في أعماق عينيك؟

أصر الجد بورتولينوس على سؤال الجدة بلانكا متحدثًا عن مشاهد طبيعية لم يكن يراها، بل يحلم بها، لأنه حينها كان مجنونًا، مجنونا كنعجة ملعونة. كانت تمسكه من يده وتجعله يركض إلى حد الإنهاك لتُهدئ هذا الجموح، الذي كان بأي صورة أخرى قد يقوده إلى الجحيم. الركض مجرد قول، لأنه كان بالأصح مجرد هرولة خرقاء لرجل أصبح سمينًا بعض الشيء، بعيدًا عن سن الشباب، ودخل بالفعل في اضطرابات الخرف.

بات يدخل ويخرج إن صح التعبير، لأنه أحيانًا لم يكن مجنونًا وفي تلك اللحظات يصبح عازفًا، عازفًا ألمانيًا يدعى نيكولاس ولقبه بورتولينوس والذي بمرور الزمن أصبح جدًا لأجوستينا. كان قد جاء من كاوب، مكان له نهره وقلعته، واستقر به المقام بين حقول القصب في قرية ساسايما القائظة، ربما بسبب السحر الرطب والمتواري للأراضي الحارة، التي تبدو مغرية للغاية لرجال على شاكلته ممن هم عرضة للضياع في أحلام اليقظة والهذاء. لم تتضح أبدًا صورة موضوع أصله؛ لأنه لم يعتاد على الحديث بخصوصه، وإذا كان قد فعله ذات مرة، فكان بإسبانيته المهترئة التي أساء تعلمها على الطريق ولم تصبح أبدًا لغة مؤقتة لمن لم يحدد إذا كان وصوله قد بدأ بالكاد أم أنه لم يرحل بالفعل. لم يتضح أيضًا لماذا استقر تحديدًا في هذا المكان، حتى ولو كان أجزم بأنه اختار ساسايما من بين كل قرى الكوكب، لأنه لم يسبق له معرفة قرية أخرى لها اسم بنفس الرنة الطنانة.

* * *

ما الذي لا أملكه ولكن سأمنحه لمعرفة ما يجب علي فعله! لكن كل ما لدي هو غم متوحش، ١٤ ليلة دون نوم، ١٤ يومًا دون راحة وقراري بإخراج أجوستينا إلى الجانب الآخر، رغمًا عن معارضتها هي نفسها للأمر. هي هائجة. هي هائجة ومفككة ومهزومة. تفجر عقلها إلى أشلاء ولأساعدها على إعادة لملمة شتاته أسترشد فقط ببوصلة حبي نحوها، حبي الهائل نحوها، لكن هذه البوصلة اليوم والآن مُلتبسة، لأنه يصعب علي حبها. أحيانًا يصعب علي الأمر كثيرًا لأن أجوستينا التي أعرفها لم تعد لطيفة ولا يبدو أنها تحبني وأعلنت علي حربًا ضروسًا سيخرج كلانا منها مفتتًا إلى أشلاء. حرب أو لا مبالاة، ويصعب معرفة أي الاثنين أصعب في التعامل معه. أواسي نفسي بالتفكير في أنها ليست من يكرهني بل هذا الشخص الغريب الذي استحوذ عليها، تلك المرأة سريعة الغضب المهووسة بالغسيل التي لا تراني سوى كشخص يفسد كل شيء يلمسه. توجد لحظات يبدو فيها أن أجوستينا وافقت على هدنة لتشخبط رسومًا تشرح لي بها ماهية ما يحدث. ترسم دوائر داخل دوائر أخرى أكبر، ودوائر تنبثق من دوائر أخرى كأنها عناقيد من القلق وتقول إنها خلايا جسدها القائم من الموت التي تتكاثر وتنقذها. أسألها:

-عن أي شيء تحدثيني يا أجوستينا؟

وهي تحاول أن تشرح لي برسم دوائر جديدة أصغر ومتلاصقة ظُللت أُطرها بغضب بقلم رصاصي فوق ورقة دفتر. تصر أجوستينا على أن هذه هي جزئيات جسدها بينما تحرك القلم بخشونة لدرجة

تمزيق الورقة، مغتاظة من عجزها عن الشرح، من عجز زوجها عن فهمها. يقف ثقل خطيئتي ضدي. أعترف بهذا، لأنني أعرف القليل عن زوجتي، رغمًا أنني عشت معها ما يقرب من ثلاث سنوات.

تمكنت فوق تلك الأرض الغريبة- وهي الهذيان- من التحقق من شيئين على الأقل، أولهما أنها ذات طبيعة مفترسة وأن هذه الطبيعة قد تلتهمني كما فعلت معها، وثانيهما، أن الوتيرة المدوخة التي تتضاعف بها هذه الطبيعة تجعل هذا الصراع الذي بدأته متأخرًا، لعدم ملاحظتي في الوقت المناسب مدى تقدم الكارثة، في سباق مع عقارب الساعة. أنا وحدي في هذا الصراع. ليس لدي من يوجهني أو يراقب خطواتي داخل المتاهة أو من يشير علي بكيفية الخروج منها حينما تحين اللحظة، لهذا يجب أن أفكر جيدًا، ورغمًا عن الارتباك يجب أن أرتب تسلسل الأحداث بهدوء ودم بارد دون مبالغة أو دراما لأبحث عن تفسيرات موجزة وكلمات واضحة تسمح بالتفرقة بين الأمور الواضحة والأطياف، بين الأفعال والأحلام. يجب أن أعدل من نبرتي وأهدأ نفسي وأخفض من صوتي، وإلا سيضيع كلانا.

- ما الذي يحدث لك يا أجوستينا حبي أنا، قولي لي ما الذي تفعلينه في هذا الفندق؟ من الذي أذاك؟

سألتها لكن ما تمكنت من فك قيوده داخلها هو كل غضب وجلبة ذلك الزمن وذلك العالم اللذين تتحصن بهما وكلما زاد قلقي كلما تنامت فوعة السم داخلها. لا ترغب في إجابتي أو لا يمكنها فعل

هذا. ربما هي نفسها لا تعرف الجواب أو عاجزة عن تحديده وسط العاصفة التي تولدت داخلها. ولأن كل شيء حولي يتفكك إلى شك، يجب أن أبدأ بوصف الأمور التي أنا على يقين منها: أعرف أنني على الطريق رقم ١٣ في مدينتي، سانتا فيه دي بوجوتا، وأن التنقل في مرورها البطيء بات مستحيلاً بسبب المطر. أعرف أن اسمي أجيلار وإنني كنت أستاذًا للأدب حتى أغلقوا الجامعة بسبب أحداث شغب، ومنذ ذلك الحين ورويدًا رويدًا تحولت إلى لا شيء تقريبًا، إلى رجل يوزع أكياس طعام الكلاب على المنازل لكسب قوت يومه. ربما تلعب هذه المسألة لصالحي لأنه لا يوجد شيء مهم ليشغلني أكثر من إصراري على استعادة أجوستينا. أعرف أيضًا ـ أعرف الآن فمنذ أسبوعين لم أكن أعرف ـ أن أي تأخر من طرفي سيعد فعلاً إجراميًا.

حينما بدأ كل شيء ظننت أنه مجرد كابوس سنستيقظ منه في أي لحظة فهذا الأمر لا يمكن أن يحدث لنا. ظللت أكرر هذا على مسامعي وكنت داخل أعماقي أؤمن به. كنت أرغب في اقناع ذاتي بأن أزمة زوجتي ستستمر لمجرد ساعات وأنها ستزول حينما ينتهي آثر المخدرات أو الأحماض أو الكحول أو أيًا كان ما تعاطته وأخرجها عن طورها بهذه الصورة، فهو شيء خارجي على أي حال، له تأثيره المدمر لكنه عابر، أو ربما حادث وحشي لا يمكنها الإفصاح عنه لكنها رويدًا رويدًا ستجمع شتات نفسها منه، أو هو أحد تلك الأحداث المربكة التي تتسارع في هذه المدينة حيث يحارب الكل بعضهم البعض، قصص عن أناس تُباع لهم عقارات مغشوشة في الحانات، وعن آخرين تطلق النار على رؤوسهم

لسرقتهم، وغيرهم ممن يُدفعون لتعاطي ال"بوروندانجا"[٢] لإجبارهم على التصرف ضد رغبتهم. سلّمت في البداية بأن شيء مثل هذا قد حدث، بل ولا زلت بالفعل لا أستبعد هذه الاحتمالية، لهذا كان اندفاعي الأول هو اصطحابها لأقرب وحدة طوارئ بمستشفى (كلينيكا كانتري)، حيث وجدها أطباء الوردية هائجة وتهذي، وفقًا للمصطلحات الدقيقة التي استخدموها، لكن دون أثر لمواد غريبة في دمها.

إذا كان يصعب بشدة تصديق أنهم حقا لم يجدوا أثرًا لأي مواد غريبة في دمها، إذا كنت أرفض بشدة قبول هذا التشخيص، فهذا لأنه سيفرض احتمالية أن الشيء الوحيد الموجود هنا هو الروح العارية لزوجتي، وأن الجنون يخرج مباشرة منها، دون أي مساعدة خارجية أو أي محفزات. مسألة الروح العارية قالتها بنفسها في نفس المساء الذي اندلع فيه هذا الجحيم، ففي خلال لحظة ولمرة وحيدة اكتسبت تعبيراتها طابعًا إنسانيًا وتوسلت طلبًا لمساعدتي، أو على الأقل حاولت إنشاء اتصال، وكان هذا حينما قالت لي:

ـ انظر يا أجيلار، انظر إلى روحي العارية.

أتذكر هذه الكلمات بوضوح حاد، بنفس الطريقة التي يتذكر بها الجرح السكين الذي رسمه.

* * *

(٢) عقار علاجي من ضمن أعراضه الهلوسة والهذيان.

وسط الجلبة والسكرة، صرخ لاعبو البولو في "العنكبوت" الذي كان لا يزال ممددًا على الأرض:

ـ انهض يا "عنكبوت"، لا تكن شاذًا، لا تكن مفسدًا للحفلات، لا تفسد السهرة!

لكن العنكبوت كان لا يزال هناك في الأسفل بين الظلمة والوحل يتحشرج مفوضًا أمره للرب، عاجزًا عن الحركة لأن عموده الفقري كما عُرف لاحقا، كان قد انكسر للتو على سن الصخرة. بعدها بعدة أيام، حينما أدرك أنه لا يزال حيًا سافر إلى هيوستن تكساس على متن طائرة خاصة، نحو واحدة من تلك المستشفيات الضخمة التي في حينه سبق وأخذوا والدك إليها يا أجوستينا، لأن كل الأثرياء الذين يمرضون في شبه الدولة هذه يفضلون الحج إلى هيوستون تكساس، مقتنعين بأن العلاج بالإنجليزية سيبث فيهم الحياة من جديد، بأن المعجزة الصغيرة ستنجح إذا سُدد ثمنها بالدولارات، كأن هذه الرحلة أشبه بالحج إلى مزار فاطمة أو لورد أو الأراضي المقدسة، كأنهم لا يعرفون بشكل مسبق أن تلك الأكباد المتشمعة لا يمكن أن يعالجها حتى إله التكنولوجيا الأمريكي نفسه. وحتى لو نزعوا منهم نصف ثروتهم في فحوصات رسم القلب وفحوصات أصوات القلب واختبارات الجهد، وحتى لو رصعوا نواة روحهم بدعامة، فإنهم عامة سينتهي بهم المطاف بنفس الطريقة التي ينتهي بها الأمر هنا، تحت الأرض يسفون التراب، لتنظري فقط يا جميلتي إلى ما حدث مع السيد والدك، الذي سافر إلى هيوستن تكساس فقط لكي يعود بعدها بوقت قليل بعدما أصبح جثة على متن طائرة

لـ(أفيانكا)، تمامًا في الوقت المناسب لدفنه في مقبرة سانتا فيه دي بوجوتا الرئيسية، لكن دعينا نعود لموضوع "العنكبوت"، فهذا هو ما يهمك، فهذا كما يجب أن تفهمي، أيتها الدمية الشجاعة، هو ما عبث برأسك وأفسد نصيبي. صدقيني حينما أخبرك أن مرضك يؤلمني، أنت تعرفين أفضل من أي شخص آخر إنه إذا كان هناك أي ضرر قد ألحقته بك في هذه الحياة فهو دون قصد، أقولها لك وأنا نفسي أندهش من سماع نفسي أتلو هذه العبارات المؤثرة.

ما حدث مع "العنكبوت" هو أن الأطباء بعد أربع جراحات كبرى ومبالغ كثيرة استثمرت في تعافيه، تمكنوا من إنقاذ حياته، لكن ليس كرامته، لأنه أصبح مشلولاً، عاجزًا وتعيسًا، مزروعًا على كرسيه المتحرك كنبتة في أصيص، بل ومصابًا بسلس البول كما أشك، حتى ولو كان "العنكبوت" يقسم بأن هذا غير صحيح، وبأن العجز عن ممارسة الجنس والسير يعد إذلالاً كافيًا، وأنه حينما يأتي اليوم الذي يغرق نفسه في القذارة، فإنه سيطلق رصاصة على رأسه دون أدنى تفكير. حينما يهدهد نفسه بتعاطفه الذاتي، يقول "العنكبوت" إن "بيريخيل" الداعر كان نصيبه أفضل منه وغالبًا يطارد الآن أفراسًا في مروج الفردوس، بمعنى آخر يا دميتي الجميلة، ما حدث كان سلسلة من الكوارث وأول حلقة انكسرت كان "العنكبوت"، انكسر نفسيًّا، حتى ولو أن ثروته الضخمة ظلت دون مساس، هذا هو ما أرغب في قوله لك. المصائب تحدث لأنها تحدث وما انكسر قد انكسر، وفي هذه اللعبة ثلاثية الأطراف، انكسر "العنكبوت"، وانكسرت أنت، وانكسرت أنا،

ودعينا لا نتحدث عن الممثلين الثانويين. حدث الموضوع في أحد أيام الخميس، خميس الهلاك هذا، حينما كنا نحن الخمسة نتعشي في مطعم (ليسبالاند): "العنكبوت سالاثار" وخورخى لويس أيربي وأخوك خواكو والأمريكي روني سيلفر وأنا ميداس مكاليستر. كانت تفوح منهم هم الأربعة رائحة عطور (هيرميس) ويرتدون من (أرماني)، كلهم بروابط عنق (فيراجامو) قادمة مباشرة من (فيا كوندوتي) وعليها رسوم صغيرة تتعلق بالفروسية. كرافات العنكبوت محلاة برسوم لركاب السرج، وكرافات شقيقك برسوم لسياط الهمز القصيرة، وكرافات خورخي لويس بسروج صغيرة، وتلك التي تخص سيلفر برسوم دقيقة لليونيكورن أو شيء مثله، كأن الأربعة قد اتفقوا بشكل مسبق على هذه الحماقة، وصلوا جميعًا إلى (ليسبالاند) وهم يرتدون ملابس الناس المحترمة، كلهم باستثنائي، فأنا خرجت من الحمام التركي مباشرة على المطعم أشع بخارًا ولمعانًا برونزيًا، في كامل صحتي من قمة رأسي حتى طرف حذائي ال(نايكي) الذي ارتديته دون جورب تحته. كنت أيضًا بلا قميص أسفل سترتي من ماركة (رالف لورن) المصنوعة من الصوف الخام. أنت تعرفين كيف هي عادتي في ارتداء الملابس، يا أجوستينا الصغيرة، فلماذا سأقص عليك الأمر؟ أرتدي هكذا لكي لا ينسوا أبدًا أنه فيما يتعلق بمسألة الشباب فأنا من أتفوق عليهم، لأن أي منهم قد يكون والدي وأي من زوجاتهم اللاتي تخطين الخمسين بحقائبهن المصنوعة من جلد التمساح وأساورهن الذهبية وفساتينهن المفصلة عند الخياط بألوان الحلوى قد تكون والدتي، أما مَن يخصن ميداس فهن

فتيات بالجملة، "توب موديلز"، نجمات صغيرات في عالم التلفاز، طالبات في كلية الهندسة، مدربات للتزلج على الماء، جميلات نحيفات لهن شعر منسدل وهستيريات بعض الشيء مثلك يا أجوستينا.

في الحقيقة، أعترف لك، إنه إذا كان عليّ اختيار واحدة فقط لنقل من أجل بناء بيت، كانت لتصبح أنتِ يا ملكتي غير المتوجة، بصورة كبيرة كانت لتصبح أنت، فأنت الأكثر رفضًا للترويض بينهن، صاحبة أطعم جسد، من تتمتع بجنون يوازي لطفها، لكن عن أي قصص بناء بيوت نتحدث؟ ليبني الأب نيكولو، الذي يسعى وراء التطويب، بيوتًا لليتامى والمسنين، أما ميداس مكاليستر فلا بيت سيبنيه في معيشته داخل هذه الحياة. "حياتي مبهرجة" كما تقول الأغنية، أعيش وأنا في قمة الرضا بما يهديني القدر، فتاة ساخنة جديدة لكل ليلة باردة تمر، إذا كانت لديّ مشكلة فهي نقص الشهية، فمن كثرة الحلوى أشعر أحيانًا بالضجر. وفي مسألة النقود أتفوق أيضًا على أخيك الألمعي خواكو والمرحوم والدك كارلوس بيثينتي والكثير من حيتان بوجوتا القدامى، فهم يعرفون أنني حين أدعوهم، سأقدم لهم الكافيار، لكن في طبق عميق مع ملعقة حساء وبأعلى صوت سأقول لهم: كلوا يا أبناء العاهرة، هنيئًا لكم، املأوا أمعائكم بالكافيار الروسي، والذي في منازلكم شديدة الفخامة، لا يأتي إلا في صورة خمس بيضات على قطع صغيرة من التوست في حجم عملة.

* * *

تحدث أجوستينا الصغيرة الطفل الذي تحتضنه:

ـ لا تخف يا "بيتشيتو"، يا حبي أنا، فهذا الطقس في النهاية لحمايتك وعلاجك.

يسألها الطفل بعدما انتصف تعافيه من الذعر:

ـ مثل أخيل يا تينا؟

ـ نعم يا "بيتشي بيتشيتو" مثلما حدث مع أخيل الغاضب.

لكنه يقاطعها لمعارضتها:

ـ يعجبني أكثر حينما نقول أخيل المغطى بشعر بلون الزعفران.

ـ حسنًا، مثلما حدث مع أخيل الغاضب المغطى بشعر بلون الزعفران حين قاموا بتحميته في مياه نهر ستيكس لجعله لا يقهر.

ـ أحب أكثر حينما نقول مياه نهر الجحيم.

ـ هو نفس الشيء يا "بيتشيتو"، هو نفس المعنى، أهم شيء هو عدم نسيان أنهم بسبب إمساكهم له من كاحله، بات يمكن النيل منه في هذه النقطة وإصابته.

ـ لا يا تينا، لا يمكنهم لأنه بعدها حينما يصبح كبيرًا، سيعود أخيل الغاضب إلى نهر الجحيم، ليغمس قدمه الضعيفة وهكذا يصبح جسده محصنًا بالكامل.

المشكلة أن الأب يمنح "بيتشي" دائمًا أوقاتًا صعبة ويصر على انتقاده لأنه الأصغر، على النقيض من خواكو. خواكو هو شقيقي

الآخر. أكبرنا نحن الثلاثة، وأبي لا يضربه ولا يعارض ما يفعله، حتى حينما يتصلون بالمنزل من مدرسه (الليسيه) للبنين للشكوى منه لأنه أضرم حريقًا في غرفة المعدات أو نفذ أنواعًا من الشرور مع كلب الحارس، وعندما يصل النبأ لوالدي يصحبه لغرفة المكتب ويعنفه لكن دون رغبة حقيقية، بل برغبة معاكسة، تجعله يرى أنه داخل أعماقه يُحب أن يكون ابنه الأكبر غير منضبط، أن يمتلك شهرة كونه لاعبًا لكرة القدم، لكنه في نفس الوقت يتحصل على درجات جيدة.

- طالما كنت أحد أفضل تلاميذ صفك سيجب عليهم من حين لآخر أن يتحملوك حينما تفعل أفعالك.

هذا هو ما يقوله كارلوس بيثينتي لوندونيو لابنه الأكبر خواكين لوندونيو، الذي لا يحمل للأسف نفس اسمه لكنه متشبع بروحه بينما ينظر إليه في ثقة. من بيننا نحن الثلاثة خواكو هو الوحيد الذي لا يعاني من أي فزع، لأنه يعلم أن هاتين العينين الصفرواتين اللتين يمتلكهما والدي وهذين الحاجبين الكثين اللذين يلتقيان عند منتصف هذا الأنف الكبيرة، وأن هذه الطريقة العجيبة التي تتمدد بها سبابته لتصبح أطول من إصبعه الوسطى، وأن كل ملامح والدي هذه مساوية ومطابقة لملامحه، لهذا يبتسم الأب والإبن دون أن يظهر ذلك عليهما، حتى أمام نائب رئيس مدرسة (الليسيه) للبنين الذي استدعاهما لإبلاغهما بأن خواكو سيخضع لمراقبة مشروطة، لأنه يشرب البيرة في فترات الفسحة، لكن خواكو وأبي يبتسمان لأنهما يعرفان أنهما متطابقين من الداخل، فجيل تلو الآخر، يدرس في نفس مدرسة البنين ويسكر في نفس

الحفلات، بل وربما أيضا يبدأ في إضرام الحرائق في نفس المكان أو يفرض المعاناة على نفس الكلب العجوز، كلب الحراسة هذا الذي لم يمت بعد ولن يموت لأن نصيبه هو البقاء هناك حتى يولد ابن خواكو وحفيد أبي ويكبر بصورة كافية لإطالة أمد العذاب الطويل لهذا الكلب البائس.

- انظر يا "بيتشي" يا طفلي الطعم الشاحب، لا يمكننا إلقاء الذنب على أبي لتفضيله لخواكو، ففي النهاية أنا وأنت نقيم شعائر لا يجب أن نفعلها. أتفهم ما أقوله لك؟ نرتكب خطايا وما يريده أبي هو تقويمنا، فهذه هي وظيفة الآباء.

كان أبي يرغب في أن يُدعى ابنه البكر مثله، كارلوس بيثينتي لوندونيو، فكما تقول أمي كانت هذه هي رغبته الكبرى، لكنه في ظل انشغاله بشؤونه، لم يصل في الوقت المناسب لحفل التعميد، أو على الأقل هذا هو ما تتهمه به أمي، ولا ينقصها أي حق في شكواها، فأبي لم يكن أبدًا ممن يصلون في موعدهم حينما يكون أحد في انتظاره، لهذا استغل العرابون غيابه لتسمية الابن، ليس بنفس اسم أبي، بل باسم والد مريم العذراء، بمعنى آخر خواكين، ربما اعتقادًا بأن الطفل بهذه الطريقة سيسير محميًا في وادي الدموع هذا. أكدت العرابة أنه في قائمة القديسين، لا يظهر اسم أي كارلوس بيثينتي لأن هذا الاسم ليس مسيحيًا، أم أن أحدهم سمع مؤخرًا عن القديس القس كارلوس بيثينتي؟ أو القديس الشهيد كارلو بيثينتي؟ وهكذا اقتنع الجميع بتسميته خواكين ومنذ هذه اللحظة بدأت قصة إحباط أبي الكبيرة.

لكي تجعله يسامحها، أكدت له إوخينيا، أمي، أن الابن الثاني سيكون اسمه كارلوس بيثينتي، لكن كنت أنا من ولدت ولكوني فتاة أسموني أجوستينا، وطال انتظار ولادة المختار الذي سيحمل "الاسم"، حتى جاء الدور على ولادة "بيتشي" وبالتوافق ودون نقاشات أسموه "كارلوس بيثينتي لوندونيو"، كما كان مكتوبًا ومخططًا بسبب هوس أبي، لكن الحياة متقلبة لدرجة أنه لم يرغب أبدًا في مناداته بهذا الاسم، ولهذا كان علينا ابتكار لقب أخر له، ك"بيتشي" ك"بيتشيتو"، ك"تشارلي بيتشي"، ك"تشارلي"، كلها نصف أسماء مثل الحيوانات الأليفة.

- ما هو ذنبك يا "بيتشي بيتشيتو" في أنك لا تبدو مثل والدي؟ في كونك مطابق لأمي ولي. هي وأنت وأنا ببشرتنا المائلة للشحوب الشديد المذهل.

كبرت أمي فخورة بكونها آرية لكنها ذهبت للزواج ممن يزدريها بصورة ما لكونها بلا لون وفقيرة.

- يا شاحبون!

هكذا كان يدعونا أبي حينما يرانا بحلة العوم في حمام سباحة مزرعة (جاي ريبوس) في ساسايما.

- وقبل أن تسألني مجددًا يا "بيتشي" ما الذي يعنيه (جاي ريبوس)، سأقول لك مرة أخرى إنها تعني الراحة السعيدة بواحدة من اللغات التي كان يستطيع الجد بورتولينوس تحدثها، فهو كان أول من وصل

إلى ساسايما واشترى هذه المزرعة وأسماها، شرحت لك هذا الأمر ألف مرة، والآن ألف ومرة، لكن المسألة لا تصل إليك، يا لك من مشكلة يا "بيتشي بيتشيتو" أعتقد أحيانًا أن والدي محق حينما يقول إنك طفل يعيش في السحاب ولايستطيع أحد إنزالك من هناك.

* * *

لم تسامحها أبدًا على حياتها معي. حماتي إوخينيا لا تعرفني وغالبًا لن تعرفني أبدًا. قبل الهذيان، قبل أن تهجر أجوستينا أرض الواقع على الأقل بهذه الصورة المنهجية، لم أشغل بالي بسؤالها عن ماضيها، عائلتها أو ذكرياتها سواء كانت جيدة أم سيئة، من ناحية لأن وظيفتي كمدرس كانت تبقيني مختنقًا في دوامة العمل، ومن جانب أخر- لقول الحقيقية- لأن الأمر لم يكن يهمني كثيرًا. كنت أشعر بكوني متحدًا مع أجوستينا التي كانت تعيش معي هنا والآن وليس تلك التي تنتمي لأزمنة أخرى وأناس آخرين، واليوم حينما أصبح لا مفر من إعادة بناء لغز ذاكرتها، أبكي على الأسئلة التي لم أوجهها. أفتقد قصصها التي لا تنتهي والتي وجدت من طرفي آذان صماء، قصص عن شجارات مع والديها أو غراميات قديمة. أندم واحمل نفسي ذنب كل ما لم أرغب في رؤيته، حينما حاولت إظهاره لي، لكني فضلت مواصلة القراءة، لأنه لم يكن لدي وقت، لم أمنحها أهمية، أو بسبب الوخم الذي كانت يصيبني مع سماع القصص البعيدة، أو بالأصح قصص عائلتها التي كانت تصيبني بملل فائق. هؤلاء الناس الذين رفضوا التعامل معي، لأنني بديت لهم

كادحًا، أجوستينا نفسها اعترفت لي ذات مرة أنهم يستخدمون هذه الكلمة للحديث عني، الكادح، أو شخص من الطبقة المتوسطة لا يمتلك شيئًا ليقدمه، أستاذ درجة ثالثة، وكل هذا وهم لا يعلمون بعد أنني بت بلا عمل منذ فترة. أخبرتني أجوستينا أيضًا بأنهم عددوا معوقات أخرى، مثل أنني لم أتطلق من زوجتي الأولى، أو أنني لا أتحدث لغات أجنبية، وأنني شيوعي لا يكسب ما يكفي وأن طريقة هندامي تبدو كأن أعدائي هم المسؤولون عن اختيار ملابسي. يعرف الجميع أن هناك جدارًا من الازدراء بين هؤلاء القوم وقومي، لكن الأمر العجيب، بل الأمر المحير حقًا أن الطبقة التي تنتمي لها أجوستينا لا تُقصي فقط الطبقات الأخرى، بل أنها أيضًا تتطهر من داخلها، تتخلص من جزء معين في مكوناتها الذاتية، أو من هؤلاء الذين لأسباب خفية، يبدو أنهم لا يلتزمون بالمتطلبات المرجوة، مثل أجوستينا ومثل الخالة صوفي. أسأل نفسي إذا كانت إدانتهما قد حددت في لحظة ولادتهما، أم أنها كانت نتاجًا لتصرفاتهما، إذا كانت الخطيئة الأصلية، أم أنها واحدة أخرى قد ارتكبت في الطريق وبات معناها طردهما من الفردوس وحرمانهما من كل مزاياه. أجوستينا من بين كل أخطائها ارتكبت خطيئة كبرى وهي الارتباط بي، لأن النقطة الأولى في اللائحة التي تسري بين بني قومها هي عدم السير كتفًا بكتف مع أبناء الطبقة الدنيا والأهم بالتأكيد عدم تشارك الفراش معهم، ورغمًا عن أن أجوستينا كانت بكل تأكيد في حكم الميتة حينما اختارت صحبتي، لكن من يعلم أي جرائم كانت قد ارتكبتها قبل ذلك. لا أرغب في الحديث

مجددًا عن حماتي لأن الموضوع يثير ضيقي، لكن لرسم ملامح الشخصية سأشجع نفسي على حكاية أنه بسبب أزمة أجوستينا تلقيت أكثر المكالمات سخافة. تتصل حماتي نادرًا بالمنزل وتغلق الخط إذا كنت أنا المجيب، لكن في ذلك اليوم تحلت بالكرامة لتتحدث معي لأول مرة في السنوات الثلاثة التي قضيتها مع ابنتها، وفقط لأن أجوستينا ثارت كثيرًا حينما علمت أنها أمها ورفضت أن أمرر لها السماعة.

ـ لا أرغب في الحديث معها لأن صوتها يصيبني بالمرض.

ظلت تكررها وتكررها حتى دخلت في واحدة من حالات الهلع القصوى، وهكذا لم تجد إوخينيا بدًا من التحدث معي، لكن دون مخاطبتي باسمي، تلاعبت باللغة بشكل بهلواني لتتجنب الإشارة للصلة التي تربطني بأجوستينا، واستخدمت نبرة غير شخصية كأني عامل تليفونات أو ممرض، بمعنى آخر كأني بلا وجود، كأنها تترك رسالة للمجيب الآلي. هكذا كانت الطريقة التي أعلنت بها أنها ستتولى شأن أجوستينا بداية من هذه اللحظة. قالت لي:

ـ انظر يا أستاذ. ما تحتاجه ابنتي هي الراحة.

أو ربما أنها لم تقل هذه العبارة لي، بل لذلك العدم الموجود على الطرف الآخر من الخط.

ـ أخبرك بأنني سأصطحب أجوستينا اليوم إلى (سبا) في فيرجينيا.

صرخت فيها:

ـ عن أي (سبا) في فيرجينيا تتحدثين سيدتي؟ عن أي شيء تتحدثين؟

ولأن أجوستينا كانت بجانبي تزعق بأن صوت والدتها يصيبها بالإعياء، واجهت صعوبة في سماع حماتي، التي كانت تعدد العلاجات الاستشفائية التي ستتلقاها في واحد من أفضل الأندية الصحية في العالم:

ـ حمامات حرارية وعلاج بالزهور، وتدليك بالطحالب.

حتى أوقفتها فجأة:

ـ أنصتي سيدتي، المشكلة جادة وليست هينة، أجوستينا في حالة سيئة، هي في حالة هياج لا يمكن السيطرة عليها، وأنت تأتين لي بمسألة اصطحابها لجلسات تأمل بطريقة (زن) الصينية.

ـ ومن أنت يا أستاذ لتخبرني بما هو الأنسب لابنتي، فلتتحل على الأقل بالكياسة واسألها إذا كانت ترغب أو لا ترغب.

ـ يا أجوستينا تسأل والدتك إن كنت ترغبين في الذهاب معها لحمامات مياه ساخنة في فيرجينيا، اسمعيها الآن، سيدتي.

قالت أجوستينا إن الشيء الوحيد الذي ترغب فيه هو إغلاق الهاتف، لكن لا يبدو أن إوخينيا قد سمعت أو أنها لا ترغب في السماع، لتخبرني بأنه أيًا كانت المسألة فإن القرار قد اتُخذ بالفعل وبأن ابنتها يجب أن تنتظرها بالأسفل، عند بوابة البناية، مع جواز سفرها في يدها وحقيبة سفر مُجهزة، لأنها ستمر لاصطحابها بعد ساعتين للسفر:

ـ لأنه لا يجب عليّ ركن سيارتي في هذا الحي شديد الخطورة، قل لابنتي من فضلك ألا تجعلني انتظر.

ـ لكن لا يا سيدتي! أجوستينا لن تخرج من هذا المنزل تحت أي ظرف، ولهذا إن كان الأمر جيدًا، فعليك أنتِ بالذهاب لتلقي العلاج بالطحالب في فيرجينيا.

قلت لها هذا وندمت بعدها، ربما كان من الأفضل أن أبدي رفضًا قاطعًا، لكن بأدب، تركتها ترى أسوأ جانب فيّ. فكرت أن هذه المرأة تعتقد أنني ريفي ساذج وانتهى الأمر بإثبات أنها على حق. وفي ظل استيائي من خطئي، فقدت للحظة خط الحادثة وحينما التقطته مجددًا كانت إوخينيا تقول:

ـ أنت لا تعرف ما جعلتني هذه الفتاة أعانيه، لم تضعني دائمًا وبصورة كبيرة في قائمة اعتباراتها.

لم أتمكن من تصديق ما أسمعه، فالأمور انقلبت الآن إلى أن إوخينيا كانت الضحية وأنها في الحقيقة لم تكن تتصل لتعرض مساعدتها بل لتقديم مذكرة شكاوى، و على الرغم من أن هذه كانت المرة الأولى التي نتبادل فيها أنا ووالدة أجوستينا الكلام، انتهت الأمور بتشاجرنا عبر الهاتف بوقاحة خصمين قديمين، وما بدأ بكونه تبادل موجز وجاف للكلمات مع التمعن في كل واحدة منها لعدم تجاوز الحدود غير الشخصية، انتهى بكونه مشهد من مسلسل، تبادل متهور لعبارات سيئة الصياغة، وأسوأ من حيث الأفكار بل وممتلئة بالتأنيب المتبادل، لأن الأمر نجم عن رفقة كريهة، أو أن هذا على الأقل هو ما شعرت به، كأن غريبًا ما قد خطا فوق قدم آخر دون قصد في الشارع ليعلق الاثنان

كل مشاغلهما ويكرسان المساء لكي يتبادل كل منهما البصق على وجه الآخر. صرخت فيها:

- ما تقولينه لا يعني شفاء ابنتك، سيدتي، بل فصلها عني.

وهي كانت تصرخ:

- أنت انتزعت مني ابنتي، يا أستاذ!

كانت تقولها بنبرة مبتذلة عن قصد يجب أن تندم عليها حتى الآن، لأن الخروج عن النص أمر مُسلم به من قبل برجوازي صغير مثلي، لكنه لا يمكن غفرانه لسيدة عظيمة مثلها، وفوق كل هذا تمسكت بمخاطبتها بـ"سيدتي"، بينما لم تتخل هي عن "يا أستاذ". كانت أعصابي تتطاير من حولي وأظن أن هذا كان حالها أيضًا، لأن صوتها كان يبدو متهدجًا، حتى كررت رفضي أربع أو خمس مرات متتالية:

- لا! لا! لا! لا يا سيدتي! أجوستينا لن تخرج من هنا.

وحينها أغلقت إوخينيا الهاتف في وجهي دون وداع حتى يومنا هذا.

* * *

لكونه عازفًا، نظم الجد بورتولينوس اقتصاده عبر إعطاء فصول لتعليم البيانو لبنات العائلات المقتدرة في قرية ساسايما، وكان من ضمنهن بلانكا مندوثا، فتاة صغيرة الجسد ظهر جليًا من الدرس الأول، أنها لم تكن واعدة كعازفة بيانو لسمعها الضعيف ويديها

الغليظتين، وبالفعل لم يتمكن بورتولينوس حتى من تعليمها درجات السلم الموسيقي، لكن عوضًا عن هذا انتهى الأمر بزواجه منها، رغمًا عن كونه أكبر منها بمقام الضعف. وإذا كان قد فعل هذا فجزء منه كان بدافع الحب والآخر بموجب الالتزام، لأنه تركها حُبلى بعد فعل طائش وأهوج حدث في الخفاء دون علم والديها وغالبًا ضد رغبتها، وهذه بداية فأل سيء وبائس لأي زيجة، لكن على المدى الطويل، ما كان له ثقله أكثر من الفأل السيئ هو تعامل الرجل مع قدره، لتُظْهِرَ عشرون سنة طويلة من الوفاء الزوجي الذي لا ينكسر أنه إذا كان الجد بورتولينوس قد تزوج من تلك الفتاة وهي الجدة بلانكا، فإنه قد فعلها بدافع الحب أكثر من الالتزام.

بخلاف تحصله على المال مقابل دروس البيانو، فإن بورتولينوس كان يُلحن على حسب الطلب قطع السرينادة الموسيقية والمهرجانات لحفلات الزفاف، وبعض الرقصات الإقليمية مثل "بامبوكوس" و"باسييوس"، والتي كما اعتادت أن تقول زوجته، بغض النظر عن ألمنتها، كانت تخرج منه متسلسلة ومتناسقة، لتصل لقلوب الناس، على الرغم من أن كلماتها كانت بها إشارات لسماوات الصيف الزرقاء وثلوج العام المنصرم وغابات الصنوبر ودرجات من أتربة الخريف وأنواع أخرى من الحنين التي لا يعرفها أحد في ساسايما الاستوائية، التي لم يكن يشك أحد فيها أن نيكولاس بورتولينوس رجل طيب، وعلى الرغم من أن بعض الغرائب في شخصيته كانت جلية، إلا أنه كان يجري تجاهلها بعد إرجاعها لوضعيته كرجل أجنبي، لكن الحقيقة أنه بين

الحين والآخر، وعلى هيئة فترات مطولة، كان الجد يعاني من تقلبات حادة بعض الشيء في معنوياته ليهجر الدروس طيلة شهور ويتوقف عن العزف والتلحين، ليزمجر أو يتلعثم فقط، مُعذبًا على ما يبدو من ضوضاء لا تأتي من هذا العالم، أو أن هذا على الأقل ما كان يشتكي منه لزوجته. بلانكا.

ـ جميلتي بلانكا، اسمك وحده يبدد ظلماتي.

اعتاد أن يقول لها هذا كلما أخرجته للحقل تهدئته. كان يركض ممسكًا يدها ليتعثر بعدها ثم يتدحرج كطفل سمين على مراعي الصيف المرتفعة والعطرة، وإن كان من المفهوم أن هذا ليس صيف ساسايما، لأن هناك لا يوجد سوى فصل واحد مستمر طوال أيام العام الـ٣٦٥، بل هذا هو ذلك الصيف الآخر البعيد، ذلك الصيف الذي يستمر في الذاكرة الموجوعة لشخص أجنبي.

* * *

كانت غرفة ذلك الفندق فخمة، أو تحاول أن تبدو فخمة. أتذكر أمتارًا وأمتارًا من قماش الستائر والمفارش وسجادة خوخية اللون كان يبدو من رائحتها أنها جديدة. في نهايتها كانت أجوستينا تجلس على الأرض كأنها منسية بين الحائط والكومود، مكان لن يخطر لأحد الجلوس به إلا إذا كان قد سقط أو يبحث عن حماية نفسه أو الاختباء في أحد الأركان. رأيتها شاحبة ونحيفة بشعر ذابل وملابس تالفة، كأنها لم تأكل أو تستحم منذ أيام، كأنها فجأة قد استحالت لركام ذاتها، كأن

الغم نفسه قد سقط علي رأسها. ورغمًا عن هذا كانت عيناها تبرقان. أتذكر هذا بوضوح: أنه في نهاية هذه الغرفة ومن ذلك الركن، ربما ذلك الكهف المرتجل؟ كانت عينا أجوستينا تبرقان، صحيح أنه وميض وخيم، لكنهما كانتا تبرقان، كأن الأنيميا التي تُنهكها لم تتمكن من كسر وهج نظرتها، بل على النقيض من هذا، ففي وسط انطفاء شخصيتها المفاجئ لاحظت في عينيها تحديًا كان يفزعها، شيئًا مشوشًا شديد التقلب، ما جعل عقلي يستحضر كلمة هذيان. كان هذيانًا ما قد استحوذ على أجوستينا ليغلي داخلها بتردد صعب ومناوئ، رغمًا عن أنه منذ أربعة أيام فقط حينما سافرت كنت قد تركتها تطلي جدران صالة شقتنا الصغيرة بالأخضر الطحلبي، وهو اللون الذي اختارته بنفسها بعد أن شرحت لي أن الـ(فينج شوي)(٣) يوصي به للأزواج مثلنا، ولأتجنب أن تأتيني بنظرية شرقية عويصة، حرصت على ألا أسألها كيف يبدو الأزواج مثلنا أو لماذا سيصب الأخضر الطحلبي في مصلحتنا. كان يجب أن أذهب في سيارتي يوم الأربعاء إلى ايباجيه لتسليم طلب من منتجات (بورينا) واستغللت أن التأمين الصحي يقدم لي خصومات في منتجع (مستعمرة بالميراس للعطلات)، التقليدي والمناسب للطبقة المتوسطة- كما قالت أجوستينا- لكنه يضم مسبحًا وكبائن ويقع في منخفض مهيب بين جبال أرض معتدلة الحرارة، وفي نهاية المطاف لماذا كنت لأرفض وأنا لا أقدر بأي صورة على دفع ما هو أفضل منه؟ كنت

---

(٣) فلسفة صينية نشأت منذ حوالي أربعة آلاف سنة وتتعلق بفن التناغم مع الفضاء المحيط وتدفقات الطاقة من خلال البيئة المحيطة.

أرغب في أن أقضي هناك بضعة أيام مع ابنيّ تونيو وكارلوس، ثمرة علاقتي بزوجتي الأولى مارتا الينا. كنت في حاجة للتواجد معهما دون ضغوط زمنية لأطلع على مستجدات حياتهما عبر محادثة طال تأخرها، لأعاير بنفسي حالتهم المعنوية ولأواصل رأب شروخ ألفتنا العائلية التي انكسرت بعد انفصالي عن أمهما. هذا أيضًا كان سبب عدم دعوة أجوستينا، رغمًا عن أنها كانت تُحسن معاملة الولدين وهما أيضًا يحسنان معاملتها، بل إنني أحيانًا لا يمكنني التوقف عن الشعور بأنه في مرات نشأت بين الثلاثة رابطة عمرية حاولت إقصائي من الصورة، بل لكي أقول الأمر كما أراه: رابطة بها شيء من المغناطيسية ولها طبيعتها الجسدية، حينما تشتعل عينا الولدين من جمال أجوستينا وهي من جانبها تتفحص باشتياق هذين الجسدين المراهقين المنحوتين بعناية كمن يتحسر على التراجع عن زيارة مكان لن يسمح له بدخوله. المسألة أنها حينما تكون موجودة فهناك شيء تنخفض درجة حرارته بيني أنا وابنيّ ويصبح حوارنا كارتونيًا دون أن نشعر، ولا يمكننا تفادي شعورنا بعض الشيء بأننا في زيارة مجاملة. حينما أبلغت أجوستينا بأنني سأسافر وحدي للنزهة، صنعت واحدة من ثورات الغضب المزلزلة التي ترج المنزل بأكمله والتي جعلتني أدعوها "دميتي المسعورة"، لأن أجوستينا هكذا: مسلية وظريفة، لكن تقودها شياطينها. رفضت بعدها أن توجه لي أي كلمة لعدة ساعات وفي النهاية بعد أن هدأت سألتني كيف من الممكن ألا أفهم أنها هي الأخرى قد تستفيد من بعض الراحة والشمس، وأنني طوال الأسبوع لا أخصص لها وقتًا كافيًا بسبب العمل

بينما أقضي أيام السبت مع تونيو وكارلوس، وانفطر قلبي لدى سماع تأنيب أجوستينا لأنها بشكل ما بالنسبة لي مثل ابنتي الكبرى التي أُبعدها عني لصالح الابنين الآخرين، وأيضا لأن الشمس والأراضي الساخنة تكسبها مزيدًا من القبول، فتهدئ روحها وتضفي لونًا ذهبيًا على بشرتها شديدة البياض وشديدة الجمال مع اللون الأزرق. وأيضًا انفطرت روحي لأنها كانت محقة فيما تقوله وكل ما تطلبه كان صحيحًا، وما هو أيضًا صحيح ولا مناص منه أنه لا يوجد شيء في العالم- حتى مودتي لها- كان ليمنعني من استغلال هذه الخصومات وهذه العطلة للسفر وحيدًا مع الولدين. حينما شاهدت ثباتي على قراري، لجأت أجوستينا لإخراج تلك الحيلة القديمة من جعبتها، والتي تغضبني كثيرًا، لأنها غير عقلانية بنفس صورة عدم قابليتها للهزيمة وترتكز على إخباري بأنها تستشعر أن شيئًا سيئًا سيقع، ووحده فقط من يمتلك حظًا مبهمًا بالعيش مع مُستبصر يمكنه معرفة الطغيان الذي تعنيه المسألة، لأنه لدى التنبه واستشعار الخطر، فإن دقات قلب المستبصر، تفرض شللاً على السفريات والغايات والنزوات، بطريقة لا تجعلك تتمكن أبدًا من التأكد إذا كان القدر المحتوم قد تحقق أم لا، بمعنى أخر أنه يتحقق حتى ولو لم يكتمل وتنتهي المسألة بفرض رغبة كاشف الغيب لنفسها على البقية. على سبيل المثال، تحذر أجوستينا:

- لا تذهب إلى ايباجيه مع الولدين لأن شيئًا ما سيحدث لكم على الطريق.

رغمًا عن أنها هذه المرة كانت تشير في الواقع إلى عائق مبهم، أكثر من كونه حادث معين، لكن فرضنا أنها ستقول، كما سبق وفعلت أكثر من مرة: "شيء ما سيحدث لكم على الطريق"، فإنها هكذا لديها فرصة كبيرة لتكون على حق، لأن الحياة نفسها محفوفة بالمخاطر ومستعدة للعب معنا بقذارة، بل وأيضًا في بلد مثل هذا تعبره من أعلى لأسفل سلسلة جبلية ضخمة وطرقه عامة في حالة سيئة وتتفتل وترتفع على حواف هاويات، وكأن كل هذا لم يكن كافيا، فإن السيطرة عليها تتبدل يومًا تلو الآخر بين العسكريين والجماعات شبه العسكرية والمتمردين، الذين قد يختطفونك أو يقتلونك أو يعتدون عليك بالقنابل أو الركل أو سيل من الرصاص أو بالمتفجرات أو بالألغام المضادة للأشخاص، أو عبر هجوم موسع بأنابيب الغاز.

ثاني ما تنجح أجوستينا في تحقيقه بتحذيراتها المشئومة، هو إلغائي لمخططات سفري التي لسبب ما أو لغيره لا تروق لها، وفوق كل هذا يجب أن أكون ممتنًا لها لأنه لا يمكنني تجنب الاشتباه سرًا أنه بفضلها أنقذت نفسي من مصيبة، أما ثالث نقطة في صالح أجوستينا، فهي أنني لو تجاهلت تحذيرها وعانيت بالفعل من حادث ما، حتى ولو كان لا قيمة له مثل سخونة زائدة في محرك السيارة أثناء صعود الجبل، فيمكنها أن تتغنى بقول عبارة "لقد حذرتك!"، بنبرة منتصرة تسعى لأن تكون متوارية، وهكذا أمام هذا الهاجس الجديد اضطررت للسيطرة على نفسي كي لا أنفجر وقلت لها ببساطة:

- لا يا أجوستينا، أؤكد لك أنه في هذه الرحلة لن تسوء الأمور.

وكم أخطأت، يا ربي! وكم أخطأت بطريقة كارثية هذه المرة!

* * *

هل لديك سجائر يا حلوتي؟ بكل تأكيد ليس معك، فأنت أصبحتِ لا تنجرين للرذيلة، على عكسي، فأنا الذي كنت شديد الصحة، أنا ملك الإندروفين وصاحب الرئتين اللتين لم تُستهلكا والمستعد دائما للتمرين، انتهي بي الأمر بتدخين حتى أصابعي نفسها منذ بدأت الأمور في التداعي. من لم يسبق له قول هذا؟ النيكوتين هو الشيء الوحيد الذي يساعد المرء على الطفو بالكاد فوق سطح المجزرة. في ذلك اليوم بمطعم (ليسبالاناد)، كان "العنكبوت" يتزعم المجلس من على رأس المائدة، من فوق كرسيه المتحرك، متصلبًا كعود خشب قديم، وخلفه على مائدة مجاورة جلس عبداه المفضلان باكو مالو وال"تشوبو"، لم ينتظرا في الخارج كما تنص أصول معشر الحراس الشخصية، بمعنى آخر لم ينتظرا وهما ينفثان البخار على زجاج سيارات المرسيدس، تلك التي طالما يتفاخر بها رجال مثل والدك ولا تُحرك حتى شعرة واحدة مني، لأنني ألوذ بالفرار من الآليات الثقيلة، أنا أطير حرًا وخفيفًا بكل سرعة على متن دراجتي (بي إم دابليو) التي تتفوق في تسارعها وسعرها على سيارات أصدقائي بمقدار الضعف. أنا أطير دائمًا بخفة، دون حراس شخصيين أو تصنّع، فقط تحت حماية ملاكي الحارس، تمامًا كما كنت تعرفينني منذ ١٥ عامًا يا دميتي، وسأواصل كوني هكذا نجمًا عبقريًا حتى يحين موعد دفني، والدفن هو بالفعل أفضل مسمى لحالة الموت وأنا

على قيد الحياة التي حُكم عليّ بها. كان باكو مالو وال"تشوبو" يتحصلان أجرتهما في ذلك بالجلوس كتفًا بكتف مع السادة في معارضة فجة للأصول بشكل جعل هؤلاء يشعرون بالاستياء، فقط لأن "العنكبوت" الذي كان مرعوبًا من عمليات الاختطاف امتلك الغطرسة الكافية لإجلاس جزاريه على الطاولة المجاورة وتركهما يطلبان نبيذًا فرنسيًا وأطباقًا بأسماء فرنسية. يا لها من وقاحة سخيفة متكاملة الأركان! يجلسان بمسدساتهما اللامعة المتدلية من أسفل الإبط، وبرابطتي عنقهما الحقيرتين وطقطقة أسنانهما أثناء المضغ، لو لم يكن "العنكبوت" ثريًّا بشكل داعر، لم يكن الفرنسي الأخرق كورتوا، مالك (ليسبالاناد) ليسمح بهذه السفاهة اللزجة.

على رأس المائدة كان "العنكبوت" يجلس في عرض أول لشلله بداية من منطقة الوسط وما يقع تحتها، وعلى يمينه شقيقك خواكو، الذي كان قد تحصل على مبلغ محترم من عمله كوسيط في خصخصة شركة (تيليفونيكا)، وأنا على يساره وفي الكرسيين الآخرين خورخي لويس أيربي الذي كانت الصحافة تلاحقه بسبب مجزرة الهنود في مقاطعة كاوكا التي تأتي منها عائلته صاحبة الأصول الممتدة والمعروفة برعايتها الشديدة للجماعات شبه العسكرية، فمنذ عدة شهور كانت عائلة آيربي قد أرسلت قواتها الخاصة من ال"باراكوس"[٤] لإفزاع بعض الهنود الذين وضعوا أيديهم على عدة أراضي أميرية يقول خورخي لويس إن ملكيتها الشرعية تعود لعائلته منذ حقبة نواب الملك. هذا ليس شيئًا

(٤) لفظ شائع في كولومبيا للإشارة للمتمين للجماعات شبه العسكرية.

خارجًا عن المألوف، أعني اللجوء إلى المرتزقة أمر دارج لمجابهة حالات وضع اليد على الأراضي، لكن ما حدث هذه المرة هو أن الـ"باراكوس" أفرطوا في استخدام القوة وبدأوا في إضرام النيران في بيوت الهنود وهم داخلها، وبالتبعية وجد خورخي لويس أسرابًا متجاسرة من المدافعين عن حقوق الإنسان وحفل عربدة من المنظمات غير الحكومية يسقط فوق رأسه.

الرجل المتبقي كما جرت العادة كان رونالد سيلفرستين، هذا الأمريكي الذي ندعوه روني سيلفر ويظهر في العلن كمدير لأحد توكيلات (شيفروليه) وفي الخفاء هو عميل لوكالة مكافحة المخدرات الأمريكية، هذا سر معلن ومدعرة كبرى، خاصة وأن "العنكبوت" لكونه فاحش الثراء ينجو من أي شيء بل ودائمًا ما أطلق في وجهه نفس المزحة السخيفة؛ وهي أن روني سيلفر رجل طيب وعميل طيب أيضًا. أنا نفسي اعتدت السماح لنفسي بحرية مناداته في وجهه بالعميل (٠٠٧)، وإذا كان الأمريكي المبتسم، روني سيلفر هذا، يتحمل وقاحاتي فهذا لأنه عن طريقي كانت تصل له خلاصة الأمور، فعملاء المكافحة الأمريكية أعفن من أي شيء، وليس سيلفر وحده الذي كان يقف ككلب على قاماته الأربع أمامي، بل جميعهم. هؤلاء الأبطال الكبار في الازدواج الأخلاقي، وأيضًا والدك وشقيقك، صدقي ما أقوله لك، لأنهم إذا كانوا أغنياء قبل ذلك، فكان الأمر بالبيزو، أما بفضلي فضاعفوا مكاسبهم وأصبحوا أثرياء بالدولارات، إذا كانوا قد أسموني "ميداس" فهذا لأن كل ما ألمسه يتحول لذهب، أو أن هذا على الأقل

كان أسلوبي السابق، لأن كل ما ألمسه الآن يتحول إلى خراء، بما فيه أنت يا أجوستينا، يا للحظ العثر! صدقيني حينما أخبرك بأني آسف.

* * *

في (جاي ريبوس) كان علينا نحن الثلاثة، أنا وأمي و"بيتشي" أن ندهن أجسامنا بواقي الشمس، ورغمًا عن هذا في أيام المصيف الأولى كانت بشرتنا تتحول للون الروبيان، بينما كان أبي وخواكو، بسمارهما الطبيعي، يحصلان على لونًا ذهبيًا ليقولا لنا:

ـاحذروا من الشمس فهي لا تحترمكم.

وحدي أنا أعرف يا "بيتشي"، كم كنت ترغب في أن تكون سبابتك أطول من وسطاك، وأن تحترمك الشمس، وحدي أنا أعرف مقدار لوعتك ورغبتك في هذا الأمر، لكن هذا لم يحدث يا "بيتشي بيتشيتو"، عليك أن تعترف بهذا وتفهم أنه حينما يؤنبك أبي على المسألة، فإنه يكون على حق. لن تخدمك خصلات شعرك السوداء ولا بشرتك الفاتحة للغاية ولا عيناك شديدتا الاتساع والسواد كالرب في هيئة طفل بأي شيء، لأنك كنت لتفضل ألف مرة أن تصبح غليظًا وقبيحًا بعض الشيء مثلهما، مثل خواكو وأبي. كانوا يدعونك "وجه الملاك" من شدة جمالك، الخالة صوفي كانت تدعوك "دميتي"، لكن الأمر لم يرق لأبي، بل على العكس كان يعكر مزاجه.

تقول أجوستينا للطفل:

ـ لنغلق الستائر "بيتشي بيتشيتو" ليظل معبدنا في الخفاء.

فيرد:

ـ يعجبني أكثر حينما تقولين في العتمة.

ـ حسنا يا بيتشي ليظل في العتمة، ولنفعل كل شيء في السر لأن البقية لا يجب أن يعلموا.

في كل مرة يضرب الأب فيها الأخ الأصغر، يُقام الطقس ليلاً في غرفة مظلمة، أجوستينا هي الكاهنة وأنت هو المترهبن يا "بيتشي بيتشيتو"، الضحية المقدسة، أنت كبش الفداء، أنت حمل الرب، بإليتك التي لا تزال حمراء من الصفعات التي ضربك بها أبي، لأنك أنت الكبش. تنزل سروالك الداخلي لتريني الضرر وبعدها تنزع كل شيء وأنا أيضًا أنزع الـ"كيلوت" وأظل هكذا، دون شيء أسفل زي المدرسة، مع هاجس يلدغ ما بين ساقيّ، بخوف صغير لذيذ من أن تقتحم والدتي الغرفة لتدرك كل شيء، لأن "بيتشي" وأخته يعرفان جيدًا، حتى ولو لم يقولا هذا، أن طقسهما يجب أن يقام هكذا، دون ألبسة داخلية، لو لم يحدث هذا لن يصبح مقدسًا ولن تتحلى القوى بحُرية زيارتهما، لأن القوى هي التي تختار إذا كانت ستأتي لي وليس العكس، هي دائمًا مرتبطة بتلك الدغدغة التي أشعر بها هنا في الأسفل. هذا هو "النداء الثالث"، هذا هو سرنا، وإن كان من الواضح أن السر الحقيقي، اللغز الأعظم، كنز المعبد، هي تلك الصور، ولهذا فإن الطقس كما يجب أن يكون، يبدأ فقط حينما يُخرجانها من المخبأ الذي يقع فوق واحدة من عوارض السقف، في النقطة التي تخترق فيها العارضة الحائط لتترك فراغًا

صغيرًا لا يمكن رؤيته إلا إذا تسلق أحدهم خزانة الملابس، لكن لا يمكن لأحد سواي وسواك الوصول إلى هناك، لأنه هناك يقع "قدس الأقداس"، أو المكان الذي تظل فيه الصور مخفية ومحفوظة. أنت يا "بيتشيتو" المسؤول عن إشعال شموع البخور التي تصيبنا بالدوار بأعمدة دخانها حلو الرائحة، ليضحك الطفلان ويقتربان من بعضهما بسعادة الرفقاء لأنهما يعرفان أنه إلي أبد الآبدين لن يعثر أحد غيرهما على هذه الصور، لن يعرفوا أبدًا أنني أمتلكها ولا أننا بها نقيم قداسنا ولا أنني أستمد قواي منها ولا أنني عثرت عليها بالصدفة ذات مساء بعد انتهاء المدرسة حينما كنت أنبش في السر بين الأغراض التي يحتفظ بها والدي في مكتبه، لأنه رغمًا عن منعه لأولاده من دخول هذا المكان، إلا أنهم يفعلون الأمر طوال الوقت، أجوستينا لأنها تعرف بوجود أشياء ممنوعة هناك وشقيقها خواكو لأنه يعثر دائمًا على بعض النقود لسرقتها واستثمارها في الأعمال مع صديقه ميداس مكاليستر، والذي يبيع السجائر والمجلات الهزلية المستخدمة والتعاويذ الأمازونية وصور نجوم كرة القدم المذيلة بتوقيعات مزيفة في مدرسة (الليسيه) للبنين، بجانب أي شيء قد يجعله يحقق مكاسب على حساب السُذج الذين يسلمونه مصروفهم الأسبوعي مقابل بضائعه التي لا تحمل أي قيمة.

بعد فترة من الذهول، أو بالأصح بعدة عدة أيام من فحص تلك الصور مرة تلو الأخرى وهي محبوسة داخل الحمام، علمت أجوستينا دون أدنى شك أنه هو من التقطها بنفسه -أبي بنفسه- ليس فقط لأنني عثرت عليها في غرفة مكتبه، بل أيضًا لأن قطع الأثاث التي تظهر فيها

هي نفسها تلك الموجودة، هي نفس النافذة، هو نفس المكتب، هو نفس الكرسي الهزاز، وأيضا لأن هواية أبي بجانب جمع الطوابع البريدية، هي التصوير. أبي مصور رائع وفي المنزل نحتفظ على الأقل بـ١٢ أو ١٥ ألبومًا من الصور التي التقطها لنا في مناولتنا الأولى، وأعياد ميلادنا، والعطلات الأسبوعية في منزل الأرض الباردة، والعطلات في ساسايما، ورحلات باريس، وزيارتنا لرؤية الثلوج، وألف مناسبة أخرى. التقاطه لصورنا بهذه الطريقة دليل على حبه الكبير لنا، لكن لا توجد صورة واحدة مثل هذه الصور، فأكثر ما لا يمكن تصديقه فيها هو أن المرأة التي تظهر بها تشبه الخالة صوفي، هي الخالة صوفي نفسها، بمعنى آخر أنه رغمًا عن أن أجوستينا لم تتمكن من تصديق الأمر في البداية، إلا أنها في النهاية اعترفت به، لأنه أيًا كان من سينظر لهذه الصورة كان ليدرك فورًا المسألة، كما أدركها "بيتشي" حينما أريته الصور للمرة الأولى. قال حينها: هذه هي، هي الخالة صوفي لكنها عارية، هذا أمر لا يصدق، يا لهما من نهدين كبيرين تمتلكهما الخالة صوفي!

***

ـ هذا لأنها بسيطة.

هكذا ردت أجوستينا علي سؤالي عن السبب وراء قبولها الطعام من الخالة صوفي على عكسي. فالخالة صوفي، البسيطة، يمكنها تفهم لماذا تملأ أجوستينا المنزل بآنية معبأة بالماء، بينما أنا، غير البسيط، أستاء من مجرد تفاهات مثل انسكاب هذا أو اتساخ الطاولات، أو ابتلال

البساط أو إصابة أجوستينا بالبرد أو بالجنون أكثر مما هي عليه أو ربما إصابتنا جميعًا بالجنون في هذا المنزل. تخبرني الخالة صوفي:

ـ انظر يا أجيلار، لُب المسألة أن الجنون معدٍ، مثل نزلات البرد، وحينما يصاب أحد أفراد العائلة به، فإن كل واحد منهم يسقط حينما يأتي دوره، يقع رد فعل تسلسلي لا ينجو منه إلا أولئك الملقحين ضده، وأنا أحدهم، أنا محصنة يا أجيلار، هذه هي نعمتي وأجوستينا تعرف هذا وتثق فيه، لكن يجب عليك أن تتعلم تحييد الحمل.

ـ أخبريني يا خالة صوفي، لمن تُصلي أجوستينا بكل هذه الهرج والمرج الديني المتعلق بالمياه؟

تجيبني الخالة صوفي في الوقت الذي تغطي أجوستينا فيه بخشوع طبق مياه ضخم بقطعة قماش وتباركه:

ـ لا أعرف في الحقيقة، لا أعتقد أنها تصلي، بل تتحاور.

ـ ومع من تتحاور يا خالة صوفي؟

ـ أظن أنه مع أشباحها.

ـ ولماذا كل هذه المياه؟

ـ أعتقد أنني أفهم أن أجوستينا ترغب في تنظيف هذا المنزل أو تطهيره.

تقول لي الخالة صوفي هذا وأتعجب كأنني اكتشفت أنه داخل زوجتي تختلج ظلال لم أكن قد ارتبت في وجودها.

ـ ولماذا ترغب في تطهير المنزل؟

ـ لأنها تقول إنه مليء بالأكاذيب. في صباح اليوم كانت هادئة وتأكل البيضة الفاترة التي قدمتها لها في الإفطار وقالت لي إن الأكاذيب هي التي أصابتها بالجنون.

ـ أي أكاذيب؟

ـ لا أعرف، هذا هو ما قالته: إن الأكاذيب أصابتها بالجنون.

فانفجرت قائلاً:

ـ وماذا عن كذبتها؟ عن كذبة الذهاب في عطلة الأسبوع مع رجل إلى فندق من وراء ظهري؟

ـ عن أي رجل تتحدث يا أجيلار؟

ـ عن الرجل الذي كان معها الأحد الفائت في فندق (ويلنجتون)، أنت لا تعرفين كيف يحطمني هذا!

ـ أترى؟ أنت الآن من يهذي يا أجيلاري، هذا هو تحديدًا ما كنت أشير إليه حينما قلت إن مشكلتك هي السماح بأن تصيبك عدوى الجنون.

ـ لكن إذا كنت رأيتها أيتها الخالة صوفي؟ رأيتها بأم عينيّ!

ـ احذر يا أجيلار، الهذيان قد يدخل عبر العيون.

ـ حسنًا ما الذي كانت تفعله معه؟ ما الذي قد يفعله رجل وامرأة في غرفة فندق، إذا لم يكن ممارسة الغرام فوق الفراش؟

ـ انتظر يا أجيلار، لا تقفز إلى نتائج غير عقلانية، فنحن هنا نواجه مشكلة أكثر عمقًا، فأجوستينا هذه الأيام تتحدث مع والدها كأنه لم

يمت. مات والدها منذ فترة، منذ أكثر من عشر سنوات، لكن يبدو أنها تنسى الأمر، أو أنها لم ترغب أبدًا في تسجيل الحدث، لا أعرف إذا كانت أجوستينا قد قصت عليك الأمر يا أجيلار، لكنها رغمًا عن عشقها له، لم تبك حتى على موته ولم ترغب في حضور دفنه.

* * *

ـ بلانكا، يا طفلتي البيضاء، اسمك وحده يبدد ظلماتي.

يحدث الجد بورتولينوس زوجته الشابة بهذه العبارة، لكن هذا ليس حقيقيًّا، لأن بلانكا رغمًا عن إصرارها لا تنجح دائمًا في تبديد آلامه، بل على النقيض، يحدث دائمًا أن وجودها ذاته مع بورتولينوس يستحيل إلى منزلق يقوده نحو كل ما يتعقد ويتشابك، لأنه لا يوجد شيء يثير المُضطرب أكثر من مطالبته بالهدوء، لا يوجد شيء يقلقه أكثر من استسماحه ألا يقلق، لا شيء قد يعارض اندفاعاته نحو بسط جناحيه أكثر من مساعي سامري صالح لإجباره على الهبوط. هي تختبر هذا يومًا تلو الآخر، لكنها رغمًا عن هذا تقع مرة تلو الأخرى في نفس الخطأ، كأن قدرتها، أمام الاختلال المعتم لزوجها، كانت تتضاءل إلى حالة قلق خرقاء بلا أقدام أو أيدي.

يقول بورتولينوس مشيرًا نحو شجرة الآس التي تظهر على جانب الطريق نحو المنزل:

ـ هنا توجد الشجرة النائمة.

ليست شجرة مانجو أو قابوق أو بلاذر بري أو جوالانداي أو أي من آلاف الأشجار العطرية الوارفة متفاقمة الوفرة التي تتزاحم فيما بينها على الأراضي الدافئة، محملة بمياه الأمطار أو الفواكه أو الطفيليات أو العصافير، بل شجرة آس هزيلة صغيرة، لكنها عملاقة في ذاكرته، شجرة آس في رفقته منذ حقبة أراضي الطفولة، ولهذا هي ملكه، هي شجرته، هي الظل الذي ينتقيه ليمدد تحته جسده من أجل الراحة خلال النزهات الصباحية. يُحب ترديد أن شجرة الآس هذه عبر فروعها الممتدة تتغذى على أحلام الهواء، لكن أي شخص أقل تيهًا في تأملاته سيرى أنها شجرة ذات بذور صفراء أو بذور حمراء، وفقًا لفصول السنة، أو وفقًا لعناد كل بذرة، وهو عامل غير ذي صلة لأن ما يهم تفهمه الآن هو أن بورتولينوس وبلانكا قد جلسا كما اعتادا أسفل تلك الشجرة للسقوط مجددًا في جريمة بدء حوار صعب ينظر فيه إليها بلهفة ويكبح من على طرف لسانه شراهة السؤال المُخزي:

- شجرتنا؟

ليختبر راحة لحظية قبل أن يسمعها تؤكد:

- شجرتنا.

- شجرتك وشجرتي؟

- شجرتك وشجرتي.

- أنت وأنا؟

- أنت وأنا.

- نحن الاثنان؟

نعم يا حبي أنا، نحن الاثنان!

تعيد القدرة المُسكنة لأولى الأرقام الزوجية، الاثنان- ذلك الرقم تكرره يومًا تلو الآخر تحت شجرة الآس هذه- إليه خيوطًا من نسيج الهدوء الذي فقده في يوم من الأيام بمكان ما بين كاوب وساسيما، المدينتان اللتان لا يربط بينهما شيء، سوى هذا الخط التخيلي الذي تمكن بورتولينوس من رسمه بينهما عبر رحلته.

فرقم اثنين يسمح له- هو الرجل الذي له معرفته بالكيمياء ومن هواة الألغاز الباطنية- حتى ولو كان الأمر فقط في اللحظة التي تنطقه بلانكا فيها، بالدفاع عن نفسه أمام هذه الازدواجية التي لا تطاق وتندس كفراغ بين السماء والأرض، بين البداية والنهاية، بين الذكر والأنثى، بين الشجرة وظلها، بين شغفه بزوجته بلانكا وضرورة الهروب من تحت رقابتها.

- يا لثقل الظل الذي أصبحتي عليه يا بلانكيتا! يا لبدانتك !ويا لتقيدك بهذه الأرض بينما أنا أطير فوق رأسك، خفيفًا، بلا أغلال متفهمًا لسيمترية البلورات، ودورات الدم وتجانس الأرقام، وسير الأجرام ومراحل الحياة.

كان بورتولينوس يقول لزوجته هذا بينما ينظر إليها فجأة بعينين مغايرتين، واحدة هي عين الرحمة والأخرى هي عين الإزدراء.

- يا للصغر والبدانة التي أراك بها هناك في الأسفل، يا كرة الزبد الصغيرة! و يا لصغر مخك!

كان يقول هذا لزوجته، التي بخلاف طبيعتها النحيفة، كانت قد فقدت بالفعل عدة كيلوجرامات منذ البدء في نزهاتهما الكونية التي باتت شائعة، لتجعلها تتأرجح في ألم بين الانسياق وراء حجزه في ملجأ للمرضى العقليين، والشك في أن بورتولينوس كان يفهم بالفعل، يفهم أفضل من أي شخص هيكل الأجرام وموسيقى الأكوان، وألغاز الأرقام وازدواجية أثر البلورات. كان يبدو أن اضطراب باله هذا كألماني مأسوف عليه يرتبط باشتياق ما للطيران كان يتهيج عند معارضته، وهو الأمر الذي يفسر نوبات هجومه الكثير على بلانكا، والتي كانت تتلاشى بنفس الفجائية التي تبدأ بها، لتتركه من جديد غارقًا في هذا الحب المتاخم لحالته كمن ارتبط بعبادتها كوثن، كمن بات مقيدًا بأرضها منذ أكثر من عقدين.

- أنت وأنا، يا بلانكيتا حبي أنا؟ نحن الاثنان؟

كان يعود لتكرار نفس الجملة وهو يعرف أن الشيء الوحيد القادر على الدفاع عنه أمام لطمات الشطاط ودوخة الطيران هو هذا الرقم: اثنان، هذا الرقم الذي كان يرد إليه وتيرة تعاقب الليل والنهار، وكان يصل له كملاذ، كفرصة أخيرة، كإحلال من الذنب:

ـ كلقاء جديد بينك أنت يا بلانكا حبي أنا، يا لوح نجاتي، وبيني أنا نيكولاس بورتولينوس، الغارق الذي يجره تيار المياه العاصفة لهذا الكرب العميق.

* * *

أعيد بناء ذاكرتي عن الساعات التي سبقت سفري إلى ايباجيه، وأجد أنه رغمًا عن استياء أجوستينا من إبعادها عن الرحلة، إلا أنها عرضت عليّ المساعدة في التجهيز لها.

ـ هل حزمت حقيبتك؟

ـ بالفعل حزمتها.

ـ فلتتركني أرى!

ضد رغبتي اضطررت لفتح الحقيبة التي وضعت فيها بعض الأشياء التي كنت سأحتاجها، حُلة السباحة، ورواية لجوزيه ساراماجو.

ـ هذا فقط؟ بالطبع!

قالتها بعلو صوتها وأضافت بيجامة وأربعة قمصان وفرشاة ومعجون أسنان وعبوة عطر (روجيه أند جاليت) التي لا يمكن تفاديها، إذ اعتادت أن تهديها لي في كل عيد ميلادـ ووفقًا لها هي الكولونيا التي اعتاد والدها على استخدامهاـ وجهاز النداء.

ـ لا يا أجوستينا، جهاز النداء لا، لا توجد له تغطية خارج المدينة.

وافقت على طلبي لكنها بدلاً منه أدخلت خلسة برنيطة وعدة أزواج من الألبسة الداخلية، بعد أن ألصقت بكل قطعة من الملابس ورقة كتب عليها بحروف كبيرة ومستديرة كلمة أجيلار، لأن أحد ميولها الغريبة، رغمًا عن إهمالها المعروف أو ربما لتتخطى هذا الإهمال، يرتكز على وضع علامة على كل الأغراض التي تخصنا، سواء كانت كتبًا أم أقلامًا أم أجهزة راديو أم مضارب أم حقائب أم معاطف، كأنها بطبع أسمائنا على الأشياء، تسعى للسيطرة عليها أو جعلها تفهم أنها يجب أن تظل خاضعة ويُحرّم عليها الابتعاد عن مكانها المقرر، فالناس لا تقول إن "الأشياء لها أرجلها الهاربة" من فراغ.

اعترضتُ:

- أنا لست طفلاً في المدرسة يا أجوستينا، وأيضًا من الذي سيسرق هذه الخُرقات الأربع التي أخذها معي؟

لترد عليّ بسخرية بينما تضع حلة السباحة فوق بنطال الجينز الضيق:

- كيف تقول هذا؟ فهذا الموديل الكاروهات مثار للحسد: أستك مطاطي ثلاثي عند الخصر وجيبين خلفيين ومنتفخ كالبالون لمزيد من الراحة ومتسع عند الحجر لتهوية الخصيتين.

وربما كان صحيحًا أن "الأشياء لها أرجلها الهاربة"، لأن شبشبي البلاستيكي لم يرغب في الظهور وكنت مُصرًا على أخذه، بعدما دخلت في مرحلة "ولم لا؟"، فقد كنت بسبب ضغط أجوستينا سأذهب محملاً

حتى بالبيجامة التي لا أرتديها أبدًا، لكن لأننا لم نعثر على الشبشب في أي مكان اضطررت للاستسلام فقالت هي :

ـ لحسن الحظ، لحسن الحظ أن هذا الشبشب الفظيع موديل السيدة فلوريندا العانس وهي تتشمس في باحة منزلها قد ضاع منك.

ـ وما الذي سأسير به يا أجوستينا حينئذ؟

ـ حافيًا يا أجيلار، لا يخطر في بالك أن تتبختر في منتجع عطلاتك بمايوهك "الكاروهات" وحذائك ذي الرباط وجوربك القصير، حتى وإن كان كل من هناك يسيرون غالبًا هكذا، على موضة (لاس بالميراس).

بعد أن ارتدت مايوهي لتتنكر في هيئة مُصيفة، بدأت أجوستينا على سبيل المرح في الهتاف كمشجعات الـ"تشيرليدر" بينما تسخر ونحن في الغرفة من نزهتي:

ـ مع الكوووووورة يلا الكل على حمام السباحة بالشبشب. هيييه! هذا هو وقت اللعب الحقيقي في (لاس بالميراس) على أيدي طاقم متخصص، هيا وزعوا أنفسكم في مجموعات عمرية، تشجعوا فلا أحد هنا يقول إن أصحاب الشعر الأبيض محرومين من شيء، شارك في يانصيب الـ(ووكمان) المحمول. أتتذكر يا أجيلار؟ هذا ما كان مكتوبًا على ملصق أعطوه لنا ذات مرة في سوق (أونيثيترو). تحلوا بالإيجابية يا أصدقاء ولا تنسوا الحصول على قميصكم

الشخصي بشعارنا "أنا أحب بالميراس"، نعم يا سيديّ ولم لا. منتجع (لاس بالميراس) هو الأفضل!

كانت لتواصل الوثب والهتاف لو لم أوقفها:

ـ حسنًا يا أجوستينا. هذا يكفي. كفى مزاحًا، منتجع عطلاتي مبتذل جدا، لكن منتجات (بورينا) لا تمنحني ما يكفي لسداد الإقامة في جناح في (والدورف).

ـحتى ولو كان مبتذلاً للغاية كنت لأحب الذهاب.

أجابتني أجوستينا بهذه العبارة وصوتها يتغير نحو نبرة جنائزية، وقلت داخلي إن هذا هو وقت الإضاءة الحمراء، لنتوقف هنا، علينا ألا نذهب إلى هذا الجانب وإلا عدنا للدراما السابقة، لهذا تركتها وحيدة لفترة وذهبت سيرًا نحو محل حلاقة دون أوكتافيو. في نهاية المساء دعوتها للسينما وبعدها لتناول طبقا من الفوندو في واحد من تلك الكافيهات التي تحاول أن تبدو سويسرية في وسط المدينة. قررت أن نشاهد "الديكاميرون" لباسوليني مجددًا، ورغمًا عن مشاهدتنا له عدة مرات، كنا سعيدين، يمكنني تأكيد هذا بكل يقين. كانت ليلة هادئة وكنا سعيدين، لأن أجوستينا بعدما تقبلت فكرة بقائها وحيدة، بدأت مجددًا في ممارسة رياضتها المفضلة وهي الحصول على التسلية على حسابي، عبر السخرية مني والطريقة التي قصصت شعري بها عند دون أوكتافيو. وصفته بأنه حلاق منذ حقبة أزمة الجوع لدرجة أنه يجتز الشعر من

جذوره لكي لا يضطر المرء لزيارته إلا بعد ثلاثة شهور على الأقل. قالت لي:

- أصبحت مثل الديك تشيراس
- ومن هو الديك تشيراس؟
- إذا كنت ترغب في التعرف عليه، فليس عليك سوى النظر في المرآة. أوه يا أجيلار يا لقصة شعرك البلهاء.

ولأن أجوستينا تحفظ "الديكاميرون" عن ظهر قلب، لم تهتم به بتاتًا وقضت طوال فترة عرض الفيلم تمزح بخصوص صلعتي ولأن صوتها لم يكن قد بُح بعدها حينما خرجنا لبرد الشارع، بدأت في اللعب بتغطية رأسي منتوفة الريش بالشال الخفيف لكي لا أصاب بالبرد.

- اتركني أعتني بك يا أجيلار، فالصلعة هي وتر أخيل عند كبار السن والكهل يموت من صلعته!

وأثناء سيرنا في وسط المدينة عبر الشارع السابع في منتصف الليل، أو بكلمات أخرى في فترة "الساعة المجانية السعيدة" للسطو والطعنات، كانت تُشكل بيديها فوق رأسي عمامة على طريقة جريتا جاربو، أو أذني أرنب الحظ بطرفي الوشاح، أو كوفية فلسطينية على طريقة ياسر عرفات، وفي ذلك الوقت كنت أنا متوترًا ومترقبًا ومنتبهًا لأي طيف يهتز في الشارع شبه الخاوي، منتبهًا لجسدين قد انكبا فوق سخونة دائرة من النار عند المنعطف مع شارع خيمينيث دي كيسادا، ولأجساد أخرى قد التحفت بأوراق من الكارتون وتبدو نائمة عند مدخل سان

فرانثيسكو، ولفتى تحت تأثير المخدرات تابعنا لفترة ولحسن الحظ تجاهلنا في النهاية. كل هذا وسط رغبة مني في أن أقول لزوجتي التي لم تتوقف عن ابتكار أشكال مختلفة من القبعات والباروكات والزينة فوق رأسي:

ـ هنا لا يا تينا. انتظري حتى نصل للمنزل.

لكن لم أقل لها هذا لأنني أعرف أن اندفاع أجوستينا نحو السوداوية لا يحتاج سوى لخطوة واحدة، ثم توجهنا نحو منطقة أبراج سالمونا وعبرنا ظلالها المشتتة أسفل الإضاءة الصفراء لحديقة الاستقلال، وأمامنا كان هناك تل (مونسيراتي)، ولأن كيانه لم يكن مرئيًا في الظلمة، فإن الكنيسة المضاءة التي تنتصب فوق قمته كانت تطفو كطبق طائر. يبقى محميًا داخل هذه الكنيسة تمثال باروكي لمسيح سقط من ثقل صليبه، أكثر الأرباب بؤسًا وانكسارًا وإيلامًا، بجسد مغطى بالرضوض والالتهابات والدم. يا للمسيح المسكين الذي أسيئت معاملته حتى البكاء! كم من ألم يبدو عليك من كل هذا! وكم تبدو مدينتك هذه ـ تلك التي تبجلك من مكانها في الأسفل ـ مثلك! وكم تؤنبك أحيانًا على أنك وسمتنا بمصيرك ودهسنا صليبك بطريقة لا يمكن علاجها يا سيد الألف سقوط.

على قمة جوادالوبي، التل المقابل لمونسيراتي، ينتصب تمثال للعذراء في حجم كينج كونج يحاول احتوائنا في أحضانه. كانت أجوستينا تراقب كيف كان يبدو التمثال الضخم يرتفع بذراعيه الممدودين وهو يشع نورًا أخضر:

ـ انظر يا أجيلار. عذراء جوادالوبي تبدو اليوم كطائرة صغيرة.

بينما نعبر الحديقة كان كل ما يشغلني هو الرصد والترقب، لكنها كانت تخطو فوق البتلات البيضاء التي تسقط من نباتات الاوكالبتوس لتخرج رحيقها، حتى أكسب النعاس قسمات وجهها هيئة طفولية وخدر ردود أفعالها، جعلتها تتأبط ذراعي وتستند برأسها على كتفي. كان تل مونسيراتي يقترب بينما أفكر: على أي شيء أنت وصي أيها التل الوصي؟ إذا كان كل شخص هنا في الأسفل يحيا متعلقًا بنصيبه ومعتنيًا بقدره الشخصي.

***

كان "العنكبوت" سالاثار حساسًا لدرجة إزالة الحصة الدعائية من أي وسيلة إعلامية تتجرأ على ذكر اسمه سواء بالخير أو الشر، لكنه كان يتسامح في تجمعات العشاء كل خميس بمطعم (ليسبالاناد) مع مزحاتنا بخصوص أكثر الأقداس تقديسًا، وهي مسألة رجولته. في تلك الليلة طلبنا عدة زجاجات من نبيذ "برونيل دي مونتالتشينو"، ومع الطبق الثاني بدأنا الدخول في الثرثرة حول الجنس، تعرفين بالفعل عما أتحدث، عن القائمة الطويلة لنكات الذكور: إذا كان تبين أن فلان هذا قد أصبح شاذًا، إذا كان الآخر يلتهم جسد زوجة ذاك، او إذا كان رئيس الجمهورية قد عين عشيقته في إدارة المعهد الفلاني، أنت تعرفين ما أقصده، فهنا من يؤكد أنه لم يجمعه شيء حتى بأمه نفسها فهو والعدم سواء. قال "العنكبوت":

- حسنا لا تكونوا شواذًا. لا تذكروا الحبل في بيت من مات مشنوقًا.

- يا "عنكبوت"، لا تقل لي أنك ما زلت تعاني من مشكلتك الصغيرة تلك، لا تقل لي أنه لم يقف حتى الآن.

قلت له هذا وأنا أربت على ظهره، وإذا كان العنكبوت يتسامح مع هذه التجاوزات فهذا لأنها في النهاية كانت تشعره من الداخل بأنه أفضل، أتفهمين ما أقوله لك يا طفلتي؟ في الداخل كانت هذه النكات تواسيه وتخادعه بأن مأساته عابرة، وذلك لأنني والبقية كنا نمزح معه بالشوكة والسكين، لنجعله يعتقد أننا لا نعرف شيء حول أن عجزه سيظل أبديًا وبلا نهاية. قلت له كأني أتحداه:

- يا "عنكبوت" في مركز (أيروبيكس) الذي أمتلكه، لدي قديسات مستعدات لصناعة معجزة من أجلك.

لكنه رد بتحفظ:

- لا تظن يا عزيزي، لا تظن أنني لم أجرب كل شيء، كوكايين على القضيب ومراهم مصنوعة من المشيمة، بل أنني حتى أمرت بجلب إحدى فتيات (بلاي بوي) وكل ما تمكنت من فعله معها كان المزاح.

لكني كنت مصرًا أمام "العنكبوت"، يا أجوستينا الجميلة، كنت مصرًا بناء على ثقتي في الطاقم النسائي المستعد لخدمتي وأستغل ما لدي للتباهي به.

- أراهن على أي شيء، أيها الرجل "العنكبوت"، على أن جميلات مركز (ايروبكس) سيعدن الحياة إلى حبيبك النحيف المنكمش في الأسفل.

لماذا فتحت فمي؟ فهلاكي وهلاكك أنت أيضًا يا ملكتي غير المتوجة بدأ حينما أمسك سيلفرستاين وخواكي وأيربي بطرف الخيط وقالوا هم الثلاثة بعلو الصوت:

ـاتفقنا ـ الرهان قائم. إذا تمكنت فتياتك النحيفات من إسعاد "العنكبوت" سندفع لك، وإذا لم يحدث هذا ستدفع للكل.

"العنكبوت"؟ في هذا المنعطف لا مكان له ليراهن، فهو لا يفوز ولا يخسر، سيضع فقط قضيبه ونواياه الحسنة. راهن سيلفر وخواكو وخورخى لويس بعشرة ملايين لكل رأس منهم. كلهم ضدي، وأنا ضدهم جميعًا. إذا انتصب قضيب "العنكبوت" سأحصل على ٣٠ رزمة كبيرة، لكن إذا خسرت.. وأنا كنت أعرف أنني سأخسر، لهذا اعترضت بقولي:

ـلا. لا هذا لا يصح.

لكي أجعلهم يترجوني، لكن أنا بالفعل كنت قد قررت خوض الرهان. أتعرفين السبب يا دميتي الشجاعة؟ لأنني فكرت أنني حتى لو خسرت، فإنني سأفوز من ناحية الأخرى. كانوا يملؤون كأسي وهم يعتقدون أنني إذا أفرطت في النبيذ، فإنه سيلعب برأسي وأسقط في الخدعة، وبعدها لعبت دور الأحمق وسألت "العنكبوت":

ـ قل لي الحقيقية أيها "العنكبوت" سالاثار، ولتقسم على ذكرى أمك المبجلة، هل هو ميت تقريبًا، أم ميت بالكامل؟

وأقسم العنكبوت بأمه المبجلة أن قضيبه ما زال به قليل من الروح وأنه أحيانًا كان يشعر بدغدغة فيه ومؤشرات على الشهوة، بل وحتى محاولة للانتصاب في عدة مرات، فقلت:

- قضي الأمر. سأدخل هذا الرهان، لكن عليكم أن تمنحوني ثلاث فرص، بمعنى آخر، إذا فشلت المحاولة الأولى نذهب للثانية، وإذا لم تنجح الثانية نذهب للثالثة، فبهذه الطريقة ندرب دقة التصويب أيها "العنكبوت" العجوز، عليك فقط أن تخبرني ما الذي يمنحك الحافز، وما الذي يهيج رغباتك، فنذهب إلى المسألة مباشرة ونحقق النصر النهائي.

وحينها بدأ "العنكبوت" في وضع شروطه.

- قبل أي شيء، لا أرغب في مومسات أو متشردات أو سودوات. يجب ألا تزيد أعمارهن عن ٢٢ عامًا. أرغب في أن يكن بيضاوات و"بنات بابي ومامي"، عرائس ناعمة، طالبات جامعيات من أولئك اللاتي يرتدين الليكرا ويتعرقن في مركز (أيروبيكس) الذي تمتلكه. يأكلن السوشي بالعصي ويتناولن مشروب (جاتوريد)، فتيات محترمات يتحدثن الإنجليزية على الأقل ودون لكنة. لا أرغب في واحدة، بل زوج، زوج من البنات بالطبع، على أن تداعب وتعمل كل منهما على تسخين الأخرى أمامي. هذا هو كل شيء.

لكن الرجال الثلاثة الآخرين كانوا يرغبون في مشاهدة الأمر. أتفهمين يا عزيزتي؟ المشاهدة من أجل تصديق المسألة والتحقق بأم

أعينهم إذا كانت قطعة الأنتيكا الخاصة بالـ"عنكبوت" سالاثار ستنتصب أم لا فقلت لهم:

- لا توجد مشكلة الزجاج الضخم الموجود في مكتبي عبارة عن مرآة لما يقع في الجانب الآخر، هو كشاشة بانورامية كاملة مطلة على الجيم، يمكننا أن نشاهد دون أن يرونا.

هذا "العنكبوت" لا يُصدق، فمثل هذا الحوت الكبير كان يبكي من شدة التأثر كأننا حقًا نسهل له الطريق نحو الخلاص.

- لا تقلق يا ميديتاس، يا بني، سأرفع رأسك.

- توكل عليّ يا "عنكبوت"، سأنصب لك سهرة مع تُحفتين من الدرجة الأولى، وسترى أنك ستنطلق.

احتضنني العنكبوت البائس وهو يقول:

- لو حدث ما تقوله، سأظل ممتنًا لك يا ميداس طوال حياتي. أنت الأفضل!

* * *

يحدث أحيانًا أن يأتيني الاستشعار، أو التنبؤ، بصورة فجائية، رغمًا عن عدم وجودنا في وسط الطقس، يأتيني في فصل الرياضيات على سبيل المثال أو أي شيء آخر، أو أثناء عظة الجمعة في المدرسة، حينما تقوم زميلتي في الفصل آنا كارولا كانو، وهي أعلى سويرانو بين

كل الجوقة، بأدائها المنفرد لأنشودة (خبز الملائكة)، بهذا الصوت شديد الحدة الذي يجعل أبداننا جميعًا تقشعر وعيوننا تتسع كأنها على وشك البكاء، خاصة إذا كان المصلى ممتلئًا، لتطفو الراهبات والبنات مع سحابة البخور ويعانين من صعوبة في التنفس وسط رائحة هذا الهواء المحترق، لأن هذا المصلى الصغير يتسع بالكاد لهذا الكم من الناس. ووسط رائحة الشموع والزنبق وهنا تحديدًا تسقط على رأسي الرجفة المنذرة ولكي لا يلحظنها أطأطئ رأسي وأغطي وجهي بكلتا يديّ كأني أشتعل من فرط الحماسة الدينية، لكن ما يحدث حقًا هو أن "القُوى"، التي دخلت فيّ ترسل لي "النداء الأول"، وتحذرني صارخة من أن أبي سيضرب "بيتشي" هذه الليلة. أقضي بقية اليوم بصداع رهيب ولا أتمكن من إعارة الاهتمام للفصول لأنه داخلي لا يزال يتردد صدى "القوى التي تجبرني على التصرف ولا أدرك شيئًا سوى في الساعة التي يضرب فيها الجرس، في الرابعة، لأخرج من المدرسة وأصل للمنزل لأحذر "بيتشي"، فهو ليس أخي بلا سبب فأنا المختارة من قبل "القُوى" لحمايته. ذات مرة كان الصوت خانقًا وحادًا لدرجة أنه مع انتصاف اليوم هربت من المدرسة، التي تقع في تقاطع الشارع ٧١ من الشارع الرابع لأركض دون توقف حتى مدرسة الطفل بتقاطع الشارع ٨٢ مع الشارع ١٣ فقط لأخبره أن أبي سيضربه، ولأن حارس مدرسة (الليسيه) للبنين لن يتركني أدخل لأنه وقت الدراسة، أخترع تلك الكذبة: من فضلكم اتركوا الطفل كارلوس بيثينتي لوندونيو الطالب بالسنة الخامسة الابتدائية يخرج لأن شقيقته جاءت لإبلاغه بأن جدهم الحبيب يلفظ

أنفاسه الأخيرة وبعدها يصل "بيتشي" للبوابة ممتقع الوجه، فقد توقف عن أداء امتحان الجغرافيا الجزئي.

ـ ما الذي حدث يا تينا، أي جد؟

أدرك في تلك اللحظة مدى سخافة فعلتي وأن الأفضل كان الانتظار حتى يصل كلانا للمنزل، لكن أقول له على أي حال:

ـ جدنا الحبيب بورتولينوس، الألماني الذي لم نعرفه أبدًا لأنه عاد لأوروبا.

ـ عن أي شيء تتحدثين يا تينا؟ هل جلب أحدهم نبأ أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة من أوروبا؟

أكذب وأقول:

ـ يبدو بالفعل أن الأمر هكذا، لكن فلتنس وامض لإنهاء امتحانك في هدوء.

لكن حينما يبتعد "بيتشي" عني أوقفه بصراخي:

ـ هي أكاذيب يا "بيتشيتو" الجد بورتولينوس، ليس له صلة بالأمر بمجيئي، لقد أتيت لأخبرك أن أبي سيضربك هذه الليلة.

بعد التفوه بهذه الكلمات أنطلق ركضًا نحو المنزل، دون الانتباه في الطريق حتى إلى السيارات التي تعبر الشارع ودون توقف حتى لو تعثرت وارتطمت سيقاني بالمطبات، وبعدها بعد وصولي للمنزل، في غرفة الطعام، أجلس على الطاولة لتناول حليب الشوكولاتة مع بسكويت

القشدة والزبد والمربى، التي دائما ما تُقدم لي في الخامسة وأصنع الأبراج الصغيرة التي تعجبني دائمًا: قطعة من البسكويت وفوقها طبقة من الزبد وطبقة من المربى ثم قطعة أخرى من البسكويت وهكذا دواليك حتى تصبح الكومة مرتفعة بهذه الصورة. أتناول برج البسكويت وحينما تدخل الطاهية أمينتا تسألني:

- ما الذي حدث لك طفلتي أجوستينا؟ ما هذا الذي في ركبتيك؟

وحينما أنظر لهما أرى أنهما تدميان وأن كشطات ممتلئة بالرمال تلمع فيهما ولا أعرف كيف ولا أين أصبت بها. كل هذا و"بيتشي" لا يصبح دومًا ممتنًا معي، لأنه لديه تلك الجزر المنعزلة في حياته والتي يعتقد أنه لا يحتاجني فيها.

كأنه يوليسيس بشحمه ولحمه، نفخ صدره كديك صغير وصرخ في ذات مرة دون حتى أن يقترب من مكاني:

- لا يا تينا، ليس الآن! كفى يا تينا! لا أرغب في الحديث الآن عن المسألة.

- لكن لم لا يا بيتشي؟ فالمسألة لمصلحتك وأنت في ساعة الفسحة.

- فعلاً، لكن أنا كنت سعيدًا باللعب بالنحلة مع مونتيس ومينديث.

- لكن أتاني شعور بأن أبي مستاء منك وأنه إذا لم تتوخ الحذر فربما يضربك مساء اليوم.

- ربما يا تينا، لكن هذا سيكون مساء اليوم، والآن أنا سعيد باللعب بالنحل مع مونتيس ومينديث.

قلت له في مرات أخرى:

ـ بيتشيتو، الليلة لن نأكل في غرفة الطعام مع البقية، لأن "القوى" أعلنت لي أنه سيضربك اليوم بالتأكيد.

وحينها كنا نطلب من أمي الإذن لنأكل الطعام في غرفتي بحجة أنه يوجد برنامج سيعرض في التلفاز ولا نرغب في تفويته مقابل أي شيء في العالم، وأمي كانت دائمًا توافق وتجعل أميتنا تصعد لنا بالطعام على الصواني الفضية. يبث التليفزيون أي حماقات، لأنه لن يُعرض في الحقيقة أي برنامج نفضله، وحينما أرى أن "بيتشي" يغلق عينيه أقول له:

ـ لقد زال الخطر. يمكنك أن تذهب لغرفتك، لكن بدايةً من الآن لا تفعل شيئًا قد يغضب أبي.

ـ المشكلة يا تينا.. لا أعرف ما الذي يغضبه.

ـ كل شيء يثير غضبه يا بيتشو، لا تفعل أي شيء، لأنه يغضب من كل شيء.

حينها يشكرني أخي الصغير لأنني أنقذته وفي اليوم التالي، بينما نتناول الإفطار يقول لي في أذني:

ـ لولاك يا أجوستينا، لعانيت في الليلة الماضية.

* * *

كان أخر ما فكرت فيه يوم رحلت وأنا أراها تنفذ مهمة طلاء حوائط الشقة للمرة الثانية هذا العام هو: يا لها من إنسانة عديمة الجدوى ولكن يا إلهي كم أحبها! يهاجمني هذا التفكير المزدوج دائمًا، ربما لأنني لا أشعر بكوني مدعومًا من طرفها في جهودي لكسب قوتي في هذا الزمن الصعب. لأن حيازتي دكتوراة في الآداب واستسلامي لتوزيع أطعمة الكلاب ليس أمرًا سهلاً، أعاتب أجوستينا على لامبالاتها المألوفة تجاه الأنشطة المُنتجة والتي بكل بساطة لا تتماشى مع طبعها. هي نشيطة للغاية، أو كما يقال وفقًا للموضة الرائجة مبدعة للغاية، تحيك وتطرز وتخبز وماهرة في البناء واستخدام المطرقة، فقط وطالما كان ما تنتجه ليس له أي غاية براجماتية أو ربحية. أقصد أنه حينما تركتها في المنزل يوم الأربعاء هذا، كانت أجوستينا كبقية الأيام تنشغل بمهمة اعتباطية لإخفاء عجزها عن تولي عمل له منهجيته، بشعرها المتفش المأخوذ من عند قمة الرأس بطريقة لا مُسمى لها، لكنها طريقة تنجح دائما في إغرائي، حتى ولو كانت تعني أنها في ذلك اليوم لن ترتدي ملابسها وتخرج للبحث عن عمل. تسعى بطريقتها هذه وعدم تصفيف شعرها لقول إنها لا ترغب أن يُنكد أحد معيشتها بأي شيء يرتبط بالواقع، لكن هذا الشعر المنتفخ يدفعني للرغبة فيها وفي كل ما هي عليه، يجعلني أرتعش أمام مزية وجود هذا المخلوق الذي يشع جمالاً ويرفض النضج بطريقة غاية في الطرافة، والتي أمامها يزداد يومًا تلو الآخر عمق فارق السنوات الـ١٦ التي تجعلها هي شابة للغاية على النقيض مني.

بجوربها الصوفي الأحمر الذي ارتدته دون حذاء وهي لا تزال في بيجامة النوم في الحادية عشر صباحًا، ودعتني صارخة بينما تعتلي سلمًا وتمسك بفرشاة في يدها:

- "Ciao, amore".

ليعلو هتافها فوق أغنيات (رولينج ستونز) التي كانت تستمتع لها بأعلى صوت، وبعدها ركضت في الدقيقة الأخيرة نحو المصعد لتسألني للمرة الألف إذا كان اللون الأخضر الطحلبي الذي اختارته لجدران الصالة يبدو دافئًا بالفعل، ومن داخل المصعد كررت إجابتي:

- بالفعل، هو دافئ للغاية، بالفعل يا جميلتي، هذا اللون الأخضر الطحلبي لطيف وله قدرته على الاحتواء.

وفي تلك اللحظة انغلق باب المصعد المعدني المزدوج بيننا بجفاء مصير سينكسر، لأنه لدى عودتي بعد أربعة أيام سلّم لي رجل لا أعرفه في غرفة أحد الفنادق نسخة من أجوستينا غير أجوستينا التي أعرفها. كنت قد اتصلت بها يوم الأربعاء ليلاً من ايباجيه لأخبرها أنه رغمًا عن مخاوفها لم يحدث لنا أي سوء، وأنه نعم وبالفعل يعجبني اللون الأخضر الطحلبي في الصالة لتجيبني:

- لحسن الحظ أنه يعجبك، لأن هذا الأمر بدأ لونه يكتسب خضرة أكثر من بركة مليئة بالضفادع.

أغلقت الهاتف ولدي شعور وديع بأن كل الأمور في محلها. الحقيقة أنه في الأيام التالية لم أعاود الاتصال بها. لا أعرف ما السبب، وأفترض أنه كان احترامًا للولدين، أو لكي أثبت لهما أنني حقًا سأكرس هذا الوقت لهما دون شروط أو تدخلات. عدت ظهيرة يوم الأحد إلى بوجوتا. كنت قد وعدت أجوستينا بأنني سأعود على أقصى تقدير في العاشرة صباحًا لكي نتمكن من قضاء اليوم معًا، كما اعتدنا، لكن كان إخراج الولدين من الفراش مبكرًا بصورة كافية مهمة مستحيلة، لهذا انطلقنا من ايباجيه متأخرين عن موعدنا المقرر بعدة ساعات، لكن المهم أنه قرب الظهيرة كنت قد وصلت بالفعل لمدينتي التي كانت ممطرة وخاوية وتركت الولدين عند منزل أمهما.

- انزلا بسرعة يا فتيان.

قلت لهما هذا على عكس رغبتي، فقد خانني اشتياقي للقاء أجوستينا مجددًا لأقدم لها الهدايا التي جلبتها لها من الأراضي الحارة: جوال من البرتقال وقرط من الموز وحقيبة مليئة ببسكويت القنا الهندي. قلت لنفسي أن الأيام السابقة مع الولدين كانت جيدة للغاية، لكن ها أنا ذا هنا مجددًا وهو يوم الأحد!

لاشتياقي للعودة في أسرع وقت مُمكن لم تكتمل داخلي بكل تأكيد بعض الأسئلة التي زرعها داخلي كتاب (بالتاسار وبليموندا)، الرواية البرتغالية التي انتهيت من قراءتها وتتناول أيضًا قصة امرأة مستبصرة، وكانت إحدى هذه الأسئلة: إذا كانت بليموندا مستبصرة،

فما الذي يمنع أن تكون أجوستينا هكذا؟ إلى أي كانت ستذهب روح سيستيسوليس، إذا لم يكن قد وثق في قدرات بليموندا؟ لماذا إذا كان سيستيسوليس يؤمن بزوجته، ولا يمكنني الإيمان بزوجتي؟

كنت أرغب في الوصول في أسرع وقت إلى مساء الأحد الوديع في المنزل مع أجوستينا. أفضل أوقاتنا معا كانت في أيام الأحد ونحن خاليان من التوتر ومنعزلان عن بقية العالم وغارقان في خليط رائع من الجنس والنوم والقراءة وموسيقى ال"صون كوبانو" والبيرة المثلجة وفي بعض الأحيان رُم (بيبخو دي كالداس). لا أعرف ما هو السبب وراء الأمر، لكن أيام الأحد كانت دائمًا تسير بصورة جيدة بيني وأجوستينا، بل حتى في فترة العواصف كانت أيام الأحد بيننا بمثابة ملجأ للتلاقي والسكينة وتصرفت فيها أجوستينا ببساطة على طبيعتها، وطبيعتها أنها فتاة؛ فتاة حادة ولطيفة ومتعرية وشغوفة وسعيدة؛ طبيعتها أنها فتاة وليست مختلة. لماذا أيام الأحد؟ حسنا لأنه وفقًا لتفسيرها اليوم الوحيد الذي أُقدم فيه على إغلاق الأبواب والنوافذ وفصل الهاتف لأترك بقية العالم في الخارج. تجعلني أضحك لأنها تؤكد أنه لو كان العالم بحجم مخدعنا وكنا نحن فقط ساكنيه الوحيدين، لأصبحت دماغها تعمل كساعة سويسرية. ولكل هذا بعدما انتهيت من قراءة (بالتاسار وبليموندا)، كنت أتعجل الوصول للمنزل لأعثر هناك على بليموندا التي تخصني، تلك التي تمتلك عينين مفتوحتين على المستقبل، وهي لا تزال في بيجامة نومها بينما تعتلي السلم وتمسك الفرشاة بيدها وتغني بعلو صوتها مع أغاني (رولينج ستونز)، منفصلة كما هي دائمًا عن

العالم، لأنه- يا مريم العذراء- إذا كان هناك شيء يجب ألا تفعله أجوستينا فهو الغناء، لكن أكثر شيء مُسَلٍ هو أنها لا تدرك هذا، فميك جاجر في وادٍ وهي لا تدنو حتى من عالمه، ربما لأن لا أحدَ في عائلتها جعلها تلاحظ هذا الأمر، أو أنها غالبًا مشكلة وراثية وجميعهم هناك لديهم آذان معيوبة. من يعرف كيف هم حقًا هؤلاء القوم. كنت سعيدًا وخفيف الروح لأنني أعرف أنه قريبًا سينصب فوق المدينة هذا الوابل الذي كانت بدأت بوادره تنسل من السماء، وأنه قريبًا سأصل لمنزلي لأشاهد هذا المنظر من النافذة وأنا على فراشي محتضنًا فتاتي، فهذا هو المكان الأمثل لمن يرغب في مشاهدة المطر، أو لأجلس لاحقًا على مقعدي الهزاز المصنوع من الخيزران بجانب المدفأة رافعًا قدمي فوق الصندوق الجلدي، ناجيًا من الطوفان الكوني، وأنا أقرأ الجريدة وأتفقد بين الفينة والأخرى بطرف عيني طفلتي أجوستينا، التي ستكون بكل تأكيد تفعل نفس ما كانت بدأته منذ أربعة أيام، أي طلاء الحوائط باللون الأخضر الطحلبي كما يوصي الـ(فينج شوي) بالنسبة للأزواج مثلنا.

أندهش اليوم من أنني حينما فتحت باب شقتي في ذلك اليوم، كان لدي يقين مطلق بأن لحظة الوصول هذه ستساوي لحظة رحيلي دون أي فارقٍ تماشيًا مع سير الأمور في إطارها الطبيعي. ربما لهذا- ورغمًا عن أنني في البداية رفعت يدي لدق الجرس- تراجعت واخترت فتح الباب بالمفتاح لعدم إفساد ما كان يحدث في الداخل دون أي معوقات منذ رحيلي، ولهذا أيضًا فإن عدم عثوري على أجوستينا أربكني وأصابني

بكرب رهيب ولطمة من الخوف، لكن ليس خوف من يستشعر مصيبة أو شيء مثل هذا، بل خوف من كان يُسلم وهو مغلق العنين بامتلاكه لسعادة تبين فجأة أنها ليست مضمونة. كل ما مر كان مجرد أربعة أيام، أربعة أيام من الغياب ليس لدي أدنى فكرة هزيلة عما قد يكون حدث بها، أربعة أيام معتمة ومتوحشة التهمت حياتي كأنها ثقوب سوداء. حينما ذهبت لايباجيه، كان هناك نصف حائط فقط قد دُهن باللون الأخضر ولدى عودتي كانت الصالة كلها خضراء، ومن هنا استنتجت أن زوجتي ظلت في المنزل تطلي الحوائط، ليس فقط في مساء الأربعاء، بل طوال الخميس. كان عقلي قد أوشك على الانفجار حينما أخذتها يوم الأحد من فندق (ويلينجتون)، لهذا ما يجب علي التحقق منه هو ما حدث في يومي الجمعة والسبت. لا تتعلق المسألة بأربعة أيام، بل بيومين فقط، ثمان وأربعين ساعة من الحياة، مُحيت من كل ساعات الذكريات.

***

من يدري ما الذي كان يقوله سكان ساسايما حينما يرون نيكولاس بورتولينوس جالسًا في ركن منعزل بأحد المقاهي، متشحًا بوشاح صوفي يلتف حول عنقه، رغمًا عن الحر، بنظرة متشبثة بالعدم. لكن هل يوجد مقهى في قرية ساسايما الريفية الممطرة النائية الواقعة في الجبل؟ وبما أن الإجابة هي لا، فإن هذا المقهى كان يتراءى فقط في ذكريات جلبها أجنبي معه من قارة أخرى. هو ليس مقهى، بل بالأصح خيمة للحبوب، كانتين، أو دكان للمثلجات في أفضل الأحوال ومن يدخلون هناك يجب أن يقولوا لدى رؤيته: إنه السيد الألماني أو إنه السيد المعلم، ليتركوه وحيدًا مع زجاجة الجعة التي يمسكها في يده، بعد أن سلّموا بأن الغرابة وغياب التركيز هي صفات في كل الألمان، أو على الأقل العازفين القادمين من هذا البلد. يحتسي جعته رويدًا رويدًا، متلحفًا بوشاحه، حتى تأتي بلانكا لكي تصطحبه، غاضبة من أولئك الذين يشككون في رشده، بل وعازمة أمام الآخرين على إنكار أي دليل على انهياره، لكن رغمًا عن عنادها، باتت هذه الغرابة تصبح أكثر ثبوتًا يومًا تلو الآخر، فحينما يصمت بورتولينوس يستحيل إلى وميض مبهم ينبعث من عينيه. هو ألم في أيدي متورمة تترك آثر رطوبتها فوق الطاولة، هو كمن يمشي خاضعًا بين عالمين يرفض تشاركهما مع أحد،

كشخص نسى أن يمرر فرشاة الشعر فوق رأسه بعد قيلولة، هو عصفور يعصف توتره بكل تحركاته. هو رعب صغير يخرج من داخله ويتبعثر كعدوى خفيفة، ولكن قبل كل هذا فإن جنون بورتولينوس ألم. هو الألم الهائل الذي يسكنه.

الآن، وبعدها بفترة طويلة، فوق المدفأة الموجودة في منزل إوخينيا ابنته الصغرى، تتدلى صورتان مؤطرتان للجد بورتولينوس، واحدة أُخذت له وهو في التاسعة والعشرين من عمره والأخرى وهو في التاسعة والثلاثين، ما يسمح بإرساء فترتي ما قبل وما بعد، كأنه إعلان عن جراحة تجميلية أو منتج للنحافة، والفارق هنا أنه في هذه الحالة بدلاً من ظهور أمارات التحسن، فإن كل ما يتجلى هو ضياع كامل، ويكشف هذه التناقض كيف أنه في ظرف عشر سنوات فقط، سيطرت على العازف وتيرة بيولوجية متوحشة يجب أن تكون مرتبطة بالاضطراب المتنامي لروحه. في مرحلة "ما قبل": هناك مظهر ودود، مغري؛ خصلات تجد طريقها بنعومة لتزيين رأسه، نظرة متفحصة لكنها لا تتخلى عن كونها حالمة، حياة داخلية حادة لكنها لا تزال متزنة، أما في مرحلة "ما بعد" فوجهه رخو متألم كأنه سيدة متهدلة عمرها ٥٠ عامًا تطغو عليها المعاناة، ملامح ذائبة ونظرة قاتمة ومرتبكة، جفون منتفخة كأنه امرأة شديدة القبح بكت كثيرًا، خصلات بلا بريق ويبدو كأنها مُشطت عنوة ناحية أذنه اليسرى. في مرحلة "ما قبل" فكل شيء كان يمكن الفوز به وفي مرحلة "ما بعد" بات كل شيء على وشك

الضياع. هو تسجيل لضرر نفسي لا يمكن عكسه، أو بمعنى آخر تأثير مسموم في انبثاقات الروح.

* * *

يومًا تلو الآخر عقب تلك الواقعة المظلمة، كنت أركن سيارتي لفترة أمام فندق (ويلنجتون) على مسافة كافية من الباب الرئيسي لكي لا يرتاب الحراس في وجود شاحنتي المتهالكة، لأراقب عبر المرآة الأمامية حركة القوم وهم يدخلون ويخرجون سواء بحقائب أو دونها، جلبة الحراس الشخصيين حول رجل ما يهبط من سيارة (مرسيدس) مصفحة، قلق الأجانب الذين يخشون من شوارع بوجوتا، الانحناءات التي يوزعها حامل الحقائب على يمينه ويساره بملابس المارشال، فصال بائع حلوى متجول، الخطوات السريعة لامرأة تعبر الشارع. إيجازًا كل الإشارات الطبيعية والمتوقعة من كل هؤلاء الذين يمكن اعتبارهم من سكان أرض العقل. اللعنة! يا لحظهم! أتساءل إذا كان أي منهم يعي هذه النعمة الكبيرة. أعترف بأنني لا أعرف ما الذي كنت أنتظره هناك بسيارتي أمام باب هذا الفندق. أن يعود عشيق أجوستينا وأتعرف عليه وأنقض عليه وأحطم وجهه؟ أفترض أن الإجابة لا، أن أنقض عليه وأطلب منه تفسيرًا لما حدث لزوجتي؟ حول الضرر الذي فعله بزوجتي؟ ربما، لكن حقًا لا أعتقد أن هذا الرجل سيظهر هنا بل وفي أعماقي لا أعتقد أنه عشيقها، ففي النهاية كان كل ما فعله- وأنا على يقين منه- هو أنه فتح لي بابًا، فما الذي يمنع أن يكون أحد الفراشين؟ هكذا فكل ما

كنت أتحسس عليه هو شبهات، عبر المراقبة من بعيد بأمل صبياني فائر، كأن الزمن قد يتراجع لأتمكن من تفادي حدوث تلك الواقعة المظلمة، لأن مراجعة ما حدث مرة تلو الأخرى بات عذابي الأساسي، أعني مراجعته لتنظيمه وفقًا لمعايير جديدة، لأتخيل طرقًا مختلفة لما قُضي بالفعل، لأحول وبأثر رجعي مسار الأمور وأمنعها من أن تصب في النهاية عند نقطة الألم الحاد التي وصلت إليها أجوستينا، التي وصلنا إليها معًا. أعبر أبواب الفندق أحيانًا وأتحقق أن الرجل الكبير صاحب النظارات الذي ساعدني يوم الأحد حينما ذهبت لجلبها لا يعمل في وردية الاستقبال، أجلس على إحدى طاولات اللوبي وأطلب شاي مع اللبن يجلبه لي نادل داخل كوب من الفضة مقابل سعر باهظ. أظل رابضًا بالمرصاد في هذا المكان وسط همة هؤلاء القوم، انتظارًا للحظة المناسبة للاقتراب من أحد موظفي الاستقبال للسؤال عن سجل الضيوف في عطلة ذلك الأسبوع. أفترض أنهم إذا تركوني أراه، فعلى الأقل سأمتلك قائمة بالأسماء وربما خلف هذه الأسماء سيوجد شخص ما يُمكنه إخباري بما أحتاج لمعرفته، لكن لا أتجرأ على طلبها لأنني أعرف أنهم لن يقدموها لي، بل وقد يطردونني بالهراوات لسعيي للتحقق مما لا يعنيني، لكنه بالفعل يعنيني، كنت لأصرخ لهم بهذا، هذا هو ما يعنيني في هذه الحياة، لكنهم على الأرجح سيتصلون بالأمن، وينظرون لي كمُختطِف محتمل، لكن فجأة تبدلت الأمور، فبين العاملين في الوردية الليلية ميزت فتاة مشاكسة. أرى في تصرفاتها امرأة تكسب عيشها بالذراع، في طريقة نظرتها مباشرة إلى الأعين، وتنورتها الأقصر بعشرة

سنتيمترات عن بقية زميلاتها، في قوة العزم التي تحرك بها يدها ذات الأظافر المطلية شعرها المموج نحو الخلف. هيئتها الكلية تقول أنها مستعدة لتخطي كل قيود العمل في فندقها والمخاطرة بوظفيتها مقابل العدم، أو مقابل مساعدة شخص في حاجة. مديرها مستاء بكل تأكيد من تنورة الديسكو شديدة القصر التي ترتديها وطريقة تصفيف شعرها المخالفة للوائح. كل هذا فقط لأن هذه هي طبيعتها، لأنها تبدو شخصية قوية وتضامنية ومعتادة على فعل ما يحلو لها. هذا البلد مليء بأناس مثلها وتعلمت أن أتعرف عليهم بمجرد النظر، لكن ماذا لو لم يكن الأمر صحيحًا؟ أخشى من أرتكب هفوة معها وفي النهاية لا أتجرأ على سؤالها بخصوص أي شيء، وبكل تأكيد هذا الرفض المبدئي ليس بنفس حجم قناعتي بأنه بمجرد عودتي لمسرح الأحداث، فإن تلك الأخيرة ستبدأ في التكرار كأحد أشكال الإعادة التي لا تُطاق. أقصد أن ما يكبحني هو الشك في أن الأحداث لا تزال تختلج في الموقع الذي حدثت به وأخشى من أن الذهاب لمواجهتها. غدًا سأفعلها، قلت هذا لنفسي بينما أبتعد عن فندق (ويلينجتون)، غدًا سأعود وسأنتظر انتهاء "المشاكسة" من ورديتها، وسأدعوها لتناول القهوة بعيدًا عن الفندق وبعيدًا عن عين المشرف، لأبدأ معها تحقيقي.

***

بالطبع لم أصدق أي خراء مما قاله "العنكبوت" عن المراهنة عليه بكل ثقة لأن عصفوره كان شبع من الموت. إذا كنت قد وافقت على

الرهان رغمًا عن كل شيء، فهذا لأنه داخلي لم تكن تهمني الخسارة، فكل الأموال التي سيأخذونها مني سأخصمها من الحصة التي يرسلها لهم بابلو إسكوبار عبري، دون أن يدركوا وقوع الأمر من الأساس، وكيف سيدركونه وهم من كانوا مستعدين للتصفيق بآذانهم أمام الطريقة المجنونة التي تضخمت بها ثرواتهم؟ بأكثر الطرق نظافة، دون أن تتسخ أيديهم بأعمال قذرة أو السقوط في أي خطيئة أو حتى تحريك إصبع واحد، لأنه كان يكفيهم فقط الانتظار حتى يسقط المال القذر عليهم من السماء، بعد أن تم غسله وتبييضه بل وتطهيره بشكل مسبق، أم كنتِ تعتقدين يا ملكتي أن الأمور تجري بصورة مختلفة؟ هل كنتِ تجهلين من أين يأتي شقيقك خواكو وبابا وأصدقائهم الكبار وكل قوم نادي (لاس لوماس) للبولو وصفوة مجتمع بوجوتا وميديين بهذه الدولارات، ليفتحوا تلك الحسابات اللذيذة في الباهاماس وبنما وسويسرا وفي أي ملاذ ضريبي كأنهم رابطة (جيت سيت) دولية؟ لماذا تظنين أن عائلتك كانت تستقبلني في منزلها كسلطان؟ لماذا كانوا ينفضون الأتربة من أجلي من على أطقم الكريستال من ماركة (باكاغا) أو أدوات المائدة من ماركة (كريستوفل)؟ لماذا كانوا يقدمون لي حلوى الموس والباتيه وكعك البليني المجهز باليدين الصغيرتين للسيدة والدتك، رغمًا عن أنني تركتك حُبلى، ورفضت الزواج منك، كما كان يطلب أبوك حتى بعد الضغط؟ لماذا تظنين أنه رغمًا عن كل شيء لم يتوقفوا عن استقبالي كسلطان، متجاهلين غضبك وشعورك بالإذلال؟ حسنًا لأنه حتى السلطعون الذي اعتادوا أن يقدموه لي في طبق، كانوا يدفعون ثمنه بفضلي! لا تضعي قناع الاندهاش على

وجهك، أيتها الدمية الجميلة، لا تدفعيني للضحك، لا تأتي لتخبريني أنك لم تكوني قد تمكنتِ من حل هذا اللغز الصغير، ففي أي مكان حينئذ ذهبت قواك على التنبؤ؟

كان العمل الذي أديره يخلو من الدماء لكنه كثير العصارة، ولم يكن له صلة بمركز (أيروبيكس)، فهو مجرد واجهة. لكي تنزعي ولو لمرة واحدة تلك الغمامة من على عينيك، سأبسط لك الأمور في كلمتين لتريها بتقنية متعددة الألوان وبزواية واسعة: كان "العنكبوت" وسيلفر وخواكو وآخرون غيروهم يسلموني شيكات بالبيزو الكولومبي، كل واحد منهم بمبلغ أوصله لإسكوبار، وحينما يتحصل إسكوبار على ربحه من شحنة الكوكايين في الولايات المتحدة، تُعاد استثماراتهم مجددًا إليهم عن طريقي، لكن.. يا للسحر! يا للسحر! هذه المرة بالدولارات وبمكسب رائع؛ ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف أو حتى خمسة أضعاف وفقا للمزاج المقدس لـ"سان إسكوبار". بهذه الطريقة أصبحوا، دون منازعات مع القضاء أو إلحاق أي عار بهم أمام المجتمع، مستثمرين فخورين في السر بعالم المخدرات لتسمين حساباتهم في الخارج إلى حد الانفجار. كان إسكوبار يسعد لأنه يتمكن من تبييض ثروة مهولة وأنا أيضًا لم أكن لأشكو، فقد كنت أحتفظ بمبلغ له قيمته. تنطوي المسألة على مخاطرة، هي موجودة بكل تأكيد، ولمواجهتها كان يجب التحلي بدم بارد، فلو لم تصل الشحنة فإن بابلو لم يكن يحتسب استثمارهم. حسبة الخمسة أضعاف كانت تجعل لعاب "الحيتان القدامى" يسيل، لكن كانت لها عيوبها كأي شيء في هذه الحياة وهو عدم وجود حق البكاء،

بمعنى أخرى أن المستثمرين الأوليمبيين لم يكن يحق لهم الاعتراض أو قول إن هذا المبلغ يخصني في حالة تأخر أموالهم أو عدم وصولها إليهم من الأساس. هذا بغض النظر عن أن مخاطرة الموت في أي لحظة كانت قائمة لأن "سان إسكوبار" يمنح نفسه أرواح من يغتنون على حسابه. لا أعرف إذا كنت تفهميني أم لا، يا دميتي الشجاعة، أعرف أن الشؤون المالية ليست نقطة قوتك، ما أرغب في قوله لك إنه في اللحظة التي تضعين فيها في جيبك دولارًا قادمًا من بابلو، فبصورة آلية تصبحين إحدى فيش لعبه، يجعلك واحدًا من صبيانه الذين يمتلكهم، وفي ظل كل هذا أظن أنك تخيلتِ بالفعل من الذي كان يخاطر بمصيره في أراضي الأمريكان بينما يعبث في خصي شجعان إدارة مكافحة المخدرات، فهو لم يكن أحد سوى صاحب هذا الصدر المستع، ميداس مكاليستر، خادم جنابك! فبمجرد أن يرسل بابلو ليبلغني أن "الطبخة" قد تمت، كنت أسافر إلى ميامي لأقيم في فندق (كوكونت جروف) المتواضع انتظارًا لوصول الحقائب المعبئة بالأموال القادمة من بيع المخدرات في الشوارع. كنت أحتفظ بنصيبي وأوزع البقية على مستثمري بوجوتا الأتقياء. تمت المهمة بنجاح ويعود "ميداس" لمنزله الجميل!

***

غدًا. سأفعلها غدًا. ظللت أقول لنفسي هذا كل يوم وأنا أجلس في لوبي فندق (ويلنجتون) أحتسي ذلك الشاي المبالغ في سعره بصورة سخيفة، حتى تجرأت. دخلت (ويلنجتون) يوم الجمعة الماضية نحو

التاسعة مساءً وأنا أعلم أن "المشاكسة" ذات الأظافر شديدة الطول والشعر المموج ستكون موجودة في الاستقبال وبالفعل كانت هناك تعمل بمهارة وفاعلية وقدرة على الارتجال بعدة لغات مختلفة وفقًا لجنسية كل نزيل أجنبي، لهذا اقتربت منها وأنا أرسم أفضل وجه لدي لكي لا تلحظ من النظرة الأولى أنني لست سوى شيطان مسكين صرعه الغم بعدما ضربه الجنون هو والمرأة التي يحبها. قلت لها بأفضل أداء لدي لشخصية رجل شديد الأهمية أنني أتيت للقيام بحجز لزوج من الأصدقاء يرغبان في قضاء بضعة أيام في بوجوتا. توقف! خطأ! ارتكبت الخطأ الأول؛ فلا أحد يأتي لبوجوتا لأنه يرغب في هذا، يأتي فقط من لا يجدون سبيلاً غير المجيء إلى هنا.

- سيأتي هذان الصديقان إلى بوجوتا وطلبا مني القيام بحجز
- حسنا سيدي لا توجد مشكلة.
- لكن بالفعل يا آنستي توجد مشكلة صغيرة، فقد طلبا مني تفقد الغرفة قبل إعطائهما الضوء الأخضر.

وهنا بدا لي أنها بدأت تنظر لي بعينين متفحصتين كشرطية. هل هي شرطية؟ ككل موظفي الاستقبال في كل فنادق العالم؟

- المسألة أن هذين الصديقين سبق لهما الإقامة هنا في هذا الفندق منذ عدة أشهر.

توقف! كنت أقدم تفسيرات أكثر من اللازم.

ـ ما يحدث أنهما يرغبان في العودة لنفس الغرفة التي شغلاها في المرة السابقة، فقد أعجبتهما الحديقة التي تُرى من النافذة.

سألتني عن أي غرفة أتحدث وأجبتها: رقم ٤١٣ وشعرت ببعض الإعياء حينما نطقت هذا الرقم المرتبط بشكل وثيق بتعاستي.

ـ لا يمكننا أن نتفقد الغرفة ٤١٣ لأنها مشغولة في الوقت الحالي يا سيدي.

أخبرتني بهذا وهي تتفقد الشاشة وتضرب على الأزرار الصحيحة بلوحة مفاتيح الكمبيوتر، رغمًا عن أظافرها شديدة الطول، هذه الأظافر العشرة أعجوبة جديرة بالدخول في موسوعة جينيس للأرقام القياسية، كل واحد منها مطلي بشكل مثالي في صورة ثلاثة قطاعات بالأحمر والأبيض والأزرق، كأنها علم مصغر لفرنسا. راقبتها وأنا أسأل نفسي إذا كانت هي من ترسم هذه الزينة بنفسها. حسنًا، هي تطلي أظافر اليد اليسرى بيمناها، واليمنى بيسارها؟ يجب أن تكون تلك الفتاة لديها مهارة فائقة استخدام كلتا اليدين لإنجاز مثل هذا العمل المبهر وعلى الفور طارت أفكاري نحو أظافر أجوستينا البيضاوية الجميلة، القصيرة دائمًا والتي لا تُطلى أبدًا، نحو علبة اللؤلؤ التي كانت تخص جدتها بلانكا وتحتفظ فيها بالمبارد وملاقط الشعر وأقلام الأظافر المصنوعة من خشب البرتقال وبقية أدوات الـ"مانيكير" الأخرى. أجوستينا تنطق الكلمة بالفرنسية وحينما أسمعها أغضب وأهاجمها:

- توجد كلمة بالإسبانية وهي شبه متطابقة معها يا أجوستينا. نحن نقول "مانيكورا". ألا ترين كم يسهل نطقها؟ في هذه الأراضي نحن نضع ال"مانيكورا" وليس ال"مانيكير"، والميزة في هذا الأمر أننا لا نواجه صعوبة كبيرة في نطقها.

أتعرق، بينما أتكئ على كاونتر الاستقبال في فندق ويلنجتون، من شدة وخز الضمير بعد إدراكي للفظاظة التي كنت أفرض بها رقابتي على أهواء الطفلة الثرية المتبقية في أجوستينا. أعترف متألمًا بأنني كنت كريهًا معها أحيانًا، لكن لحسن الحظ فإن أجوستينا كانت تتجاهل تعليقاتي اللاذعة بالكامل لتواصل فعل ما يحلو لها كأن شيئًا لم يحدث، ولم تكن فقط تعود لتكرر نطق "مانيكير" عشر مرات أخرى، بل كانت تؤكد أن القلم الذي يُظهر هُليل الأظافر يجب أن يكون من خشب البرتقال. كم كان تقليديًّا أن تقول أجوستينا إظهار هُليل الأظافر وليس إزالة جلدها الميت كما يقولها العالم بأكملها. زوجتي قادرة على العيش في منزل فقراء مثل منزلي، حيث نأكل الأضلاع فقط لأننا لا نقدر على شراء لحم الخاصرة، لكنها في نفس الوقت تعتبر أغراض يصعب العثور عليها مثل أقلام الأظافر من خشب البرتقال أشياءً لا يمكن الاستغناء عنها، فمنذ عام تقريبا حينما سافرت مدعوًا من قبل جامعة ألمانية إلى ندوة عن الشاعر ليون دي جريف، أنفقت تقريبًا كل الأموال الإضافية التي كانت معي في السوق الحرة على شراء كريمات تجميلية من ماركة (كلينيك) كانت أجوستينا قد طلبتها مني. مارتا الينا، زوجتي الأولى، دائما ما اعتنت بنفسها بكريمات (بوندس) التي يمكن الحصول عليها من

أي صيدلية، لكن أجوستينا، لا، فهي مثل كل قومها، لديها تلك العادة المستهجنة بازدراء كل المنتجات المصنعة محليًا بشكل منهجي، بل والاستعداد لدفع أي مبلغ للحصول على تفاهات من الخارج لا يمكن شراؤها من هنا.

تتوقف أفكاري الآن عند وجهها، عند عينيها السوداوتين اللتين توقفتا عن النظر لي. أنا أصبحت غير مرئي منذ توقفت أجوستينا عن النظر لي، أصبحت رجلاً خفيًا. ظللت منغمسًا في ظنوني حتى انتشلتني "المشاكسة" منها:

- لكن إذا كانت لديك رغبة، يمكننا تفقد الغرفة رقم ٤١٦ فهي على نفس الشاكلة تقريبًا.

جعلني صوتها أعود فجأة لأرض الواقع وتعذر عليّ فهم أين أنا أو من الذي يحدثني، فأصرت في سؤالها:

- سيدي؟ أخبرك بأنه إذا كانت لديك رغبة، فيمكننا تفقد الغرفة ٤١٦.

- الغرفة ٤١٦، نعم، بالتأكيد، شكرًا آنستي طالما كانت الغرفة ٤١٦ تُطل أيضا على حديقة أشجار الأكاسيا.

- هي أيضًا تُطل عليها لكن من زاوية مختلفة. أعتقد أنه يمكن مشاهدة أشجار الأكاسيا. تفضل بإخباري بموعد وصول صديقيك.

اخترت تاريخًا قامت بتدوينه، ثم قالت بينما تضغط بأعلام فرنسا المصغرة على لوحة المفاتيح:

- لا توجد مشكلة، حينها ستكون الغرفة ٤١٣ متاحة وأؤكد لك أن أشجار الأكاسيا هذه لن تتحرك من مكانها.

أجبتها بضحكة حمقاء لتجاوز سخريتها:

- المشكلة أنهم من القوم الذين يركزون في مثل هذه التفاصيل بشدة.
- أكيد يا سيدي. العميل هو صاحب الكلمة الأخيرة.

فاجئتني "المشاكسة" وأخذتني على غفلة حين سألت عن اسمي وأجبتها بأنه سرخيو ستيبانسكي، الأنا الأخرى للشاعر ليون دي جريف، فهذا هو أول ما خطر على بالي. لا أعرف لماذا لم أرغب في الكشف عن اسمي لتلك المرأة التي قررت الوثوق فيها.

- اتبعني يا سيد ستيبانسكي.

قالتها كأنه أمر أكثر من كونه طلب، لهذا سرت خلفها نحو الدور الرابع. كنت أعود نحو موقع الأحداث لأبث الحياة فيها مجددًا، لأحصل على معلومة ما، لأتذكر، لأتقيأ، لأفرج عن كرب، لأعذب نفسي، لأتشبث بشيء ما. الحقيقة أنني لم أتمكن من تحديد الغاية، لكن صدمتي كانت تتنامى مع كل خطوة وبدأت أنفاسي تتقطع، لدرجة أن "المشاكسة" سألتني إذا كنت في حالة جيدة وأجبتها:

- لا مشكلة. دخنت أزيد من اللازم والسلالم تقطع أنفاسي.

لكن لأننا صعدنا في المصعد جعلتني أدرك بواحدة من نظراتها أنها بدأت تشك في كوني شخصًا غريبًا، لكنها رغمًا عن هذا قالت لي بأدب:

ـ بالفعل. السجائر مشكلة كبيرة.

كانت تسير أمامي ورغمًا أن نوعًا ما من الموت كان يسكن ما بين صدري وظهري، إلا أنني لم أتوقف عن النظر نحو ساقيها، كانت تلك الآنسة القمحاوية التي ظلت تعدد لي مزايا الفندق التي تجعله يستحق كل واحدة من النجمات الخمس التي تضيء شعاره جميلة جدًا وقلت لنفسي:

ـ آه لو عرفت تلك الفتاة أنني أحتضر.

في الوقت الذي واصلت فيه الثناء على المطعم الإيطالي والغرف التي أعيد تحديثها، والنادي الصحي الذي يضم خدمة مدربين محترفين، والبار الموجود المفتوح طيلة الـ٢٤ ساعة في الدور الأخير، كان ذلك الألم الممض يتعقد داخلي، فقد سبق سرت عبر نفس هذا الممر الذي يبدو أن لا نهاية له، وعلى نفس البساط الذي يُهمِد خطاي وها هو الباب يُفتح مثلما انفتح حينها. كان الرجل الأسمر الطويل الذي استقبلني حينها في الغرفة ٤١٣ يبدو أرقًا أكثر من كونه قلقًا، لا زلت أحتفظ بتصور كامل لطوله ولون بشرته، لكن لست قادرًا على تحديد تفاصيل باقي هيئته، تظهر كرسوم مبهمة في ذاكرتي فربما لم أتمكن حقا من رؤية وجهه، لم أسمع صوته أيضًا لأنني حينما سألته عن أجوستينا اقتصر رد فعله على تركي أدخل دون أن ينبس ببنت شفة، لذا لم أتمكن من

التحقق إذا كان الصوت الذي عثرت على رسالته في المجيب الآلي بمنزلي حينما عدت من ايباجيه هو صوته، هذا الصوت الذي أخبرني أن أذهب لجلب أجوستينا من هذا الفندق. فتح لي الرجل الباب ورحل فورًا، لم يعد موجودًا بعدها ولو للحظة حينما بحثت عنه ببؤس لمعرفة ما الذي حدث لزوجتي.

بمجرد عبوري للباب تراءت لي أجوستينا متكومة على الأرض وهي مستغرقة في النظر عبر النافذة نحو أشجار الأكاسيا، يصدر صوت من اللاسلكي الذي تمسكه "المشاكسة" في يدها لترد، تتحدث مع أحد قليلاً وبعدها تخبرني:

- اعذرني إذا تركتك لدقيقة، سيد ستيبانسكي، لكنهم استدعوني للأسفل. لا تقلق سأعود فورًا.

كانت تهدئني لاشتباهها بأن شيئًا ما يحدث لي، لكن عقلي كان في مكان آخر، لم أكن أفهم ما كانت تقوله.

- تفضل بتفقد إن كان هناك شيئًا ينقص الغرفة، ها هي خزانة الملابس وداخلها صندوق الأمانات وها هي دورة المياه، التلفاز يعمل هكذا، سأعود على الفور. اعذرني لثانية، سيد ستيبانسكي.

في ذلك اليوم، وهي هناك في ركنها، أشاحت زوجتي بنظرها عن أشجار الأكاسيا. كان كل شيء يحدث ببطء لدرجة أنه ترك انطبًاعا داخلي بأن كل واحدة من حركاتها مؤطرة بلحظة محددة وفريدة. أدارت

رأسها نحوي وحينما رأتني بدت كأنها عادت للحياة. لانت ملامح وجهها فجأة كأنها قد اغتسلت بعزاء لا ينضب. نهضت وجاءت نحوي كمن يعود إلى ذاته بعد قرن من الغياب.

ـ أصبحت هنا بالفعل؟

قالتها لي وعانقتها بقوة كبيرة، شعرت بها تلتصق بجسدي وعلمت أننا قد نجينا، لم أكن أعرف من أي شيء قد نجينا وهمست في أذنها:

ـ لقد مضى كل شيء يا أجوستينا. أيًا كانت خطورته فقد مضى، هيا نذهب للمنزل يا حبي.

لكن شعرت بغتة بكل جسدها يتصلب قبل أن ينبذ جسدي، إذا كانت في اللحظة الأولى قد بحثت عني، فإنها لاحقًا ابتعدت بخشونة، إذا كانت قبلها قد عرفتني، فبعدها بلحظة لم تكن أعرف من أنا أو لم تكن ترغب في معرفتي. بدأت إشاراتها تكتسب طابعًا مسرحيًا ومصطنعًا ونظرت لي باستياء عميق، ربما لم أكن أنا من تنتظره، هذه هي الفكرة التي تخترق رأسي الآن كخنجر صغير.

ـ لن أذهب معك إلى أي مكان.

حذرتني وبدا صوتها زائفًا كممثل سيء يتلو نصا من الذاكرة. أدْبَرَتْ وعَادَتْ إلى ركنها ثم انهارت مجددًا فوق السجادة كدمية مكسورة وعاد لتغرق في النظر لحركة الرياح المنطبعة على أفرع أشجار الأكاسيا.

***

إذًا، هل تعتقدين حقًا أن عائلتك الكريمة لا تزال تعيش من خيرات الإرث الزراعي؟ حسنًا، فلتنسي تلك الرواية الرومانسية، أيتها الدمية العتيقة، لأن مزارع جدك لوندونيو المنتجة باتت اليوم مجرد مكان للمشاهد الطبيعية، لهذا فلتهبطي للقرن العشرين واركعي أمام جلالته الملك "دون بابلو" سيد الأمريكات الثلاثة، الثري إلى حد الجنون، بفضل حرب الـ"جرينجوس"[٥] المجيدة على المخدرات، هو سيد ومالك محسوبك ميداس وشقيقك خواكو أيضًا والمرحوم والدك، أم لم تتمكني من رؤية أن كل ما يزدهر في الهكتارات الكثيرة التي ورثها أخوك هو أحصنة البولو ودور الترفيه ومشاهد الغروب وتوهج الشمس عند رحيلها، فقط لأن الأموال تصل له نقدًا بعذوبة وفي الخفاء عبر ألاعيبه مع الحكومة وغسيل الأموال مع بابلو؟ هل تعتقدين أن بابلو يلجأ لأخيك أو "العنكبوت" أو أي منا لأنه حقًا في حاجة لأموالنا؟ ربما كان الأمر هكذا في البداية، لكن بعدها لا، يا قلبي، بكل تأكيد لا، فهو لا يزال يفعل هذا للسيطرة علينا، لقد ابتكر هذه الحركة لكي تركع أوليجاركية هذا البلد أمامه، أفهمني هذا الأمر بنفسه وبعبارة واحدة، في المرة الأولى من المرتين اللتين رأيته بهما شخصيًا. جعلني أسافر إلى ميديين على متن طائرة تجارية وانتظرت في فندق بوسط المدينة حتى جاء رجاله لاصطحابي. ذهبوا بي نحو مطار سري ومن هناك إلى مزرعة (نابوليس) على متن طائرته الشخصية من طراز (سيسنا تايتن ٤٠٤) وتحت قيادة أمريكي من قدامى حرب فيتنام. نابوليس؟ نابوليس هو

---

(٥) لفظ يستخدم في أغلب دول اللاتينية للإشارة لمواطني الولايات المتحدة بشيء من السخرية.

الاسم اللعوب الذي انتقاه بابلو لواحدة من مزارعه الكثيرة، تقع في قلب الأحراش، لكن بها ثلاثة مسابح أوليمبية ومضمار للـ(موتوكروس) وحديقة حيوان من الفردوس، بها أفيال وجمال وطيور فلامنكو وكل أنواع الحيوانات، لأن بابلو- صدقي أو لا تصدق- من أنصار (جرينبيس) ورياضي ويساري ومدافع عن حقوق الحيوان وكل هذا الهراء. حينما قدموني له شعرت بالإحباط، كنت مستعدًا للتعرف على "زعيم كل الزعماء"، لكن ما رأيته كان رجلاً سمينًا له شارب صغير وشعر أسود لا يتوقف عن تصفيفه وكرش هائل يتدلى من فوق حزامه. كانت نحو الثانية عشر ظهرًا ودرجة الحرارة فظيعة وقد أنهكني السفر والتوتر ووجدت نفسي أسقط هناك دون أي مقدمات وسط عربدة في عز أوجها: بابلو وسفاحوه يطفون وسط دخان الماريجوانا ويداعبون بعض راقصات السامبا اللاتي كانوا قد جلبوهن رأسًا من ريو دي جانيرو على متن طائرة أخرى بأزيائهن المليئة بالريش والترتر. وكأن الحر لم يكن كافيًا ظلت هؤلاء الفتيات يرقصن السامبا أمامنا إلى حد الاختناق، كن يندفعن نحونا بمحاسنهن دون ترك فرصة أمامنا للحديث، وأنا وسط كل هذا أتصبب بحارًا من العرق، محتجزًا وسط كرنفال اللحم هذا، وكل ما كنت أرغب فيه هو توضيح شروط العمل سريعًا لأرحل من هنا لمرة واحدة وأخيرة، لكن بابلو كان مضيافًا معي، ربما خجولاً بعض الشيء، وسألني إذا كنت أرغب في احتساء كأس آخر من الويسكي، أو سيجارة صغيرة ملفوفة من ماريجوانا

(سانتا مارتا جولدن)، أو تناول قطعة صغيرة من لحم الكبش المشوي، أو حتى راقصة لبعض التسلية، لأجيبه:

- لا، شكرا جزيلاً، دون بابلو، للأسف أنا هنا في عجلة، للأسف حقًا يا زعيم، لكن سأحب أن أعود لبوجوتا في أسرع وقت.

بينما كنت أقول داخل نفسي أن أخر ما ينقصني في هذه الحياة الداعرة هو الانتشاء والشرب حتى الثمالة وسط هذا الحر الجهنمي لأشبع رغبتي في لحوم الكباش والنساء بصحبة عصبة المجرمين هذه ذوي الفانلات الداخلية. يا إلهي لا تتركهم يخمنوا أفكاري السيئة، وإلا قد يطهوني على الشواية أنا الآخر. دفع بابلو واحدة من الفتيات من فوقه واستدعاني لأحد الجوانب وقبل أن يودعني قال لي جملة واحدة، جملة واحدة فتحت عينيّ مرة واحدة وللأبد:

- يا لفقر أثرياء هذه البلد، يا ميداس يا صديقي.، يا لفقر أثرياء هذه البلد!

أتفهمين ما ينطوي عليه الأمر، فتاتي أجوستينا؟ هو نوع من الأمور التي يفترض ألا يفهمها أبدًا من وُلد فقيرًا، لكن يبدو أن هذا السمين بذكائه المتوحش، قد التقطها وهي في الهواء من المرة الأولى، ولهذا هو من يفوز حاليًا باللعبة أيتها الدمية الجميلة، لا مجال للشك في هذه المسألة، فهو الذي ولد في كوخ، ونشأ وسط البؤس، وكان دائمًا مغلوبًا على أمره بسبب الثراء الفاحش والسلطة المطلقة لمن ظلوا طيلة أجيال يسمون أنفسهم أغنياء، اكتشف فجأة السر العظيم، السر المحرم،

وهو أنه في تلك الفترة بحياته قد أصبح بالفعل أغنى مئة مرة من أثرياء هذا البلد، وأنه وفقًا لمزاجه، يمكنه أن يجعلهم يأكلون من يده ويملئون جيوبهم منه. أوليجاركية بلدنا لا تزال مقتنعة بأنها تسيطر على إسكوبار، لكن ما يحدث هو العكس تمامًا. بالنسبة للـ"عنكبوت" سالاثار وللسيد والدك وللأستاذ شقيقك، فإن بابلو ليس سوى أحد العامة الذي يرفع قبعته أمامهم. جميعهم يرتكبون نفس الخطأ الذي ارتكبته، أميرتي أجوستينا، وهو خطأ انتحاري، لأن الحقيقة هي أن هذا الرجل السمين قد أكلنا جميعًا وأجسادنا لا تزال نيئة، لهذا قد انتفخ بطنه بهذه الصورة. وأنا؟ يمكنني القول إنني كنت نادل إسكوبار، قدمت له أصدقائي على صينية، وفوقهم نفسي كتحلية وبعدها سلمته فوار (الكا سيلتزر) لتسهيل الهضم.

* * *

آه لو كلّمتني أجوستينا! آه لو تمكنت فقط من اختراق رأسها الذي أُصبح مساحة محرمة عليّ. أخرجت ألبوم الصور الذي تحتفظ به منذ كانت طفلة، في محاولة لانتزاع أي شيء، منها وبدأت في تفقده بلا تعجل أو إبداء أي اهتمام زائد، لأتوقف بالصدفة عند أشخاص في عائلتها أعتقد أنني قد تعرفت على ملامحهم. هذه السيدة الطويلة والنحيفة يجب أن تكون إوخينيا، أمها. أندهش لأنها لا تبدو شمطاء للغاية كما تخيلتها، بل على النقيض من هذا فهي في كل الأحوال تبدو كبياض الثلج أكثر من كونها شمطاء، بشعرها شديد السواد وشفتيها شديدتي الحمرة وبشرتها شديدة البياض.

- انظري يا أجوستينا. انظري كم الشبه بينك أنت ووالدتك.

لكن أجوستينا لا تعيرني أي انتباه.

هناك أيضا ذلك الفتى المتباهي الذي يظهر في تلك الصورة متنكرًا كلاعب بيسبول. لا يمكن انتظار أي شيء جيد منه. هو أسمر وأكبر من أجوستينا. يجب أن يكون شقيقها خواكو، المهتم دائما بالقيام بأي عمل بطولي أمام الكاميرا، كرفع غرض ثقيل أو القفز رأسًا في حمام السباحة، أما هذا الطفل الأصغر، ذو الوجه الشاحب وعينين بلون الكهرمان الأسود، مثل والدته، مثل أخته، يجب أن يكون آخر العنقود كارلوس بيثتي الذي يدعونه "بيتشي" والذي يبدو كأنه قد أُنقذ للتو من دار للأيتام. كل المجموعة العائلية تظهر هنا وهم يجلسون على شكل هلال ويبتسمون للمصور، ومن هي هذه الحسناء التي تضع ساقًا جميلة فوق الأخرى؟ لكن- يا مريم العذراء!- هل هي الخالة صوفي؟ يا للجمال الذي كانت عليه الخالة صوفي منذ سنوات! ولوندونيو، والد أجوستينا، شيخ العشيرة؟ لا يظهر في أي مكان، إلا إذا كان هو من يلتقط الصور، ففي النهاية لابد أن يلتقطها أحد، كل شيء يشير إلى أن لوندونيو يُدير هذه المسرحية الهزلية لكنه لا يُمثل فيها. يوجد أناس آخرون وتظهر وفرة في الإيماءات اللطيفة، ألعاب بالكرة، واحتفالات جماعية. هي مشاهد تبعث على الراحة، الشعائر المتوقعة لنوع السعادة الذي يُحتفظ به في صندوق: سنة حلوة يا جميل، أوبرا عايدة، أصدقاء العمر بجانب حلقة من النار، موسيقي (ريكييم) لموتسارت، ويوم وُلدت ولدت كل الزهور، الفهرس المعتاد لحياة تسير في دوراتها المحددة

بصورة منظمة، كأن هذه الحياة كانت تفعل هذا عن عمد لكي يتمكن المصور من التقاط بعض لحظاتها ولصقها مُرتبة في ألبومات.

وفي أي مكان غير الوسط، كانت تظهر أحيانًا الطفلة التي كانت عليها أجوستينا وهي تنظر للكاميرا بتوجس، كأنها تشعر أن كل نسيج الرفاهية هذا لا يكسوها بالكامل، كأنها لا تنتمي عشائريًا إلى تلك المجموعة من البشر. ما كنت أسعى وراءه عبر هذا الألبوم هو جذب انتباهها، إعادتها إلى ماضي يهز كينونتها ويجعلها تكسر عزلتها، كنت أرغب في انتزاع دليل منها، أو على الأقل مجرد تعليق، أي شيء قد يوجهني إلى نقطة انطلاق، لكنها مرت بنظرها على قومها كأنها لا تراهم، كأنها لا تعرفهم، كأنها ترى صورًا لطاقم العمل في متجر (سيرز) أو صحيفة فرنسية طَبعت منذ عامين. أشعر للمرة الأولى أن هناك شيء يربطني بالقوم الذين تنتمي لهم عائلتها، وهو مدى التفاهة التي نحن عليها أمام عينيها، وتفاهتنا هذه لأننا لا نعني شيئًا، لأننا لا نصدر أي إشارات، أو لأن أجوستينا ليست عرضة للعلامات القادمة منا. حينما أعدت الصور إلى مكانها في الرف، فكرت في أن الشيء الوحيد الذي نجحت فيه عبر اختباري المعملي الحزين كان التحقق من أن الهذيان يفتقر للذاكرة، أنه يتكاثر عذريًا ويحول نفسه إلى نسائل ويتخلص من المشاعر، لكنه قبل أي شيء يفتقر للذاكرة. بحثت حينها عن آثار أخرى، خيوط جديدة يمكن اتباعها وتساءلت ما هو الكشف الذي قد أتحصل عليه من ألغاز الكلمات المتقاطعة، ما هي تركيبة الكلمات الأساسية، وما هو المفتاح الذي قد يساعدك في فهم شيء

يخصك كأنه الحد الفاصل بين الحياة والموت، لكنك قبلها بلحظة لم تكن تلقي له بالاً، لأن أجوستينا في أيام الجنون هذه طورت لنفسها هواية حل الكلمات المتقاطعة، واستيقظت يوم الأحد مبكرًا في تصرف أدهشني وأخبرتني أنها ترغب في قراءة الجريدة، وهو الشيء الذي لم تفعله أبدًا في حياتها لأنها واحدة من البشر الذين لا يهتمون بما يحدث في العالم الخارجي، لكنها استيقظت مبكرًا يوم الأحد واستيقظت معها محتضنًا الأمل، ففي النهاية هذا هو الأحد، الذي كان دائمًا يوما للسكينة واللقاء بيننا، يمكنني القول.. يمكنني القول إنني كنت شبه مقتنع أنه لكونه يومَ الأحد تحديدًا فإن الأزمة ستزول، أو على الأقل ستخف وطأتها، كنت مستعدًا على أي حال لتفسير أتفه إشارة كأحد أعراض التحسن المرجو. شاهدتها ترتدي سترة فوق بيجامة النوم وبعدها بناء على طلب صريح منها ذهبنا نحن الاثنان نحو الصيدلية لشراء نسخة يوم الأحد من جريدة (التييمبو)، ولدى عودتنا استلقت أجوستينا مجددًا على الفراش دون نزع سترتها، وهذه كانت أول صفعة تضرب آمالي، لأن الأمر بدا كأنني لن أرى جسدها العاري مجددًا، لن أشعر بوجودها كفتاة تتباهى بجسدها العاري كل يوم أحد. عدم نزعها للسترة والدخول أسفل الغطاء يُفهم كأحد أشكال التحذير، كأنها تقول لي هكذا أنها ترتدي نوعًا من الدروع. لم تُكرس وقتها لقراءة الجريدة التي اشتريناها للتو، بل بدأت في حل الخطوط الأفقية والرأسية للكلمات المتقاطعة باهتمام لم تكن قد أظهرته ناحية أي شيء منذ أيام، باستثناء طقوسها المتعلقة بالماء. أتحدث عن مسألة الدروع لأنه قبل الواقعة المظلمة، فإن

كل ما كنا نفعل في صباح الأحد هو ممارسة الغرام، وكنا نمارسه بحرارة مذهلة، كأننا نعوض أنفسنا عن الجنس السريع الذي كنا نمارسه في باقي أيام الأسبوع والذي فرضه علينا استيقاظي مبكرًا وإنهاكي الكامل في نهاية كل يوم. كنا نمارس الحب يوم الأحد منذ استيقاظنا حتى يتملكنا الجوع، حينها كنا ننزل لتناول أيًا كان ما سنجده في الثلاجة لنصعد مجددًا لمواصلة فعل نفس الشيء. بعدها كننا ننام أو نقرأ لفترة ثم نتعانق مجددًا. كانت أحيانًا ترغب في الرقص وكنا نرقص كل مرة أبطأ من سابقتها، وعن قرب حتى تنتهي الأمور مجددًا في الفراش. لا أعرف! كان الأمر كأن الأحد يوم مبارك حقًا ولا يمكن أن يفسده أي شرور، لهذا استيقظت مفعمًا بالأمل في هذا الصباح، ووجدت أجوستينا تلجأ لي بالفعل بعد عدة أيام من اللامبالاة الباردة عادت لتبحث عن صحبتي، حتى ولو تبين سريعًا أن الأمر لم يكن لتقبيلي، بل لأخبرها عن أي مقاطعة إسبانية تبدأ بمقطع (جوي) وتنتهي بحرف الألف ومكونة من تسعة أحرف. كان الأمر على أي حال أشبه بهدية بالنسبة لي، تعرفها فقط عليّ وتوجهها بالحديث نحوي كان مثل الفارق بين السماء والأرض.

- قل لي يا أجيلار، ما هو اسم الغدة اللعابية التي تقع خلف الفك السفلي.

كانت توجه لي أسئلة على هذه الشاكلة ما كان يجبرني على البحث داخل رأسي أو في القاموس الموسوعي عن الإجابات الصائبة التي ستعني قبولها لي أو ابتسامتها التي كانت للحظة تمحو من على وجهها ذلك

التعبير الخالي من الود، ـ ذلك الذي ينطبع عليه الآن كندبة ـ لأتأكد من أنني ذات مرة أحببت، أنني لا زلت أحب، أنني يمكنني العودة لحب تلك المرأة التي تحصنت داخل سترتها على الفراش لحل الكلمات المتقاطعة وظلت طوال اليوم متعلقة بها بتعصب مهووس قوض آمالي. حينما حل المساء بت مقتنعًا أنني حتى لو سألتها "ما اسمي؟"، فإنها لم تكن لتجيب، لكنها على النقيض من هذا كانت سريعة في تخمين اسم عشيرة (يوكاتان) قديمة تبدأ بمقطع (ات) ومكونة من ستة أحرف. كنت أخشى من أنه إذا تمكنت من دخول رأسها، فسأجد منزلاً للدمى، سأتمشى في المساحة المضغوطة لغرفه الصغيرة. أول ما سأراه في الصالة الرئيسية، ستكون شموعًا مشتعلة بحجم أعواد الثقاب حول تابوت صغير ترقد داخله جثتي أنا، صريعًا، منسيًا. أنا دمية متيبسة بلا ألوان في حجم عروسة (باربي) في منزل (باربي) الوردي بالكامل، أو بالأصح في حجم دمية (كين)، رفيق (باربي) التافه، أنا دمية (كين) السخيفة والمهجورة في صالته الصغيرة الملونة بالأخضر الطحلبي، أنا نفسي بات لوني يميل للأخضر الطحلبي، لأنني ميت منذ فترة.

لكن خانني التفكير مجددًا وأدميت جرحي.

- انزعي هذه السترة وهيا لنمارس الغرام.

قلتها لأجوستينا بنبرة آمر تولدت بلا شك من الغضب الذي كنت أشعر به لأنها كانت لا ترغب في فعلها معي على عكس ما يبدو أنه حدث مع رجل الفندق هذا. ألقت بالكلمات المتقاطعة بعيدًا، ثم

خرجت من غرفة النوم وحينما ذهبت للبحث عنها وجدتها مجددًا تتنقل بالآنية المملوءة بالماء ولم ترغب في مخاطبتي مرة أخرى، أو حتى النظر إليّ، رغمًا عن أنني حاولت بكل السبل محو خطئي وإثارة اهتمامها مجددًا بالكلمات المتقاطعة.

- انظري يا أجوستينا، من كان ليصدق هذا، تلك الكلمة التي تبدأ بـ"طاء" وتنقصنا هي "طلس"، لاحظي، هي تتماشى بصورة مثالية مع باقي المربعات.

لكن أجوستينا لم تكن ترغب في معرفة أي شيء عني أو الكلمات المتقاطعة أو هذا العالم الداعر. هل إصابتها بالجنون ذنبي؟ أم أن عدوى جنونها قد أصابتني؟

* * *

لقد اكتسبت قوة أخرى، هي قوة تهزني بعنف وتتركني نصف ميتة، هي قوة تبتلع كل قواي، حينما أنظر للخلف أعتقد أن هذا هو ما ضاعت فيه طفولتي، في صناعة القوة ومراكمتها لكي أمنع أبي من الرحيل عن المنزل.

هذا هو ما تقول الطفلة أجوستينا التي سمعت أمس واليوم ومرات كثيرة أباها يتشاجر مع أمها ويهددها بنفس الكلمات:

- إذا حدث هذا الأمر سأرحل، وإذا حدث ذلك سأرحل أيضًا.

وفوق كل شيء لا ترغب أجوستينا في أن يرحل والدها، لأنه حينما يكون موجودًا تشعر بالسعادة، فهذا هو أفضل شيء في العالم، ولا يوجد شيء- أي شيء- في هذه الحياة مثل ابتسامته أو رائحة (روجيه أند جاليت) العطرة التي تفوح منه، مثل قمصانه الإنجليزية المقلمة بخطوط بيضاء وزرقاء صغيرة.

أحيانًا حينما يكون المنزل مظلمًا، أنظر لوالدي ويبدو لي أنه يلمع، أن هناك هالة من النظافة تشع منه، هالة من الأناقة والرائحة العطرة. أحب حينما يطلب مني التمخط أو تنظيف أي من بقايا الطعام على شفتيّ، لأنه حينها يمرر لي منديله الأبيض المعطر بكولونيا (روجيه أند جاليت). شاهدت كيف يُجلس والد ماريكريس كورتيس ابنته على ركبتيه، لكن حينما أدنو من أبي أملاً في أن يفعل المثل لا يحدث شيء، ربما يفعلها إذا طلبت منه، لكن لا أتجرأ لأن أسلوب أبي تحديدًا ليس اجلاس أبنائه على ركبتيه أو السير موزعًا قبلاته وأحضانه، لكن ألمس الصوف الرمادي لسرواله، الذي تقول أمي إنه ناعم بهذه الصورة لأنه من الكشمير الصافي، لكن لونه في الحقيقة ليس رماديًا بل "Charcoal"، لأن الألوان التي يرتديها والدي لا يوجد لها اسم سوى في الإنجليزية. أنا أعبده، رغمًا عن أنه لا يعيرني الكثير من الاهتمام، لأن المفضلين لديه هما خواكو- لتدليله- و"بيتشي"- لتعذيبه- ولأنه أيضًا يضطر للعمل طوال اليوم وحينما يكون هنا ينشغل بهوايته في جمع الطوابع.

لكن أجوستينا التي بدأت رويدًا رويدًا في التحلي بالصبر تنتظر أن يأتي دورها، الذي يصل دائمًا في التاسعة بالضبط، في الساعة التي

تدعوها "تاسع الساعات"، أو تلك اللحظة التي نستعد فيها لنقضي الليلة في أمن وحماية من اللصوص بإغلاق كل الأبواب وكل النوافذ، حينما يقول لي أبي:

- تينا، هل علينا أن نغلق الأقفال؟

هي المرة الوحيدة التي يدعوني فيها تينا وليس أجوستينا، وهذه هي الإشارة التي أنتظرها، فبداية من تلك اللحظة يتغير كل شيء لفترة لأننا ندخل في عالم لا نتشاركه مع أحد. يعطيني سلسلة مفاتيحه التي تصدر رنينًا أشبه بالجرس ويمسكني من يدي ونجوب طابقي المنزل بداية من الطابق العلوي، ندخل الغرف حتى ولو كانت مظلمة ولأنني معه لا أشعر بالخوف، الضوء الذي ينبعث من والدي يصل إلى أبعد الأركان ويبدد الخوف. نسير أنا وهو في صمت لا نحب الحديث بينما نمارس مهمتنا المقدسة في إغلاق شبابيك النوافذ الصغيرة بالمتاريس والأبواب بالضبة والمفتاح. أتحدث عن منزلنا السابق، الواقع في حي تيوساكيو، لأنه بعدها سيأتي منزل حي (لاكابريرا)، الذي لم تكن فيه قط "تاسع الساعات" أبدًا، لأنه بناء حديث ينغلق بنفس ولأن أبي حينها لم يعد يدعوني تينا أو يعطيني سلسلة مفاتيحه لأن رأسه كانت منشغلة تمامًا بشيء أخر.

لكن هذا هو المنزل الواقع في جادة كاراكاس بحي تيوساكيو وأجوستينا تحفظ عن ظهر قلب المكان الذي يخص كل مفتاح، فمفتاح (ييل) الذهبي ذو النقرة المستطيلة في قمته يخص الباب المفضي للمطبخ

والباحة، أما المفتاح الذي طبعت عليه صورة أرنب فهو للبوابة الحديدية الخلفية، أما المفتاح المربع الصغير الذي انطبعت عليه كلمة (فليكسون)، فهو لقفل آخر، للباب الكبير المطل على الشارع. هما أطول مفتاحين، لكن أجوستينا، ليست في حاجة للنظر إليهما، لأنها تتعرف على أي منهما باللمس. هما دائمًا مجهزان في يدها لتمررهما لوالدها قبل أن يطلبهما، تمد يدها إليه سريعًا وتشعر بالسعادة تغمرها حينما يقول لها:

- برافو يا تينا. هذا هو المفتاح المطلوب. لا تخطئين أبدًا، حتى أنا نفسي لست بمثل هذه الخبرة.

حينما يهنئني بهذه الصورة أظن أنه بالفعل يقدرني، حتى ولو لم يكن يخبرني بهذا طول الوقت وأعرف أن انتظار "تاسع الساعات" كان مستحقًا. ليحدث ما يحدث في هذه الليلة، ففي اليوم التالي كل ما علي فعله هو انتظار دقات التاسعة، ليقول لي أبي "هيا يا تينا"، ليتبدد الضباب من أمامي لأنه في هذه الليلة سيعطي أجوستينا يده السمراء الضخمة ذات العروق النافرة، وخاتم الزفاف في بنصره، وساعة ال(روليكس) تلك التي تطوق معصمه، تلك التي سلموها لها يوم وفاته، لتبدأ في استخدامها رغمًا عن ضخامتها وتدليها من معصمها كسوار. أين ذهبت تلك الساعة التي كانت لوالدها وأصبحت الآن لها؟ ضاعت الساعة وضاعت اليد، والذكرى لا تزال حية للغاية، والرائحة لا تزال ملتصقة أيضًا في أنفها، رائحة الأب المعبود العطرة.

تشتاق أجوستينا الآن لهذا المنزل الضخم والدافئ والمحمي والمنير، ونحن جميعًا محميين في الداخل، بينما يبقى الشارع المظلم في الخارج، على الجانب الآخر، بعيدًا عنا، كأنه ليس موجودًا أو قادرًا على إلحاق أي ضرر بنا عبر تربصه. هذا الشارع الذي تأتي منه أنباء سيئة عن أناس يقتلون وفقراء بلا منازل وحرب اندلعت من كاكيتا ومن الوادي ومن منطقة مزارع القهوة وبدأت تصل بضحاياها مذبوحي الرأس، حرب وصلت بالفعل إلى ساسايما ولهذا لم نعد لزيارة (جاي ريبوس)، وأنباء عن لصوص يحومون وبالأخص نواصي يركع فيها المجذومون طلبا للحسنات، لأنه إذا كان هناك شيء كنت أخشاه، إذا كان هناك شيء أخشاه فهم المجذومون، لأن أجزاء من أجسادهم تسقط منهم دون أن يدركوا حتى وقوع الأمر، لكن "الأب" يغلق المنزل جيدًا والابنة تقول له دون أن تتحدث:

- أنت القوة، أنت القوة الحقيقية وأمامك أركع.

لتصب كل اهتمامها على تمرير المفتاح الصحيح له، فهي تخشى كسر السحر إذا أخطأت وألا يناديها "تينا" أو يتوقف عن الامساك بيدها.

كنت أنبذ أي شيء قد يضايق أبي أو يجبرنا على الانفصال خلال هذه الجولة الليلية اليومية، سواء كانت أمي التي مل منها أو "بيتشي" المسكين الذي يسبب له ضيقا كبيرًا، وبالأخص هي: الخالة صوفي، فهي التهديد الرئيسي، وبسبب صوفي سينفصل أبي وأمي ونحن الأطفال سنقع تحت رحمة

الفظائع الموجودة في الخارج. أم أن الخالة صوفي هي التي تحتجز أبي داخل هذا المنزل؟ هل تزورها القوى هي الأخرى، خصوصًا حينما تتعرى؟

***

يقول الجد بورتولينوس:

ـ وكيف يمكنني العمل، بلانكا، يا يمامتي البيضاء، إذا كانت دماء الموتى تحيلني إلى جليد؟ إذا كانت تكشف لي عن أحزانهم بضربات مُلحة على الطاولة؟

ـ لا تلق لها بالاً يا نيكولاس. اتركني أقف حائلاً بينك أنت والأموات لكي لا يقتربوا منك.

كانت الميول اليومية لبورتولينوس، أو بالأخص هواجسه، تتعلق بشبكة من الأحاجي والألغاز التي كان يصر على فك شفراتها كأنها مهمة حياة أو موت، مثلما كانت على سبيل المثال الأوامر التي ترسلها الأرواح له عبر شيء أطلق عليه "جدول الحروف"، أو دقات هذه الأرواح غير المحسوسة على الزجاج، بخلاف خليط الكلمات الموجودة في الكلمات المتقاطعة، أو الرسائل الخفية خلف المقطوعات التي ألفها بنفسه والأصوات التي تتحدث في السر، أو فحوى صفحة كتاب فُتح بالصدفة، أو المنطق الخفي للثنيات التي تتشكل على الملاءات خلال ليلة من الأرق، أو الطريقة التافهة التي تتراكم بها المناديل داخل صندوقها، بل والأسوأ من هذا أن يظهر منديل في خزانة الجوارب.

ذات يوم عثر بورتولينوس على فردة خف واحدة بجوار الفراش وتعرض لرجفة فزع أمام المكائد التي قد تكون فردة الخف الهاربة تعدها له من مخبئها.

- عليك أن تعثري عليها، عليك أن تعثري عليها يا امرأة لأنها تترصدني.

وجه لبلانكا هذا الأمر بنبرة وجدتها كنذير شؤم واضح لتجيبه:

- من يا نيكولاس؟ من يترصدك؟

ليتفاقم غضبه وينفجر قائلا:

- فردة الخف الملعونة، أيتها المرأة الملعونة. أمرك بأن تعثري على فردة الخف الأخرى قبل أن يتأخر الوقت.

اعتادت بلانكا أمام مواقف مثل هذه التعامل بطريقة خالية من القلق ومفعمة بالطمأنينة التقليدية لزوجة ترى النزعة نحو التناظر أمرًا طبيعيًا، فكل فردة خف يجب أن تكون في صحبة رفيقتها الأخرى، كما تنص قوانين التوازن، وربما كانت تصرفاتها لها مبرراتها، لأنه ربما يكون الأمر مجرد ثورة غضب لزوج لا يرغب في السير بقدم حافية وأخرى داخل خفها.هو مطمح تقليدي ومفهوم عند أي رجل، وبالأخص إذا كان عازفًا متقلب المزاج وصاحب موهبة واضحة مثل بورتولينوس، فلم يكن أحد ليشكك في الصحة العقلية لفريدريك شوبان[٦] لو طلب

---

(٦) مؤلف وملحن وموسيقي بولندي

من جورج ساند[٧] مساعدته في العثور على فردة خفه الأخرى، بل سيكون مجنونًا لو سار نصف حافيًا عبر ممرات هذا البيت الكبير المشيد على الطراز المايوركي والذي تعبره الرياح من كل حدب وصوب، والذي كان يضم أرضيات باردة من الرخام والبلاط مضرة بكل تأكيد لأي مريض محموم ينهض وهو منهك ويرتجف من أجل هدف واحد فقط وهو الدخول لدورة المياه، لهذا لا يعقل تخيله وهو يقفز على قدم واحدة، خاصة إذا لم تكن دورة المياه هي وجهته، بل البيانو لأنه وسط الحمى انكشفت له مقطوعة ليليلة جديدة، وما كان مقبولاً مع تشوبان، لم لا يصبح مقبولاً مع نيكولاس بورتولينوس، ملحن رقصات ال"بامبوكوس" وال"باسيوس" في قرية ساسايما الكولومبية؟

باتباع إيقاع هذا التفكير المنطقي، يمكن تفهم كيف كانت الواقعية المنزلية لبلانكا، التي تعاملت بها أحيانًا مع زوجها تتحول-رغمًا عن كل شيء- إلى جسر نحو الحياة اليومية الطبيعية، ومهدئ للاندفاع المسعور، لأنه عبر سبل متعارضة- تلك السبل المريضة التي تخص أحدهم وتلك السليمة التي تخص الآخر- كان كل منهما ينتهي به الأمر بالرغبة في العثور على فردة الخف، وإن كان ما يلفت الانتباه أنها هي دائمًا، وليس هو أبدًا، من كانت تبدأ العملية بمطالبة الخادمة بالصعود للغرفة لتنتشلها من أسفل الفراش بمقشتها.

***

(٧) الاسم المستعار للروائية الفرنسية أمانتين أورو لوسيل دوبين.

كفى! لم أعد قادرًا تحمل المزيد. أعجز عن السيطرة على نفسي وأعلم أن هذه هي أكبر حماقة قد أرتكبها ورغمًا عن هذا أتوجه مباشرة نحوها وأرتكبها. لدى وصولي للمنزل سألت أجوستينا عن هوية الرجل الذي كان معها في غرفة الفندق وأنا أومئ برأسي كأحد عشاق الأفلام المكسيكية. أطالبها بتفسيرات وأصنع أمامها جلبة قائمة على أساس الغيرة، أصنعها أمامها، هي التي تعاني من ربكة كبيرة في رأسها وتبكي من أي شيء وتدافع عن نفسها بالهجوم كحيوان مفترس، هي التي لا تعرف حتى ما الذي حدث لها.

ولأنها لا تجيبني، أواصل إصراري بلا رحمة، بل أنني ربما حتى أمسكت بها وهززتها قليلاً:

- هل لا تتذكرين حقا؟ سأذكرك إذًا.

أقول هذا لها وأشغل تسجيل صوت الرجل الذي عثرت عليه لدى عودتي من ابياجيه، الرسالة الثالثة والأخيرة (لكنها الأولى من حيث ترتيب الظهور بالنسبة لمن يُفرّغ المجيب، لأن الزمن في هذا الجهاز العتيق يُسجل بالمقلوب). يقول المتحدث وهو مرتبك للغاية:

- ألا يوجد أحد هنا؟ في أي مكان ملعون يجب أن أتصل إذًا؟

في الرسالة الثانية، يقول نفس الصوت، الذي بدأ ينفد صبره:

- أيوجد أحد هنا؟ الأمر بخصوص أجوستينا لوندونيو وهو طارئ. يستحسن أن تأتوا لتصطحبوها من فندق (ويلنجتون) فهي ليست في حالة جيدة.

الرسالة الأولى، بنفس الصوت، الذي كان حينها يبدو محايدًا:

- أتصل لأطلب أن تأتوا لاصطحاب أجوستينا لوندونيو من فندق (ويلينجتون) في الشارع ١٣ بين الشارع ٨٥ والشارع ٨٦. هي ليست في حالة جيدة.

حقًا لا أعرف لم احتجت لزيادة الطين بلة وتهييج أجوستينا وجعلها تسمع هذا التسجيل. على ما يبدو فإن أعصابي كانت قد بدأت تهزمني، أو ربما هي الحاجة الملحة لمعرفة ما الذي حدث في غيابي، أو إرهاق كل ليالي الأرق الضائعة، أو ربما هي الغيرة، هي الغيرة فوق كل شيء. الغيرة.. يا لها من شيء كريه ومنحرف!

أتعرفين يا أجوستينا؟ في ذلك الأحد سألت نفسي ألف سؤال عقب سماع التسجيلات، بينما ذهبت طائرًا بالعربة نحو فندق (ويلنجتون) لجلبك، ولكن لماذا وكيف؟ إذا كان شيئًا ما قد حدث لك، لماذا جاء الاتصال من فندق وليس من مستشفى؟ هل حالتها سيئة لدرجة أنها لا يمكنها إخباري بنفسي؟ ولماذا لا يعلن من يتصل عن هويته؟ إذا كانت خدعة، فأي نوع من الخدع هي؟ هل تعرضتِ لحادث؟ هل اختطفوكِ؟ هل سقطتِ؟ هل انكسرت عظامك؟ هل تشاجرتِ مع أمك؟ هل هي طلقة طائشة؟ عملية سطو؟ لكن لماذا

حينها يجب أن أذهب إلى فندق؟ كان أخر ليشتبه في أن زوجته لجأت إلى غرفة فندق من أجل الانتحار، لكن لم أفكر في هذه الاحتمالية، أؤكد لك يا أجوستينا أنها لم تطرأ لي حتى، لأن الانتحار ليس جزءًا من فهرسك الممتد. أتعرفين كم سؤالاً يمكن للمرء أن يوجهه المرء لنفسه على امتداد مسافة ٦٠ مربعًا سكنيا تفصل بين شقتنا وهذا الفندق؟ أربعة أسئلة على الأقل في المربع السكني الواحد، ما يعني ٢٤٠ سؤالا، كلها غير عقلانية ولا تُفضي إلى أي إجابات، لكن بينها كان سؤالاً يتربع على العرش، شك أكثر عنادًا من البقية، وهو إذا كنت تحبيني يا أجوستينا، إذا كنت ستواصلين حبي رغمًا عن ما حدث لك ولا أعرف ماهيته.

أضغط مجددًا على زر التكرار في المجيب الآلي، لتسحب أجوستينا معصمها من قبضتي وتدخل المطبخ لتجلب دورقًا ممتلئًا بالماء وتقلبها كل ما فيه بالكاملة على الأريكة لتقول:

- التبريد واجب. كل ما هو ساخن مُضر. كل ما هو ساخن يؤلم.

***

لكن لنعد إلى ما يعنينا، دميتي أجوستينا، لنعد إلى الرهان الذي جرى الاتفاق عليه في (ليسبلاناد). كنا نتعجل الموضوع لدرجة أننا طوال الأسبوع لم نتحدث عن شيء غيره، مكالمة من هنا وأخرى من هناك، والضحك بعلو الصوت بسبب "العنكبوت" وقضيبه الخامل. كنت أجهز استعدادات الجولة الأولى التي تقررت مساء جمعة الأسبوع التالي في

الساعة التاسعة، بينما لم يتوقفوا هم عن المرور على (أيروبيكس) أو الاتصال بي لأبقيهم على إطلاع، ولنتحدث عن الموضوع دون لفت الانتباه أطلقنا عليه "عملية لازاروس"، بسبب موضوع إعادة الإحياء.

في ظل كل هذا وعلى جانب آخر، جاءتني إلى مركز (أيروبكس) ثلاث بدينات منتشيات هبطن من سيارتهن الرياضية ذات اللون الأخضر الليموني الزاعق. ثلاث شقراوات يبدو أنهن صبغن شعرهن بحنق لكي لا يبقى أي أثر للونه الطبيعي، قلن إن اسمهن مجموعة "جوز الهند الذهبي". لا أعرف إذا كان كلامي مفهومًا. أحدثك عن ثلاثي مثير للغثيان، يا جميلتي أجوستينا. أحدثك عن ثلاث دلوعات سيئي الملبس. أتين يرتدين بناطيل الفهد المرقط الضيقة وأحذية رياضية مسطحة وفظائع على هذه الشاكلة، لكن الثلاثة كلهن كن مفعمات بالحماس وفكرة خفض أوزانهن عشرات الكيلوهات مرة واحدة، بل وأقسمن بالرب أنهن مؤهلات نفسيًا لرفع الأوزان وحضور حصص الـ"سبينينج" والالتزام التام بحمية الأناناس وممارسة اليوجا وكل ما قد يطلب منهن، بالقدوم لثلاث مرات في الأسبوع أو أكثر إذا ما استدعت الضرورة لاستعادة قوامهن، هكذا قالوها: القوام. يا لها من كلمة تبدو كأنها جاءت من جيل آخر. تمرينات الـ(ستيبينج)؟ أكيد! يا لحلاوة الموضوع سجلني هنا! تمرينات الرومبا الهوائية؟ يا لطعامة الموضوع وهنا أيضًا، وهكذا دواليك كن يسجلن أسمائهن في أي شيء وحينما كن قد شعرن بالثقة بالفعل، أقدمن على إخباري بأوزانهن أو أعمارهن، لا.. بل من الأفضل قول: حينما شعرن أنهن من أهل البيت! قمن باحتضاني

وخرجن لي بمسألة أنهن بنات عمومة زوجة بابلو، فالأخيرة- وهي قريبتهن من الدرجة الأولى- نصحتهن بالاشتراك في الجيم الذي أديره، لأجيبهن باستياء:

- عن أي بابلو تتحدثن؟

- وعن أي بابلو سيكون الحديث؟ بابلو الوحيد! بابلو إسكوبار.

أجبتهن بمكر لكي لا يلحظن استيائي الهائل:

- لحظة واحدة جلالتكن، إلى أين تعتقدن أنكن ذاهبات؟ عليّ العناية بالوضعية القائمة لهذه المنشأة وثرائكن أمر ملحوظ من النظرة الأولى.

قلت لهن هذا في إطار التمويه، لكي لا أخبرهن مباشرة في وجوههن أن عاهرات مخدرات مثلهن هن فقط من يخطر لهن تركيب رموش اصطناعية لممارسة تدريبات الـ(سبينينج) وأنه لا تدريبات هرولة قادرة على هزيمة ملفوف الكرنب المشوه خلقيًا، وأن هذه الأفخاذ الضخمة، وتلك المؤخرات المسطحة وهذه السيقان القصيرة علامات متفجرة على أصل اجتماعي يُرثى له. باختصار أنهيت الأمر بزحلقتهن. أستفهمينني، دميتي أجوستينا، إذا أخبرتك بضرورة التحلي بعين حادة لكي لا ينحدر مستوى الزبائن؟ السماح بدخول هؤلاء الثلاثة من محبات العصابات، مع كونهن أقارب لإسكوبار فوق كل شيء، كان سيعني حرق المكان، وهو في النهاية ليس سوى مجرد واجهة للمال

الضخم القادم من عمليات غسيل الأموال، وهكذا ركلت مجموعة "جوز الهند الذهبي نحو الشارع:

- اذهبن يا جميلاتي إلى المنافسين (سبا ٩٢) أو (سوبر فيجر) في تقاطع الشارع ١٥ مع الشارع ١٠٣ ، فهم هناك يقدرون على تحقيق نتائج نحافة أفضل وأكبر.

نصحتهن بهذا، واثقًا في أن بابلو، وهو رجل تفاوضي قبل كل شيء، سيتفق مع تدبير الوقاية البدائي الذي اتخذته، وكما يبدو أخطأت. خانني علم النفس وأغرقت العالم بخرائي من بدايته لنهايته، لأنه تبين أن بابلو رجل شرف قبل كونه رجل أعمال، لكن هذه حكاية جانبية، جميلتي أجوستينا، احتفظي بها هناك في أحد أركان رأسك الصغير المجنون، لأنها لاحقا ستلعب دورها. عليك الآن نسيان هؤلاء النسوة الثلاثة كما نسيتهن أنا في تلك اللحظة ورأيتهن يرحلن وهن يشعرن بإهانة بالغة ليرحلن عن الشارع في سيارتهن المكشوفة ذات اللون الأخضر الليموني، والتي بمجرد انعطافها عند أول ناصية، اختفين من أمام نظري ومن ذاكرتي.

***

يتولد داخل أجوستينا أحيانًا غضب ضد "بيتشي" وتعنفه مثل أبيه. تصرخ فيه: لا تتحدث كفتاة، ثم تندم، لكن المشكلة أنها لا تتحمل فكرة رحيل أبيها عن المنزل بسبب الأمور المتنوعة التي تعكر مزاجه.

أمقت فكرة استخدام أبي ليده القوية ضد "بيتشي" أشعر بوخزة في فم معدتي ورغبة في التقيؤ حينما أرى أبي يُحول "بيتشي" إلى طفل يزداد حزنه وفزعه يومًا تلو الآخر، لكن المشكلة أنني لا أقاوم أبدًا فكرة أن أبي قد يرحل عن المنزل.

- أرني يا فتاة. لا تترك نفسك تتعرض للضرب يا فتاة. رد. دافع عن نفسك. اضربني بقوة أكبر.

يقول أبي لـ"بيتشي" هذه العبارة بسخرية وهو يحاصره بالصفعات، كأنه يتحداه، وأنا أفكر:

- نعم يا "بيتشي"، هيا، هيا يا كارلوس بيثينتي جونيور. دافع برجولة. كم أرغب في أن ترد في النهاية بكل غضب رجولتك وهرموناتك لتكسر أنف والدي الكبير، لتكسر فمه قليلاً حتى، لنرى إذا كان سيرضى عنك ويفتخر بك لنُعجبه جميعًا.

لكن "بيتشو" ضعيف ولا يرتقي لطموحات أخته حينما تكون في أشد الحاجة إليه، وكل ما يستطيع فعله هو التحمل والتحمل حتى ينهار وحينها يصعد إلى غرفته ليصرخ كفتاة. وهنا ينصب كل كرهي على أبي وأرغب في أن أزعق في وجهه بأنه وحش وحيوان منفر وجلاد ومجرد جبان يسيء معاملة طفل، لكن في النهاية لا أقول شيء لأن "القُوى" تهرب في شتات ويستحوذ الفزع عليّ وحينها أفكر في أن نفس المسألة ربما تحدث مع أمي، أنها تتحمل أي شيء لكي لا يرحل أبي عنا.

لكن طقسنا شيء آخر، لأننا "بيتشي" وأنا- بالأخص أنا- نصبح في غاية القوة وبعيدًا عن أي سلطة. هذه هي اللحظة العليا لسيادتنا ومشيئتنا. الطقس هو انتصارنا. نتسلق خزانة الملابس ونخرج الصور من التجويف الواقع بين الدعامة والحائط ونضعها على الفراش، في البداية بأية طريقة كيفما تتساقط، بينما نجهز بقية الأمور الأخرى، مع تشغيل التلفاز بأعلى صوت، كي لا يشتبه أحد. ينتظرني "بيتشي" دون لباسه بينما أهبط أنا، دون كيلوت في ظل تلك الدغدغة، على سلم الخدمات لأصل إلى خزانة الحائط وأسرق واحدة من محارم المائدة المصنوعة من الكتان والتي وفقا لما تقوله أمي كانت تخص جدتي بلانكا، زوجة الألماني. هي محارم واسعة مُنشاة تضعها أمي في غرفة الطعام الكبيرة حينما يأتي الضيوف للعشاء وبها أحرف أولى مطرزة عند أحد زواياها.

خلال هذا الجزء من الطقس، يجب على أجوستينا التصرف بعناية فائقة لأن تنورة الزي المدرسي قصيرة ولها ثنياتها وإذا تحركت كثيرة فإن الخادمات سيدركن أنها لا ترتدي شيئًا أسفلها.

سرقة فوطة المائدة ستكلفني توبيخًا معتادًا، لكن أخطر شيء سيكون أن يصل إلى أمي مسألة سيري دون كيلوت، لأنها قادرة على قتلي بسبب هذا الأمر. أجلب من الحمام طبقا ممتلئًا بالماء وأعود إلى غرفتي ونغلق الباب جيدًا. نشعل الشموع ونطفئ الأنوار، ونتوضأ بالماء، أي أننا نغسل وجهينا وأيدينا جيدًا حتى نتطهر من الخطايا، وبعدها تثني أجوستينا فوطة مائدة الجدة بلانكا على شكل مثلث وتجعل "بيتشي" الصغير يرقد فوق السرير ويرفع ساقيه ثم تضع الفوطة تحته

كأنها حفاضة. تنثر بودرة التلك من ماركة (جونسون) وتدعكها جيدًا كأنه ابنها وبعدها تُلبسه الحفاضة وتربطها بدبوس أمان، وبعدها نرتدي الملابس، التي لا تتغير: ردائي هو روب قديم يخص أمي بلون النبيذ العنابي وطرحة قداس سوداء كانت تخص جدتي موضوعة فوق أكتافي، وردائك يا "بيتشيتو" هو الحفاضة وفوقها الكيمونو الأسود المزين بزهور بيضاء وصفراء، ذلك الرداء الذي تنكرت به في أحد أعياد الهالووين كفتاة يابانية. كنا لنرغب في تلوين وجهينا، لكن لم نكن نفعل هذا خشية أن تفضحنا بقايا الألوان.

لكي يرتديا الملابس تقف أجوستينا وشقيقها وظهر كل منهما للآخر ولا ينظران لبعضهما حتى يستعدان، وحينها تبدأ مسألة الصور وهي الأهم، هي مركز كل شيء، هي "النداء الأخير": هي أوراق قوانا الرابحة، هي أوراق السُباتي، أوراق الكؤوس، أوراق عملات الذهب، أوراق السيوف، هي أوراق حقيقتنا. أنت وأنا نعرف جيدًا أن خطورة هذه الصور أكبر من القنبلة الذرية، فهي قادرة على تدمير والدي والقضاء على زواجه من أمي وتفجير منزلنا وكل حي (لاكابريرا) إذا رغبنا، لهذا فقبل وضعها وفقًا للترتيب فوق القماش الأسود، يجب أن نؤدي دائما القسم وننطق "الكلمات"، لهذا أسألك بصوت منخفض لكن له جلالته:

- أتقسم بأنك لن تكشف سرنا أبدًا؟

وأنت يا "بيتشي" تجيبني بعينين نصف مفتوحتين:

ـ نعم أقسم بهذا.

ـ أتقسم بأنك لن تظهر هذه الصور التي عثرنا عليها وتخصنا نحن فقط إلى أي أحد وتحت أي ظرف ولأي سبب؟

ـ نعم أقسم بهذا.

ـ أتقسم بأنهم حتى ولو قتلوك فإنك لن تظهرها أو تعترف لأحد بما نمتلكه؟

ـ نعم أقسم بهذا.

ـ أتعرف أنها خطيرة؟ أنها سلاح قاتل؟

ـ نعم أعرف هذا.

ـ أتقسم بأقدس الأمور أنه لن يعلم أحد أبدًا بطقسنا، أو أي شيء مما يحدث فيه؟

ـ نعم أقسم بهذا.

وبعدها تسألني أنت لأؤدي قسمًا مطابقًا في أسئلته وإجاباته ونبدأ في مشاهدة الصور واحدة تلو الأخرى لنضعها في مكانها الصحيح فوق الفراش: الخالة صوفي بقميص مفتوح، الخالة صوفي عارية فوق الكرسي الهزاز في مكتب أبي، الخالة صوفي جالسة فوق المكتب بحذاء ذو كعب عالي وجورب من الحرير، الخالة صوفي وهي ترقد بظهرها لتظهر أردافها للكاميرا، الخالة صوفي وهي تظهر ثدييها بينما تنظر للكاميرا بابتسامة خجولة بينما تميل برأسها بطريقة عفا عليها الزمن، الخالة صوفي بمشد الصدر والكيلوت، وتلك الصورة التي نفضلها أنا وأنت

ونضعها دائمًا في الأعلى: الخالة صوفي بمجوهراتها وشعرها مصفف كضفيرة في ثوب طويل أسود شديد الأناقة يغطي نهدًا ويترك الآخر مرئيًا، ولا أنت أو أنا يمكننا الإشاحة ببصرنا عن هذا الشيء الضخم الذي تتركه الخالة صوفي في الخارج عمدًا وعن قصد لكي يغرم أبونا بها ويترك أمنا، أو أختها، التي لا تمتلك ثديين عظيمين مثلها.

* * *

يسأل الجد بورتولينوس زوجته:

ـ لكن.. كيف يمكنني التلحين جميلتي بلانكا إذا كان الأحياء أنفسهم لا يتركونني أهنأ؟

ـ استرخ يا نيكولاس. مدد جسدك بجانبي هنا، على العشب، تحت فروع شجرة الآس التي تخصنا ودع الشمس الجميلة تدفئ عظامك.

وحينها يبدأ سيل المناشدة بالإكراه:

ـ هل قلت شجرة الآس التي تخصنا، شجرتنا؟

ينطلق نيكولاس في تكرار متطابق يظل يتوسع وصولاً إلى الجملة الأخيرة التي يقولها بصوت مرتعش:

ـ نحن الاثنان؟

ويحاول للمرة الثالثة العثور على اليقين الذي سيهدأ قلقه، لكن بلانكا في هذه المرحلة، بعدما تعرف بالفعل أن الراحة لن تأتي تبادر بمطالبته:

- كفى يا نيكولاس. إنك ترهقني.

فهي تحاول كبح الإيقاعات والتكرارات التي تفتح داخله أبواب الهُذاء، وإن كان ما ترغب حقًا في قوله هو:

- كفي يا نيكولاس إنك تصيبني بالجنون.

لكنها تعرف أنه لا يجب لفظ كلمة حبل في منزل من مات مشنوقًا، وهذا لأن بلانكا رغمًا عن صغر سنها في صلابة حجر، وفوق هذا الحجر يشيد بورتولينوس حياته:

- أنت حصني العالي، قلعتي الحصينة أو (starkes Madchen) بالألمانية.

يؤكد هذا الأمر لها كلما استطاع وفقا لصفحات مذكراتها التي تقول فيها: "أحاول أن تكون شجاعتي كافية لما هو قادم، وبما أن الأمر يتعلق بزوجي الحبيب نيكولاس، فإن أي شيء وارد القدوم، لكن أنا أعيش فقط من أجله، ودائما سأغدق عليه بحبي ودعمي، أيًا كان ما سيحدث".

بلانكا هي قلعته الحصينة، لكن إذا كان هناك شيء يجعلها تتداعى فهو حصار الكلمات المسيئة، خاصة إذا خرجت من شفاه زوجها المكتنزة الدافئة الحمراء القرنفلية المحمومة، المستعدة للإفصاح عن الخفايا بنفس قدرتها على التلفظ بالحماقات. اعترفت بلانكا لابنتيها صوفي وإوخينيا ذات مرة بعدما بلغتا:

- اعتقدت دائمًا أن الصعوبات التي كان يعاني منها نيكولاس أحيانًا للتعبير عن نفسه بالإسبانية كانت بسبب كونه أجنبيًا، حتى اكتشفت من ابنة عمومة له مرت على ساسايما ذات مرة لزيارته في كولومبيا قبل عودتها لألمانيا، إنه حتى في لغته الأصلية كان يتحدث أحيانًا بطريقة متناسقة وفي مرات أخرى يتلعثم ويرتبك، وبسببها أيضًا عرفت أنه حينما كان طفلاً- هناك في كاوب- فقد عانى نيكولاس من مشكلات حقيقية ليتعلم النطق، وأنه كان يتلجلج في الكلام بصعوبة وهذا في أفضل حالاته، لأنه غالبًا كان يلوذ بنفسه في عناد إلى الصمت الذي لم يكن يتسع سوى لألحانه الداخلية، حتى اصطحبه السيد والده وهو في عمر الرابعة إلى مدينة مجاورة ليفحصه أخصائي في شؤون التخاطب خوفًا من معاناته من الصمم أو ضمور المخ، وجاءت النتيجة لتؤكد ما كان معروفًا من قبل، أن الصغير نيكولاس الموهوب منذ الصغر مع البيانو كان بليدًا وحالة ميئوس منها فيما يتعلق بالكلام. كان عنيدًا أمام تهديدات والده بل وحتى العقاب البدني. حينها كان يصر على إغلاق فمه وتغطية أذنيه لكي ينفصل عن أصوات البشر، حتى صوته هو، كأن هذا الصوت يؤذيه، كأنه يتسلل إلى داخل جمجمته لينفجر داخلها.

هكذا فإن نيكولاس بورتولينوس في الكبر والصغر كان تجمعه علاقة صعبة مع الكلمات تُفسر فترات صمته العميقة التي كان امتدادها يزداد بمرور الوقت.

- إذا تحدثت معك أكثر من اللازم، بلانكا يا حياتي، فإن حبي لك سيستحيل إلى شك ويهرب مني.

لهذا كان يعوضها بتلحين أغاني طفولية بكلمات بسيطة. كانت تسعدها وتجعلها تفكر في أن زوجها أحيانًا كان يبدو كطفل، لتنظر- هي الطفلة بالفعل- إلى زوجها العجوز كصغير جميل شارد وصامت، لكن في مرات أخرى كان نيكولاس يحب الكلام كإعصار، ليربط هذه الجملة بتلك الأخرى بإسبانية سيئة، ويشكل قطارات مدوخة ومتعارضة من الأفكار، وحينها كانت بلانكا تشعر بالخوف وتسعى للاحتماء أسفل مظلة سوداء من الغموض من أمطار المقاطع هذه التي كانت تغمرها. على عجلة من أمره وبصعوبة في نطق حرف الـ"R" كان يقسم لها بحبه الأبدي، يحاصرها بوعود السعادة، يفزعها بتعبيرات عن الغيرة وأحيانًا بتحقيقات لا نهاية لها ليصيبها بالاختناق من كثرة الأفعال التي ينطقها.

- كفى يا نيكولاس. لا أطيق سماع كلمة أخرى.

ترجوه هامسة وهكذا تنجح في أن يعود الصمت المسالم أسفل شجرة الآس تلك. يعود جمال الظهيرة للتمدد حولهما وتثبت كل واحدة من قطع الكون في مكانها الصحيح، دون جهود أو نقائص. وفي تلك النقطة بحياتهما يجلسان الآن أسفل شجرة الآس، أو على الأقل هذا هو ما تظنه بلانكا، لأن بورتولينوس.. بورتولينوس يسير مع التيار. هو قريب للغاية لكنه في نفس الوقت بعيد للغاية. يفكر بورتولينوس في أن

بلانكا ترصده، إذا لم تكن عينا بلانكا الواسعتين تتفحصانه، فسيمكنه الرحيل، لكنها تراقبه وتمنعه من الإبحار كما يحلو له في بحر تأملاته. بالألمانية وفي أعمق أعماقه، يرجو بورتولينوس بلانكا أن تترك له الفضاء الذي يحتاجه للحركة بلا قيود، وألا تحتكر الهواء الذي يحتاجه للتنفس، وألا تستحوذ على كل شكوكه وتدعي أنها تروض أفكاره، وهذا لأن بورتولينوس موجود وغير مع موجود مع بلانكا أسفل شجرة الآس هذه خلال تلك الظهيرة العذبة في ساسايما، ففي أعماقه بدأ معنى كل شيء يتضاعف مرتين وثلاثة. أصبح الهواء حوله محملاً بالعمى وبات ثخينًا وبدأ ما يحلم به في رأسه يستحوذ رويدًا رويدًا على ما يقع في الخارج، ووسط الطبيعة الاستوائية المشعة تظهر أمامه شاحبة بين الليالي أنقاض يونانية لا يربطها شيء بالوجود هنا أو الكينونة الحالية، وهي نفس الأنقاض اليونانية التي حلم بها في الليلة السابقة، والتي تسبقها، والتي تسبقها، تلك الأنقاض التي تعود في هذيان مستمر نحو ضباب مراهقته.

- ما الذي أفعله وسط هذه الأنقاض البغيضة؟ ومنذ متى ذبلت الألوان؟ لماذا أتيه وسط برك من الدماء؟ لمن كل هذه الدماء التي تنزلق فوق نعومة الرخام ولماذا أصيب ذلك الفتي؟ ما الذي يفعله بين الأنقاض ولماذا يدمي، إذا كان مُحصنًا وسماويًا؟ إذا كان يدعى فاراكس ولا يتواجد سوى في لياليّ.. إذا كان فاراكس، هذا الجميل المصاب، يقطن فقط في سجل ذاكرتي؟

تشك بلانكا أن هناك مشاعر فظيعة تهز نيكولاس تقف وراء صمته البين لهذا تعود عيناها الواسعتان لمحاصرته، تعودا لاكتساب الحدة لمنعه من الهرب، تطلب منه بل تستسمحه بأكثر ما يُحب أن ينطق كلمات عاقلة ومتزنة، وأن يمتنع عن نطق الكلمات المبالغة التي تحمل ألف معنى وليس معنى واحد كما خلقها الرب.

ـ حدثني عن أشياء وليس أشباحًا.

ترجو بلانكا من زوجها هذا الأمر دون إدراك أنه يتجول في أنقاض تحمل فيها الأشياء نفس كينونة الأشباح.

ـ هل تحبيني جميلتي بلانكا؟

تؤكد له أنها تحبه:

ـ سبق وأخبرتك. أحبك إلى حد المعاناة.

تؤكد له حبها أكثر من مرة دون فهم أن ما يقلقه هو شيء آخر، هو كان ليرغب، بل لا، هو يحتاج لأن يطلب منها أن تبتعد قليلاً:

ـ ابتعدي يا امرأة، اتركيني أحلم وحيدًا. لا تذكري اسم الشجرة الموجودة هناك ولا هذه الشمس الساخنة، لا تسجنيني، أرجوكِ، في هذا الجانب الموجود هنا، لأن روحي ارتفعت طائرة نحو الجانب الآخر.

هذا ما كان يرغب في قوله لها لكنه يرجوها كل ما هو على النقيض من هذا:

ـ لا تبتعدي، بلانكا حبي أنا، فأنا والعدم سواء من دونك.

وليست رأس بورتولينوس الضامرة والمجنونة هي الأمر الوحيد الذي يتفكك، بل بالأخص الواقع نفسه في ظل الوزن الغامض لحمله المزدوج.

* * *

ما أحاول فعله هو إدخال ذراعي في وحل الجنون لانتشال أجوستينا من أعماقه، لأن يدي وحدها هي القادرة على جذبها نحو الخارج ومنعها من الغرق. هذا هو ما يجب عليه فعله، أو ربما لا، ربما ما يصح هو العكس تمامًا: تركها هادئة والسماح بخروجها وحيدة. أحببت أجوستينا كثيرًا. منذ عرفتها وقيتها من عائلتها، من ماضيها، من بنيتها العقلية. هل أبعدتها عن ذاتها؟ ألهذا تكرهني؟ أهذا هو السبب الآن وراء عدم عثورها على نفسها أو عليّ؟ أحاول تخليصها من عصفها الداخلي أيًا كان الثمن، بينما أرفض احتمالية أن تكون في هذه اللحظة أفضل في الداخل مما هي عليه في الخارج، وأن خلف جدران هذيانها، فإن أجوستينا تحتفل في سعادة.

أصل إلى الشقة وأجد الصمت يتسيدها لدرجة أن صوت تحليق الأفكار يُمكن سماعه وأجوستينا تجلس أمام النافذة وهي تنظر في ضياع نحو الخارج، لدرجة يبدو معها أنها توجد هناك، في تلك النقطة الهاربة التي توجه لها نظرتها وليس بين الحوائط الأربع التي تحبسها. أنظر إليها وأتذكر أحد الأقوال المأثورة والذي يكتسب أحد المعاني فجأة: اللامبالاة الجميلة

للهستيريات!. أجوستينا صامتة ولا تبالي، كما هو الحال دائمًا في هذه الأيام التي بدأت تتخلص فيها من الكلمات، كمن ينزع عن نفسه زينة زائدة عن اللزوم. تخبرني الخالة صوفي أنها رافقتها قبلها بعدة ساعات لغسل شعرها بشامبو البابونج، وأنها بعدما شاهدت كم الهدوء الذي تصفف به شعرها بالفرشاة والمجفف تركتها وحدها للحظة لتنشغل ببعض الأعمال في المطبخ. بعدها بعد عدة دقائق شعرت بالقلق من توقف صوت المجفف وصعدت لترى ما الذي يحدث ووجدتها حيث تجلس الآن، تائهة وثابتة كتمثال بشعر نصف مجفف. تقول العمة صوفي إن هذا الأمر كان نحو الخامسة وأنها منذ تلك اللحظة لم تتحرك أو تفتح شفتيها.

أترجى أجوستينا مرة تلو الأخرى أن تنطق أي شيء، ولو حتى كلمة، لكن دون جدوى، وحينها أجلس بجانبها وأقلدها في مسألة الخبل بالنظر نحو الخواء وبعد مرور بعض الوقت تفتح فمها وتُظهر لي لسانها. هو مصاب بشكل فظيع، كأنه لحم طازج قد أحرقته، ولدى رؤيتي للمسألة تُخرج حنجرتي صوتًا كالعواء يجعل الخالة صوفي تحضر متأهبة. تتظاهر بالهدوء، ولا أعرف من أين جلبت هذه السيدة كل هذه الصلابة، بينما تتفحص بتمعن لسان أجوستينا المتقرح وتقول إن السكر البني هو الشيء الوحيد القادر على تطبيب إصابات الفم من الداخل لتجلب القليل منه في طبق. تخرج أجوستينا لسانها المصاب، وتسمح بوضع السكر البني عليه في خضوع حيوان صغير تعرض للضرب، لكن كلما سألتها عن كيف فعلت بنفسها هذا الأمر المتوحش، لا تمنحني أي

تفسير. تعتذر الخالة صوفي مني عن ما أسمته إهمالها الذي لا يمكن غفرانه وتشرح لي:

- آه لو كنت شاهدتها قبلها بدقائق في دورة المياه وهي تستخدم المجفف كأنه لا يوجد أي شيء، كأن تصفيف شعرها هو أكثر شيء طبيعي في العالم، كأنها هذه الليلة ستخرج لتناول العشاء أو الذهاب للسينما، كأنها ليست مريضة أو تخطط لجعل نفسها شهيدة بمجرد أن أدير لها ظهري..

قاطعت الخالة صوفي لأن شك خبيث عبر ذهني:

- هل قامت أجوستينا بمضغ الزجاج؟ يا إلهي! هل أكلت زجاج ألحق بها أيضًا ضررًا من الداخل؟

تنفي الخالة صوفي:

- لا يا أجيلار. إهدأ. لسانها يبدو قبيحًا لكنه لم يجرح. لا تدمي. يبدو أكثر ككونه محروقًا.

- لكنه محروقًا بماذا؟ بأي شيء تمكنت من احراق نفسها بهذه الطريقة المتوحشة؟

لا يمكنني تحمل المزيد. أحتاج للاختباء في دورة المياه والبكاء لبعض الوقت، لا، بل البكاء دون توقف لمدة يوم أو اثنين أو ثلاثة. منذ ألحقت أجوستينا الأذى بلسانها، توقفت عن الحديث وتناول الطعام، لهذا بات الغذاء الوحيد التي تتناوله هو (بيدياليت)، المحلول الفسيولوجي

الذي يقدم للأطفال الذين يعانون من الجفاف، لكنها اليوم ترفضه بشكل قاطع. ترجوها الخالة صوفي وكوب المحلول في يدها أن تتناول ولو جرعة لكن أجوستينا تتجاهلها ولا تنصت إليها بسبب إصرارها المفرط وتبعد الكوب بخشونة، ثم تقترب مني وهي تحاول نطق الكلمات رغمًا عن تورم لسانها. تخبرني:

- محلول (بيدياليت) الأصفر لا يعجبني يا أجيلار، أرغب في ذلك الوردي الذي يأتي بطعم الكريز.

- لا تدفعيني للضحك.

أقول لها هذا والحقيقة أنني أضحك لأنني لم أضحك منذ يوم الأحد الذي بدأ فيه كل شيء، ورغمًا عن الرعب والذهول الذي أصابني نتيجة للطريقة غير المفهومة التي آذت بها لسانها، لا زلت أضحك وحيدًا وأنا أسير نحو الصيدلية لشراء المحلول الوردي بطعم الكريز، وهذا لأنه في بعض اللحظات الاستثنائية التي تأتي أحيانًا وسط أسوأ الأزمات، تبدأ الحياة الطبيعية في التعطف علينا لتمنحنا زيارات مقتضبة، فيوم الثلاثاء الماضي على سبيل المثال وعقب المرور بعدة أيام متوحشة، حظينا بفترة من الهدوء، مجرد فترة لكنها كانت مباركة، فنحو السابعة مساءً كنت قد انتهيت من عملي اليومي في التوزيع ودخلت الشقة بعدما وصلت روحي إلى أنفي دون أن أعرف كيف سأجدها لدى وصولي، وكمفاجأة مذهلة لم تستقبلني صلواتها اللامبالية ولا نوباتها الغاضبة، بل رائحة طعام دافئة يغطي بخاره زجاج المطبخ،

ووسط هذه الرائحة ظهرت أجوستينا بتعابير شابة ترتسم على وجهها وهي تطبخ الحساء فوق الموقد كأن شيئًا لم يحدث لتخبرني:

ـ هو حساء خضروات يا أجيلار، سنرى إذا كان سيعجبك.

قالت هذه العبارة فقط وأكررها منذ يوم الثلاثاء كأنها صلاة. "هو حساء خضروات يا أجيلار، سنرى إذا كان سيعجبك". حينما سمعتها تسمرت في مكاني، مشلولاً من المفاجأة دون التجرؤ على التحرك خوفًا من أن تتبخر تلك اللحظة العظيمة والمتطهرة من الغم، تلك اللحظة المقبلة من الحياة الاعتيادية اليومية التي قررت العودة لزيارة منزلنا لأول مرة منذ عدة أيام. لم أتجرأ على احتضان أجوستينا خوفًا من استحقاق رفضها وخشيت في نفس الوقت من أن ينقلب وضعها الحالي إذا لم أفعل هذا. لم أقص عليها روتيني اليومي في عمليات التوزيع لتجنب خروج مسألة السيدة كينتا كاماتشو، وهي إنسانة ودودة تعيش بمفردها مع كلبها الـ(كوكر سبانيل) وتتصل بي كل شهر لأوصل لها حقيبة من منتجات (بورينا). لم أتبادل معها أي شيء باستثناء كلمات الشكر من جانبها في كل مرة أسلمها طلبها ومن جانبي حينما أتسلم النقود، لكن رغمًا عن هذا فلا أعرف كيف باتت مصدرًا للشبهات عند أجوستينا بخصوص وفائي كزوج. كل هذا كان بالطبع قبل الواقعة المظلمة، هذا أمر مؤكد. أتحدث عن مشاهد من الغيرة ومشاجرات حمقاء كانت حتى وقت قليل للغاية تشكل جزءًا من حياتنا كزوج وزوجة وتصيبني بالملل إلى درجة الموت، لكن رغمًا عن هذا أشتاق إليها الآن.

وهكذا حينما عثرت على أجوستينا يوم الثلاثاء تجهز لي حساء الخضروات تسمرت في وسط المطبخ دون أن أفعل شيء، ممسكًا في يدي بحقيبة (الماثينيس أونلي)[8] التي احتوت على كولون أسود مخملي طلبته الخالة صوفي عبر جهاز النداء، كأنني أتغذى على هذا الهدوء العظيم الذي قد ينتهي دون معرفة موعد عودته، حتى بادرت أجوستينا بالحديث لسؤالي إذا كنت مرهقًا ولماذا لا أستحم ريثما تنتهي من الطهو. قالتها لي بنفس النبرة التي تعكس أنه لا توجد أي مشكلة، نفس نبرتها التي كانت موجودة قبل بداية كل هذا. صعدت للاستحمام كما أشارت علي وبقيت منتظرًا بالغرفة في صمت بينما أرتعش من فرط التطلع حتى نادت علي، نادتني باسمي، أي بلقبي، بهتاف يمكن حتى قول إنه كان فرحًا.

- الحساء أصبح جاهزًا يا أجيلار.

صاحت من المطبخ لأنزل ببطء، درجة تلو الأخرى، لكي لا أكسر التعويذة. قدمت ثلاثة أطباق، واحدًا لي والآخر للخالة صوفي والثالث لها. وضعتهم فوق المائدة مع خبز فرنسي ساخن. جلسنا جميعًا وتناولنا الطعام في صمت. كان صمتًا بلا تأنيب أو توتر، صمت مريح وحميد جعلني أعتقد أننا تخطينا الأزمة، أننا يجب أن نكون قد وصلنا تقريبًا إلى الجانب الآخر، أن أجوستينا بدأت تشفى من أيًا كان الذي قد

(٨) سلسلة متاجر موجودة في كولومبيا.

أصابها، ولاحقًا في المساء استلقت على السرير بجانبي، وعقدت ساقيها بساقيّ وفتحت التلفاز لتقول:

- يا سلام! إنه برنامج (الآفة). لم أشاهده منذ فترة.

وبدأت تضحك من نكتة أطلقها أحد الشخصيات وضحكت أنا أيضًا بحذر، منتبهًا إلى أي إشارة، أي تغيير. تذكرت أنه منذ عدة أشهر كان ليزعجني أن تقاطع قراءتي بتشغيل التلفاز. لم أخبرها أبدًا بهذا، لكن المسألة حينها كانت تزعجني، خاصة إذا كانت تتعلق ببرنامج أحمق مثل (الآفة). نفس هذا التصرف الذي كان يزعجني أعاد الحياة إليّ الآن، كأن الحياة لا تحتاج سوى هذا، كأن نكات (الآفة) هي كل المطلوب، ولأنها ظلت هادئة، اندهشت من نفسي لاستعدادي للركوع أمامها لأداء صلاة شكر، كنت لأفعل هذا لو علمت من هو الإله الذي أدين له بهذه المعجزة! كانت أجوستينا تنظر إلى التلفاز بينما أتأملها لأتحقق من أن وجهها بات يصبح مألوفًا وأنها عادت لتصبح جميلة، كأن الغيمة الشريرة قد انقشعت في النهاية، لكن حينما انتهى (الآفة) وسألتها إذا كانت ترغب في إغلاق التلفاز، شعرت أنها عادت تنظر نحوي بتعبير فارغ وعلمت أن تلك الهدنة قد وصلت لنهايتها، وهذا لأن وجه زوجتي تغير منذ باتت مريضة. أشتاق إلى نظرة عينيها الساخرة كفتاة شقية، تلك النظرة التي أربكتني في أول مرة رأيتها فيها لدى خروجها من السينما ودفعتني للتلفظ بعبارة سوقية للغاية والتي لولا كوني ساذجًا لم أكن لأنطقها: "عيناك واسعتان كطفل جوعان"، لأمنحها الوقود اللازم للسخرية مني طيلة أسبوع، لكن في نهاية المطاف لم تكن العبارة

غير صائبة للغاية، ففي لحظات معينة تعود لامتلاكهما:العينان الواسعتان كطفل جوعان، لكن هذا الأمر يحدث فقط للحظات، لأنها حينما تنظر لي الآن دون أن تراني أشعر أنها أصبحت بلا رموش، أو شبكية، أو قزحية، أو جفون، وعوضًا عن كل هذا فكل ما يبقى هو الجوع، جوع متوحش لا يمكن إشباعه.

يُطوق أجوستينا- أجوستينا حي أنا- بريق بارد وهو علامة البُعد، الباب المصفح لهذا الهذيان الذي لا يسمح لها بالخروج ويمنعني من الدخول، يرتسم على وجهها الآن عبوس دائم كمن وجد شعرة في طبق طعامه، تكشيرة لمن يشعر بالدهشة والاشمئزاز في نفس الوقت، يرتسم على وجهها كل ما هو نقيض للابتسام. تتسيده رجفة الإحباط، بينما أتساءل متى سينتهي كل هذا؟

***

تقول أجوستينا: تتجهز أمي لأنها هذه الليلة ستخرج مع أبي. ربما سيذهبان للسينما أو لإحدى الحفلات. هي سعيدة وأنا برفقتها في الحمام، وعبر الراديو تُذاع أغنية تبدو جميلة للغاية. تعرف أمي كلماتها ولهذا أنا أعشقها، لأنها تغني بعلو صوتها مع الصوت القادم من الراديو. لا تفعل هذا أمام أبي أبدًا لأنه يسخر منها ويخبرها بأن لديها ذوق عتيق. يرى أبي أيضًا أن الاستماع للراديو عادة للقوم المنتمين للطبقات الدنيا.

بينما تنحني على الطست، تغسل إوخينيا شعرها الأسود وأساعدها، أنا ابنتها الوحيدة أجوستينا، على شطفه بإبريق من الماء

الفاتر وفوق الرأس المحنية لأمي أسكب الماء وأرى كيف ينساب على رقبتها وهو يسحب معه بقايا الرغوة حول البالوعة. أمي، الطويلة والنحيفة، ترتدي فقط قميصًا داخليًا من النايلون بلون العنب الأخضر ومطرز بالدانتيل. أتذكره بوضوح لأن هذه تقريبًا واحدة من المرات القليلة في حياتي التي تحاورت فيها أنا وأمي. أسألها:

ـ لماذا لا نلبس نحن الفتيات قمصانًا من النايلون؟

لتجيبني:

ـ الفتيات الصغار يرتدين الكرينولين لكي تنتفش تنوراتهن كما يجب.

ثبتت إوخينيا، أم أجوستينا، الآن عدة بكرات في كل أنحاء رأسها لتجففها بالسيشوار بينما تنظر إليها ابنتها. أنا لا أنظر مباشرة إلى أمي، بل فقط إلى انعكاس صورتها في المرآة. أرافقها في الحمام لأنني أحب رؤية كيف ترتدي فستانها الصوفي الأخضرـ الضيق للغاية لأن أمي امرأة رشيقةـ فوق قميصها الداخلي بلون العنب الأخضر.

ـ أمي لم أعد أرغب في ارتداء هذا الكرينولين الذي يجعل تنوراتي تنتفش. أحب الفساتين الضيقة مثل ذلك الفستان الأخضر الذي سترتديه للخروج مع أبي.

ـ هذا حينما تكبرين وتبدأين في الخروج مع فتية.

وتفكر أجوستينا: مع فتية؟ لا. سأخرج مع أبي، لتواصل أمها الحديث:

ـ في الوقت الحالي، يجب أن تستخدمي فساتينك، فساتينك المؤطرة بالسمق وتنوراتها المتطايرة. انظري إلى صديقتك ماريكريس كورتيس. تبدو جميلة في تلك الفساتين التي تحيكها لها خالتها يويا.

ـ أخبريني يا أمي، ما هو معنى اسمك؟

تجيبني مجددًا:

ـ سبق وقلت لك مائة مرة. إوخينيا معناها، ذات الأصل الجميل.

ـ وما هو معنى أجوستينا؟

ـ معناها الموقرة.

ـ الموقرة؟ كنت أفضل أن يكون اسمي إوخينيا.

ترسم أمي شفتيها بلون أحمر لامع وتقول لي إنه حينما أكمل عامي الـ١٥ فإنها ستتركني أرسم شفتاي أيضًا، لكن باللون الوردي الباهت. هي لا تحب أن ترسم الفتيات شفاههن باللون الأحمر. تقول إن الآباء لا يجب عليهم السماح بهذا، فالوردي الباهت أكثر رقة وتحفظًا. تبخ أمي العطر خلف أذنيها وعلى معصميها من الداخل، حيث توجد أوردة صغير توزع الرائحة إلى كل أنحاء الجسد. تخبرني أنها تستخدم فقط عطر (شانيل نمبر فايف) الذي يهديه أبي إليها دائمًا في عيد ميلادها وتبخ لي القليل منه، فوق المعصمين وخلف الأذنين، فهذا هو المكان الذي يثبت فيه. أسألها إذا كانت ستتركني أستخدم (شانيل نمبر فايف) حينما أكمل عامي الخامس عشر وتجيبني بالنفي، فالأفضل بالنسبة للفتيات الصغيرات هو استخدام ماء الورد النقي لأن الروائح القوية تجعلهن يظهرن أكبر سنًا.

حينما جف العطر ارتدت سلسلتها اللؤلؤية حول عنقها، فكما حذرتني قبلها لا يصح أن يسقط العطر على اللآلئ لأنه يقتلها.

- هل هي حية؟
- بالفعل، هي تأتي حية من البحر وما يبقيها حية هو الملح الموجود في جسدك؟
- وهل تقتلها رائحة العطر؟
- ما يقتلها هو الكحول الموجود في العطر يا حمقاء.

يرن جرس الهاتف وتترك أمي المجفف للذهاب والرد. ربما هو أبي يتصل بها ليذكرها بموعد خروجهما هذه الليلة. تخفض أمي صوت الراديو لكي يصل لها صوته واضحاً، وتركض لتخبره أن كل ما ينقص هو بعض الوقت، أنها أصبحت مستعدة تقريبًا. تسمع أجوستينا من دورة المياه أنهما يتناقشان عبر الهاتف وتعرف أنهما يتشاجران. هل لن يخرجا؟ هل لن ترتدي فستانها الأخضر؟ لماذا ولمن كانت إذًا هذه اللآلئ، ولف الشعر، والعطر الذي بخته؟ تبقى الأم في غرفة النوم وأصبح المجفف الموضوع فوق الحوض في متناول أجوستينا الآن . تشغله وتترك هوائه الساخن يسقط فوق وجهها. أنا ألف إحدى خصلات شعري المبتلة، كأمي وبعدها أجففها وأطفئ المجفف لأن ضجيجه يمنعني من سماع كلمات الغضب التي يقولانها وصوت أمي المنتحب. أتفحص بنظري تجويف هذا الأنبوب الذي يخرج منه الهواء وأرى بالداخل سلكًا حلزونيًا. أشغله مجددًا وأرى ذلك السلك يشع حُمرة، كأنه قطعة من الحلوى. أشعر برغبة كبيرة في لمس ذلك السلك شديد

الاحمرار بطرف لساني، لساني يرغب في لمسه، هو أحمر للغاية، أحمر للغاية، يقترب لساني منه.. ها هو لساني يلمسه.

***

وجاءت أخيرًا جمعة الرهان، يوم إلقاء العملة في الهواء لرؤية إذا كانت ستهبط على وجه الانتصاب أم وجه الفشل. حسنًا.في الحقيقة هذه كانت المحاولة الأولى من أصل ثلاث ولأن العنكبوت كان قد أوضح لي أنه إذا كان هناك شيء يثيره في هذه الحياة فهو ثنائي من فتاتين بيضاوين سحاقيتين تمتلكان عقلاً جميلاً وفاسدًا وبهما شيء من ملامح البراءة ومن عائلة جيدة، فقد جهزت له طلبه وفقًا لتعليماته. اتصلت به في صباح ذلك اليوم وأنا على شفا الموت من الضحك:

- كل الأمور "على سنجة عشرة" يا عجوزنا الشقي.

كان العنكبوت يتلعثم على الطرف الآخر من الهاتف، مرتبكًا للغاية، غالبًا لأن السيدة زوجته كانت بجانبه:

- وكيف حالك يا ميداس يا بني؟ ما أخبار الـ"بيزنس"؟

لكني ظللت أتحامق وأغني له تلك الأغنية الريفية التي تقول "يا ست.. يا بنت الأصول ياللي في سرير واطي". لا يمكن أن تتخيلي، جميلتي أجوستينا، مدى تأثر هذا العجوز: رجولته كانت ستصبح على المحك في نفس الليلة- إما شرفه أو إذلاله أمام الجميع- لكنه كان لا يزال يتجرأ على الثرثرة عبر الهاتف:

- ادخل على المسألة بلا خوف، ميداس يا بني، فمؤخرًا الهمة حديد وسأرفع رأسك.

ولأمنحه بعض الثقة قلت له:

- جميل يا "عنكبوت" يا عجوز. حافظ على انتعاشك، فمشروعك سينتصب في ظرف ثوانٍ مع هاتين المستثمرتين.

كانت التاسعة مساء هي الموعد المحدد للتجربة والمكان هو (أيروبيكس) بعد أن أغلق وأصبح خاويًا، وهناك في مكتبي كنت أنا وروني سيلفر وشقيقك خواكو وآيربي نختفي خلف المرآة الخفية كأننا نجلس في مقصورة لكبار الزوار، وفي الأسفل جرى افتتاح السيرك بنمرة للراقصتين على المسرح بينما جلس المهرج ساكنًا على كرسيه المتحرك، ثم بدأ "العنكبوت" يضحك ويرجو الرب كطفل في مناولته الأولى، وأمامه تتمايل العروستان العاريتان وتداعبان بعضهما على أنغام موسيقى الديسكو وتحت أضواء الكشافات. كانتا في غاية الطعامة وبذلتا مجهودًا كبيرًا، أخرجتا أفضل ما فيهما كما يُقال، فقد عقدت معهما صفقة "ثلاثة أضعاف أو لا شيء"، أي ثلاثة أضعاف إذا أثارتا الزبون ولا شيء في حالة الفشل. كل الأمور كانت مثالية، خمس نجوم، عشرة على عشرة، لم يكن هناك أي تفصيل صغير معيوب، لكن رغمًا عن هذا، يا أجوستينا يا حزينة، بات ظاهرًا منذ البداية أن الأمور لن تجري على ما يرام. كان وسط "العنكبوت" يتلوى من الأعلى ولكن في الأسفل ساد السكون، وحينما شاهدت الفتاتان أن ما تفعلانه لم يؤت

نتيجة بدأنا في تسريع وتيرة الدلع والملامسة، لكن لم يحدث شيء، كانتا قد نزعتا كل الملابس ولم يحدث شيء، كل شيء كان ظاهرًا ولم يحدث شيء، لدرجة أننا نحن الثلاثة الذين كنا نقف خلف المرآة بوظائفنا الذكورية التي تعمل بصورة كاملة، فقدنا الاهتمام والحماس بعد مرور أول ربع ساعة وبدأنا نتحدث عن السياسة، وسيلفر الذي كان لطيفًا في تلك الليلة، محبًا للكلام كما يقولون، قص علينا أن لديهم في السفارة الأمريكية- حيث يعمل- جهازًا لرصد الانفجارات وأنه في يوم الثلاثاء الماضي فقط انفجرت ٦٣ قنبلة في بوجوتا، فقلت له:

- أيها الـ"جرينجوس" الكسالى تحتاجون إلى أجهزة لرصد القنابل التي تطير أجسامنا جميعًا نحو السقف.

ثم قال شقيقك خواكو:

- بابلو إسكوبار مزاجه سيء. كل هذه القنابل لأن الحزب الليبرالي طرده مؤخرًا من قوائم انتخابات مجلس الشيوخ بسبب المخدرات.

وقال سيلفر:

- الرجل لا يحب لقب (ملك الكوكايين)، يفضل لقب (أب الوطن).
- هو لم يخطئ، فهكذا يبدو أكثر ديمقراطية.
- يبدو هكذا لكنه نفس الشيء.
- حسنًا يا سيلفر قل لنا ما الذي ترصده أيضًا بجهاز الانفجارات الموجود في السفارة.

فهذا الخنزير يبلغ البنتاجون غالبًا بكم ريح أطلقه رئيس كولومبيا. كنا في حالة هزل، دميتي أجوستينا، نضحك من مهزلة الوطن الدموية، حينما فجأة دق أحد الجرس.

- من قد يكون في هذه الساعة؟

- لا أحد. لن نفتح الباب من الأساس.

هكذا أجبتهم، لكن أيًا كان ذلك الذي يقف في الخارج فإنه لم يشاطرني الرأي، وبعدما مل من دق الجرس دون نتيجة بدأ في الضرب على بوق سيارته كأنه يسعى لإيقاظ الحي بأكمله، أتتخيلين يا أجوستينا؟ كومباوند سكني يقع أمام (أيروبيكس) ويأتي مخبول ليقرر تفجير هدوء الليل بهذه الحركة المتبجحة وليفقد "العنكبوت"، الذي كان متعاونًا ومجتهدًا حتى هذه اللحظة، مزاجه الرائق، قبل أن يصرخ:

- قولوا لابن العاهرة أن يوقف الأبواق، فمع هذا الضجيج لن يقف حتى قضيب الإله نفسه.

لكن صوت بوق السيارة ظل يتردد بل وقام الرجل بركل الباب كأنه يرغب في هدمه، فقلت للآخرين سأعود في الحال وطرت من فرط الأدرينالين فوق السلالم بقفزتين وفي نيتي وضع هذا السفيه في مكانه الأصلي، لكن حينما فتحت الباب، دميتي أجوستينا، تجمد الدم في عروقي حينما رأيت أن الطارق لم يكن سوى مستريو، رجل العصابات الذي يعمل كحلقة وصل بيني وبابلو إسكوبار. لم يحدث قط أن التقاني

في (أيروبيكس)، بل كنا نتقابل بسيارتي في وجه سيارته بضواحي بوجوتا، في مرآب (حديقة الذكريات)، فلا يوجد مكان أفضل من مقبرة للقاء الجثة المتجولة التي هو عليها ولحسن الحظ أنني فتحت الباب. قال لي بنبرته الأبدية التي لا تخلو من التهديد:

- مكاليستر. أجلب أوامر من دون بابلو بتسليمك هذه الرسالة.

- "مستريو"، صديقي القديم، اعذرني على التأخير يا رجل. كنا في حفلة خاصة مع بعض الأصدقاء وكيف لي أن أتخيل أنك أنت الطارق!

- لا تتخيل شيئًا. طقطق أذنيك جيدًا فقط، لأن معي لك خبر عظيم، بالأصح أن الزعيم يرغب في أن يقدم لك خدمة.

- بكل تأكيد يا "مستريو". إذا أحببت، هيا لنتحدث هنا في الخارج، أو من الأفضل ادخل لسيارتك (المازدا) لنبتعد عن البرد.

اقترحت عليه هذه المسألة لكي لا يتسلل هذا التعيس إلى (أيروبيكس) ويرى شركائي البارزون أشكال الصعاليك الذين أجري الاتفاق معهم على عمليات غسيل الأموال، فمن الأفضل أن يروا المعجزة فقط ويوفروا على أنفسهم العناء، لهذا أقول لكِ أجوستينا، مليكتي، "مستريو" هذا لم يكن لغزًا جميلاً، بل مؤلمًا، بعينين يظهر عليهما أثر الحقن بمخدر الـ"باسوكو"، وهيئة أشبه بالهيكل العظمي، وأنفاس من القبر وشعر دهني.

سألته ونحن ندخل السيارة:

- "مستريو" يا رجل، أخبرني ما الذي جاء بك إلى هنا؟

كنت قلقًا، جميلتي أجوستينا، أقسم لك أنني دخلت السيارة (المازدا) كمن يصعد لمنصة الإعدام، وإذا كان هناك شيئًا قد دفعني للقيام بالأمر، فهو لتفادي حدوث لقاء بين فأر المستنقعات الذي هو مستريو، وفئران الشقق الذين هم أصدقائي من بوجوتا.

- "مستريو". قل لي النبأ يا رجل.
- ليس شيئًا كبيرًا. مجرد كلمة من الزعيم.
- وما هي؟
- دون بابلو يطلب منك أن تجلب له مئتي مليون نقدًا بعد غد.
- مئتا مليون؟
- لقد سمعتني. مئتي مليون وسيعيدهم لك بعد ١٥ يومًا بمكسب قيمته خمسة أضعاف.
- خمسة أضعاف؟

عنفني "مستريو" بهذا الغضب العظيم الذي يميز متعاطي الـ"باسوكو" القدامى قائلاً:

- أتظن أنك صدى يردد الكلام؟
- حسنًا. حسنًا. يا لكرم بابلو.

حاولت تهدئته بينما أحسب في ذهني ربحًا كبيرًا سيعوض تلك الفترة المنحوسة التي كنت أمر بها، ثم سألت "مستريو" محاولاً إخفاء رغبتي:

- لكن لماذا؟ هل بابلو العظيم يعاني من مشاكل في السيولة؟

- أنت تعرف الأحوال. هذا هو زمن الملاحقة.

وهكذا فكرت في أن بابلو، الذي كانت تلاحقه مؤخرا قوة (كتلة البحث)[٩] و(مكافحة المخدرات الأمريكية) و(كارتيل كالي)[١٠]، لم يعد يقضي وقته بين راقصات السامبا في مزرعة (نابوليس)، بل مختبئًا في ملاذ ما، والغم فوق رأسه وصورة القبر خلفه، ثم سألت "مستريو":

- وكيف سيعيد بابلو المال لي إذا كان من المسموح لي أن أعرف.

- سيدفعها لك بال"مونيتوس". هذا هو ما أرسلني لأقوله لك.

ال"مونيتوس" هي الحوالات المالية يا أجوستينا يا حياتي، في مصطلحات غسيل الأموال هذا هو ما نقوله عليها.

- حبيبي يا "مستريو"، من عيوني، لكن المطلوب هو مئتا مليون نقدًا ويصعب الحصول عليهم بين يوم وليلة.

---

(٩) وحدة عمليات خاصة تشكلت في الشرطة الكولومبية عقب هروب بابلو إسكوبار من سجن (لا كاتيدرال).

(١٠) عصابة مخدرات كانت على خصومة مع بابلو إسكوبار.

ـ مكاليستر، اسمعني.. المسألة هنا إما أن تقول "آمين" أو ترفض. سأعود بعد ١٥ يومًا مع الـ"مونيتوس" في جيبي ومشكلة حصولك على الأموال بالبيزو تخصك.. آه وهناك شيء أخير، الزعيم يرغب في أن يدخل في هذه الصفقة أنت والمخبر والكسيح فقط.

كان هذا هو آخر ما قاله "مستريو" قبل أن يختفي في الليل بصوت صرير إطارات سيارته، تاركًا خلفه عادمها السقيم. تسمرت في مكاني لفترة وروحي يحكمها قلق هائل، فكيف بحق الشيطان يمكنني الحصول على هذا القدر من المال، إذا كان يمكنني اللجوء فقط للـ"عنكبوت" وسيلفرستين؟ أنت قد فهمتِ بالفعل يا أجوستينا أن بابلو إسكوبار حينما أشار إلى الكسيح والمخبر كان يتحدث عن هذين الاثنين. هل بابلو يعرف أن روني سيلفر يعمل مع وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية؟ بالطبع كان يعرف، لهذا كان يلعق شفتيه كلما تمكن من تلطيخ يديه بصورة أكبر، فبابلو بنفسه هو من قال لي حينما بدأنا نعمل معًا أن أبحث عن الأمريكي وأدخله في دائرة الفساد. ضحك حينها وقال:

ـ رجال المكافحة هؤلاء يكسبون من الجانبين، لكن حينما يسقطون، يصبح سقوطهم أكبر بمقدار الضعف.

* * *

أنا لا أعرف. هذه المأساة بدأت تتخذ أبعاد الميلودراما، وحتى العمة صوفي الصلبة للغاية، تتحدث أحيانًا مثل المسلسلات وتخرج منها بعض العبارات كأنها "طبيبة القلوب"، وما الذي يمكن قوله عن أجوستينا التي يبدو أنها خرجت من صفحات كتابات جين آير؟ أو عني؟ بالأخص عني، وأنا أعيش مع هذا الغم وهذا النواح وهذه الحياة القائمة على عدم فهم أي شيء وضياع الهوية، بالأخص تلك النقطة الأخيرة، لأنني أشعر أن مرض زوجتي قد استعبد هويتي، أنني رجل قد أُفرغ كل ما في داخله ليُملأ بعدها كأنه وسادة بالقلق على أجوستينا، بحب أجوستينا، بالجزع أمام أجوستينا، بالغل تجاه أجوستينا. الجنون عبارة عن ملخص لكل ما هو مزعج، فهو مثلاً كريه ومراوغ ويتعلق بسفاسف الأمور، أحد مكوناته هي اللاواقعية الضخمة وربما لهذا يحمل طابعًا مسرحيًا وأعتقد أيضًا أن من ضمن خصاله ضياع خفة الدم لهذا يبدو ميلودراميًا بهذه الصورة. كنت أجلب شطيرة من الجبن اليوم لأجوستينا، التي رفضت طوال اليوم النهوض من الفراش، أعددتها لها بالزبد السائح في ماكينة فطائر الوافل كما تحب وبينما أنا على وشك دخول الغرفة سمعت الخالة صوفي تعتذر لها. كانت تقول لها شيئًا مثل هذا: هل تقدرين على مسامحتي يا أجوستينا؟ وأزادت: هل يمكنك

مسامحتي على ما فعلته؟ هكذا إذًا.. الخالة صوفي لها ماضيها وخطيئتها. هذا هو ما قلته لنفسي، فأنا كنت أستشعر بالفعل وجود شيء مريب وأنه خلف هذه العائلة تُحاك بعناية إحدى حبكات مسلسل (بيتون بليس). أخيرًا سأكتشف شيئًا ما. فكرت بهذه الصورة مع نفسي ووقفت دون أن يلحظني أحد منتظرًا أن يبدأ الحوار، لكن الدقائق كانت تمر وأجوستينا لا تزال صامتة. لم تمنح العفو ولم ترفض منحه وحينها استسلمت الخالة صوفي وبردت الشطيرة. عدت نحو المطبخ لأعيد تسخينها، ولدى عودتي لغرفة النوم وجدت أجوستينا ناعسة والخالة صوفي تنظر لنشرة الأخبار، لم أخطئ حينما قلت إنها تنظر، لأنها كانت قد ألغت صوت التلفاز تمامًا وارتضت بمشاهدة الصور التي لم يكن فيها أي شيء مُرضي. هززت زوجتي قليلاً من كتفها لكي تأكل لكن كل ما نجحت فيها هو أن تخبرني دون حتى أن تنظر لي بأنها تكره شطائر الجبن، وأمام ما حدث شعرت الخالة صوفي بأنها مضطرة للوساطة، كما تفعل دائمًا.

- سامح زوجتك يا فتي. ما تعاني منه هو الألم الذي يتنكر في صورة اللامبالاة.

أجبتها وأنا أمضغ الشطيرة التي رفضتها:

- بالفعل يا خالة صوفي. أنا أسامح زوجتي، لكن أخبريني، بالنسبة لك. ما الذي يجب أن تسامحك عليه؟

- هل كنت تسترق السمع؟

كانت ترغب في معرفة إذا كانت لدي رغبة حقيقة في أن تحكي لي، لكنها استمرت في الحديث قبل انتظار إجابتي:

- سأقص عليك الأمر من أجل مصلحة تلك الفتاة لأن هناك جزء مني يساهم بصورة لا إرادية في مأساتها. تتعلق المسألة بشيء فعلته منذ فترة وسبب لها ضررًا كبيرًا.

قلت لها وأنا أمسكها من ذراعها:

- من الأفضل أن نهبط يا خالة صوفي، لنترك أجوستينا نائمة هنا ونتحدث في الصالة.

أجابتني وهي تجلس على الأريكة:

- إذا لم أرفع قدميّ عاليًا أعتقد أنهما ستنفجران.

ساعدتها على وضع قدميها فوق صف من الوسائد وأخرجت زجاجة من رُم (بيبخو دي كالداس). بدا لي أنها ربما قد تسهل حوارًا كان يُنبئ بأنه لن يكون سهلاً. وهكذا كنا هناك نحن الاثنان، كل منا كأسه في يده، أنا على الكرسي الهزاز المصنوع من الخيزران والخالة صوفي مرفوعة القدمين ثم سألتها لتشجيعها وأنا أشغل (ثيلينا وريوتيليو):

- القليل من الموسيقى؟

قالت لي لتبدأ حديثها:

- كانت واحدة من تلك الأمور..

لكنها توقفت بعدها وصمتت لربع ساعة طويلة كأنها تستمتع براحة قدميها وهي دون حذاء، كأنها تتذوق كل رشفة من رُم (بييخو دي كالداس)، وهي تنساب مع التيار البلسمي لموسيقى ال(صون كوبانو) وتركتها على حالتها، فهذه المرأة كانت تستحق حقًا فترة من الراحة. بعدها ابتسمت مع ضحكة خفيفة، ضحكة كانت تتعارض مع القصة القاسية التي أعلنت عنها وكنت في انتظارها ثم طلبت مني الاستماع إلى لما تغنيه ثيلينا:

- اسمعها. هي تفسر لك كل شيء. أعد تشغيل الأغنية الأخيرة.

فعلت ما طلبته مني وبدأت ثيلينا في غناء ذلك الجزء من أغنية (الحصان العجوز) الذي يقول "حينما يصل الحب بهذه الطريقة فلا أحد يتحمل الذنب. تبادل الغرام ليس له موعد ولا تاريخ ولا نتيجة حينما تطغو الرغبات".

- هكذا إذًا يا خالة صوفي. طغت الرغبات والذنب ليس ذنبك.

- بالفعل يا أجيلار. طغت الرغبات ولا أحد يتحمل الذنب.

- لا أحد يتحمل أي ذنب يا خالة صوفي. لنصب كأسًا جديدًا من الرُم ونركز في موضوع الاعتذار. أخبريني لماذا اعتذرتِ لأجوستينا.

- اعتذرت لها بسبب مجموعة من الصور التي قضت على العائلة.

قالت لي الخالة صوفي إن شقيقتها إوخينيا وزوج الأخير كارلوس بيثينتي لوندونيو كانا قد دعياها للعيش معهما حينما انتقلوا للشمال وأضافت:

- كان المنزل ضخمًا للغاية.. حسنًا لا يزال كذلك، فهناك تعيش الآن إوخينيا وابنها خواكو وعائلته. كيف يمكنني وصف خواكو؟ هو فتى غريب، رجل قد انتصر في الحياة لكنه يحيا في عالم بعيد عن عالمي، هو رجل مبالغ فيه، كما كانت تقول أمي، لكن إذا كان له إنجاز لا يمكن إنكاره فهو أنه دائمًا ما اعتنى بإوخينيا، ودعني أخبرك يا أجيلار أن هذا عمل جبار، لكن هذا هو الجانب الطيب في خواكو ابن أختي، ففي النهاية لا يمكن أن يكون كل شيء سلبيًّا. أنت لا تعرف كم الصبر والكياسة التي يُعامل بها أمه. أختي إوخينيا جميلة للغاية. صدقني كانت في قمة الروعة، لكنها كانت تحيا وهي تتيه في ذاتها، كأنها غائبة، كأنها جسد بلا روح أو مدينة خاوية. هكذا كان يناديها كارلوس بثينتي حينما ينظر لها، وخصوصًا في غرفة الطعام في ساعة العشاء وهي تجلس على رأس المائدة تحت الثُريا الفضية المعلقة في السقف والمتلونة بألوان قوس قزح، لتبدو من كل الجوانب كأنها منحوتة مثل حجر كريم، بنفس سكونه وخصائصه. أنا على النقيض لم أكن في نفس رقتها يا أجيلار، لم أكن مثالية وعلى عكس إوخينيا- شديدة النحافة- كنت قد ورثت هذا المظهر الألماني الذي تراه الآن. منذ الصغر كنت ضخمة وثقيلة كأبي، لكن كنت حية من الداخل. كان المنزل منزلها والزوج زوجها والأبناء

أبناؤها، وأنا على النقيض مجرد طفيل، كائن مستغل، خالة عزباء كان يجب عليهم استقبالها لأنها باتت بلا مكان في هذه الحياة، وكل ما لدي في هذا المنزل كان مستعارًا. هذا هو ما كنت عليه من الخارج، لكن الأمور من الداخل كانت على النقيض، فالعزباء الصامتة هي إوخينيا، التي كانت تحسن التصرف والملبس دائمًا، لكنها عجزت عن الحب دون معاناة.. هي من كانت تتغذى على المظاهر، أما خواء الحب الذي هجرته فملأته أنا.. كنت أنا وليست هي من يلبي نداء رجلها في الفراش كزوجة ومن يحب أبناءها كأم، من يجلس لحل الواجبات معهم ويصطحبهم للحديقة ويعتني بهم في ساعة المرض، وينشغل بمسألة التسوق ومراقبة الأعمال المنزلية، لأنه لو كان الأمر بيد إوخينيا لأكلنا نفس الطعام كل يوم، ليس لأنها تجهل الطبخ، فقد كانت طاهية ماهرة، بل لغياب سعادتها الدائم.. كانت تترك الخادمات ينظمن أمورهن بأنفسهن دون أن تدخل المطبخ أبدًا، ولنقل إن الخطوط العريضة وراء المسألة كانت بسبب نقص همتها كل يوم لدى الاستيقاظ. كارلوس بيثينتي لوندونيو كان رجلاً طيبًا بطريقته التقليدية. رغمًا عن تذمره الدائم كان رجلاً طيبًا، يرتدي ملابسه كإله كما يقولون هنا في بوجوتا، تراه دائمًا في بزته السوداء، حليق اللحية، حسن الهندام، وفي حاجة دائمة للمشاعر ولأن يجعله أحد يضحك قليلاً. الحقيقة أنه لم يكن ألمع الرجال أيضًا، دعني أخبرك أن أكبر التسالي بالنسبة له كانت جمع الطوابع ومجلة (بلاي بوي). مأساته كانت ابنه

الأصغر، "بيتشي"، طفل ذكي، وصاحب مخيلة واسعة، ولذيذ، وطالب جيد، كل ما يمكن للمرء أن ينتظره من ابنه وأكثر، لكن له ميول معينة نحو كل ما هو مؤنث، وهو الأمر الذي لم يتمكن والده من قبوله وجعله يعاني ما كان مكتوبًا عليه، كان يعيش مقتنعًا بأنه من الممكن- بل يجب عليه- تصحيح هذا العيب وتقويم الفتى عبر قوة يديه، وفي كل مرة حاولت فيها مناقشة الموضوع معه، كان كارلوس بيثينتي يفقد أعصابه دون أن يمانع في أن يقول لي بأي حق أبدي رأيي إذا لم أكن أمه. فوق كل هذا، كان الطفل جماله لا يقاوم، إذا كانت أجوستينا حبيبتك جميلة يا أجيلار، فإن "بيتشي" أجمل منها بكثير وفي تلك الفترة كان يشع نوعًا من النور الملائكي الذي يترك المرء مذهولاً، لكن هذا لم يفعل سوى زيادة الأمور بلة بالنسبة لأبيه. كانت لدى إوخينيا عادة وهي السفر سنويًا لمدة أسبوع مع أبنائها الثلاثة إلى (ديزني لاند) في فلوريدا. كانت تدعوني، لكن كنت أرفض بأي حجة، فبكل تأكيد لم يكن بإمكاني أن أعترف لها بأن (ميكي ماوس) الذي يخصني موجود معي في المنزل. هذا الأسبوع كان هو الأهم في العام بالنسبة لي. لا يمكن أن تتخيل يا أجيلار جمال الوقت الذي كنت أقضيه مع كارلوس بيثينتي دون الاضطرار إلى التظاهر بأمور أو إخفائها لأن إوخينيا كانت تستغل المسألة لمنح الخادمات إجازتهن الإجبارية، وبهذه الصورة لا تضطر إلى منحها لهن في عيد الميلاد والعام الجديد، وهي أكثر الأوقات التي تصبح فيها في حاجة إليهن. وهل ستطهين لكارلوس

بيثينتي يا صوفي؟ اعتادت أن تسألني وهي تعد حقائبها لأجيبها: نعم بكل تأكيد، سافري مطمئنة فأنا سأهتم بالمسألة. ويا للدرجة التي اهتممت بها بالمسألة! كنا نخرج للرقص في الملاهي الشعبية أو لمشاهدة الأفلام المكسيكية، دائمًا في وسط أو جنوب المدينة، ففي تلك الأحياء العمالية لا بد أن تحدث معجزة ليتواجد فيها أحد من معارفنا لينتقل معه الخبر. أنت تعرف أن المسافة من شمال لجنوب بوجوتا أكبر مما هي عليه من هنا إلى ميامي. آه لو كنت رأيت كيف يصبح كارلوس بيثنتي رجل المجتمع الراقي صاحب الصدر المنفوخ دائمًا منطلقًا كشخص مجهول الهوية في الجنوب! كان يتعامل بلطف مع الناس ويرقص كالنحلة في الحانات الشعبية. كنا نذهب لحانات (ثيسني) و(تيخا كوريدا) و(سالوميه) و(جوثي باجانو)، ونركض بحثا عن الثي أكوستا وأوليمبو كارديناس، أيًا كان مكان نمرة أي منهما لكي نستمع إليهما حتى الفجر ونحن ثملان ومغرمان. لم تكن الحياة تهدينا سوى أسبوع في العام، لكن أقسم لك يا أجيلار أننا كنا نحسن استغلاله. في واحدة من المرات التي غابت فيها إوخينيا مع الأطفال، اكتشفنا المتعة التي قد توجد في الصور. كنت أعرف أن كارلوس بيثينتي يهوى عارضات (بلاي بوي) واعتدت أن أسخر منه. اعتدت أن أقول له: أنتم معشر الرجال حيوانات، تفضلن النساء على الورق بدلا من النساء من شحم ولحم، ولأنه كان مصورًا ممتازًا خطرت له فكرة أن يطلب تصويري عارية وأنا وافقت بكل سعادة.. بجانب المدفأة، ونزولاً من على السلالم أو فوق

السجادة، وصففي شعرك هكذا، وارتدي هذا وانزعي هذا.. أقسم لك يا أجيلار أنني لم أر كارلوس بيثينتي متحمسًا بهذه الطريقة أبدًا. كان يلتقط لي خمسة أو ستة أفلام ويرسلها لتحميضها في مكان لا أعرفه، لكنه يقع على أي حال بعيدًا عن الحي، وبعدها كنا نحتفل بأفضل الصور ونسخر من أسوأها، في بعضها كنت أظهر بدينة أكثر من اللازم وكنت أغطي عينيه كي لا يراها.

قاطعتها:

- هذا أمر لا يصدق. أراهن أنكما لم تلصقان تلك الصور في الألبوم العائلة بجانب صور المناولات الأولى.

- اصمت يا أجيلار. اتركني أكمل حكاية المسألة قبل أن أندم..قبل يوم أو يومين من عودة المسافرين كنا نودع كل هذا ونحرق الصور في المدفأة، لكن أحيانًا كلما كانت هناك صورة تعجبه كثيرة كان يقول لي: "لن أحرق هذه الصورة مقابل أي شيء في العالم لأنها عمل فني وتظهرين فيها كإلهة"، وأنا: "لا تكن عنيدًا، كارلوس بيثنتي، فبعدها قد تحدث مشاكل"، ليهدئني: "لا داعي للقلق يا صوفي، فسأحتفظ بها في خزانة مكتبي ولا أحد يعرف شيء عن هذا المفتاح".

أقف لتغيير الاسطوانة وتقديم دور آخر من رُم (بيبخو دي كالداس) وفي تلك اللحظة تظهر أجوستينا عند باب الصالة بنفس السترة المتسخة التي لم ترغب في تغييرها منذ يوم الواقعة المظلمة، بذلك التعبير المسحور

لمن ينتظر شيئًا لكنه لن يحدث بتاتًا على أرض العالم الذي نحيا عليه. أظهرت لنا قدري طبخ صغيرين في يديها لتتنهد الخالة صوفي وهي تخفض قدميها في استسلام من على الوسادات قبل أن تقول:

- آه يا يسوع! هذه الفتاة ستبدأ مجددًا جلبة الماء!

***

تبتعد الجدة بلانكا والجد بورلتولينوس عن شجرة الآس العتيقة ويسيران نحو النهر. يتقدم بورتولينوس بصعوبة عبر نسيج الخضرة شديد الكثافة والحدة. كان ليرغب في تغطية مسام ومنافذ جسده لكي لا تتسلل إليه تلك النسمة المعبقة برائحة النباتات. يسير دائخًا من الحر والرطوبة ثم يتوقف لحك كاحليه المتورمين من قرص البعوض. تخبره الجدة بلانكا:

- تحمل بعض الشيء يا نيكولاس. شارفنا على الوصول. حينما تضع قدميك في المياه ستشعر أنك في حال أفضل.

- صحيح بات بإمكاني سماع النهر.

أجابها بارتياح لأن الصوت المُخلّص لتساقط مياه الشلال بدأ يصل إلى مسامعه فقد بات النهر السيال ذو المياه النظيفة التي ترتطم بصخور الهاوية قريبًا.

- إنه الراين!

قالها بورلتولينوس بانفعال تمكن من احتوائه بالكاد، لكن زوجته صححت له:

ـ هو نهر دولثى، يا حبي. نحن في ساسايما.

ـ نحن في ساسايما. بكل تأكيد.

كرر عبارتها وارتسمت على محياه ابتسامة هشة كاعتذار:

ـ بكل تأكيد، يا بلانكا يا حبي، معك حق كما يحدث دائمًا هذا هو نهر دولثى.

قبل أن تسقط المياه نحو الفراغ، تتوقف بوداعة في بئر تحتضنه أحجار ناعمة وسوداء، يجلس الزوجان فوق واحد من تلك الأحجار وتساعد بلانكا نيكولاس على تشمير سرواله ونزع حذائه وجوربه، بينما يترك هوـ الهادئ الآنـ الانتعاش المحبب للمياه يصعد عبر جسده، ليبحر داخل جسده ويُصفي ذهنه.

ـ يا سلام يا بلانكيتا! يا لجمال مشاهدة المياه وهي تجري.

تخبره بأنها قلقة من نزلات البرد المتكررة التي يعاني منها نيكاسيو، كبير الخدم، ليبدى بورتولينوس رأيه:

ـ قد يكون السُل.

ـ ليس السُل يا نيكولاس. اقفل فمك هذا. الرب يحمينا من السُل. هي مجرد نزلة برد، المشكلة أن المسألة مزمنة.

- هذه النزلات المتكررة تسمى السُل.

تقول ضاحكة:

- ربما بالألمانية.
- أحبك حينما تضحكين.
- أتعرف أن عائلة أوربي بشارة أعجبوا كثيرا بأغنية ال(بامبوكو) التي ألفتها لحفل زواج ابنتهم الويسا.
- أعجبتهم؟ كنت أظن العكس لأن هناك جزء فيها يتحدث عن الحب الذي يدمي قطرة تلو الأخرى.
- ولماذا لن يعجبهم هذا الجزء؟ هو جميل للغاية.
- بالفعل، لكن لا يمكنك نسيان أن والد العريس مات من نزف الدم الوراثي.
- آه يا نيكولاس. يا لهوسك اليوم بالأمراض.
- تعالي إلى هنا بلانكا، يا يمامتي البيضاء، اتركيني أعانقك لنرى معًا البراءة التي تتوقف بها المياه عند البئر قبل تساقطها.

تجيبه مازحة:

- حسنًا الآن أصبحت لديك كلمات لأغنية بامبوكو جديدة.

وهكذا يواصلان الحديث عن الأشياء التي يومًا تلو الآخر تشكل حياتهما، عن عدد البيضات التي وضعها الدجاج، أو تأخر موسم السيول، أو شغف ابنتهما إوخينيا بالطيور، أو هواية ابنتهما صوفيا للرقص، ليتكلم بسلاسة ودون صعوبة أو ازدواجية في المعاني حتى

تحققت بلانكا من أن النهر هدأه وهدهده كطفل ليدخل في مرحلة النعاس. يقول بورتولينوس ناعسًا مبتسمًا بعينين شبه مغلقتين:

- نهر الراين.
- ليس نهر الراين يا عزيزي هو نهر دولثي.
- اتركيني يا امرأة، فها هي ذكرياتي تعود، ومن هو الذي قد تضره؟ نهر الراين، نهر ريكنيتس، نهر ريجن، نهر الراين..

نطق وكرر هذه الأسماء بهدوء ليتذوق رنين كل مقطع، لكنه لم يشر لأنهار بوتومايو أو الأمازون أو أبابوريس. لها أسماء رنانة هي الأخرى لكنها حقيقية وتقع في هذا الجزء من العالم، لكنه فضل ذكر أسماء أنهار الدانوب والدوناو وإيدر التي تقع في مكان بعيد إذا كانت موجودة من الأساس، لتدرك بلانكا أن ساعة العودة للمنزل قد حانت. تجفف قدميه بتنورتها وتضع قليلا من لعابها على اصبعها وتمسح به على لدغات البعوض لكي لا تأكله ثم تساعده على ارتداء حذائه وعقد أربطته بصورة جيدة لكي لا يخطو عليها في طريق العودة، تمسكه من يده وتُبعده عن هذا المكان لأنها تعرف وجوب منع أحلام بورتولينوس من الركض وراء صوت المياه. ستكتب الجدة بلانكا في واحدة من صفحات مذكراتها "لأنه مرهق ومتوتر من الإفراط في العمل، فإن نيكولاس يهدأ من رؤية مياه النهر وهي تجري، لكن إذا طالت المشاهدة أكثر من اللازم، فإنه يبدأ في التهيج، ويجب علينا الرحيل في أسرع وقت"، لكن ما لا تذكره الجدة في مذكراتها هو أنه حينما يكرر الجد

أسماء أنهار وطنه ـ آيش، آلر، التموه، فارنوف، فارتا، فيسر ـ فإنه يفعل هذا الأمر بترتيب أبجدي صارم. هي أمور خاصة بالمجانين، ميول غريبة ربما تكون قادته نحو المقبرة، أو بمعنى آخر أن هذه التشنجات والتكرارات اللاإرادية كانت تساعده على الانفصال عن الواقع، أو على الأقل ما هو واقعي بالنسبة لأحد مثل بلانكا. كان نيكولاس يردد أسماء أنهار مثل زاله وزريه وسوده وتاوبر كأنها صلاة لتبدأ في داخله جلبة تأتي من الجانب الآخر لتأخذه معها.

في نفس اليوم ولدى عودتهما للمنزل عقب تلك النزهة بجانب نهر دولثي بالنسبة لبلانكا وقائمة من أنهار ألمانيا بالنسبة لبورتولينوس، أبلغتهما الابنة الصغرى إوخينيا، تلك المخلوقة الجميلة الشاحبة قليلة الكلام التي بدأت زهرة بلوغها تتفتح، بأنه أثناء غيابهما فقد جاء فتى سيرًا على الأقدام من أنابويما بحثًا عن والدها لأنه يرغب في أخد فصول في العزف على البيانو، وإذا كان بورتولينوس قد سأل ابنته الصغرى حينها "أي فتى؟" فقد كان هذا لمراعاتها فقط، مراعاة لإوخينيا ذات الوجه العابس، لإوخينيا المشوشة، المنشغلة دائمًا بشيء آخر، لأن جوعه في هذه الساعة كان يلاحقه وجعله يهتم برائحة فخذ الخنزير الذي سيخرج من الفرن أكثر من معرفة إجابة ابنته على سؤاله بخصوص هوية الفتى الذي أتى بحثًا عنه، وهي الإجابة التي كان من المعروف بشكل مسبق أنها ستكون مبهمة، لأن كل أقوال هذه الابنة كانت مبهمة، وبالنسبة لبلانكا، الأم، فقد عُرف لاحقًا عبر ما كتبته في مذكرتها أنها كانت حينها في المطبخ منشغلة بمسألة الفخذ المشوي دون

أن تعرف شيئًا عن هذا الحوار، لكن على عكس المتوقع أجابت إوخينيا على أبيها بحيوية غير معتادة منها:

- فتى أشقر لطيف يحمل مخلاة على ظهره.

كان بورلتولينوس دائمًا مضيافًا ومحبًا للأصول طالما كان على طبيعته، وأيضًا كيف له ألا يتحلى بآداب الضيافة مع فتى أشقر لطيف وصل مُرهقًا بعد رحلة سيرًا على الأقدام من أنابويما؟ لهذا سأل ابنته إذا كانت دعت هذا الزائر للدخول، أو قدمت له على الأقل كوبًا من عصير الليمون، لكن الفتى لم يقبل أي شيء، فقد أعلن فقط أنه إذا كان أستاذ البيانو غير موجود فإنه سيعود غدًا.

بعد الانتهاء من الموضوع، جلست العائلة على المائدة بصحبة نيكاسيو، كبير الخدم الذي يعاني من نزلة البرد المستمرة وزوجته واثنين من تجار ساسايما، وقُدمت فخذة الخنزير مع البطاطس والخضروات المطهية على البخار. كان ذهن بورتولينوس صافيًا لذا كان ودودًا للغاية وأجرى استقصاءً دقيقًا عن الحالة الصحية لكل واحد من الموجودين وفي وسط الحوار الصاخب وحركة الصواني والأواني التي كانت تأتي وتذهب على طول المائدة، قصت الطفلة إوخينيا دون أن يوليها أحد اهتمامه أن الفتى كان معه في المخلاة عدة عساكر من الرصاص. أخبرتهم إوخينيا دون أن يسمعها أحد:

- سمح لي باللعب بهم بينما ينتظر وصولكما ورتبنا العساكر الصغيرة في ثلاثة صفوف عبر الرواق وكان يُصفر موسيقى عسكرية وأخبرني

أننا نظمنا عرضًا عسكريًّا كبيرًا، وقال لي أيضًا إن هؤلاء الجنود الصغار ليسوا سوى عدد صغير مما لديه وإنه جلبهم معه لكونهم جنوده المفضلين، لكن في منزله في أنابويما، ترك الكثير والكثير منهم.

* * *

تسأل أجوستينا:

ـ أمي..من في الخارج؟ أمينتا..من في الخارج؟

تتحدث عن منزلها الأول، منزل العائلة قبل الانتقال نحو الشمال، المنزل المطلي باللونين الأبيض والأخضر والواقع في حي تيوساكيو بجادة كاراكاس. يوجد شخص ما في الخارج ويرفضن إخبارها بهويته.

تمر حافلة المدرسة لاصطحابي مبكرًا في الصباح، تطلق بوقها وتضحك الخالة صوفي وتقول:

ـ هذه الحافلة المسكينة تخور كبقرة مريضة.

ـ أين دفاتري يا أمينتا؟ أين هي أقلامي؟

لكنهن لا يسمحن لي بالخروج، لا يرغبن في فتح الباب الكبير، ينظرن عبر العين السحرية. كان لا بد وأن يأتي يوم من الأيام تشعر فيه حتى أمينتا بالخوف من شيء ما. تهتف الخالة صوفي:

- سيدي المجذوم. تنحى جانبًا لكي تخرج الطفلة.

الخالة صوفي لا تعيش معنا بعد لكنها الوحيدة القادرة على حل المشكلات.

- تنحى جانبًا من فضلك سيدي المجذوم.
- اتركيني يا خالة صوفي، أنا ذاهبة للمدرسة.

لكنها تحتجزني بذراعها وتغطي رأسي بسترتها ذات الكِنار الأبيض، تلك التي كانت مزودة بلآلئ مزيفة بدلاً من الأزرار، وهكذا خرجنا نحو الشارع سريعًا لكي لا أرى. لكي لا أرى ماذا؟ لكي لا أرى من؟ لكن الخالة صوفي لم تعد موجود هنا لكي تخبرني. تخبرني أمينتا:

- لكي لا تري المجذوم؟
- إذًا من هو؟
- مريض مسكين؟
- ولماذا لا يمكنني رؤيته؟

- تقول أمك إنه لا يجب أن تريه لأنه يترك انطباعًا داخل المرء. ذلك المسكين فظيع الهيئة، بياضه شاحب كالموتى وجلده متعفن والرائحة التي تخرج من فمه تشبه المقبرة.

نجحت رأسي في الهروب من سترة الخالة صوفي ورأته عيناي تقريبًا، أو ربما أنهما تحلمان به ليلاً. هو طيف إنسان متسخ يحمل في يده قطعة من الورق المقوى كُتب عليها شيء ما. الحروف كُتبت بصورة

سيئة، كأنها لطفل لم يتعلم شيئًا، حروف شخص فقير. تقول أمي إن الفقراء أُميين.

- هو قذر يا فتاة!

ما هو القذر؟ أعرف الإجابة: القذر هو أي شيء يأتي من الشارع. لكن أنا أرغب في رؤيته. يجب أن أراه، لقد كتب المجذوم شيئًا لكي أراه.

- ما الذي يقوله يا أميتا؟ ما الذي يقوله يا أمي؟ هل يمكن أن يقرأ لي أحد المكتوب على ورقة الكارتون القذرة؟
- أن يعطوه حسنة لأنه قادم من (أجوا دي ديوس).

لكن أنا لا أصدق:

- وما هي (أجوا دي ديوس)؟
- أسرعي يا أجوستينا. فالحافلة قد تتركك.
- فلتتركني..أرغب في معرفة ما هي (أجوا دي ديوس).
- اركبي الحافلة الآن وبعدها سأشرح لك.
- اشرحي لي الآن.
- (أجوا دي ديوس) مستشفى جذام يحبسون فيها المصابين بالبرص لكي لا يأتي المرضى للمدينة ويصيبوا الناس بالعدوى.

إذًا، لماذا هو هنا؟ لماذا جاء ليتوقف أمام باب منزلي؟ ليس منزلي الحالي بل السابق. هل هرب من (أجوا دي ديوس) ليبحث عني؟ أعرف الآن لَم كان أبي يضع أبي المتاريس والأقفال ليلاً، لكي لا تتسحب لنا

عدوى (أجوا دي ديوس) بلحومها البيضاء المتعفنة التي تتساقط في قطع كبيرة.

- أخبريني يا أمينتا، كيف هو شكله؟ ما هي رائحته، من يقول أن الموت مرسوم على وجهه؟

أرغب في معرفة ما يراه محجرا عينيه الفارغين. هل تصبح عيناه شمعيتان وتنصهران؟ تقول أمينتا إن عينيه تذوبان من شدة التقيح.

- اخرسي يا مجنونة. لا تقولي مثل هذه الأشياء.
- أمي. أمينتا تخيفني من المجذوم.

سيطردونك من العمل. سمعتي يا أمينتا، لأنك كذابة. أخبرتني أمي أنها ستطردك من العمل إذا تابعتِ إخافة الأطفال. لم أعد في حاجة لسؤال أحد لأنني أصبحت أعرف: باتت لدي "القوة". باتت لدي "المعرفة"، لكن لا تزال تنقصني "الكلمة". يعتقدون أنني لا أفهم، لكن أنا أفهم. أعرف وجه الشيء الفظيع المنتظر في الظلام على الجانب الآخر من الباب، ذلك الشيء الساكن تحت الأمطار الذي فر من حيث كان محبوسًا ليتجسس بعينيه الخاويتين على ما يوجد داخل منزلنا المضيء.

- أطفئي الأنوار يا أمينتا.

لكنها لا تعيرني اهتمامًا. منزلنا القديم، ذلك المطلي بالأبيض والأخضر، الواقع في جادة كاراكاس حيث ولدت أنا وأخواي. أتحدث عن أزمنة الماضي. بعدما يغلق أبي النوافذ، أسير لأغطي بإصبعي كل

الثقوب الموجودة فيها واحدة تلو الآخر، لأن أمي تقول إن ما يحدث في بيوت العائلات له خصوصيته، لا يحق لأحد أن يقحم أنفه في شؤون غيره، فمكان غسيل الملابس المتسخة هو المنزل. تتصاغر قواي أمام "المجذوم" وتنطفئ كشعلة لا تضيء شيء تقريبًا سوى العدم. هل يعرف أنه سينتصر في النهاية؟ ساعة المجذوم هي ساعة هجراننا؟ هل يعرف أن أبي سيرحل في يوم من اليوم ولن يصبح موجودًا هنا ليغلق الأبواب بالمفتاح؟ آه يا أبي أعطني يدك وهيا لتغلق الأبواب، فإذا كان قد هرب من (أجوا دي ديوس)، فهذا لأنه يعرف.

- سيدي المجذوم، تنحى جانبًا من فضلك لكي تعبر الطفلة!

لا أحب يا أميتا، لا أحب أن تصرخ الخالة صوفي تلك الكلمة بقوة: "الطفلة"، لأنها أنا. وإذا تعلم كيف يناديني سيصيبني بالعدوى، سيصبح مالكًا لاسمي ويتسحب إلى داخلي، سيصل إلى أعماق رأسي ليصنع كهفه بالداخل ويبقى فيه للأبد، في عش صُنع من الذعر. يعيش في أعماق رأسي ذعر يدعى "الجذام"، يُدعى "مستشفى الجذام"، يدعى (أجوا دي ديوس)، ولديه ميل لتغيير اسمه، حينما أتحدث بـ"اللسان" يصبح اسمه "يد أبي"، وكلما مر العمري بي أدرك وجود تهديدات أخرى.

الثقوب الموجودة على النوافذ في منزلي مستديرة، مُتشظية عند الأطراف، كأنها عيون برموش على الوجه الأخضر للخشب. ما هي هذه الثقوب يا أمي؟ ما هي هذه الثقوب يا أمي؟ يجيبون دائما: إنها لا

شيء، لا شيء، وكأنه من الطبيعي أن تمتلك النوافذ ثقوبًا مثل العيون الموجودة لدى البشر.

ذات ليلة وأثناء جولة المفاتيح في "تاسع الساعات" اعترف أبي لي بأن من صنعوا هذه الثقوب هم قناصو (التاسع من أبريل)[11]. أفهم كلماته: قناصو (التاسع من أبريل) فتحوا هذه الثقوب في نوافذ منزلنا.

- وبأي شيء فتحوها يا أبي؟
- بطلقاتهم؟
- هل أطلقوا النار علينا؟
- لا.. على الناس.

لم يقل ولو حتى كلمة أخرى، لذا سألته:

- أي ناس يا أبي؟
- الناس..الناس..هذه الأمور تحدث ولا يوجد سبب للحديث عنها.
- وهل شعرنا بالخوف حينها؟

أجابني بأنني لم أكد قد ولدت بعد حينما حدث هذا. يبدو أن عدد المخلوقات المؤذية التي يجب أن نحمي أنفسنا منها في ازدياد: مجذومو (أجوا دي ديوس)، قناصو (التاسع من أبريل)، الطلاب ذوو الرؤوس المكسورة والدامية، ورعاع الجماعة المتمردة التي سيطرت على ساسايما.

---

(١١) في التاسع من أبريل عام ١٩٤٨ تعرض المرشح الرئاسي خورخي اليثير جايتان للقتل ما تسبب في نشوب احتجاجات عنيفة ومواجهات شرسة بالعاصمة بوجوتا فيما يُعرف باسم الـ"بوجوتاثو" قبل أن تمتد إلى أنحاء أخرى في البلاد.

- وما الذي قتل الجد بورتولينوس يا أمي؟ هل قتله الرعاع؟

- لا..الجد بورتولينوس هجر الجدة بلانكا وعاد وحيدًا إلى ألمانيا.

هناك تهديدات أخرى يتعرف عليها خوفي بمرور الوقت لأن خوفي لا يعرف كيف يبقى ساكنًا، خوفي حيوان في طور النمر يتطلب التغذية ويلتهم كل شيء في طريقه، بداية من أخت وأم "بن حور"، اللتين تصابان بالجذام وتسيران مصروعتين من العار لتختبئا من نظرات الناس في فناء مهجور تجر فيه الرياح الأوراق الذابلة، وأيضًا من "ميسالا" عدو بن "حور"، الذي تدهسه حوافر الجياد وعجلات العربات الراكضة في سباق لذوي الأعنة ليصبح كأسوأ خرقة بالية ملطخة بالدماء يمكن للمرء تخيلها. كانت قاعة السينما خاوية خلال حفل الـ"ماتينيه". أعتقد أن أمي كانت مريضة في ذلك المساء. قالت لي الخالة صوفي التي لم تكن قد انتقلت بالفعل للعيش معنا:

- اتركي أمك في سلام فهي محبطة.

وها أنا أرى "ميسالا" بعدما بات أشبه بقماشة بالية وهاتين المرأتين ببشرتهما البيضاء الممتلئة بالبثور وكل منهما مغطاة بعباءات وخرق مهترئة. تقول لي أمينتا:

- لا تخشي، فهذه الأشياء تأتي من الكتاب المقدس.

لكن أنا أخاف من الكتاب المقدس، يبدو لي ككتاب مرعب، لكن أمي- وهي رحيمة- وضعت نسخة منه في كل واحدة من غرف

النوم، لكن أنا في كل ليلة أخرج نسختي وأتركها محبوسة في المرآب لأن صفحاتها مليئة بالمجذومين. مهما حاولت هاتان المرأتان تغطية جسديهما، فإن عفن جروحهما يظل جليًا ولهذا تلوذان بنفسيهما إلى هذا الفناء المهجور في ذلك المنزل الذي كان لهما في وقت سابق، حينما كانتا في صحة وعافية، حينما كان المنزل نفسه ترفًا. منزلي القديم في حي تيوساكيو كان أيضًا به فناء لا يعيش فيه أحد اليوم وأسأل أبي إذا كانت الأوراق الجافة في هذا الفناء قد بدأت تدور وتلتف مع الهواء. تقول أمي إن الرعاع المتمردين القادمين من الجنوب لن يستطيعوا الوصول إلى منزلنا الجديد، لكن أنا أعرف أن بإمكانهم الوصول، لأنهم يعيشون في ذاكرتي، أو في أحلامي، كل الأحلام تأتي من الماضي البعيد، من أزمنة الكتاب المقدس. ذهبت الخالة صوفي للاحتجاج في المدرسة:

- لا تقرأوا مثل هذه الأشياء أمام الطفلة لأنها لا تفهمها وباتت رأسها محشوة بالحماقات.

هذا هو ما قالته لهم وأكرره لأني أحب وقع سماع العبارة المليئة بحرف الراء. أضحك حينما أتذكر المسألة لأنني أعلم كونها حقيقة، فمنذ الصغر وأنا أحيا كما قالت الخالة صوفي، برأس محشوة بحماقات.أخبروها في المدرسة أن هذه هي عملية التأهيل الروحي وأن قراءة هذه الأشياء في فصول الدين أمر إلزامي.

- لا تقلقي يا أمي. أعرف أنه لا يقدر أحد على اقتحام منزلنا.

هذه هي الرسالة التي كانت "يد أبي المقدسة" تنقلها لي في كل ليلة. وإذا رحل أبي بلا عودة؟ حينما يرحل سيبدأ الذعر الكبير. أصرخ في الصباح لكي تأتي أمينتا بالإفطار إلى فراشي، على الصينية المصنوعة من الفضة، كما علمتها أمي: عصير البرتقال، الحليب الساخن مع (ميلو)، ملفوف اليوكا، البيض المسلوق. تجلب أمينتا لي أشياء جميلة لكنها تجلب معها النبأ:

- هذا السيد ظل متوقفًا أمام المنزل طوال الليل. ينتظر.

- لا تكذبي عليّ يا أمينتا.هل رأيتِ الفراغ الفظيع الموجود مكان فمه؟ هل رأيتِ لحم ذراعيه العاري؟ أخبريني يا أمينتا، ما هو المكتوب على لافتته؟

كيف سأدافع عن نفسي إذا لم أفهم رسالته. أعتقد أنني ربما قد حلمت بصوته العفن يدخل عبر نافذتي وهو يقول لي:

- أنا مريض بمرض لازاروس.[١٢]

من هو لازاروس يا أمي؟ تقسم ليونوريتا ثارفانيه المعلمة التي تشرف على مسار حافلة المدرسة، إنها أيضًا رأت المجذوم يقف أمام منزلي. أسألها هي الأخرى ما الذي كان مكتوبًا فوق ورقة الكارتون لكنها لا تعرف أيضًا وتؤنبني:

- أنت ظالمة مع أم وأخت بن حور، ففي النهاية يسوع المخلص يصنع معجزة الشفاء من أجلهما.

---

(١٢) لازاروس أو "لعازر" شخصية إنجيلية يفترض أن المسيح أقامها من الموت.

ـ إذًا هل هما لا يزحفان في الليالي بين الأوراق الجافة في الفناء؟

ـ لا. ليس بعد الآن.

ـ وهل لا يختبئان في فناء منزلي القديم في تيوساكيو؟

ـ لا هذا لم يحدث أبدًا. هذا هو أمر ابتكرتيه، فأنت تبتكرين أمورًا كثيرة.

ـ شكرًا ليونوريتا ثافرانيه، شكرًا جزيلاً على إخراج هذه الحماقة من رأسي، مشكلتي يا ليونوريتا هي أن رأسي محشوة بالحماقات.

نخرج هذه الليلة أنا و"بيتشي" وأمي في سيارتنا الصفراء ذات السقف الأسود من ماركة (أولدزموبيل). ستقود هي ونجلس نحن الاثنان في المقعد الخلفي. نحب الركوب في (أولدزموبيل) لأن نوافذها المصنوعة من الزجاج المستقطب تُفتح وتُغلق عبر زر أوتوماتيكي ولأن رائحتها جديدة. اشتريناها مؤخرًا، هي أحدث موديل. توجد حركة مرورية كثيرة، ازدحام السيارات لا يسمح لنا بالتقدم وحينئذ تصبح أمي غريبة في تصرفاتها.

ـ الجو حار يا أمي، اتركيني أفتح النافذة.

لكنها ترفض.

ـ بسبب اللصوص؟

ـ أي نعم بسبب اللصوص!

فذات يوم انتزع لص سلسلة الخالة صوفي الذهبية فجأة وأذى عنقها كثيرًا. قال لها أبي حينما أدرك ما حدث:

- السلسلة هي أقل الأمور أهمية، فمثل هذه الأشياء يمكن إيجاد بديل لها.

احتجت الخالة صوفي التي كانت حينها في مجرد زيارة لأنها لم تكن تحيا معنا بعد:

- لكن السلسلة كانت تتدلى منها ميدالية الملاك الحارس التي تخص أمي.
- حسنًا سنهديك واحدة متطابقة.

لكن أمي عارضته:

- لا تحلم حتى بهذا. هذه الميدالية عبارة عن عملة قديمة، من أين سنجلب واحدة مثلها؟
- لا يهم، الأمر المُلح الآن هو أن تذهب لرؤية طبيب فقد تركوها بخدش كبير وقبيح قد يصيبها بعدوى.

بقي اثنان من أظافر اللص محفوران في عنق الخالة صوفي، لا تزال العلامتان موجودتان. يقول أبي لها إنها عضة دراكولا، لكن ملاكها الحارس لم يعد معها ولا سلسلتها الذهبية واليوم هي لا تخرج معنا في سيارتنا (أولدزموبيل)، ونحن نبقي نوافذنا مغلقة على أي حال رغمًا عن الحر تحسبًا للظروف.

- لكن يا أمي سأصاب بالدوار، إذا لم يدخل الهواء.

ـ حتى لو أصابك الدوار، لا تفتحي النافذة.

تبقى سيارة ال(أولدزموبيل) عالقة في اشتباك أعمى للسيارات التي لا يمكنها التراجع أو التقدم. تتفحص أمي مجددًا إذا كان أمان أبواب السيارات في محله. فعلتها أكثر من مرة، لكنها تعود لتكرار الأمر.

ـ هل أنت مستاءة يا أمي؟

أسألها لأنه حينما أصنع أنا و"بيتشي" ضجيجًا فإنها تغضب، لكنها تقول لا، إن الأمر لا يتعلق بهذا، وتأمرنا بأن نأتي لنجلس في المقعد الأمامي بجانبها.

ـ قوما بتغطية أعينكما يا طفليّ، بكلتا اليدين، قوما بتغطية أعينكما وعداني بألا تنظرا، مهما حدث.

نطيعها وتمسكنا بكل قوتها بذراعها الأيمن بينما تتحكم في المقود بذراعها الأيسر، لا تتركنا نرفع رأسنا ولا نقدر على رؤية ما الذي يحدث في الخارج، لكن يمكننا سماع هتافات في الشارع، هتافات تقترب، ونعرف رغمًا عن أننا لا نرى أن هناك أناس تمر بالقرب من السيارة وهم يهتفون.

ـ ما الذي يحدث يا أمي؟

ـ لا شيء. لا شيء يحدث.

هذا هو ما تقوله كلماتها لكن صوتها يقول كل ما هو نقيض لادعائها. أمرتنا الآن بالبقاء في الأسفل بعد أن تكورنا في أرضية

السيارة، حيث يضع الناس أقدامهم، وهنا فقط تمكنت من رؤية مربعات تنورتها الاسكتلندية، الدواسات، فرش السيارة الأسود، عملة ساقطة وبعض القمامة، وحذاء "بيتشي" الأحمر شبه المستدير من شدة صغره، كأنه إطار صغير. حذاء أمي ذو كعب عال ويضغط على دواسة، ثم أخرى، ثم يضغط مجددًا على تلك الأولى: تسريع ثم كبح، تسريع ثم كبح، أسمع دقات قلبها، دقات خوفي وبعض الكلمات التي يقولها "بيتشي"، السعيد هنا بوجوده في الأسفل وهو يلعب بالعملة التي عثر عليها أسفل المقعد. أحتضنه بقوة. استمر في اللعب يا "بيتشي بيتشيتو"، لن يحدث لك شيء، فقواي تخبرني أنك ستنجو. ألعب معه بالعملة لألهيه، لكن وأنا أعرف أن هناك أمورًا تحدث.

- ما الذي يحدث يا أمي؟
- لا شيء.
- إذًا، هل يمكننا الخروج والجلوس في المقعد؟
- لا. فلتظلا في الأسفل.

ترغب أمي في حمايتنا من شيء ما، من شخص ما. أدرك هذا. أعلم أنه حولنا تحدث أشياء يمكنها رؤيتها، أما أنا فلا.

- هم المجذومون. أليس كذلك يا أمي؟
- كيف خطرت لك حماقة جرئية مثل هذه؟
- هل هربوا من (أجوا دي ديوس) ووصلوا إلى هنا؟

تأمرني أمي بالتوقف عن قول الحماقات لأنني أخيف أخي، لكنه بالفعل مرعوب ويبكي! أعرف أنهم كانوا المجذومين، رغمًا عن أن أبي أخبرني ليلاً بعدما عدنا للمنزل أن ما حدث اليوم في الشارع كان احتجاجًا للطلاب ضد الحكومة. لا يهمني ما يقولونه لي، لم أعد أصدقهم. أظهر لي أبي في اليوم التالي صورًا من انتفاضة الطلاب التي نشرتها الصحف لكن لم أصدقها هي الأخرى. يحاول أبي أن يشرح لي أن أمي كانت ترغب في ألا يترك الأمر لدينا انطباعًا مخيفًا، لهذا منعتنا من مشاهدة الطلاب وهو يركضون ويدمون بين السيارات بعد أن فتحت رؤوسهم بكعوب البنادق، لكن أنا أعرف أن هذه ليست الحقيقة، أعرف أن المجذومين وصلوا في النهاية. رحل آلاف المجذومين عن (أجوا دي ديوس) وغزوا بوجوتو. يد أبي المقدسة فلتجمني من غزو المجذومين! وإن كنت أعرف أنه لا يجب الثقة أكثر من اللازم في هذه اليد.

***

أتمكن بصعوبة من الضغط على دواسة المكابح لكي لا أدهس المتسول الذي ظهر بغتة من بين الأمطار ليمر من أمام شاحنتي، لكن أي خراء يفعله هذا الانتحاري المجنون. كنت قد أوشكت على قتله وقلبي يركلني في صدري من هول الارتباك، لكن على ما يبدو فإن كل ما حدث لا يهمه في شيء، فهو بكل بساطة جزء من روتينه اليومي

والرهانات التي تقوم عليها مهنته، ودون أن أعرف متى حدث هذا وجدته يدخل عبر النافذة يدًا سائلة:

- اعطني ما يكفي لشراء فنجان من القهوة، يا أخي، فالبرد فظيع.

يخاطبني بلفظ أنت وكأن شخصًا آخر هو الذي كان وشك الإطاحة به منذ ثانيتين بسيارتي. يبدو راضيًا للغاية، لنقل إنه كان يبدو فخورًا بفعلته البراجماتية التي نفذها عن قصد ليوقفني بكل شجاعة ويطلب مني إحسانًا. ها أنت هنا مرة أخرى أيها الخبل، يا صديقي القديم، يا داعر يا ملعون! أعرف أساليبك التي تتلون كالحرباء، تتغذى على الأحوال الطبيعية وتستخدمها لأغراضك، أو أنك تتشبه بها لدرجة أنك تقتلعها وتحل محلها. حينما كان عمر ابني تونيو سبعة أعوام سألني ذات مرة: أصحيح ان كل شخص لديه مجنون في أعماقه؟ أفكر الآن في سؤاله وأتذكر تفاصيل من اليوم الذي تعرفت فيه على أجوستينا، أقصد اليوم الذي تعرفت فيه عليها شخصيًا، لأنه في تلك الفترة كانت تُعرف في كل أنحاء البلاد بأنها المستبصرة التي تمكنت عبر التخاطر من تحديد موقع شاب كولومبي كان فقد منذ عدة أيام في ألاسكا، ولأنه كان نجل وزير التعدين حينها فقد شغل اهتمام الإعلام يومًا تلو الآخر طوال الفترة التي استغرقتها مهمة إنقاذه، التي نُسقت على جانبين بين مجموعة من رجال المارينز هناك وسط الثلوج العاتية و.. ومن غيرها! أجوستينا لوندونيو التي كانت تقدم من هنا، من سانتا فيه دي بوجوتا، أدلة باراسيكولوجية وتغرس إبرًا فوق خريطة لأقاليم القطبية بناء على ما يخبرها به حدسها لتبث استشعاراتها الخوارقية من مكتب وزير

التعدين نفسه، ولأنهم عثروا على الفتى التائه في النهاية، فإن البلد بأكمله، بداية من مجلس الوزراء بأكمله، دخل في حالة من الحماس الوطني كأننا تأهلنا لبطولة (كوبا أمريكا)، ولم تشك الصحافة ولو للحظة في نسب النجاح بالكامل لقدرة أجوستينا الاستبصارية، مع التصغير من مقاصد الرب وجهود المارينز وهي في النهاية ما أنقذته من ذلك الكوخ الثلجي أو الانهيار الثلجي أو الجبل الثلجي أو أيًا كانت طبيعة العائق القطبي الذي عانى منه.

بعد عدة أيام من انتهاء هذه المسألة، التي كانت بالنسبة لأجوستينا كشهادة بتقدير "امتياز مع مرتبة الشرف" في علوم التنبؤ، قدموها لي بعد الخروج من أحد أندية السينما. قالوا لي فقط: إنها أجوستينا، لكن لم أتمكن من ربط الصلة بينها وتلك القصة المتعلقة بألاسكا. كل ما شاهدته كان أجوستينا كغيرها، لكن هذه كانت جميلة للغاية ولا تتوقف عن الكلام لتؤكد أن الفيلم الذي انتهينا للتو من مشاهدته كان رائعًا، رغمًا عن أنه كان يبدو لي بائسًا، وكان أول شيء فكرت فيه قبل أن يخبروني أي أجوستينا هي: يا لها من فتاة شديدة الجمال بنفس درجة جنونها! لكن كلمة مجنونة في تلك اللحظة لم يكن لها مردود سلبي بالنسبة لي. في الأيام التالية بدأت في التعرف على مدى طعامة أجوستينا ومرحها، والتي وفقا لعلم الأمراض الجديد الذي اكتشفه ابني تونيو كانت مجنونة من الداخل. أجوستينا المتشحة بالكامل بالسواد كانت تظهر نصف أنيقة ونصف مشعوذة، بمعاطف صغيرة مطرزة وتنورات شديدة القصر بصورة مذهلة وقفازين مقطوعين يُظهران أصابعها

الطويلة ذات البياض القوطي. كانت أجوستينا تكسب قوت يومها عبر قراءة أوراق التاروت وتخمين الحظ وقراءة الطالع عبر ال(إيجنغ) والرهان على الفرص واليانصيب، أو أن هذا هو ما كانت تقوله، فهي في الحقيقة كانت تنفق من المصروف الشهري المُرسل من قبل عائلتها. كان شعر أجوستينا طويلاً للغاية، به شيء من صفات ال"هبي" وشيء آخر من صفات التحرر. اعتادت أجوستينا أن تدخن الماريجوانا وكانت تسافر في كل ربيع مع عائلتها لباريس، تكره السياسة وتُذهل من يعرفونها بعطر جريء ومتوحش اسمه (أوبيوم). كانت أجوستينا تعيش وحيدة وفي شقتها لم يكن لديها أثاث بل شموع ووسائد ومجموعة من رموز الماندالا المرسومة على الأرضية. اعتادت أن تجمع قطط الشوارع، كانت خليطًا مقلقًا من شخصية اليتيمة المهجورة وابنة أبيها، هي فتاة ثرية وأحد أحفاد قرية وودستوك، بينما أنا، المدرس الذي ينتمي للطبقة المتوسطة ويكبرها ب١٦ عامًا، كنت ماركسيًّا يتبع المدرسة القديمة وممارسًا لها حتى النخاع، ولهذا كنت أزدري جنون "الشياكة" في نسخه المتنوعة مثل:

- أوه يا صباح الجنون! أو هيا لنفعل أي شيء مجنون!

كنت لا أشعر بالراحة مما أصبح يُطلق عليه الواقعية السحرية والذي كان حينها هو الموضة السائدة، لأنني كنت أعتبر نفسي بعيدًا عن هامش الاحتيال والعقلية العجائبية لخوفنا، وهي الأمور التي كانت تظهر أجوستينا كأفضل ممثل لها، لكن رغمًا عن هذا، كان كل ما احتاجه الأمر هو إن تجعلني أضحك، لأنها كانت حادة الذكاء

ومتساهلة، هو أن تمسك بيدي بين يديها لتقرأ لي الكف وتسألني لماذا كنت أجلد ذاتي كثيرًا إذا كانت رجلا لطيفًا ورائعًا، كأنها تقول لي لماذا أخذ الأمور على صدري بهذه الصورة، كل ما احتاجه الأمر هو أن تدعوني بـ"العجوز" لأنني كنت أدخن سجائر (بييل روخاس)، وأستخدم خاتم الزواج وأتحدث عن صراع الطبقات، هو أن تسخر من أنه لا يوجد كادح- كانت هذه هي الكلمة التي استخدمتها- يقول مثلي فروة الرأس بدلا من الشعر وطلة بدلاً من وجه ويرتدي بنطالاً بلون الشوكولاتة متسع من عند القدمين ومن النسيج الصناعي مثل بنطالي. لم يكن البنطال بلون الشوكولاتة وله فم متسع من عند القدمين، لكنها أصابت في مسألة النسيج الصناعي وهي لا تتحلى بأيِ رحمة حينما تعثر على شرخ يمكنها الدخول منه بملاحظاتها الساخرة. كل ما احتاجه الأمر هو أن تترك تلك الرائحة المثيرة والنفاذة في يدي كلما أمسكتها، لأظن أنا الذي لا يفقه شيئًا عن المخدرات أنها من أثر الماريجاونا. حينما أخبرتها بهذا عادت للسخرية وأوضحت لي أنها ليست الماريجوانا بل عطر يُسمى (أوبيوم). كل ما تطلبته المسألة أن أدرك حينما ذهبت لشراء عبوة (أوبيوم) لأهديها لها بعدها بعدة شهر، أن تكلفة أي عطر فرنسي تبلغ نصف ما أكسبه في أسبوعين. كل ما احتاجه الأمر أن تناديني هكذا: أجيلار، بعد أن مسحت اسمي بجرة قلم لتتركني أتقلص إلى لقب، لكن كان بالأخص كل ما احتاجه الأمر هو أنها ذات صباح مشرق في حديقة الاستقلال المحنت، هكذا ودون أي مقدمات، لتعقد رباط حذائي المفكوك. كنا نجلس على أحد المقاعد، بينما أحاول إكساب طابع

الواقعية على واحد من مشاريعها العنيدة التي تنساها فورًا، كتاب سيرة ذاتية كانت قد طلبت مني أن أساعدها لكتابته، وحينها شاهدت أن رباط فردة حذائي ليس معقودًا، فانحنت وربطته. سألتها إذا كانت سمعة (فتاة أوبيوم) قد تتلطخ بعقد رباط كادح يرتدي بنطالاً من النسيج الصناعي فردت عليّ بوجه ساخر. كانت المسألة ديماجوجية صرفة، لكن لا. لا. لم تكن ديماجوجية لهذا أُغرمت. لم يكن الأمر بدافع الطاعة أو الخضوع، بل مجرد موقف لطيف وغير مقصود من طرف ذلك الذي جاء بحذاء مفكوك الرباط و طرف من انحنى لربطه، أيًا كانت قدم الذي يرتديه. حينما أخبرت مارتا الينا، أم ابنيّ، التي كنت بالفعل قد انفصلت عنها بالموضوع، فاجأتني حينما أجابتني بعبارة:

- يا لك من مسيحي رغمًا عن كل شيء!

كانت أي أنثى أخرى لتقول "يا لك من ذكوري"، لكن مارتا إلينا تعرفني جيدًا وتعرف أن المسألة لا تتعلق بهذا، فهي تعرف جيد التأثير اللاشعوري والصاعق الذي يتركه فيّ مشهد الرهبان وهم يغسلون أقدام كبار السن، القديسين وهم يتخلون عن معاطفهم للمتسولين، الراهبات اللواتي يكرسن أيامهن للمرضى، من يقدمون حياتهم من أجل شيء ما، من أجل شخص ما. تلك المبادرات شديدة العظمة والمبالغة التي تبدو اليوم أنه قد عفا عليها الزمن من فترة. بهذه الطريقة، كان هذا هو كل ما احتاجه الأمر، بجانب جمالها المدهش، لكي أقول لنفسي عن أجوستينا: يا للمجنونة شديدة الجمال! ولآتيه في غرامها حتى اليوم، دون أن أشك في أن الجنون، وهو ليس الشيء الذي كانت

تمتلكه حينها بل ذلك الموجود لديها الآن، ليس جميلاً بالمرة بل فظيعًا ومثيرًا للذعر.

***

كيف أخبرك، دميتي أجوستينا؟ أبحث عن الكلمات المناسبة لشرح المسألة لك بينما ترتسم على وجهي ملامح مخيلة تتألم أو أحلام تكسرت كالأطباق. دعيني أوجه لك سؤالاً، جميلتي أجوستينا: أتؤمنين فعلاً بوجود هذا الشيء المائع الذي يدعوه الأمريكان "Winner"؟ حسنًا، إذا كان هذا الشيء له وجود فهو أنا، أنا فائز بالفطرة، موهبة طبيعية في مهنة تحقيق الانتصارات، وهل يوجد شاهد على هذا أفضل منك؟ أنت التي خرجت خاسرة من كل المباريات التي لعبناها ضد بعضنا، ورغمًا عن هذا، انظري إلى حالي هنا وأنا أسف التراب من فرط الخسارة. المسألة أن زيارة "مستريو" تركت لي طعمًا لاذعًا في فمي، لا تسأليني عن السبب، خاصة وأنه جاء ليعرض عليّ صفقة القرن وأنا لم أكن يومًا أؤمن بالخرافات، فأنت موجودة معي لمثل هذه الأمور بجمالك وشعوذتك، لكن بمجرد أن فتحت الباب ورأيت هذا الداهية المشؤوم يشتعل من فرط حمى مخدر الـ"باسوكو" ليفسد الهواء بأنفاسه كمن انتهى للتو من مص دماء جثة، فقد اكتسحتني، أنا الملك ميداس، الفتى الذهبي، نجم النجوم والأراضي العالية، رعشة غير مريحة، شعور بأن تلك الفرصة المريبة لن تنتهي على ما يرام، ولست في حاجة لإخبارك، قطتي أجوستينا، بأن قضيب العنكبوت لم ينتصب في تلك الليلة. فشلت

المحاولة الأولى كما كان متوقعًا، هي قصة فشل مُعلن، والحقيقة أنني كنت أرغب في التخلي عن هذه اللعبة عند هذه النقطة ودفع رهاني البائس، لهذا قلت لل"عنكبوت":

- استمتعنا يا عنكبوتي يا عجوز. فلنترك المسألة وسلم بأن قدرك الآن هو كسب المال لأن فنون الغرام قد هجرتك.

في تلك المرحلة من لعبة العربدة، كنت أجر معنوياتي على الأرض، رغمًا عن الصفقة الرهيبة التي عُرضت عليّ، فكل ما كنت أشعر به هو الاستياء والضجر ورغبة مجنونة في الذهاب نحو الفراش، رغبة في الذهاب وحيدًا نحو الفراش لأغرق في نوم هادئ وعميق مع إغلاق تام للأنوار والستائر أمام هجوم شمس الصباح، لكن "العنكبوت" الطيب لم يلتقط مسألة هبوط معنوياتي، وظل يتباكى مقتنعًا بأن الذنب ذنبه دون أن يتوقف عن الاعتذار عن فشله. كان يواسيني بحماس مثير للشفقة وليس له أي أساس.

- لم نخسر كل شيء، ميداس يا بني، خذلتك في النهاية، لكن أقسم لك كنا على بعد مليمترات قليلة من النجاح.

ظل "العنكبوت" المبارك مصرًا على كلامه لكنه لم يتمكن سوى من تعميق إحباطي وأكد لي:

- كنا لنفوز بالرهان، إذا لم تكن الفتاتان منزوعتي الرغبة وكسولتين بهذه الصورة. في المرة المقبلة أحضر لي نساء حقيقيات، أحضر لي فرجين ساخنين. لا مزيد من عرائس البورسلين، فهذه الأمور تجعل قضيبي باردًا.

ـ لكن، يا عنكبوتنا العجوز.. لقد جلبت لك الفتاتين كما طلبتهما، تتحدثان لغتين و"بنات ناس" وتأكلان السوشي.

ـ ليس كما يجب، يا ميداس يا بني، أعتقد أنه بيني وبينك كانت هناك فجوة بين الأجيال وفراغ في التواصل. يبدو أنك نسيت أنَ الرجال بمثل عمري يحبون النساء الحقيقيات والمثيرات، وليس زوج النحيفات هذا الذي يجب حفظه في الفريزر.

لم يتوقف "العنكبوت" عن اختلاق الأعذار لإخفاء عاره:

ـ الرجال مثلي يحبون اللحم الطري والطازج وأنت يا ميدياس جلبت لي زوجًا من الفتيات المهجورات سيئات التغذية قد يصلح أن يتبناهما المرء وليس أن يضاجعهما.

ـ لا تقلق يا عنكبوتنا يا عجوز فهناك أوقات أفضل سيبتسم فيها الحظ لنا.

قلت له هذا، فأنا حينما أرغب يمكنني أن أصبح أفضل ابن عاهرة لاعق للمؤخرات في هذا العالم، وأخفيت في نفس الوقت مزاجي السيء لكي لا أفسد المصلحة الضخمة التي كانت بانتظارنا.

ـ لا ترحل بعد يا عنكبوتنا العجوز. انتظر حتى أقل خواكو وايربي لمنزلهما واجلس في مكتبي مع سيلفر ربع ساعة أخرى، فلدي رسالة لكما من إسكوبار.

حينما عدت أخبرتهما بالنبأ العملاق، متغاضيًا عن ذكر التفاصيل غير المُرضية، مثل أن الزعيم كان يدعوهما على الترتيب "الكسيح" و"المخبر". انعقد لسان الاثنان وظلا مذهولين في مقعديهما. أقصد أنهما في البداية لم يُعجبا بالمسألة وظلا يسألان وتساورهما شكوك مثل: لماذا يطلب منا بابلو المال نقْدا إذا كنا نتعامل دائمًا بالشيكات؟ ولماذا بحث عنا مجددًا إذا كان قد مر وقت قليل منذ أخر تعامل؟ كانت شكوكهما لها أساسها، طفلتي أجوستينا، لأن إسكوبار يترك دائمًا فترة أكثر من ستة أشهر تمر قبل أن يبحث عنك مجددًا، فهو ليس "الزعيم" من فراغ، فهو يعرف كيف يطبق سياسة التناوب بين طاقم المنتفعين منه. كنت أحفظ هذا الأمر عن ظهر قلب ولا أعرف كيف نسيته، يبدو أن علاقة الجشع جيدة للغاية مع الزهايمر. أسوأ شيء أن رائحة الموضوع لم تروقني من البداية، لكن الغنيمة كانت غزيرة العصارة لهذا قررت إغلاق جهاز الإنذار الموجود داخلي. لم يُعجب "العنكبوت" وسيلفر بالأمر بصورة كاملة لهذا، فرك كل منهما رأسه في مرة، واحتجا في تلك الأخرى بأي ذريعة، لنقل أنهما اشتكيا من صعوبة الحصول على كل هذه الأموال نقدًا بين ليلة وضحاها، اعلمي أنهما كانا يتصرفان كمن فاز بأكبر جائزة في اليانصيب لكنه يتأفف لعدم معرفته ما الذي سيفعله بكل هذا المال، لكن مع مرور الوقت كانا قد نفضا عن نفسيهما أي مانع أو حكم مسبق ليخرج كل منهما من جيبه دفتر (مونت بلانك) و(هيرميس) ويجري حساباته، إذا ما حصلنا على هذا، واستثمرنا في

ذاك، وهكذا مباشرة استسلمنا جميعًا للحماس، فمكسب بقيمة ٨٠٠ مليون في صفقة واحدة في النهاية ليس شيئًا يحدث كل يوم.

- لكن لنتحلى بالدقة، يا حبي أنت وهو. تذكرا أن شرط بابلو هو أن يصل المال هنا إلى يدي ساخنًا وطازجًا بعد غد على أقصى تقدير.

حذرتهما في لحظة الوداع هناك بالقرب من (أيروبيكس) نحو الثانية فجرًا وقبل أن يصعد كل منا إلى سيارته تبادلنا القبل والعناق كأننا طالبات في يوم التخرج وطعامة الذهب القريب تجمع بيننا كثلاثة أشقاء.

استيقظت في اليوم التالي كما توقعت دون رغبة في النهوض ومع إحساس بعدم حصولي على نوم مريح. حلمت بأنه كان هناك من يلاحقني، كان حلمًا مليئا بالتخاريف، لا يمكنني تحديد أي شيء، كان كابوسًا ضبابيًا، ملكتي أجوستينا، ضبابيًّا لكنه قبيح للغاية لدرجة جعلتني أستيقظ واهنًا في ذلك الصباح، إذا كان يمكن إطلاق لفظ الصباح حينما تفتح عينيك وتجد الشمس تتوسط السماء، كانت الأغطية تلتصق بجسدي وكأن لا شيء قادر على إزالتها. لم أكن أعرف إذا كانت أحد أنواع الأنفلونزا الآسيوية قد أصابتني، أم أن الأمر كان اضطرابًا بسبب الأموال التي ستسقط على رأسي، أم أنني ببساطة كنت أتغوط على نفسي تخوفًا من انتهاء الأمور بصورة سيئة في هذه القصة، أو ربما خليط من هذه الأمور الثلاثة. الشيء الوحيد الذي كنت متيقنًا منه هو رغبتي في الدخول في حالة من البيات الشتوي. أقصد أنني حتى لم أكن أمتلك القوة اللازمة للوقوف للتبول، لأنني أعرف أنني خارج هذا

الفراش كنت سأبدو كشخص سخيف يسيل لعابه، كحلزون بائس خارج قوقعته، وحينما يحدث هذا، صدقي أو لا تصدقي، فإنني أفكر بك جميلتي أجوستينا، وإذا خرجت هذه الكلمات مني فيجب أن تفهميها كإعلان حب مذهل وصاعق، لأنني لم أكن أبدًا رجلاً يُكرس نفسه لزراعة الذكريات، فالماضي يُمحى دائما من قرصي الصلب، فكل ما لا ينتمي للحاضر هو بالنسبة لي عبارة عن أرض للنسيان، ستقولين بكل تأكيد ما هي فائدة إعلان حبي لك في هذه الحياة، إذا كنت أتصرف على أرض الواقع كخنزير، لكن رغمًا عن هذا أنا أفكر بكِ حينما أكون وحيدًا في غرفة نومي، والتي يُمكن وصفها بأنها معبدي، واعلمي أيضًا أنه رغمًا عن كوني الحثالة التي أنا عليها، إلا أنه لا توجد صلاة قادرة على إبعاد ذكراك، لهذا أجلس أحيانًا لأتأمل ما الذي كانت لتصبح عليه حياتك وحياتي لو لم تكونا ما هي عليه الآن، يصيبني هذا التفكير بالخدر وأغرق في بحر الكسل وتصبح هذه هي اللحظة التي تقل فيها لأقصى درجة رغبتي في معرفة أي شيء عن العالم الذي يمتد خارج غرفتي، فهي في النهاية مملكتي الوحيدة، دميتي أجوستينا. لقد زرتيها في ليلتك المرعبة بعدما صنعتي الجلبة وأطلقتِ الزوبعة التي قادت لخراب كل شيء، لكن كنتِ مجنونة لدرجة أنك لا حتى لا تتذكرين، ولا تظني أنني ألقي باللوم عليك، أجوستينا يا حياتي، فعائلتك كانت دائمًا مستشفى للمجانين، لكن المشكلة أن المسألة ملحوظة عندك بصورة كبيرة، بينما يخفيها شقيقك خواكو وأمك بطريقة عظيمة. طريقة التبجح التي يمتطي بها خواكو الجنون دون أن

يسمح له بدفنه أمر لا يصدق، يفعل هذا كأنه أحد أحصنة البولو التي يمتلكها، لكن أنت على النقيض يا فتاتي الصغيرة أجوستينا، فإن الجنون يصحبك من رجفة إلى أخرى ومن ضربة إلى التالية كأنها أحد جولات روديو تكساس.

لكن كنت أحدثك عن غرفة نومي، لأنه إذا كان العالم الخارجي بات كبيرًا بالنسبة لي، فعليك أن تريني بين الحوائط الأربع لغرفتي. أنا نفسي أندهش حينما أتحقق كيف تتمدد إرادتي عبر هذه الزوايا الثمانية دون عراقيل أو معوقات، حينما أكون هناك في الداخل، وبقدمين ثابتتين فوق أرضي، يبدو أن حتى الزمن نفسه يتمدد ويتقلص وفقا لنزواتي. أظهرت لك يا أجوستينا ـ لكنك لم تريه ـ الأسلوب العظيم الذي أُشغل وأطفئ به كل شيء بضغطة واحدة على تلك اللعبة شديدة الجمال التي تدعى جهاز التحكم. أدخن لفافة من الماريجوانا وأمسك بالريموت كأنه صولجان الحُكم، ومن الفراش أُخفف الإضاءة وأُنظم الحرارة، وأجعل صوت جهاز (بوز) يتردد كالرعد، أفتح الستائر وأغلقها، أعد القهوة كأنه سحر، أشعل المدفأة بنيران فورية، وأجهز الحمام التركي أو الجاكوزي لأتطهر من العدوى بين فقاقيع المياه ولأطهو نفسي على البخار وأتحرر من الغبار والرمل، وأقضي بعدها بعض الوقت أسفل هذا الدُش الذي صُمم خصيصًا لي بمرشات متنوعة وقوية قد تستخدم حتى لإطفاء الحرائق، ولكنها في تلك الليلة لم تكن مفيدة وأنا أحاول تهدئتك يا طفلتي الجميلة الهستيرية، رغمًا عن أنني بدلت بين تحميتك بالمياه الباردة والساخنة للغاية. كل شيء نظيف في غرفتي، دميتي

أجوستينا، أنت لا تعرفين كم النظافة التي قد تشتريها النقود، خاصة إذا كانت أمك قديسة مثل أمي ومثل كل أمهات الطبقة المتوسطة، قديسة تعرف كيف تُدندن أغاني إعلانات المطهرات التي تظهر في التلفاز وتجمع ملابسك المتسخة وتعيدها إليها كأنها جديدة في اليوم التالي مغسولة ومكوية ومنظمة في تطبيق مثالي داخل خزانة ملابسك. لا يهمني ما يتبقى من شقتي، لهذا لم أحاول حتى أن أظهره لك. هي مساحة هائلة ومملة لذا أعلنتها جزءًا من المآسي الشاسعة الخارجية، وربما لهذا السبب فإن الصالة حتى الآن ليس بها أثاث، وربما لهذا أيضًا لم أجلس لتناول الطعام حتى ولو لمرة واحدة في غرفة الطعام التي اشتريتها وتتسع لـ١٢ ضيفًا، لأن القيام بهذه الأمر وحيدًا ينتج عنه نوع من الحنين وفكرة اضطراري لدعوة ١١ شخصًا تجعلني أشعر أنني على وشك الإغماء، لكن أكثر شيء مثير للشفقة هو الشرفة، والتي يوجد في وسط مساحتها البالغة ٨٠ مترًا مربعًا مظلة بخطوط حمراء وبيضاء لم تحمِ أحدًا حتى الآن من الشمس وحولها ست نخلات صغيرة مزروعة في أصيص يمكنها أن تنمو لعنان السماء إذا كانت لدي الرغبة، لكن الأمر لا يهمني. اعتقد أن قدمي لم تطأ تلك الشرفة الشاطئية المطلة على الشارع، أو ربما حدث هذا، مرة واحدة، في اليوم الذي زرت فيه الشقة لشرائها. الصالة، المكتب، غرفة تناول الطعام الضخمة وتلك الصغيرة والشرفة والمطبخ، كل هذه الأمور تبقى خارج حدودي، فالوطن بالنسبة لي هو غرفة النوم، والنسخة المستحدثة من رحم الأم هو هذا السرير الـ"كينج سايز"، الذي أنام عليه مع نساء جميلات لا أسألهن حتى عن أسمائهن.

كنت أتقلب هنا، تحديدًا على هذا الفراش، في الصباح التالي لزيارة "مستريو" حينما رن الهاتف في العاشرة واستيقظت فجأة لأجلس، أنا الذي كان اتخذ قرارًا لا رجعة فيه بالبقاء متكاسلاً بين الملاءات حتى الواحدة ظهرًا لأمارس بعض الهرولة بعدها لأخذ دُشًا من نصف ساعة وأتناول إفطارًا مكون من الجرانولا وعصير الجزر ثم أخرج كنمر لجلب الأموال لبابلو، لكن رن الهاتف وكان صوت "العنكبوت" هناك يخبرني:

- تعال إلى مكتبي فلدي نميمة يجب أن أخبرك بها.

- عنكبوتي الصغير، يا رجل. أخبرني بالمسألة عبر الهاتف، فلست متحمسًا للنهوض.

لكن "العنكبوت" بأفضل نبرة لديه كوزير بلا حقيبة وزارية جعلني أعرف أن الموضوع له خصوصيته وأولويته وطرت للقاءه، متخليًا عن تمارين الهرولة والجرانولا والدُش الطويل تخوفًا من وجود ما قد يمنعه من جلب المال لبابلو، وحينما وصلت قدم لي "العنكبوت" كأسًا من الويسكي وجلسنا في قاعة للمؤتمرات لم يكن بها أحد سوانا، وهناك ونحن الاثنان جالسان عن طرف مائدة شديدة الطول اقترب مني كأنه سيهمس في أذني بسر ما. اعتقدت حقًا أن "العنكبوت" سيخبرني بأن مسألة إسكوبار لا تعجبه وبدأت أرتعش. كانت هذه الاحتمالية ترعبني أكثر من أي شيء في العالم، أولاً لأن الرغبة في هذا المكسب الرائع

كانت قد صنعت لها عشًا داخل صدري وثانيًا بسبب الخوف من الثأر، لأنه من المعروف أن "الزعيم" لا يسمح بـ"لا" كإجابة.

- هل تعرف متى حدث؟

سألني العنكبوت وهو ينفخ أنفاسه الثخينة في أذني ولم أدرك عن ماذا يتحدث:

- متى حدث ماذا؟
- حينما كنت على وشك النجاح؟
- النجاح في ماذا؟ عنكبوتي العزيز، لا تطيل حيرتي.
- وعن أي شيء أتحدث أيها الناعس؟ أسألك إذا كنت تعرف في أي لحظة كنت على وشك الانتصاب ليلة أمس؟

لم أتمكن من تصديق أن هذا الرجل أخرجني من فراشي وأجبرني على المجيء إلى هنا بسبب هذه القماءة، لهذا قلت له:

- أكيد أيها العجوز العفن. كان على وشك الوقوف حينما عرفت كل ما يمكنك أن تكسبه مع إسكوبار.

- أتحدث بجدية، ميداس يا بني، هل تعرف متى؟

"في المشمش". كنت سأجيبه بهذه الصورة لكن تسلحت بالصبر وسألته وأنا أسايره:

- حسنًا يا عجوزي الحبيب. أخبرني متى.

وحينها بدأ "العنكبوت" يقص عليّ أنه في الليلة الماضية كان يشعر ببوادر للانتصاب في كل مرة كانت تفعل فيها واحدة من الفتاتين أمورًا سيئة مع الأخرى.

- أترغب في قول إنه حينما كانت إحداهن تضرب الأخرى على أردافها ومثل هذه الأمور؟

- بالفعل. حينما كانت إحداهن تضرب هكذا وهكذا بهذا السوط الصغير. كان الأمر مصطنعًا لسوء الحظ.

أخبرني "العنكبوت" أنه يرغب في أن تقوم المحاولة الثانية من "عملية لازاروس" على التخصص في هذا الجانب الوقح، لكن على أن يكون الأمر حقيقيًّا هذه المرة، دون الإفراط في الأداء المسرحي ومسألة اللعب.

- حسنًا.. يجب أن أفهم أن ما ترغب فيه هو أن أجلب لك مازوخية محترفة؟ واحدة من هؤلاء اللواتي يرتدين الجلود السوداء والسلاسل ومثل هذه الأمور؟

- يجب أن تفهم ما ترغب في فهمه، ميديتاس يا بني، أنا أقدم لك التوجيه العام وأنت ستهتم بالتفاصيل. الأمر الوحيد الذي أرغب في توضيحه هو أنه منذ الليلة الماضية استيقظت داخلي رغبات مجنونة في رؤية امرأة تعاني بشكل حقيقي.

- اتفقنا.

أجبته هكذا لأجاريه، لكن في أعماقي، طفلتي أجوستينا، اتخذت قراري بفعل الأمور في السر دون وجود خواكو أو أيربي أو الأمريكي كشهود، لكي لا يعلموا بمسألة المحاولة الفاشلة، لأن الأمر لا يستحق إهدار الفرصة الثانية، وهي في نهاية المطاف الفرصة قبل الأخيرة، وإذا كنت قد وافقت على الرهان وأنا أعرف أنه سينتهي بالفشل وأنه فقط من أجل التسلية، فإن الخسارة في نفس الوقت كانت لتصيبني بالجنون في أعماقي، لأن الرهان رهان طفلتي أجوستينا، وفي النهاية لا ترغبين في خسارته مهما كان غبيًّا.

تحدقين فيّ بهاتين العينين السوداوتين الواسعتين، يا أجوستينا الجميلة، وتظنين أن موافقتي على فكرة "العنكبوت" لم تكن من أجل الفوز بالرهان بل بدافع الخنوع؟ لماذا لم أصرخ في "العنكبوت" بالحقيقة؟ لَمْ لَمْ أقل له أن عصفوره الصغير لن يقف حتى ولو جئنا برافعة وبأن هذه اللعبة الصغيرة لم تعد مرحة بالنسبة لأي أحد؟ هل تفكرين أن الدافع وراء المسألة كان نفس السبب الدائم وأنه إذا كنت مرة تلو الأخرى أولي اهتمامًا لل"عنكبوت"، فهذا لأنني أعجز عن كسر التعويذة التي يسيطر بها عليّ هو وكل (الحيتان القدامى)؟ لأنه رغمًا عن محاولتي إخفاء الأمر فإن إعجابي بهم أكبر من اعتزازي بنفسي، ولهذا مهما طال الوقت ينتهي الأمر بي وأنا بهلوانهم؟ إذا ما قلتِ لي مباشرة هذا الهراء الأخلاقي، صغيرتي أجوستينا، إذا أخبرتيني أن خطيئتي الكبرى هي الخنوع، فسأضطر لقبول الأمر بروح متألمة لأنه في الحقيقة صحيح للغاية. يوجد شيء يمتلكونه ولا يمكنني الحصول عليه حتى لو فتقت

نفسي من شدة المحاولة، هو شيء تمتلكينه أنتِ أيضًا دون أن تدركي، أميرتي أجوستينا، أو أنك تعرفيه لكنكِ مجنونة بالدرجة الكافية لازدرائه، وهذا الشيء هو جد ورث مزرعة، وجد جد جلب أول عربات ترام للبلد وأخت جدة جلبت معها بعض الألماسات، ومكتبة بالفرنسية تخص جد جد الجد وعباءة تعميد مطرزة بقماش الباتيستا ومحفوظة بين أوراق حريرية ومرت على أربعة أجيال حتى يأتي اليوم الذي تخرجها فيه أمك من الصندوق وتذهب بها إلى الراهبات الكرمليات لإزالة بقع الزمن من عليها وتنشيتها لأنه قد حان دورك وسيلبسونها لك أنت أيضًا للتعميد. أتفهمين يا أجوستينا؟ أأنت قادرة على تفهم تلبك الأمعاء وضعف الشخصية الذي يفرضه عدم امتلاك مثل هذه الأشياء على رجل مثلي؟ ومعرفة أن حرماني هذا لن يُنسى أبدًا من قبل هؤلاء، أصحاب العباءات المُنشاة من قبل الراهبات الكرمليات؟ انتبهي لهذه المتلازمة: حتى ولو فزت بجائزة نوبل في الآداب مثل جارثيا ماركيز أو كنت أغنى رجل في العالم مثل بابلو إسكوبار أو حصلت على المركز الأول في رالي باريس-داكار أو كنت أعظم وأفضل تينور في أوبرا ميلانو، ففي هذه البلاد تكون أنت والعدم سواء مقارنة بواحد من هؤلاء الذين عُمدوا وهم يرتدون تلك العباءة المُنشاة. أتظنين أن عائلتك تقدر رجل مثل زوجك، أجيلار الطبيب، الذي ترك كل شيء بما فيه مسيرته المهنية ليحيا محاولاً التعامل مع جنونك؟ لكن أجيلار لا يظهر حتى في سجلات عائلتك، ملكتي أجوستينا. القول بأن والدتك تكرهه هو تقديم خدمة له، لأنها لا تراه في الحقيقة، وفي ساعة

الحقيقة أنت نفسك لا ترينه، ولا يوجد حل لهذه المسألة، لهذا يضحي ويلعب دور القديس من أجلك. أجيلار سيظل دائمًا غير مرئي لأنه لم يتلحف أبدًا بتلك العباءة. وأنا؟ أنا موضوع آخر يا مليكتي فأمامي يركعون ويلعقون قضيبي لأنه لولاي لأفلسوا بمزارعهم التي لا تنتج شيئًا وقلاداتهم الألماسية التي لا يتجرأون على إخراجها من الخزانة خوفًا من اللصوص وعباءاتهم المطرزة العفنة من رائحة الكافور، لكن كل هذا لا يعني أنهم يروني. هم يلعقون قضيبي لكنهم لا يروني.

سأوفر عليك تفاصيل الفصل التالي من (عملية لازاروس) لأنه كان أمرًا قذرًا. يكفي فقط إخبارك أنني في هذه المرحلة الثانية من الرهان لم أجتهد مطلقًا، لم يكن هناك مجال للإبداع والتذاكي، لذا كل ما فعلته كان البحث في الجريدة عن إعلان سادومازوخي لأمسك بالهاتف وأتفق مع فتاة عروض تطلق على نفسها دولوريس وتقدم مع قوادها نمر تعذيب معتدل في المنازل. تفاوضنا على التعريفة وحددنا الموعد ولم أعبأ بأي شيء آخر وفي الليلة المطلوبة وصلت دولوريس إلى (أيروبيكس سنتر) مع جلادها وآلاتها وأدواتها المخصصة للعقاب وكان الأمر مزريًا، جميلتي أجوستينا، كأنه سيرك في قرية. هي امرأة روتينية بلا إلهام، يمكن أن يُطلق عليها بيروقراطية في مسألة العذاب، وهو مجرد بهلوان مفرود الشعر يرتدي بدلة سهرة باللون العنابي. أقسم لك يا أميرتي أن الأمر الوحيد الذي شعرت به لدى رؤيتهم كان الأسى. أضأت لهما كل أنوار النادي وتركتهما هناك في الأسفل ليقوما بعرضهما أمام "العنكبوت" وهذين الحارسين باكو مالو و"تشوبو"، اللذين يتبعانه كظلال شريرة.

أمسكت بالآلة الحاسبة وبدأت في حساب الأرقام فحينها كان قد مر يومان على إرسال المال بأكمله إلى إسكوبار مع "مستريو" وكنا ننتظر اكتمال المعجزة بتضاعف الخبز والسمك. أخبرتك بأن اسم تلك المرأة من عرض السادومازوخية، كانت تدعى دولوريس، احتفظي بهذا الاسم جميلتي أجوستينا، لأن نجمة دولوريس المنحوسة تضاجعنا جميعًا بنورها الأسود.

* * *

حدث الأمر في الشهر السادس من حمل أجوستينا الوحيد. أتحدث في الواقع عن حملها الوحيد معي لأن هذا الأول انتهى بالإجهاض بناء على رغبتها. قصت لي المسألة بنفسها وحينها ذكرت اسم شخص يدعي ميداس مكاليستر، والذي كان رفيقًا لها في الفراش. ظل هذا الاسم، ميداس مكاليستر، محفورًا في ذاكرتي لأنها لم تكن أول مرة أسمعها تشير إليه، وأيضًا لأنه كان يتردد في كل الأنحاء، غالبًا على صفحات المجتمع في جريدة (التييمبو)، وخصوصًا في أحاديث القيل والقال التي كانت تتحدث عن تورطه في عمليات لغسيل الأموال، لكن لنعد إلى ما كنا نقوله: كانت قد مرت خمسة شهور ونحن في انتظار الطفل حينما أخبرنا الأطباء باحتمالية فقدانه بسبب مقدمات الارتعاج. منذ هذه اللحظة بدأت أجوستينا تُكرس نفسها بالكامل، كما كانت تفعل حينما التقيتها لطريقة المعرفة الملتفة التي طالما ضايقتني وأفقدتني الثقة وترتكز على تفسير الواقع عبر بواطن الأمور وليس ظواهرها، أو بمعنى آخر عدم

الاسترشاد بالإشارات المؤكدة والواضحة التي تصل لها، بل بمجموعة من الومضات السرية والتجليات الخفية، التي تختارها وفقًا لهواها ولا تُضفي عليها فقط قدرة كاشفة، بل تمنحها أيضًا سلطة القرار على مجريات حياتها. أخبرنا الأطباء بأن حالة من السكون المطلق وحدها هي التي قد تجعل الحمل يسير بصورة جيدة لينجو الطفل. تشبثت أجوستينا حبيبتي بالطفل بكل قواها، اختارت أن تبقى ليلاً ونهارًا في الفراش بلا أي نشاط، شبه متحجرة، متخوفة من أن تفضي أي حركة لتسريع الخسارة، وحينها بدأت تركز بصرها على الثنيات التي تتشكل على الملاءات. كانت تطلب مني لدى استيقاظنا:

- انتظر يا أجيلار. لا تتحرك. فلتظل ثابتًا للحظة، فأنا أرغب في رؤية كيف أشرق الصباح على الملاءات.

لم أفهم أي شيء في البداية واقتصر رد فعلي على مراقبة كيف تمرر أصابعها على ثنيات وتجاعيد القماش، بعناية هائلة لكي لا يطرأ أي تغيير لتبلغني براحة كبيرة:

- تقول الرسالة إن كل الأمور ستنتهي بطريقة جيدة، وإن الطفل حينما يولد سأسميه كارلوس تكريمًا لأخي الجميل الصغير.

كانت تدخل في حالة أشبه بالثبات لم أتمكن من انتزاعها منه حتى بالإفطار الذي كنت أجلبه له يوميًا في الفراش، لأنني أدركت أن هذا الأمر يشعرها بالراحة.

ـ أي رسالة يا أجوستينا؟ عن أي رسالة تتحدثين؟

ـ عن تلك التي كتبت الليلة هنا. عن الملاءات.

ـ بحق الرب يا أجوستينا! ما الذي قد تعرفه الملاءات!

ـ تعرف الكثير عنا يا أجيلار، ألا تظل تمتص طوال الليلة أحلامنا وعرقنا؟ لا داع للقلق يا أجيلار، الملاءات تقول إن الطفل في حالة جيدة الآن.

لكن الملاءات لم تأت دائمًا بأنباء مشجعة وبدأ انفجار أجوستينا في البكاء بحرقة يصبح شائعًا بعد كل مرة تدرس فيها تلك الخريطة الخيالية التي كانت تراها مرسومة على الفراش. كانت تقول لي منتحبة:

ـ الطفل يعاني.

ووسط كارثة الغم هذه لم أجد سبيلاً لتهدئتها، حتى بمساعدة الفحوصات المعملية التي كانت تشير لاستقرار الحالة، أو اللجوء لأراء الأطباء الإيجابية بل وأيضا مبدأ البديهية. وكأنها حكم صادر عن قاض لا يرحم، كانت ثنيات الملاءات تحدد مصيرنا نحن وابننا ولم تكن هناك أي قوة بشرية قد تدفع أجوستينا للتفكر في مدى انعدام عقلانية كل هذا. لسوء حظنا لم تكلل جهود الأطباء ولا حتى تفاني أجوستينا البطولي بالنجاح. فقدنا الطفل وكل ما فعله هذا كان ثبوت قدرة الملاءات التنبؤية وتعزيز طغيانها علينا، لكن هذا لم يحدث بصورة فورية، بل على النقيض، فبعد أسبوعين من خسارة الطفل، فإن أجوستينا، التي لم تعد تأتي على ذكر الموضوع وكان يبدو أنها استردت جزءًا من عافية جسدها

وروحها، كرست جل وقتها بحماس في استيراد الأقمشة ذات الطباعة البارزة بتقنية الـ"باتيك". كانت حقبة مبهجة تحولت فيها الشقة إلى مصنع كامل المواصفات، وتعثرت خلالها بين الكواليس في لفافات القطن القادمة من جزيرة بالي، ودلاء ممتلئة بالزيوت النباتية. لم نتمكن حتى من الطهي لأن الموقد كان المكان المخصص لتسخين الشمع، لهذا كنا نرتضي بالشطائر والسلاطات أو الدجاج المشوي الذي كنا نطلبه من محل (كوكوريكو) الواقع عند الناصية، ولكي نتمكن من الاستحمام أيضًا كنا نضطر لإزاحة أمتار القماش، الموضوعة بغرض التصفية من صبغتي النيلة والدودة القرمزية أو أيًا كانت تدعى تلك الصبغات العضوية الأخرى، بعيدًا عن الدُش. أتذكر على وجه الخصوص وبرعب له خصوصيته عجينة صفراء ذات طابع ملتصق كانت أجوستينا تدعوها "كونيت". كان الـ"كونيت" الشهير يلتصق بأي شيء، بنعول الأحذية وأطروحات طلابي وبالسجاجيد، بالأخص بالسجاجيد، فحينما يهاجم الـ"كونيت" سجادة، كان يجب إعلان وفاتها. كانت حقبة الـ"باتيك" واحدة من أفضل فتراتنا معا، لأنك يا أجوستينا كنت دائمًا مشعة وابتكرتِ تصميمات ونفذت تجارب لخلطات الألوان. كنت ترسمين نقطة حمراء على جبهتك وترتدين الساري والسارونج والبشمينة والباريو[١٣] واعتدنا أن نسمع طوال اليوم أسطوانات جارباريك والأخت ماري كيروز ورافي شانكار. أتتذكرين باكسي يا أجوستينا؟ باكسي بائعة المشغولات اليدوية القادمة من جاوة التي كانت تبدو مثل أهالي بوياكا، لكنها كانت تقول إنها من مواليد

(١٣) أزياء نسائية تنتمي للثقافة الآسيوية.

جوجاكارتا[١٤] وقدمت نفسها كأستاذة في تقنية الـ"باتيك" ولم نجد بعدها طريقة لإخراجها من المنزل.

لكن في نهاية ذلك العام بدأت مشروع الـ"باتيك" في التداعي وبدأت أجوستينا، التي استثمرت ثروة في المواد الخام دون النجاح في تصدير أي شيء، في الاكتئاب والسقوط في دائرة الوخم. كانت تجر معنوياتها على الأرض لدرجة أنها لم تكن قادرة حتى على التخلص من لوازم تلك الصناعة المنزلية التي كانت لا تزال تغزو مساحتنا الشخصية وباتت الآن مجرد قمامة وشاهد مؤسف على الهزيمة.

- لا تقلقي، حبيبتي أجوستينا، فمحاولة منافسة الإندونيسيين في تجارة الـ"باتيك" صعبة. إنها مثل أن يحاولوا احتكار إنتاج يخنة الفلفل الكولومبية.

كنت أحاول مواساتها بتقليل أهمية الإخفاق لكن الأمر لم يكن مفيدًا، فقد ظلت الكآبة تسحبها نحو الأسفل وهي محطمة، وحينها بدأت أجوستينا تحدثني مجددًا عن أوامر الملاءات التي أشارت إليها هذه المرة بأنه قد حانت ساعة محاولة الحمل مرة ثانية. كانت إجابتي عليها سريعة وقلت لها أنني لا ألقي بالاً بما تقوله الملاءات:

- إذا كنتِ ترغبين في الأمر، إذا كنتِ مستعدة مرة أخرى لخوض المخاطر، فاعتمدي حينها علي ولنحاول مجددًا، لكن أحذرك أنني

---

(١٤) منطقة ساحلية في إندونيسيا

ضقت ذرعًا من هذه القصة، لأنني لا أقبل أن تستشيري الملاءات أو الويجا أو القديسين للنوم معي!

لكن أجوستينا لم تلق بالاً بكل تأكيدًا، أجوستينا لم تفعل هذا الأمر أبدًا، لم تستمع لندائي وظلت تنتظر أن تصل لها من مكان ما رسائل أو إشارات حول ما يجب أن تفعله أو تفكر به. كان الأمر كأنها فقدت القدرة على امتلاك رأي شخصي لتترك نفسها مشلولة للخوف من أن تتخذ بنفسها أي قرار حاسم. كان جل ما تقوله هي أمور مثل :الطبيب يقول...الملاءات تقول....وفقًا للأبراج..كانت أجوستينا تبدو كآلة مُسيرة تتمسك بالآراء البعيدة والإشارات الكيفية التي كانت تغمرنا حتى الرقاب في وحل الحيرة، ورغمًا عن هذا فإن كل هذا لم يكن جنونًا، وحتى إذا كان هكذا، فإن كل ما حدث كان مجرد إعلان لبدايته.

* * *

تقول أجوستينا: تهرب بعض الأشياء من "رؤيتي" لأنها أكثر قوة من هبة عيوني ولا حتى الصور السرية للخالة صوفي تحوز القوة اللازمة للسيطرة عليها، ومن بين كل هذه الأشياء، فإن الدماء هي أكثر ما يثير قلقي. تتحدث عن "الدماء المراقة"، التي تفاجئها وتهزمها في كل مرة تهرب فيها من داخل أجساد البشر، حيث يجب أن تكون. حينما تنساب الدماء بانصياع في مساراتها السرية، فإنها لا تقلقني لأنها حينها تكون مخفية وبلا رائحة ولا تصنع فضيحة بالسيل الجارف لكراتها البيضاء والحمراء. قد يُقال إن الرب خلقها هادئة ومخفية، لكن هذا ليس

صحيحًا، فالدماء مثل الحليب المغلي، تنتظر دائمًا فرصة لكي تسيل وحينما يبدأ سيلانها. لا ترغب في التوقف أبدًا.

- تعال يا "بيتشي بيتشيتو" يا طفلي الصغير، تعال فسأقص لك أظافرك فهي متسخة من كثرة اللعب في التراب.

ويأتي "بيتشي" واثقًا ويمد يده لأخته أجوستينا. يد أخي الصغير شديدة الطعامة، طفلي جميل للغاية وحلقات شعره الأسود ملتفة، لكنه أيضًا شديد العجز. نجلس نحن الاثنان على الفراش، وبيدي اليسرى أمسك جيدًا بيده وأحتفظ في اليمنى بالقصافة، ووسط هذا يلعب "بيتشيتو" بيده الحرة، يجمع الزغب الذي يتشكل على غطاء السرير الصوفي. يفكر "بيتشي" في شيء ما بينما أقص أظافره، أو ربما هو لا يفكر في شيء، فلأنه لا يزال صغيرًا فلا بد أن فكره يمتلئ فقط بالزغب لهذا ينسى يده بينما تقص أجوستينا الأكبر منه بقليل بطقطقة واحدة ظفر خنصره. يقفز جزء صغير في الهواء من ظفره ويقع على الأرض. هو أصغر شيء موجودة على هذا الكوكب، فإذا كان "بيتشي" بهذا الصغر فكيف سيكون ظفر خنصره!

أعتقد أن شقيقي الصغير لم يكن يقدر على الحديث حينها. ابق ساكنًا يا حبيبي. لا تتحرك كثيرًا. هذا الإصبع اسمه البنصر وفيه نرتدي الخواتم. أصنع طقطقة أخرى ومن جديد تقفز في الهواء قطعة صغيرة من ظفر. بيتشيتو، قصصنا ظفرين. لا تتبقى لنا سوى ثلاثة أظافر، وإذا لم تتحرك كثيرًا سننتهي سريعًا. هذا الإصبع الأكبر يدعى الوسطى، ولا

أعرف السبب وراء تسميته، فلتبق هادئًا وإلا لن أتمكن من فعلها. يرن صوت طقطقة جديدة في الهواء وأول شيء غير متوقع يحدث هو أن قطعة الظفر الصغيرة لم تثب في الهواء، لكنها تسقط رخوة كجثة هامدة فوق تنورتي، أما ثاني شيء والذي لم يحدث فورًا بل بعد فترة من الصمت الطويل هو الصرخة القوية غير المبررة التي أطلقها "بيتشي" بلا سبب أو تناسب دون أن يسحب يده من بين يدي، كانت يده الصغيرة مستسلمة ومكشوفة وكأن هذه الصرخة لا ترتبط بها، لكن بعد فترة، حينما تحول صراخ "بيتشي" المتقطع إلى نحيب، رأت أجوستينا لأول مرة منذ فتحت عينيها على هذا العالم، كيف يخرج هذا السائل الفاتر الأحمر الذي ترك بقعة على غطاء السرير. بعدها باتت يد "بيتشي" حرة وصلت إلى وجهه وجعلته هو الآخر ملطخًا ولزجًا.

- دعني أرى يا بيتشي، من فضلك!

أحاول أن أنظر لإصبعه لتفهم ما حدث لكن سحابة من الضباب تحيط برأسي لأنني أرتعش. ينزع عني الخوف قواي وتهاجمني أصوات كثيرة لا أفهم منها شيئًا. أقبح الأصوات، ذلك الذي يفرض عليّ أسوأ أنواع الشلل، هو ذلك الصوت الذي يُكرر أمامي أنني قد آذيت "بيتشي"، أنني ألحقت به ضررًا كما يفعل أبي. سامحني يا "بيتشيتو" أرجوك، لكنه يُظهر لي يده التي احمرَّ لونها من الدماء وتمتلأ عيناه بالدموع. اصمت، يا حبي.

- اصمت يا طفلي. إذا صرخت هكذا، لن أتمكن من رؤية شيء.

يصل إلى عقلي، الذي بدأ في العمل ببطء، صوت صغير يخبرني بأن هذا الظفر الرخو الذي قصصته للتو ليس ظفرًا بل قطعة من أنملة إصبعه الذي بات منقوصًا. سأصلح الأمر "بيتشيتو" يا حبي، لكن لا تبكِ هكذا فهم سيعاقبوني لأنني أذيتك. يحاول "بيتشي" التوقف عن البكاء. لا يزال يشكو لكن بهدوء. تطابق إصبعه مع الأنملة التي انسلت منه لا يصدق، كانا ليلتصقا مجددًا لولا هذه الدماء التي لا زالت تخرج، لأن هذه هي "الدماء" يا "بيتشي بيتشيتو". إنها تدعى "الدماء المُراقة". بدأ "الصوت العظيم" يصل إليّ، ذلك الذي يحذرني: شقيقك الصغير سيموت لأن كل الدماء الموجودة داخله ستخرج من طرف إصبعه، وحينها لم يعد يهمني أن يعاقبوني أو أن يصرخ "بيتشي" وانطلقت أركض لنداء أمي لأنه ولا مقابل أي شيء في هذا الحياة أرغب أن يموت "بيتشي". أتذكر أنني بكيت طوال هذه الليلة وانطبعت بقع باللون الكستنائي على غطاء السرير كشاهد على الشرور الذي فعلته معه، وحينما أصبحنا "بيتشي" وأنا كبارًا، فإن طرف إصبعه الوسطى كان ولا زال يجب أن يكون ناقصًا. في كل مرة أفكر في هذا الأمر أبكي، أبدأ في البكاء ولا يمكنني التوقف عن التفكير في أنك كنت لتتوقع الأذى من أي شخص، لكن ليس مني، وأينما كنت يا "بيتشيتو"، يا أخي الصغير، فأنت لا تعرف ما الذي كنت لأقدمه لكي لا يؤلمك هذا الجرح الذي صنعته لك!

بعد ما جرى عادت خطوط الدماء للاختباء والدوران في الداخل، انتظارًا لفرصة جديد لإرباكي وتبديد هبة عيوني. لا كابريرا

كان حيًّا حديثًا محميًّا بشوارع خاصة وحراس مُتشحين بمعاطف الـ"روانا" يقفون طيلة ٢٤ ساعة في أكواخ حراسة مزودة بزجاج مضاد للرصاص أمام كل منزل ولم يُسمح لنا بتاتًا كأطفال بالخروج بمفردنا لأن أمي أو أمينتا أو أيًا من خادمات المنزل كن موجودات للعناية بنا، أو أيضًا الخالة صوفي، التي كانت قد انتقلت بالفعل للعيش معنا، لكن ذات مساء خرجت أمينتا سرًا مع حبيبها. لا تعرف أجوستينا ما الذي حدث مع بقية البالغين، لكنها وشقيقيها بقوا وحدهم في المنزل وضرب أحدهم جرس الباب. لا تفتحي يا أجوستينا، لا تفتح يا بيتشي.. كنا ممنوعين من فتح الباب، لكن نظرت من النافذة ورأيت أنه حارس الجيران. كان يرتدي معطف "روانا" مصنوع من صوف التيس الأسود ومن الخارج أفهمني أنه يرغب في كوب من المياه.

- انظر يا خواكو إنه الحارس ويرغب في بعض الماء.

وركضت نحو المطبخ لجلب الماء وفتحت الباب لأعطيه له. أخذ رشفتين لكنه في الثالثة وهو يقرب الكوب من فمه سقط منه وتكسر إلى فتات على الأرض. اتكأ بعض الشيء على الحائط بعدها وبدأ ينزلق ببطء. يبدو أنه كان يشعر بالسخونة، لهذا نزع الـ"روانا"(١٥) دون أن ينطق ولو بكلمة واحدة، ثم انهار ساقطًا على الأرض وهو يحتضن معطفه. خرج "بيتشي" لرؤية ما يحدث وتوقف بجانبي وبعدها طلب مني الحارس من مكانه على الأرض مزيدًا من الماء وحينها بدأت تحدث

---

(١٥) نوع تقليدي من المعاطف الكولومبية يندرج تحت فئة أوسع تسمى الـ"بونتشو".

المسألة: بدأت "الدماء" تخرج منه ببطء، تفتح طريقها خارج جسده. أخبر صوت ما أجوستينا بأن المياه يمكنها السيطرة على رغبة "الدماء المراقة". طلب مني الحارس أن أعطيه الماء وأنا فهمت كلماته، كان يبلغني أنه لن يموت إذا قدمت له الماء، لهذا ركضت نحو المطبخ لإحضار كوب آخر. صرخ خواكو:

- ما الذي تفعلينه؟
- أجلب مزيدًا من الماء له لأنه يشعر بالعطش.
- أي عطش؟ ألا ترين أنه يموت؟ ألا ترين أن أحدهم قد آذاه وأنه يموت؟

لكنه كان يشعر بالعطش، حاول الاعتدال في جلسته ومد يده نحوي، نحو الكوب الذي كنت سأقدمه له، حفت أصابعه بأصابعي، تلك التي لا تزال تحتفظ بذكرى هذا التلامس، لكنه لم يمسك بالكوب بل انزلق جسده مجددًا، بصورة جانبية، ببطء، مثل "دماءه المراقة" التي كانت قد صنعت بالفعل بحيرة قاتمة على الرخام الأبيض الموجود بمدخل منزلنا. كان طرف حذاء "بيتشي" يصل إلى حافة البركة ودفعته نحو الخلف بذراعي. قلت له:

- لا تلمس هذه الدماء.

لكن بيتشي لم يُطعني. هل كنت تعتقد يا أخي أن دماء ذلك اليوم مثل نهر ستيكس؟ أن لمسها سيجعلنا لا يمكن النيل منا؟ بعدها جاء مساء طويل جدًا. كان في البداية مشمسًا لكنه ظل يفقد هذه الصفقة

بتقدم الوقت حتى بات لون الأجواء بنفسجيًا ووُلد لكل شيء ظل مُحدد، كأنه قد قُص بمقص، وبدأ هبوط البرد من الجبل، لكن لم أكن أشعر به لأنني كنت واقفة على ضفاف دماء هذا الرجل، عاجزة عن الإشاحة ببصري عنه أو حتى التحرك. عيناي مفتوحتان للغاية وفي كل مرة يزداد توغلهما، كنت واقفة كتمثال من الملح لأن رؤية الدماء تصيب قواي بالشلل وتحتجزني. لم يعد "بيتشي" واقفًا معي ولا حتى خواكو بل وأن الحارس نفسه كان يبدو كأنه رحل، فما كان يبقى أمامي غالبًا هو جسده، معطفه الأسود ودماؤه فقط. كنت أقف هناك بلا حراك كأنه استدعاء طُلبت فيه من تلك الواقعة، وهي موت أحد الرجال، موت أحد الرجال للمرة الأولى في حياتي، وفي لحظة ما من ذلك المساء الطويل وصل في شاحنة شرطة رجلان يتشحان بمعطفين رماديين. ارتدى أحدهما قفازًا مطاطيًا، انحنى أمام هذا الميت الذي كان يبدو كأنه يخصني طوال تلك الساعات التي ظللت أنظر فيها له، أو تلك الساعات التي ظللت أرافقه فيها إذا كان هو يدري بمثل هذه الرفقة. أصبحت أحفظ عن ظهر قلب شكل شاربه الملتف ونظرة عينه التائهة التي ظلت مفتوحة وحذاءه الذي سقط لتظهر قدماه في خجل بين جوربيه أمام مرأى العيون كحلزونين يتزويان بعدما فقد كل منهما صدفته. بعدها في حياتي ثبت لي أن هناك شبه قاعدة تقول إن الأموات دائمًا يفقدون أحذيتهم.

كنت أفكر: هذا الميت يخصني لأنني أنا فقط من رافقته في موته، أنا الوحيدة الموجودة هنا. أنا التي تتشبث عيناها بجوربه الكستنائي ذي

النقاط البيضاء. أنا مندهشة من أن الأموات أيضًا يرتدون جوارب. في تلك اللحظة فكرت في أن الرجال ينقسمون إلى قسمين: هؤلاء الذين يستخدمون الجوارب السوداء أو الرمادية مثل أبي، وأولئك الذين يستخدمون جوارب يقترب لونها من الكستنائي وبها نقاط فاتحة. حاول الرجل ذو القفاز المطاطي تحريك الميت، لكنه لم يسمح له بهذا، كأنه يفضل مواصلة احتضان الـ"روانا" في هذا الوضع غير المريح، وحينها بدأ ذو المعطف الرمادي يتفقد جيوبه وعثر على راديو يعمل بالبطارية كان لا يزال يتردد صوته، كان صوته ضعيفًا لكنه كان لا يزال مسموعًا، يُخرج صوت الموسيقى والدعاية وسيل من الكلمات وكأن الحارس يقدر على سماعها وفكرت: الراديو هو الشيء الوحيد الذي لا يزال حيًّا من هذا الرجل. أخرجوا من الجيب الآخر أربعة عملات ومشط صغير وضعهم الرجل ذو القفاز في حقيبة بلاستيكية بجانب الراديو الذي كان قد أطفأه لكي لا يتردد صوته، وبعدها ارتدى الرجل الذي كان معه قفازًا هو الآخر وفرد إصبعيه السبابة والوسطى وقبض أصابعه الثلاثة المتبقية كما يفعل الرهبان وهم يباركون المصلين من على المذبح. سيباركه كي لا يذهب للجحيم. هذا هو ما فكرت فيه، لكن لا، لم يكن الأمر يتعلق بهذا، فما فعله بإصبعي المباركة كان البحث عن جروح في جسد ميتي، كان يضع إصبعيه عليها واحدًا تلو الآخر وهو يقول: سلاح أبيض، الإبط الأيسر، العمق ستة سنتيمترات، سلاح أبيض، أربعة سنتيمترات، ما بين ضلوع الجانب الأيمن، تحديدًا بين الضلعين السابع والثامن، وهكذا ظل يعدد التهتكات في الجسد

المُسجى، بينما تدون امرأة ترتدي الأزرق كانت قد جاءت معهما كل ما يقوله في مذكرتها حتى وصلوا إلى الرقم تسعة: تسع طعنات بالسلاح الأبيض، اخترقت إحداها الكبد. كان الرجلان والمرأة يتحركون، يذهبون إلى سيارة الدورية ويعودون، يدوسون على دماء الحارس ويتركون آثار أحذيتهم باللون الأحمر فوق رخام المدخل حتى عاد أبي وأمي للمنزل في نفس الوقت، لكن في سيارتين مختلفتين وصنعا جلبة فظيعة. أجوستينا كانت تسمع الكلمات لكنها لم تكن تفهمها: كيف هذا؟ لا يمكن للأطفال رؤية المسألة، خواكو وأجوستينا و"بيتشي" اذهبوا لغرفكم، وكيف وأين هما أمينتا وصوفي؟ يا للإهمال!

- أبي كانت تسع إصابات بالسلاح الأبيض. أمي كانت تسع إصابات بالسلاح الأبيض.

كنا نحاول أن نقص عليهما مسألة الراديو الصغير وكوب المياه، لكنهما لم يرغبا في الإنصات لنا.

- أمي ما الذي يعنيه اختراق الكبد؟ أمي أين هو الكبد؟

لكن أبي أغلق باب المنزل بمفتاحين وأدخلنا وظل ميتي في الخارج. لم أعرف أبدًا اسمه ولا أتوقف عن التساؤل إذا كانت المياه التي قدمتها لها قد هربت أيضًا من تهتكات جسده أم لا. لقد قلت قبل وقوع المسألة، إن الأشياء تُرسل لي ثلاثة نداءات، و"النداء الثالث للدم" تردد في أذنيّ وأنا في مسبح جاي ريبوس في ساسايما وتردد في ملامح التأنيب التي ارتسمت على وجه أمي. كم من مرة رأيت فيها وجهها يستشيط غضبًا

بسبب أشياء أفعلها أو أقولها أو تحدث لي. وجه الاستياء الكبير! وهذه المرة كان السبب هو أن "الدم المُراق" يخرج مني، يسيل من بين ساقي ويلطخ ملابس السباحة، لتمسكني أمي، بجمالها العظيم ووجهها الممتقع، بنحافتها وشحوبها وهي في فستانها الصيفي الأبيض، من ذراعي وتقول لي:

- يجب أن تخرجي من المسبح الآن.

كانت ترغب في لفي بالمنشفة لكن رفضت. كنت ألعب "عسكر وحرامية" مع أقاربي واخوتي وأنا كـ"لصة" لم أكن أرغب في أن يمسكني أحد.

- اتركيني يا أمي سيحبسوني إذا لم أقفز في المياه. المياه هي ملاذ اللصوص يا أمي. أنا لصة. ألا ترين أنهم سيمسكون بي.

لكنها لم تتركني وظلت تضغط على ذراعي بقوة آلمتني.

- لقد جاءت إليك يا أجوستينا. لقد جاءت إليك.

لكن، لم أكن أعرف ما الذي جاء إلي.

- غطِّ نفسك بالمنشفة وادخلي حالاً إلى المنزل.

لكن ألقيت بالمنشفة وسحبت ذراعي من يد أمي وقفزت في الماء وحينها شاهدتها، تخرج مني دون إذن لتصبغ المسبح بالمياه الدامية، لذا فكرت: هذا هو "النداء الثالث"، لا أعرف جيدًا ما الذي حدث بعدها، أتذكر أنه في النهاية بعدما أصبحنا داخل المنزل، أعطتني الخالة صوفي

عبوة (كوتيكس). كنت أعرف ماهيتها لأننا كنا نسرقها من حمام أمي لنستخدمها كحشوة لسلال الكتاكيت الحية الصغيرة المصبوغة بالأنيلين والتي كانوا يهدوها لنا في المناولات الأولى، كتاكيت بريش أخضر، كتاكيت وردية وزرقاء وبلون الليلك كانت تعيش لعدة أيام قليلة لتدفن بعدها. كان أبي يقول إن صبغها يعد شرًا لأن المادة الملونة تصيبها بالتسمم.

قالت لي الخالة صوفي وهي تعطيني فوطة ال(كوتيكس):

- ضعي هذا أسفل الكيلوت. تعالي، سأعلمك كيف تفعليها.

لكن أجوستينا كانت تبكي ولم ترغب في القيام بالأمر. كان خروج الدماء من هذا المكان وتلطيخه للملابس وأن تؤنبها أمها بتلك النظرة، كأنها تنظر لشخص يفعل شيئًا قذرًا، لشخص يُدنس ما حوله بدمائه، يبدو لها فظيعًا. بعدها قالت الخالة صوفي:

- طفلتي المسكينة، في هذا السن الصغير وجاءت لك الدورة.

ولأن أقاربي وأشقائي كانوا يصيحون في الخارج لمناداتي من أجل إكمال لعبة "عسكر وحرامية"، جففت دموعي وقلت لأمي:

- سأخبرهم بما حدث لي وبعدها سأعود.

برقت عينا أمي وخرجت كلمة "التحريم" من فمها:

- لا يا أجوستينا. هذه الأشياء لا يُمكن حكايتها؟

- ما هي الأشياء التي لا تُحكى يا أمي؟

- هذه الأشياء. افهمي الأمر جيدًا. الأشياء التي لها خصوصيتها لا تُحكى.

بعدها أطلت برأسها من النافذة وقالت لأقاربي وأشقائي:

- أجوستينا لن تخرج الآن لأنها تفضل أن تبقى معنا هنا للعب الورق.
- أي لعب ورق يا أمي؟ لا يوجد أحد هنا يلعب الورق، وأنا لا أحب لعب الورق. أرغب في مواصلة لعب "عسكر وحرامية".

لكن أمي لم تمنحني الإذن لأنها قالت إن الشمس تزيد النزف. كان هذا هو ما قالته: النزف. كانت هذه هي أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة وحينما دخل "بيتشي" ليسألني ما الذي حدث لي، قالت له أمي إنه لم يحدث شيء، وأنني ببساطة كنت أرغب في لعب الأوراق. وكان هنا حين فهمت للمرة الثالثة أن هبة عيوني ضعيفة أمام قوة "الدماء" وأن "النزف" لا يمكن احتواءه ولا يجوز الاعتراف به.

* * *

لم يكن بإمكاني اختيار مكان أسوأ من هذا للتداعي. رغمًا عن أن أخر شيء كنت أرغب فيه هو الانهيار علانية، لكن عجزت عن التحمل حتى أصل إلى الشاحنة. سقطت روحي على الأرض، هناك، في غرفة ذلك الفندق، حينما رأيت من النوافذ أشجار الأكاسيا السوداء التي كانت الرياح تحركها في مواجهة الليل المضيء، نفس أشجار الأكاسيا التي كانت أجوستينا تنظر إليها مشدوهة في أحد الواقعة المظلمة كأنها تستسلم لتنويمها المغناطيسي. هرب ما كان يتبقى من مخزون

شجاعتي فجأة، هرب مرة واحدة كأنها عملية تفريغ مباشر. لم يكن ثقل مرض زوجتي هو ما هزمني، بل الذكرى الواضحة للحظة الوعي الأولى التي أظهرتها، لحظة التعرف التي هدأت من تعبيراتها وجعلتها تجري للقائي، لتحتضني بقوة وتتشبث بي كغريق يمسك بلوح. هذه اللحظة الفريدة التي لن تتكرر وكانت فيها كل الأمور محلولة وتجمدت فيها المأساة تمامًا كأنها ندمت على نيتها تدميرنا، قبل أن توجه ضربتها. قلت لها:

- هيا نذهب إلى المنزل يا أجوستينا.

لكن كان الوقت قد تأخر بالفعل، فلحظة الإنقاذ المحتملة تبخرت، عادت للإعياء مجددًا وتوقفت عن النظر نحوي، وأصبحت مجددًا أسيرة لأشجار الأكاسيا هذه التي حركت فروعها كأنها ترغب في إخبارها:

- أنت لست من هنا. لا تنتمين إلى هنا. ليس لديك ذكريات. لا تعرفين هذا الرجل الذي ينادي عليك. كل ما يربطك به هو الازدراء والضيق.

هكذا وبمجرد رحيل "المشاكسة" لتلبية نداء اللاسلكي، عجزت عن البقاء واقفًا. جلست على حافة الفراش بينما يحرقني من الداخل لهيب هذه الذكرى، وحينما عادت الفتاة بعدها بعدة دقائق عثرت علي العميل الذي تركته وحيدًا في الغرفة ٤١٦ واهنًا.

ـ سيد ستيبانسكي؟ سيد ستيبانيسكي، هل تعاني من شيء؟

ـ شيء؟ نعم آنستي. ما يحدث هو أني زوج سيدة فقدت عقلها في الغرفة ٤١٣.

ـ ما الذي تقصده؟

اعترفت لها بأنني لا أدعى ستيبانسكي وليس لدي أصدقاء يرغبون في الإقامة بالفندق:

ـ اسمي أجيلار وما أحتاج معرفته هو ما الذي حدث لزوجتي. أنت قد تعرفين. اسمها أجوستينا لوندونيو وهي شابة طويلة ذات بشرة بيضاء شاحبة. ترتدي اللون الأسود. هذا كان منذ ٢٨ يومًا بالتمام والكمال.

أخبرتها بالتواريخ واندمجت في شرح تفاصيل اصطحابي لها يوم الأحد من الفندق وجهلي بهوية من وصلت معه ومتى بالضبط.

ـ فتاة جميلة بشكل رائعة، كأنها فنانة أو ممثلة، لكن لديها نمط غريب للغاية. تتشح بالسواد وشعرها طويل جدًا؟

ـ هذا وصف جيد لزوجتي.

صدقت على كلامها. "المشاكسة" كانت تتذكر بكل تأكيد.

ـ لم أكن موجودة في اليوم التالي لدى تسجيل الخروج، لكن كنت أنا تحديدًا من تقف في الاستقبال في الليلة السابقة حينما وصلا.

- حينما وصل من؟

- تلك التي تقول إنها زوجتك والرجل الذي كان معها. ألم تكن أنت؟

- هذه هي المشكلة، أنني لم أكن هذا الرجل.

حينها اعتذرت "المشاكسة" وقالت إنه إذا كان الموضوع يتعلق بالخيانة، فإنها تفضل عدم التدخل:

- فالمرء لا يعرف أبدًا كل التفاصيل، سيد ستيبانسكي.

- اسمي أجيلار.

- سبق وأخبرتني بالفعل. المشكلة، سيد أجيلار، أنه في هذا النوع من المشكلات لا يجب الانحياز، لأن المرء لا يعرف أبدًا كل التفاصيل.

- المسألة لا تتعلق بالخيانة. إنها مشكلة صحة عقلية خطيرة ويجب أن تساعديني. إنه واجب إنساني.

- انتظر. انتظر وقبل أي شيء، فلتهدأ قليلاً. هيا. ابق معي للحظة.

كان أغرب شيء أنها أغلقت باب الغرفة لتمنح هذا الرجل الذي يعاني لحظة سلام وعزاء ثم جلست بجانبي على الفراش، لدرجة أن ساقينا تلامست.

- انظر سيد أجيلار، في فندق مثل هذا، كل شيء وارد، وبين الحين والآخر، يأتي أناس بهم غرابة للإقامة هنا والقيام بأمور عجيبة، لكن وسط كل هذه الغرائب، صدق أو لا تصدق، هناك نوع من الروتين ينتهي المرء بتعلمه، تنوع الغرائبي ينحصر بين خمسة أمور.

سأخبرك بهم لأنني درست الأمر جيدًا: إما الجنس، أو الكحول، أو المخدرات، أو الضرب، أو الطلقات النارية. هذا هو الفهرس الذي تنحصر فيه الأمور. انظر كيف هو حال الحياة، فحتى الغرائب لها رتابتها، على سبيل المثال هنا لم تقع حوادث طعن أو انتحار.

صححت لها ما قالته فأنا لم أتمكن من تجنب كوني أستاذًا حتى في أحلك اللحظات:

- بل وقعت بالفعل.

- لا يا سيدي. لم تقع هنا، بل في فندق آخر في نفس المربع السكني، فهناك قد انتحر لديهم مواطن روماني، لكن هنا في فندق (ويلنجتون) لم نشهد مثل هذه الأمور، وفتاة الغرفة ٤١٣ التي تقول إنها زوجتك، كل ما يمكنني قوله لك بخصوصها إنها غالبًا كانت تحت تأثير المخدرات، أو ربما تكون مجنونة أو بكل بساطة شديدة العصبية. كان يصعب معرفة الأمر، لكنها على أي حال كانت متهيجة للغاية، كما أن متعلقاتها لا تزال هنا لأنها تركت حقيبة.

حينما طلبت من المشاكسة أن تسلمني الحقيبة أخبرتني بأنها بناء على تعليمات الإدارة لا يمكنها تسليمها لي، بل يجب أن تُسلم لمالكها بصفحة شخصية.

- لكن إذا كانت المالكة أصبحت مجنونة.

ثم رفعت صوتي وانتفضت قائلاً:

- كيف يمكن أن يُطالب شخص مجنون بحقيبته. إنسان أصيب شخصه بالجنون هنا، في الغرفة ٤١٣ بهذا الفندق. أنتِ بنفسك اعترفتِ أنك كنتِ شاهدة على الأمر.

جذبتني المشاكسة من طرف بنطالي لكي أجلس مجددًا.

- لا يا سيد أجيلار. لم تصاب بالجنون هنا. حينما جاءت كانت قد أصبحت مجنونة بالفعل، أو على الأقل مريضة، أو على أي حال متهيجة للغاية.

اتفقنا على عدم مواصلة الحديث في الفندق. كانت تنقص ٤٥ دقيقة لكي تنهي "المشاكسة" ورديتها، و"إذا كان "الأستاذ" يرغب" فمن الممكن أن نحدد موعدًا بعدها في أحد المقاهي، وبكل تأكيد "كان الأستاذ يرغب"، ولأنه يرغب، فقد اقترحت أن نلتقي في العاشرة وخمس دقائق بمطعم في تقاطع الطريق ١٣ مع الشارع ٨٢ يُدعى (دون كونيخو). جلبت "المشاكسة" ورقًا صحيًا لي من المرحاض لكي أتمخط وأخبرتني أن هذا المطعم يقدم معجنات رائعة باللحم وأنها لهذا السبب ترتاده حينما تخرج جوعانة من الفندق. (دون كونيخو) كان قريبًا، لكن ليس بدرجة تسمح لزميلاتها في الاستقبال باكتشاف لقائنا، كما أنها هي وحدها من كانت تحبه لأن الأخريات على الرغم من اعترافهن بطعامة المعجنات باللحم، كن يشعرن بالاستياء لدى الخروج من هناك بملابس معبئة برائحة الطعام المقلي.

ـ انظر، سيد أجيلار، أنا أتفهم الغم الذي تعاني منه بسبب مسألة زوجتك، وبكل ترحاب سأساعدك قدر استطاعتي. تنفطر روحي من مشاهدتك على هذه الحالة، فالدنيا دوارة. ما يحدث لك اليوم قد يحدث لي غدًا، وقلت لك كل هذا لأن علينا الآن الخروج من الغرفة لأنهم إذا عثروا عليّ سأتعرض للطرد. إهدأ قليلاً وسنتحدث لاحقًا. وأعدك بأنك إذا انتظرتني في (دون كونيخو) فسأساعدك، أو على الأقل سأرافقك في أحزانك. فحينما تعمل في فندق قد ينتهي الأمر لتصبح نصف ممرضة. صدق أو لا تصدق، أنت لست الأول. يأتي هنا أناس كثيرون يعانون من الوحدة والمشكلة، لكن لنخرج الآن من هنا فالمُشرف قد يقتلني إذا شاهدني في محادثات غريبة مع ضيف.

ـ أنا لست ضيفًا.

ـ صحيح أنت لست ضيفًا، وهو ما يجعل الأمور أسوأ. أنت تعرف من أنت.

قالتها لي "المشاكسة"، لكنها في نفس الوقت ابتسمت كأنها تدعني أعرف أنها لا تهتم بمن أكون. أنا مجرد غريب بكى وهو ينظر عبر نافذة إحدى غرف فندقها، أو بمعنى آخر، أنا نوع الرجل الذي كانت مستعدة لاستقباله ودعمه وبكل تأكيد اصطحابه لفراشها، لأن هذا هو أسلوبها، أدركت هذا منذ اللحظة الأولى. عدنا إلى اللوبي، كل منا بطريقته، هي عبر المصعد وأنا عبر السلم واتصلت من هاتف عام بالخالة صوفي للسؤال عن أجوستينا وإخبارها بأنني سأصل متأخرًا

وأجابتني بأنها نائمة وبدأت أسير بلا هدف في برد الشوارع ويدي في جيبي وأنا أرفع ياقة معطف المطر. نسخة رخيصة من هامفري بوجارت تسير بين نساء ضخمات ومتوحشات هن الترافيستي وجامعيات معبآت بالضغط في سراويل الجينز هن العاهرات. كنت أسير وأنا أنظر لساعتي كل دقيقة كأن هذا سيعمل على تسريع الزمن، كنت في حاجة لأن تأتي العاشرة وخمس دقائق لألتقي بالفتاة وألقي إليها بكل الأسئلة التي كانت تغلي في رأسي، لكن أعترف أيضًا لأن قربها كان بمثابة راحة وسط الجحيم الذي أمر به، وحينما بات يتبقى القليل من الوقت توجهت نحو (دون كونيخو) ووجدته مغلقًا، لهذا عبرت الشارع وجلست على المقهى المواجه له، بالقرب من باب الدخول لكي أصبح مُطلعًا على وصولها. طلبت الشاي وغرقت أكثر داخل ياقة معطف المطر لأنه في ظل هذه الكارثة التي حلت على رأسي لم أكن أرغب في مقابلة أحد سواها، لكن كان لابد أن يحدث هذا، أن يكون من يجلسان على الطاولة المجاورة، رفيقان قديمان له منذ أيام النضال. اقتربا مني لأنهما كانا يجمعان توقيعات لإدانة الاختفاء القسري لأحد ما. لم أعرف من هو لأنني لم أهتم بما قالاه ولم أقرأ الإدانة قبل التوقيع عليها. فكرت في أنه يجب عليّ الهروب من هذا المكان. سددت ثمن الشاي وودعتهما وخرجت للشارع في نفس اللحظة التي كانت فيها "المشاكسة" تعبر التقاطع للتوجه نحو (دون كونيخو) لم أتعرف عليها من النظرة الأولى، لأنها كانت نزعت زيها الأزرق القاتم والتنورة القصيرة وكانت ترتدي الآن بنطالاً أسود اللون لم يكن لائقًا عليها لسبب ما، ربما لأنه كان شديد الضيق،

وكانت أيضًا قد جمعت شعرها في ضفيرة ذيل حصان ولم تعد تبدو جذابة، بل أكثر من هذا، أقنعتني تقريبًا بأنها امرأة أخرى، لكن ما أخرجني من ارتباكي كانت أظافرها، فأظافر مثل هذا لا يمكن أن يوجد منها سوى عشرة في الكون قاطبًا، وحينما كانت على بعض أمتار قليلة مني، لاحظت أن الحقيبة التي تجلبها يجب أنّ تكون لأجوستينا فهتفت:

- لقد جلبتيها لي!

- نعم لقد جلبتها لك. لنتمنى ألا أتعرض لمشكلة.

بدأنا نسير في شارع ١٥ الذي كان في حالة يُرثى لها بسبب الإصلاحات العامة. كانت حركة الشاحنات الثقيلة وضجة المثاقيب تكبت أسئلتي لهذا فضلت السير في صمت بينما أفكر فقط في هذه الحقيبة التي كنت أحملها الآن والتي كانت دليلاً على أن كل شيء فُعل عن عمد، فزوجتي لم تصل لهذه الغرفة بطريق الصدفة أو بسبب حادث، بل لأنها حزمت أغراضها وتركت الشقة برضاها لغرض محدد، وهذا الغرض هو موعدها مع هذا الرجل. من يعرف متى بدأت تخطط لهذا وذاك! وهكذا انساب في رأسي شلال من هذه التكهنات التي لا أرغب في تذكرها. كنت أسير منكمشًا في ذاتي والمسألة تتعقد داخلي إلى حدود لا نهاية لها لدرجة أنني لم أعرف أين أمشي، بينما كانت "المشاكسة" تركض خلفي معتلية حذائها ذي الكعب العالي الذي كان يُصعب سيرها بتوازن بين الحفر المفتوحة في الأسفلت، وهي تسعى للتغلب على زئير المثاقيب عبر الصوت العالي لتخبرني بأمور عن

حياتها، شيء يتعلق بالدوالي الوريدية التي تعاني منها أمها، أو تكلفة مدارس أشقائها، وحينما كنا نمر أمام مستشفى (كلينيكا كانتري) أوقفتني من ذراعي ودفعتني للدخول وهتفت:

- هيا.. توجد هنا كافتيريا صغيرة سنأكل فيها بلا أي صُحبة. ضاعت علينا فرصة أكل المعجنات باللحم، رافقني لتناول الدونتس والقهوة بالحليب فالجوع يقتلني.

لم أتمكن من إخبارها في الوقت المناسب أنني لا أرغب في الجلوس هنا بالذات، في تلك المستشفى، وليس فقط لكونها ال"سوفينير" الوحيد الذي ينقصني في جولة الذكريات الفظيعة هذه، لهذا حينما أدركت ما حدث، كنت أجلس هناك بالفعل وأنا أتناول قطعة دونتس مستديرة وردية بالضبط أمام اللافتة التي كُتب عليها بحروف زرقاء باردة (الطوارىء). قالت "المشاكسة":

- ولا قضمة واحدة!
- لكن أنا أكلت نصف قطعة الدونتس تقريبا.
- لا أتحدث عنك، بل عن زوجتك حينما كانت في الفندق.
- أتقولين أنها لم تتناول أي طعام؟

- بالفعل. الرجل الذي صاحبها نزل لتناول العشاء وحيدًا في المطعم. طلب وجبته وأمر أن يرسلوا لها نفس الشيء في الغرفة، لكن بعدها ظهرت الصينية دون أن يمسها أحد في الرواق، وحينما أقول لك دون أن يمسها أحد، فهذا لأن غطاء الصينية لم يُرفع حتى لمعرفة ما

الذي تضمنته الأطباق. أعرف المسألة لأنه في اليوم التالي تكررت المسألة، بمعنى أخر أنه نزل لتناول الإفطار وحيدًا يوم الأحد وأمر بالصعود بالإفطار لها، والذي لم تأكله أيضًا. حينما تحدث مثل هذه الأشياء فإن الجرسونات يطلعوننا عليها، لأنها قد تكون إشارة على أن شيء مريب يحدث في أحد الغرف. أنا لا أعرف، سيد أجيلار، أقول لك بصدق إن هذا لم يكن يبدو كلقاء عاشقين.

قلت لها:

- توجد لقاءات عشاق لا تسير بصورة جيدة.

- اه يا سيد أجيلار! لا يوجد حل معك! أخبرك بكل صراحة أن موضوعهما كان يخلو تقريبًا من الرومانسية، فعلى سبيل المثال لو كنت سأقضي ليلة مع رفيقي..

قلت لها بعد صمت طويل، صمت من جانبها لأنها ظلت تضع احتمالات حول ما كانت لقد تفعله مع رفيقها في فندق مثل (ويلنجتون):

- المسألة صعبة.. أنت لا تعرفين مدى صعوبة كل هذه المسألة.

أدركت هنا أنني لم أكن أعرف بعد اسمها.

- اسمي أنيتا. قلته لك ثلاث مرات لكن أذنيك تنصتان فقط للألم. أخبرتك أيضًا بأنني مسؤولة عن أمي وأشقائي وأنني بجانب عملي في

الفندق، أدير كشكًا لتصوير الوثائق وخدمات الفاكس في مرآب منزلي، فما الذي بيدي؟ فراتب الفندق لا يكفيني.

- وأين يقع منزلك؟

سألتها بينما أعترف داخل نفسي بأن التواجد مع أنيتا هذه كان جيدًا، بأن كونها تدعى أنيتا كان جيدًا، لكن أيضًا أنها بشعرها غير المعقود كانت تعجبني أكثر، لذا طلبت منها:

- أنيتا. أرخ شعرك.

لكنها لم تهتم وواصلت سرد قصة طويلة لم أتمكن من الاحتفاظ بأي شيء منها سوى أنها تعيش في حي ميسين البروليتاري والذي كنت أعرفه جيدًا لأنه منذ عقود مضت كنت أتردد عليه لتنظيم مؤتمرات وبيع صحيفة (الثورة الاشتراكية).

- ميسين، عزيزتي أنيتا، يقع في الخراء نفسه.

- بالفعل، سيدي، وهل ستقول لي هذا؟ فأنا أذهب من ميسين للفندق كل يوم في ساعة ونصف بالحافلة ومثلها في العودة.

كانت مشاهدة كيف تمسك أنيتا بقطعة الدونتس الوردية بأطراف أعلام فرنسا العشرة المصغرة الموجودة في يديها شيئًا مسليًا. كانت قطع الدونتس وردية ومستديرة ولذيذة، مثل شفاهها السخية المكتنزة التي كانت تقترب أكثر من اللازم مني بحجة إخباري بأي شيء، لكن حتى

تلك الشفاه المثيرة للرغبات لم تجعلني أنسى الحقيبة التي كانت ترقد أمامي على المائدة وتحتوي على تعاستي واستيائي.

- سأفتحها الآن أمامك يا أنيتا لأنني لن أتحمل القيام بالأمر بمفردي.

قالت لي أنيتا التي كانت قد بدأت في مخاطبتي دون ألقاب، لكن أحيانًا كان يبدو عليها الندم لتعود مجددًا لاستخدام لقب "أستاذ":

- أستاذ أجيلار، افتحها، الأمر لا يهم. سيعتقدون أنها أغراض شخصية أحضرناها لمريض هنا.

بدأت في إخراج الأغراض واحدًا تلو الآخر لأضعها فوق مائدة الفورمايكا: عدة قطع من الملابس الداخلية المصنوعة من القطن الأبيض، أحد قمصاني الذي طبعت عليه كلمة (رجل الفاصوليا) والذي كانت أجوستينا تحب استخدامه للنوم، وبلوزتين يبدو أنها لم تستخدمها لأنهما كانتا نظيفتين ومكويتين. قالت أنيتا:

- يا للغرابة، وصلت زوجتك إلى الفندق بمظهر مهمل رغمًا عن أنها كانت لديها ملابس نظيفة في الحقيبة. كما أخبرتك حينما رأيتها قلت لنفسي، كيف تظهر امرأة في غاية الجمال مثلها بمثل هذه الصورة، كأن مجموعة من الأبقار قد مضغتها.

واصلت إخراج الأغراض: علبة تحتوي على فرشاة ومعجون أسنان وكريم تنظيف (كلينيك) وكتاب قصائد (مرتفعات ماتشو بيتشو) لبابلو نيرودا كنت قد أهديته لها عقب تعارفنا. سألت أنيتا:

ـ ما هي ماتشو بيتشو؟

ـ هي أنقاض عتيقة موجودة في جبال الإنديز ببيرو.

ولأنها أمسكت بالكتاب ورأت أن أول صفحة منه كان بهاء إهداء موقع من قبلي "إلى أجوستينا، في أعلى قمم الأرض"، سألتني إذا كنت تسلقت إلى هناك مع زوجتي.

ـ الحقيقة أن هذا لم يحدث.

ـ إذًا ما الذي رغبت في قوله بهذا الإهداء.

ـ الحقيقة أنني لا أعرف. أعتقد أنني كنت متحمسًا للغاية لكتابة شيء مثل هذا.

ـ ومن هو بابلو نيرودا(١٦)؟

أصرت على المعرفة، لكن لم أجبها لأنني كنت مهتمًا بتلك الأغراض: فرشاة شعر، دهانات أخرى من ماركة (كلينيك)، وكريم بالكورتيزون.

ـ وهذا؟

ـ للحساسية. بشرة أجوستينا بيضاء للغاية ولهذا تصاب أحيانا بالحساسية وتضع الكريمات.

قالت لي أنيتا وهي تمسك بيدي بسرعة:

---

(١٦) أحد أشهر وأعظم شعراء تشيلي والأدب المكتوب بالإسبانية.

- لا تقلق، سيد أجيلار، إذا كان الرجل عشيقها، فإنها لم تكن لتأخذ هذه الكيلوتات البسيطة، بل أخرى مخرمة سوداء أو حمراء بقصة قصيرة ومشد صدر أكثر اثارة من هذا.

- أنت لا تعرفينها يا أنيتا. زوجتي من صنف النساء اللواتي يستخدمن دائما ملابس داخلية بيضاء وبسيطة.

- حسنًا. فهمت. يبدو أنكما قد تزوجتما عبر الكنيسة؟

- لا أنا وأجوستينا نعيش معًا دون مباركة من أحد.

- لماذا إذًا ترتدي خاتم زواج في هذا الإصبع؟

- أعطته لي زوجتي الأولى، أم أبنائي، انظري اسمها محفور عليه من الداخل مارـتاـإلي ـنا.

قالت لي بعدما سمعت المسألة وهي تتدلل بصوتها وعينيها:

- يا لك من شخص سيد أجيلار. تعيش مع امرأة وترتدي خاتم زواج أخرى. أعتقد أنك في حاجة إلى ثالثة لكي تصلح لك الأمور.

اقتربت مني أكثر من اللازم وأضافت كأنها تشير إلى شيء عاطفي أو جنسي سيحدث بيننا:

- سيحدث شيء هذه الليلة.

لكن لأنني كنت أنفر من أي من الاحتمالين، تراجعت بخشونة نحو الخلف وهي بعدما شعرت بأن الكلام قد يشير إليها، سارعت لتوضح:

- ما أقصده هو البلد. أشعر أن هذه الليلة سيحدث شيء فظيع في البلد.

- ولم لا؟ إذا كانت كل ليلة يحدث فيها شيء فظيع. لم يحدث شيء في الليلة الماضية ولا تلك التي سبقتها، لهذا، فإن مجرد مبدأ حساب الاحتمالات الصرف يعني أنه ربما يأتي دورنا اليوم.

شعرت وأنا في نصف الجملة بفضول لمعرفة رائحة شعرها وطلبت منها مجددًا:

- أرخِ شعرك يا أنيتا.

ولأنها هذه المرة لبت الطلب بعدما أسدلت كل هذا الشعر المموج علينا، اقتربت منها، ممتنًا ولينًا من الداخل، واستنشقت رائحة الشامبو اللذيذ الذي تستخدمه وسألتها:

- رائحة الخوخ؟

- أمر لا يصدق سيد أجيلار. لقد خمنته. إنه شامبو (سيلكي بيتش) من (لوريال).

ودون أن أنزع أنفي عن شعرها حدثتها عن ذلك المساء حينما كان عمري ١٥ عامًا وأسرعت أكثر من اللازم على منحدر بدراجة مستعارة لأفقد السيطرة وأصطدم بسلك معدني شائك تسبب في جرح ساعدي الأيمن بصورة سيئة ونزع قطعة من جلد عنقي.

ـ لا زالت الندبات موجودة. انظري يا أنيتا. يمكنك رؤيتها.

مررت طرف سبابتها على تلك العلامة القبيحة التي تعبر حنجرتي وهي تسأل:

ـ لماذا تقص عليّ الأمر؟

ـ أقصه عليك بسبب ما سيأتي لاحقا، في عيادة الحي. طهر لي الدكتور أوسبينيتا ـوالذي كان في يمارس الطب بالنوايا الحسنة في انتظار حصوله على شهادته الجامعيةـ الجروح وقطبها لي بـ٢٧ غرزة، وكل هذا بالإبرة فقط، لأن المخدر كان رفاهية مجهولة في حي شديد الفقر مثل ذلك الذي كنت أسكنه.

علقت أنيتا وعلى وجهها يرتسم تعبير أنها تتابع دون أن تفهم ما هي علاقة كل هذا الأمر بها:

ـ آها.

ـ حسنا أقص عليك الأمر لأنه واحد من أحلى الذكريات في حياتي. ما أرغب في الحديث عنه هو ما حدث لي حينها مع إحدى السيدات. كانت شابة. تظهر في تذكرياتي كامرأة جميلة للغاية رغمًا عن نسياني لاسمها وملامح محياها، أو أنني ربما لم أعرف اسمها أو أرى وجهها بتاتًا. لم تكن الممرضة، بل مجرد شخص يتواجد هناك في العيادة، كانت تنتظر دورها غالبًا لكي تدخل الكشف، هي أو ابنها أو أحد أقاربها، وحينما رأتني معذبًا كالمسيح ومشلولاً من الرعب أمام إبرة

التقطيب وخيط النيلون الذي كان أوسبينيتا يوجهه نحو عنقي، فإنها عرضت مساعدتها لتهدئتي وما فعلته كان مذهلاً. جلست عند رأس السرير الصغير ووضعت رأسي على فخذيها دون إلقاء بال بأن ملابسها قد تُلطخ بالدماء، وأمسكت بيدها عاليًا كيس نقل الدم الذي كان أوسبينيتا يسعى لمواجهة النزف به، وهنا يأتي ما يهم حقًا يا أنيتا، ما لم أنْسَهُ، وهو أنها بتلك اليد الأخرى، كانت تداعب شعري، ووصلت درجة افتتاني بمداعباتها إلى أنني كنت أفكر فقط في يدها. أغلقت عينيّ لأركز فقط في مداعباتها وهكذا تمكنت من نسيان الألم والخوف ورؤيتي لدمائي المراقة. كنت أطفو فقط وسط المتعة الهائلة الناجمة عن تلك الأصابع التي تداعب شعري. في كل مرة أشعر فيها أنني أموت، يا أنيتا، كما شعرت في تلك الأيام الماضية، كما أشعر الآن، فإن ذكرى هذه المرأة تبقيني حيًّا، بل الأصح ذكرى يد هذه المرأة، وإذا كنت أقص عليك الأمر الآن فالسبب هو إن وجودك يخلق داخلي تأثيرا مشابهًا.

ولأن أنيتا حينما سمعت ما قلته بدأت تخرخر كقطة، لهذا تراجعت مجددًا نحو الخلف وغيرت نبرتي لأقول لها لمجرد قول أي شيء آخر:

- وبمناسبة الأصابع، يا إلهي! يا لأظافرك الطويلة يا فتاة! أتطلينها بنفسك أم هي أحد محلات الزينة، أراهن أنك يا أنيتا القادمة من حي ميسين لا تعرفين أي شيء عن فيما تستخدم أقلام خشب البرتقال.

توقفت للاتصال مجددًا بالخالة صوفي وإخبارها بأنني قادم ولدى عودتي للطاولة قلت لـ"مشاكسة":

ـ أتعلمين؟ لو كان عمري لا يزال ١٥ عامًا لطلبت منك أن تداعبي شعر لفترة، لكن أنا عجوز ومدمر وفي وسط مأساة، لهذا من الأفضل أن نرحل، هيا، سأوصلك لمنزلك.

ـ أتمتلك سيارة؟

سألتني وهي لا تصدق، كأنها لم تكن تراني كشخص قد يمتلك شيئًا ما، أو كأنها لم تكن تصدق معجزة توفير ساعة ونصف في الحافلة ولو لليلة واحدة.

ـ هل أمتلك سيارة؟ لنقل تقريبًا! لنقل أن لدي شيء متهالك يمكن التغاضي وتسميته سيارة لكنها ستوصلك سليمة وفي صحة جيدة إلى منزلك.

يضحكني الآن تذكر الثقة التي قلت لها بها هذه العبارة لأنها لم تتحقق تقريبًا. ما أرغب في قوله هو إنه بينما تجلس أنيتا بجانبي قدت نحو الجنوب على الطريق رقم ٣٠ ، والذي كانت الحركة المرورية منخفضة عليه في ذلك التوقيت، وبالقرب من ملعب (نيميسيو كاماتشو) هزتنا رجة متوحشة رفعت الشاحنة من على الأسفلت، في نفس الوقت الذي تأذت فيه أذنينا من ضربة هواء، بينما خرج صوت ضجيج حاد كأنه كالرعد من أحشاء الأرض قبل أن يبدأ في التراجع تدريجيًا، كأنها

طبقات متتالية للصدى، حتى بدا كأنه هناك صمت مطبق يتمدد في المدينة، وفي وسط هذا القلق القاتل سمعت صوت أنيتا يقول:

- قنبلة. قنبلة ملعونة، قنبلة داعرة كبيرة يجب أن تكون قد انفجرت هنا. حذرتك، سيد أجيلار. حذرتك من أن هذه الليلة سيحدث فيها شيء مرعب.

لكن أنا كنت أفكر فقط في أجوستينا. كان يعذبني هاجس أن شيئًا ما قد حدث لها. فتحت أنيتا راديو السيارة وهكذا علمنا أن مبنى الشرطة في بالوكيماو تعرض للتفجير، على بعد ١٢ مربعًا سكنيًّا من مكاننا. على بعد ثمانية مربعات سكنية استيقظت أجوستينا مفزوعة بكل تأكيد من الانفجار، هذا إذا لم تكن الموجة الارتدادية قد وصلت بالفعل لتحطيم نوافذ شقتي. تكونت داخل عقلي صورة لها وهي تنهض من على الفراش في حالة صدمة وهي تخطو على الزجاج المحطم. كانت تلك الصورة حية لدرجة أنها تحولت ليقين. شاهدت أجوستينا حرفيًا تسير بقدمين حافيتين على الأرض المغطاة بالشظايا وشعرت بحاجة ملحة للتواجد بجانبها. لا أعرف لكم من الوقت صمت وأنا أقود الشاحنة نحو ميسيين بكل ما أوتيت من قوة لأوصل الفتاة الجالسة بجانبي وأعود على الفور. أزعجتني فكرة أن تكون أجوستينا قد تعرضت للأذى بشكل ما، لكن بكل تأكيد ذهلت في نفس الوقت من التفكير كثيرًا في حدوث هذه الاحتمالية. لا أعرف. كانت المسألة كأن هناك شيء غير صحي بالكامل يتحرك داخلي، كأنه تطبيق لا يمكن الاعتراف به لمبدأ "العين بالعين"،

فقد سبب لي رفضها جرحًا كبيرًا. حينما تحدثت أنيتا، كنت قد نسيت وجودها لدرجة أن صوتها قد فاجئني. قالت لي:

- سيد أجيلار. أعتقد أنك لن تسامحني على جرأتي، ستقول بأي حق أتدخل، لكن أعتقد أنك تعاني أكثر من اللازم، بزواجك من هذه المجنونة.

***

- إخرج مني يا كل الندم.

قالها نيكولاس بورتولينوس بصوت عالي بعد ذلك الغداء الذي تناولوا فيه فخذ الخنزير ثم كررها مجددًا بعد تناوله لمشروب مهضم وجرعة كبيرة من مستخلص الناردين:

- اخرج مني يا كل الندم!

لكنها هذه المرة كانت كرجاء أو ربما تهديد لكي يمنحه التأثير المنوم للناردين شعور الغبطة القصير للقيلولة. طلب بعدها من بلانكا أن تفك له حذاءه لأن جسده المنتفخ كان يعجز عن الانحناء بالصورة الكافية للسماح له بهذه الحركة. استلقى فوق فراشه المرتفع المحمي بسحابة من الشاش شكلتها الناموسية وترك نفسه ينعس على الهدير المكتوم لنهر دولثي، الذي كان يتساقط على هيئة شلال من أمام نافذته، ثم عاد ورأي- وسط ضوء معين وصفه بنفسه كبريق صناعي- الأسطح المصقولة لمسرح قديم، ذلك الذي عرَّفه في مرات

أخرى كأنقاض يونانية. كان يقف عليه شابان يتصارعان ويؤذيان ويُدميان بعضهما. سيكتب لاحقًا في مذكراته "أبقى بقدمين مغروستين في الأرض في الحلم، مفزوعًا من بريق الدماء المعدني وأعزل أمام نداء اللحم الممزق. لا أبالي بأحدهما، ذلك الذي يتحرك بظهره بطريقة لا تسمح لي برؤية وجهه. لا أعرف أيضًا اسمه، لكن هذا لا يقلقني. أحلم بأن اسمه ليس مهمًا. على النقيض، فالفتي الأخر يؤثر فيّ بعمق. أظن أنني أعرف أنه أصغرهما وربما هو الأكثر ضعفًا. لست واثقًا من هذا، لكن أنا واثق من أنه يشكو ويلعق جراحه بصورة مثيرة للشفقة".

استيقظ بورتولينوس نحو الخامسة مساءً ونهض من على الفراش، ولأن حالة عقله مرتبكة لنقل إنه نهض دون أن يستيقظ بصورة كاملة. كان يرتدي روبًا من الحرير طُبع عليه خليط من صور فروع أشجار الغابات الخضراء فوق خلفية سوداء وأيضًا الخف الذي يضيع منه كثيرًا ويثير استياءه. يبدو شعره كأنه دُهس إلى أحد جانبيه من كثرة التعرق على الوسادة. كان لا يزال يطفو وسط حمية الحلم الذي زاره أثناء القيلولة. وكأنه يطيع أمرًا ما أمسك بريشة وورقة نوتة موسيقية وجلس على البيانو وكرس عدة ساعات لتأليف لحن يطن في أذينه منذ عدة شهور دون أن يتمكن من أسره.

تتجسس عليه زوجته بلانكا وهي في الحديقة عبر الستارة المعدنية لتتحقق بسعادة من أن نيكولاس عاد للتلحين بعد عدة شهور من التوقف. ستكتب لاحقًا في رسالة "أخيرًا بُعثت فيه الطاقة الإبداعية

وعدت أستمع للتناغم الذي يتبرعم من أعماق روحه". تظن بلانكا أيضًا أنها لاحظت أن نظرة زوجها بدأت تصفو كثيرًا لتتساءل "ألست أسعد امرأة في العالم؟"، وهي تظن داخلها في أنها كذلك بالفعل، لهذا تراقب زوجها وهي منتشية عبر الستائر المعدنية، بينما يجلس هو على البيانو ويملأ صفحة تلو الأخرى من النوتة، وهو يتظاهر بأنه يدون ألحانًا لإسعاد زوجته أو ربما لإقناع نفسه بأنه سعيد، لكن في الواقع كل ما يفعله هو شخبطة رسوم لبعوض وأرجل بعوض وبقع سوداء وعصي قرع مخبولة في نسخة دقيقة لصخبه الداخلي الأليم.

لا يصح سؤال كيف كان يبدو ذلك الفتى المصارع الدامي الذي حلم به، بل كيف يبدو لأن بورتولينوس يحلم به دائمًا منذ عدة سنوات، وهكذا أبلغ زوجته- بل اعترف لها- هذه الليلة بعدما أضاءت العلاجيم والصراصير وحشرات الصرناخ بأغانيها ظلمة الليل:

- بلانكا، عزيزتي، حلمت مرة أخرى بفاراكس.

سألته بقلق بالغ:

- من هو فاراكس يا نيكولاس؟ ولماذا يقتحم أحلامك دائمًا؟

يجيبها محاولاً تهدئتها:

- هو مجرد وحي. فاراكس هو الاسم الذي أطلقه على وحيي حينما يزورني.

- لكن هل فاراكس رجل أم أنثى؟

- هو رجل وينقل لي الحماس الضروري لكي تصبح لحياتي قيمة.

تصر بلانكا:

- أخبرني يا نيكولاس.. هل هو أحد كنت تعرفه فيما سبق؟ هل شاهدته من قبل؟ هل هو حلم أم ذكرى؟

لكن نيكولاس ليس مستعدًا للإجابة على كل هذه الأسئلة.

- اسمه فاراكس، بلانكيتا حبيبتي. اشعري بالسعادة لمعرفة هذا.

في تلك اللحظة تقاطعهما ابنتهما إوخينيا، الصامتة دائمًا لكنها في تلك اللحظة كانت تشع نورًا، لتجلب لهما نبأ أن طالب البيانو القادم من أنابويما ليسأل عن "المايسترو" قد عاد لدق بابهم. قالت لهما الطفلة وروحها ترتعش على شفتيها:

- الفتى الأشقر.. لقد عاد إلى هنا مرة أخرى.
- عن أي فتى تتحدثين؟
- عن ذلك الذي جاء أمس بالعساكر المعدنية الموجودة في مخلاته ويرغب في معرفة إذا كان من الممكن يا أبي أن تعطيه دروسًا في البيانو.

نزل نيكولاس ليستقبل الزائر إلى الصالة الواسعة والمجهزة بعدة مقاعد حول بيانو (بلوتنر) الضخم المصنوع من خشب الروزوود والذي أرسل بورتولينوس لجلبه من ألمانيا ويرقد اليوم مستريحًا، بعد مرور وقت طويل في منزل إوخينيا الواقع في حي لاكابريرا بالعاصمة، بعدما أصبح أثرًا قديمًا صامتًا. دخل بورتولينوس صالة منزله في ساسايما

وشاهد أن الزائر القادم من أنابويما قد جلس على البيانو دون إذن من أحد ليداعب بيده الخشب الأحمر ذي العروق الداكنة بصورة تنم عن الإعجاب، لكن هذه الجرأة لم تغضبه، بل بدت له كإشارة على وجود شخصية طليقة، ولتوفير وقت التحيات والكياسة قرر الذهاب مباشرة نحو صلب الموضوع وأمر الفتى:

- إذا كنت ترغب في الحصول على دروس، أظهر لي مدى معرفتك.

ورغمًا عن أن بورتولينوس لم يسأله، قال الفتى إن اسمه أبيليتو كابايرو ورغب في تقديم ملخص المرجعيات التي كان يحفظها، موضحًا أن جاء بتوصية من عمدة أنابويما وأنه تعلم في (مدرسة الموسيقى والرقص) بتلك القرية حتى زادت معرفته عن الأستاذة الوحيدة فيها، السيدة كارولا أوسوريو، ولهذا كان يسعى للحصول على تأهيل أعلى من قبل الـ"مايسترو" بورتولينوس، لكن لأن الأخير لم يبد مهتمًا بما يقوله. توقف الفتي عن إمداده بالمعلومات غير الضرورية، ومال أكثر لأن يرفع كمي قميصه لتحرير ذراعيه بصورة أفضل. هز رأسه لتصفية ذهنه وفرك يديه لتسخينهما وبارك نفسه للحصول على المساعدة الإلهية وانطلق يعزف مقطوعة فالس هجينة تعرف باسم (القطة الطماعة). ورغمًا عن أن الخجل كان يجعل الفتى يتعثر مرة هنا وأخرى هناك في اللحن، إلا أن بورتولينوس، الذي بدأ يتنفس بتثاقل كأن هناك تأثيرًا داخليًا شديدًا يخنقه، اقتصر فقط على الغمغمة بعبارة: حسنًا، حسنًا، حسنًا، سواء كانت ألحان (القطة الطماعة) تنساب بسلاسة أو تتعثر. كان يتمتم "حسنًا، حسنًا، حسنًا"، وعينيه لا تصدقان ما تريانه: لمعان

الشعر الذهبي، اليدان المتمرستان رغمًا عن صغرهما، الشريط الأسود الحريري المعقود حول عنق زائره كأنه دمية، والمخلاة الجلدية المدبوغة التي كان لا يزال يحملها فوق ظهره. لم تصدق أذنا بورتولينوس أيضًا ما كانتا تسمعانه، فقد كانت هذه الموسيقى تبدو كأنها هبطت من علٍ لتستحوذ على عتمة الصالة، لكن المهم هو أن قلبه وحواسه أعلنا له أن ما يحدث يرتبط بنبؤة قديمة، وأن هذا كان ـأخيرًاـ تحقيقًا لوعد مرجو.

محاولاً استبيان إذا كان سيقبل كطالب أم لا، كان الفتى يبعد ناظريه بين الفينة والأخرى عن لوحة المفاتيح ليسترق النظر إلى الـ"مايسترو" الألماني صاحب السمعة والذي كان يتعرق ويلهث بجانبه في روب النوم بينما يعتلي خُفيه، لكنه لم يتمكن من تفسير تعابيره أو تفهم معنى "حسنًا، حسنًا، حسنًا"، التي كان الـ"مايسترو" يهمهم بها دون تمييز، سواء كان يعزف جيدًا أم يخطئ. حينما انتهى من المقطوعة شعر بتوجس أن الموسيقى الكبير يقترب ناحيته من الخلف. لمس كتفه بيده بالكاد وقال له في أذنه:

ـ يجب أن أستدعي زوجتي.

وبعدها خرج من المشهد بشكل مسرحي حانيًا ظهره نحو الأمام، دون أن يدرك أن يضع قدميه، كأنه في حاجة ملحة للوصول لمكان آخر. ظل أبيليتو كاباييرو وحيدًا في الغرفة التي باتت الآن صامتة وشعر بثقل كبير فوق كاهله وهنا أدرك أنه لم ينزع المخلاة عنه فقام بفعل الأمر. تمخط ليخفف من وطأة احتقان الأنف الذي سببته له رائحة الرطوبة

المنتشرة في المكان وعقد ذراعيه وبدأ ينتظر، حتى اكتشف اختلاج وجود صغير في أحد الأركان فنهض لمعرفة ما هو واكتشف أن الطفلة النحيفة والخجولة التي استقبلته أمس وفتحت له الباب اليوم كانت تلبد خلف أحد قطع الأثاث. اقترح عليها:

- إذا كنت ترغبين، يمكننا أن نعد العرض العسكري مجددًا.

ولأنها أومأت برأسها أخرج العساكر المعدنية وانشغلا بها وكل منهما يجلس على ركبته فوق الأرض.

- اسمي ابيليتو. أعتقد أنني لم أخبرك به بالأمس.

- وأنا اسمي إوخينيا. لم أقله لك أيضًا.

في هذه الأثناء كان بورتولينوس يبحث عن بلانكا في كل المنزل حتى وجدها أخيرًا في خزانة الحائط.

- ما الذي تفعلينه في الخزانة بحق الشيطان يا بلانكيتا يا حيرانة! تعالي هنا فورًا. توجد أعجوبة في الصالة!

قال لها وهو يجذبها من يده:

- تعالي، بلانكيتا يا حبي أنا، تعالي وتعرفي عليه. إنه هو ويعزف (القطة الطماعة) على البيانو. تعالي سريعًا. إنه هو! إنه فاراكس!

شعرت بالقلق من مشاهدة زوجها متهيجًا بهذه الصورة وحاولت تهدئته وخفض حدة نوبته:

ـ لا تخترع أمورًا لا أساس لها من الصحة يا نيكولاس. كيف سيكون فاراكس إذا كان فاراكس موجودًا فقط في أحلامك.

ـ اسكتي يا امرأة. أنت لا تعرفين ما الذي تقولينه. تعالي. يجب أن تتعرفي على فاراكس.

* * *

وهكذا جاء ختام هذه المسرحة الهزلية، فالحياة أميرتي أجوستينا، تنصب لنا المسرح لنرقص عليه نحن الدمى على وقع اللحن الذي تعزفه لنا. ما حدث هو أن دولوريس هذه والقواد الذي كان يعذبها نصبا تمثيليتهما الإيمائية، كان عرضًا يُرثى له كثيرًا، لكن في مسألة المزاج الجنسي لا توجد قواعد مكتوبة، فهل أنتِ لا تعرفين من الذي كان يطير من فرط الحماس مع هذه الوحشية الرخيصة؟ ومن سيكون غيره إذا لم يكن "العنكبوت"! لا أعتقد أنني أبالغ حينما أقول لك أنه لم يكن هناك شيء بتاتًا منذ يوم ولادته سبق وجعله ينتشي بمثل هذه الصورة. أقسم لك بأنني شاهدته وجهه يكتسب لونًا أرجوانيا على كرسيه المتحرك وهو يصرخ في القواد:

ـ أقوى أقوى! لا مزيد من شغل البهلوانات. اعملا بجدية. اضربها برغبة حقيقية.

وحماقات أخرى من هذا القبيل، كأنه نسخة مشلولة من نيرون أسكرتها السعادة وتستحث أسودها على ارتكاب الشرور وهنا قررت

الصعود إلى مكتبي والانفصال عن هذا السيرك الروماني المصغر. تقولين، يا دميتي الجميلة، أنني قد أتحمل أي شيء من أجل ال"عنكبوت"، فلك أن تتخيلي أن مدى ابتذال ما كان يحدث، جعلني أضع حدودًا للمسألة، فقد كانت صرخات الغبطة تتخطى مستويات تحرجي، هذا دون ذكر الضحكات والمداعبات. ربما يكونوا قد عمّدوه في عباءة مُنشاة، لكنه ليس سوى فلاح ثري وفاسد، ربما كان جد جده أحد رواد حضارة وطننا، لكن أؤكد لك يا أجوستينا أنه في تلك الليلة كان يبدو كإنسان بدائي سعيد، ولأن كل شيء في هذه الحياة يلف ويدور وحينما لا تتوقع يتحول الأبيض إلى أسود والأسود إلى أبيض، فإن سعادة "العنكبوت" بدأت تتحول إلى ضيق بسبب خدع دولورويس. قال لي بصوت متهدج وهو يلهث:

- ميداس يا بني، المسألة لا تسير كما يجب بصورة كاملة. تلك المرأة محتالة بنسبة ٨٠% وممثلة بنسبة ٢٠%. كثير من التأوهات والأنين والتمثيل ودموع التماسيح، لكن الإحساس الحقيقي شبه معدوم. هذه ثمرة تدربا عليها ومارساها كثيرًا ومصداقيتها شبه معدومة.

وكيف يمكن أن أشرح لل"عنكبوت" أن هذه ليست اللحظة المناسبة لكي يصبح متطلبًا، فتلك المرأة في النهاية ليست ربنا يسوع لتترك نفسها تصلب لتحقق الخلاص الجنسي لكل المسيحيين. لكن أنتِ تعرفين ما هي المستويات الفلكية التي قد تصل إليها غرابة أطوار "العنكبوت". كان جليًا أن عطشه لمشاهدة الألم البعيد لن يهدأ بأي تمثيل إيمائي، لهذا بدأ يطالبها بمزيد من الإذعان والخنوع والتشكيك في مهنية القواد والتزامه

بدوره كجلاد، ولأن أي منهما لم يعره انتباهه فقد بدأ يلقي بالأمر عليّ. بدأ يلمح إلى كوني المسؤول عن عدم التعاقد مع عرض يمكن تصديقه، عرض حقيقي، لهذا قمت أنا بيلاطس مكاليستر بغسل يديّ من المسألة بالكامل، ففي المرة السابقة حملني "العنكبوت" مسؤولية عجزه الجنسي، وأقول عجزه الجنسي لإعطاء اسم علمي للمشكلة التي تؤثر على قضيبه الرخو، وأيًا كانت درجة خنوعي يا أجوستينا يا ملكة أحزاني، فإنني لم أكن لأترك نفسي أتدلى من الحبل مجددًا ببدلة الإعدام، لهذا صعدت وحبست نفسي داخل المكتب، أنزلت ستائر النافذة الكبيرة المطلة على الجيم لكي لا أرى شيئًا مما يحدث في الأسفل، دخنت بعض أنفاس الماريجوانا وانغمست في لعب (باكمان)، فهذا هو ما أفعله دائمًا لأحمي عقلي مما يضايقني وللابتعاد عن الواقع حينما يصبح قبيحًا، ف(باكمان) جميلتي أجوستينا هو اكتشاف القرن، فهنا لا يوجد ألم أو حب أو ندم وأفكارك ليست ملكك، وهكذا شغلت الشاشة وأوصلت لعبتي الالكترونية وجلست كمن نُوم مغناطيسيًا ولم أعد أنا من أنا عليه، بل كرة صغيرة ذات فم مفتوح ممتلئ بالأسنان يجب عليها أن تركض في متاهة لأكل قطع بسكويت تمنحها القوة اللازمة لتصفية أشباح صغيرة تقطع طريقها، وبدأت في الفوز بنقاط وارتفع تقييمي للسماء، لأنه في أي مكان تريني فيه، فأنا يا ملكتي الجميلة، بطل الكون في هذا الهراء. أقسم لك يا أجوستينا أنه على وجه هذه الأرض لم يولد العرص الذي قد يتغلب عليّ في لعبة (باكمان)، فأنا قادر على ابتلاع كل مستودع البسكويت في جلسة واحدة.

في المرات التي كان يصل لي من الأسفل خوار "العنكبوت" وهو يطالب بالدم، كنت أتصرف كأنه غير موجود. ظللت ثابتًا ومتبعًا لخطة صحية: باك باك باك وأنا أتناول البسكويت وأركض في متاهتي، لم أكن سوى مجرد كرة صغيرة تقودها رغبات مجنونة لالتهام البسكويت وكره عنيف تجاه الأشباح، وإذا تسلل لمسامعي تأوه أنثوي، كنت أتظاهر بأنني لا أسمعه: آسف يا دولورويس! لا يمكنني مساعدتك. أنت خارج شاشتي، لكن بكل تأكيد كانت أحيانًا تتأوه بقوة لأشعر بالتوتر وأفقد تركيزي لأسمح للأشباح بالقيام بواجبها وهكذا كنت أفقد المحاولات في باكمان بصورة مجنونة. لا تتعلق المسألة بكوني عاطفي، لكن ارتكبت حماقة الحديث مع دولوريس قبل العرض، صعدت بها إلى مكتبي لترتيب مسألة الدفع وتحاورنا قليلاً في أمور لم تخرج عن إطار الرسميات. حينما سلمتها المال وفوقه الإكرامية التي شكرتني عليها باسم ابنها الصغير، ارتكبت الخطأ الذي لا يمكن غفرانه: سألتها بغباء عن اسم الطفل وتبين أنه كان جون خايرو أو روي مارلون أو ويليام إرنستو، واحد من هذه الأسماء المركبة بلغتين مختلفتين، لكن الخطورة تكمن في أن هذا الطفل تسلل إلى وعيي لأن الاعتداء على الطفولة بتعذيب أم ليس أسلوبي بأي صورة. أعتقد أن هذا كان أكثر ما أقلقني.

بعدها وصل العرض العظيم إلى ذروته: مسرحية هزلية من الأسواط والخطاطيف والكرابيج والقرص وضرب المؤخرة، ثم فجأة صمت كل شيء وبدأ صوت ماكينات الجيم يتردد، صرير البكر المعدني، صوت الارتطام الحاد للبلاطات وهي تتعشق في مكانها،

رجرجة جهاز الدفع بالساقين. شعرت ببعض الراحة ظنًا مني بأن الحارسين باكو مالو وتشويو، بعدما تشبعا من السادومازوخية قررا تسخين عضلاتهما بالأجهزة وقلت لنفسي: هنيئًا لهذا الزوج المترهل من السفاحين، وسنرى إذا كان هذان الكرشان اللذان عُلفا في (ليسبلاناد) سينخفض حجمهما! شغلت لهما بعلو الصوت موسيقى ديسكو عبر السماعات المثبتة في الأعلى لكي تثير حماسهما وانغمست في لعب (باكمان) بتركيز مهووس. لا أعرف كم ساعة مرت علي هكذا، دميتي أجوستينا، أقسم لك أنني حينما ألعبها أفقد بصورة كاملة معنى الزمن، باك باك باك، أفتح وأغلق هذا الفم الكبير وألتهم البسكويت، باك باك باك، أصعد وأهبط في المتاهة مدمرًا الأشباح. كنت لأواصل فعل هذا طوال الليلة، لو لم يصعد "تشويو" إلى مكتبي ليخبرني بأن "السيد العنكبوت" يطلب حضوري للأسفل حيث وقعت مشكلة. تنهدت وأنا أوقف اللعبة في أكثر لحظة مثيرة وتسلحت بالصبر وقلت:

ـ يا مريم العذراء يا طاهرة!

فمن الذي سيتحمل "العنكبوت" وهو يتباكى ويقدم الأعذار مجددًا عن فشله الإباحي العاطفي ليطلب مني مجددًا أن أرتب له غرابة جديدة، لكن حينما وصلت للأسفل وجدته عجوزًا للغاية وسمينًا، ومشمئزًا إلى أقصى الحدود فوق كرسيه المتحرك. سألته بنبرة دونية:

ـ ما الذي حدث يا عنكبوت يا صديقي؟

ـ ما حدث هو أن المرأة، ليتغمدها الرب بمجده، أذت نفسها.

لن أخبرك حتى يا أجوستينا يا جميلة بما شعرت به، فلكي يصح التعبير، سأقصه عليك: لم أفهم في البداية ما الذي كان يقوله لي العنكبوت، لكن حينما أشار لي بإصبعه نحو نهاية الصالة، حيث تقع الأجهزة الأخرى، ففوق واحد من الأجهزة متعددة الأغراض وهو (ناوتيلوس ٤٢٠٠ سينجل ستاك جيم)، أكثر الأجهزة المحببة لي والذي اشتريته مؤخرًا، والمزود بمنصة لتمارين الصدر، ومحطة إضافية للساقين، وبار لتدريبات البطن ووثاق للكاحل وبرج جانبي وبلاطات أوزان تصل إلى ٢١٠ رطلاً، فوق جهازي هذا كانت دولوريس ترقد مفككة، كأن رقبتها قد كُسرت عبر ربطها وجذبها بقوة نحو الخلف بالكابل، كأنهم قد قطعوها إربًا إربًا، كأنهم قد لعبوا بها وحولوا جهازي (ناوتيلوس ٤٢٠٠) لمنصة للتعذيب، كأن الأمر أفلت من بين أيديهم وقتلوها.

- هل هي ميتة؟

سألت "العنكبوت" وسفاحيه الواقفين في انتظار أن أفعل شيئًا ما، وهنا فهمت السبب وراء ضوضاء الأوزان وبكر الأجهزة الذي سمعته منذ فترة، ذلك الذي جعلني أظن أن الأسوأ قد مر، في حين أن ما حدث وقتها أن الأمور كانت تسوء إلى حد الاشمئزاز.

- هل هي ميتة؟

- ماتت وشبعت من الموت. هي ميتة ميتة للأبد، لكن تحرك، ميداس يابني، لا تظل واقفًا هنا بوجه حزين فهذه ليست مراسم

سهرة على ميت، لنترك الحداد والتعازي إلى وقت لاحق، فالآن يجب علينا أن نتخلص من الجثة.

- والرجل الذي كان معها؟

- ذهب للقيام بنزهة

- لا تمزح يا "عنكبوت" قل أين هو الرجل قبل أن يصبح الوقت متأخرًا.

- سبق وقلت لك ميداس يا بني أرسلناه في نزهة لأنه لم يكن يرغب في التعاون. قبل أن تلعب معنا تلك الفتاة لعبتها السيئة، اقترحنا على رفيقها أنه من الأفضل أن يذهب لمنزله لأنه كان يرفض اللعب بغلظة، وعلى من لا يخدمك ألا يعيقك.

قالوا له أن يرحل مطمئنًا فرفيقته ستبقى في أمان:

- إرحل من هنا يا صاحب الأيدي الحريرية واترك المسألة للرجال.

فكر العنكبوت في أن مساعديه باكو مالو وتشوبو قادران على القيام بالعمل بجدية أكبر من القواد. قال لي:

- وكيف كنت سأعرف عزيزي ميداس أن هذين الاثنين سيكونا فلاحين وغليظي اليد بهذه الصورة، كما أن ذلك الجبان لم ينطق شيئًا حينما اقترحنا أن يتركنا وحدنا مع السيدة، تذمر بعض الشيء في البداية لكنه تراجع عن الدفاع عن شريكته حينما نصحه "تشوبو" بألا يلعب دور البطل وإلا فقد تدمي مؤخرته، فودعها هكذا: اعتني

بنفسك على قدر الإمكان يا جميلة، فأنا سأرحل، ثم أخرج مشطًا صغيرًا لتصفيف شعره كأنه هكذا يصلح كرامته الذكورية المبعثرة. ارتدى عباءة الساحر واختفى في ليل بوجوتا.

في تلك اللحظة كان ابن دولوريس الصغير قد بات بالفعل يتيمًا، وهي ترقد الآن مستسلمة لمصيرها، مستسلمة للموت، ربما كانت بعد كل تلك النمر الزائفة أصبحت مستعدة لنمرتها الحقيقية الأولى والأخيرة. قلت لها كأنه نعي:

- في هذه المرة كانت الأمور حقيقية.

وما تلى لاحقًا، دميتي أجوستينا، كان مسألة إجراءات صرفة ونواح فنية، إنزال الفتاة من على الجهاز، لفها في سجادة، ورؤيتها ترحل بأمر من "العنكبوت" لسفاحيه نحو المجهول داخل صندوق سيارته الـ(مرسيدس).

- لا تعودا إلى هنا إلا بعد أن تتأكدا بنسبة ١٠٠% من أن المرحومة اختفت للأبد وأنه لا أحد سيعرف شيئًا عنها حتى يوم بعث الموتى.

كانت هذه هي تعليمات "العنكبوت" الحاسمة، وحينما ابتعد السفاحين والضحية صعدت وفصلت موسيقى الديسكو التي كانت حتى ذلك الحين ترعد كأنها صخب قادم من الجحيم ونظفت بحب جهازي (ناوتيلوس ٤٢٠٠) ولمعت الحديد حتى لم يبق أثرًا، ففي النهاية هذه الآلة بريئة، ثم أغلقت أنوار الجيم وجلست في صمت على الأرض

أسفل كرسي "العنكبوت"، استندت برأسي على ركبتيه وبدأت أفكر فيكِ، يا أجوستينا يا عظيمة، فهذا هو ما أفعله حينما لا أرغب التفكير في أي شيء.

***

شعرت بالأمر بمجرد فتح باب الشقة: رائحة الغرابة اللاذعة. تغمر تلك الرائحة المنزل حينما تتصرف أجوستينا على نحو مريب، حينما تعاني من واحدة من أزماتها، وأنا تعلمت التعرف عليها ودمجها مع تعاستي التي لها نفس الرائحة. أعرف أن كل شخصي بات ينضح بهذه الرائحة. بعد أن تركت أنيتا في ميسيين، في ليلة قنبلة بالوكيماو، عدت إلى برجي سالمونا عبر الشارع ٢٦ وسمعت صافرات سيارات الإسعاف التي جعلتها سحابة دخان الكارثة الكثيف لا ترى. أعلن الراديو سقوط ٦٤ قتيلاً بجانب عدد غير محدد من الجثث بين الركام، لكن كل ما فكرت فيه هو الشظايا التي ربما تكون قد قطعت قدمي أجوستينا. بشكل إعجازي، لم تتحطم ولو واحدة من نوافذ شقتي وأدركت على الفور أن قدميها لم يحدث لهما شيء لأنه حينما وصلت كانت تتنعل حذاء، كانت متأنقة بالكاملة، وترتدي حذاء ذي كعب عالي ما أدهشني. فسرت المسألة في اللحظة الأولى كإشارة مشجعة لأنه منذ يوم الواقعة المظلمة كانت زوجتي تسير مستسلمة للإهمال فيما يتعلق بمظهرها، باستثناء لحظات قصيرة تستعيد فيها أحد درجات الوعي بوجودها الجسدي، أما بقية الوقت فيدور في فلك احتداد عالمها الباطني، فالجنون

لا ينظر إلى ما هو أبعد من أنفه. كانت تبقى طوال الليل والنهار بالبيجامة أو في أغلب الأوقات بالسترة الرياضية، لتنسى تناول الطعام والإنصات والنظر، كأنها تحتوي داخل نفسها إجمالي أفق الأحداث المتعلقة بها، لهذا أدهشتني رؤيتها مجددًا ترتدي بنطالها القاتم والمعطف وحذاء ذي كعب عالي بينما عقدت شعرها في ضفيرة، كأنها تستعد للخروج نحو الشارع، لكنها في حاجة لتنفيذ مجموعة من الأمور قبل الإقدام على المسألة، هذه الأمور هي نقل متهور للأغراض من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا، ورغمًا عن أن ما يحدث الآن ليس قلب المياه من وعاء إلى آخر، بل مجرد أحد أنواع ترتيب المنزل الذي لم أعثر فيه على منطق محسوس، إلا أنه كان يتطلب كل تركيزها وطاقتها. من لم يحيا مع مصاب بالهذيان ليس لديه أي فكرة عن كم الطاقة الهائلة التي قد ينشرها وكمية حركاته في الثانية الواحدة.

بأمر من ابنة أختها كانت الخالة صوفي تقف في أحد زوايا الصالة دون أن تتجرأ على الحركة ففي كل مرة حاولت فيها، كانت أجوستينا تدخل في حالة هياج وتمنعها. أرغمتني أيضًا على الوقوف ساكنًا حيث كنت وأرست قواعد طقوس جديدة لم يفهمها أي منا، كأنه تجلي أصلي للخرف يرتكز على ممارسة سلطة متصلبة على هذه الأراضي، نحن نقطن هذا الجانب، أما أجوستينا ففي الجانب الآخر وهي متأهبة كفرد شرطة عسكرية، كموظف بالجمارك لكي لا يعبر أحد هذه الحدود الخيالية أو سور برلين هذا أو خط ماجينو ذلك، والذي لم يعرف أحد حتى لماذا رُسم فكانت تقف قبل أن تعلن فجأة وهي تصرخ فيّ:

- أبي سيزورني. أبي حذرني من أنه إذا كنتم في منزلي، فسيلغي الزيارة لأنه لا يرغب في رؤيتكم هنا. ابقيا هناك، في منزل أبناء العاهرة، أما هنا فهو منزلي. للخلف يا أستاذ، للخلف يا أستاذ.

***

في هذه الأثناء كنت أفكر فيك، فهذا هو ما أفعله حينما لا أرغب في التفكير في شيء، لنقل أنه يستهويني الملمس الذي تكتسبينه في الذكرى، ناعم وحريري، بلا مسؤوليات أو تأنيب، هو شيء مثل مداعبة شعرك، اللذة الدائمة لمداعبة شعرك، طالما كان يمكن القيام بهذا الأمر بلا عواقب. فرض علينا الرب لعبة سيئة وهي تلك التي يقودك فيها أمر نحو الآخر حتى تتشكل سلسلة شيطانية لا تتوقف، أقسم لك أن الجحيم يجب أن يكون مكانًا تحبسين فيه مع تبعات أفعالك فيصبح المرء مجبرًا على التعامل معها. لهذا أرغب في تذكرك كما رأيتك في المرات الأولى التي دعاني فيها أخوك خواكو بعد المدرسة لمنزله وهناك ظهرتِ أنت وكان الأمر كأن الهواء قد تجمد، كنت دمية لم أر لها مثيلاً قط، كنت لعبة فخمة في أغلى متجر، أخت صديقي الثري فائقة الجمال، ربما لهذا السبب قررت منذ ذلك الحين أن تتصرفي كمجنونة لإجبارنا على الاعتراف بأنك من شحم ولحم وقبولك بكل تبعاتك.

في الوقت الذي كان فيه شقيقك خواكو أحد هؤلاء الأشخاص الذين لم يضطروا قط لارتداء ملابس ورثوها من أشقائهم، فإن بروفايلي من جانب آخر، هو الآن لشخص بات قادرًا على التأنق مثله، مثل

خواكو لوندونيو ولديه كل ما يتيح له ذلك، لكنه لا يفعلها، طفلتي أجوستينا، لأنني أمنح نفسي رفاهية إظهار أسلوبي الخاص، فأنا ظاهرة أصلية في مسألة التفوق الذاتي، أنا نمر في مسألة الاعتماد على الذات، لكن أحمل دائمًا فوق ظهري عار تقديم نفسي في اليوم الأول بمدرسة (الليسيه) للبنين بصورة خاطئة، وهذا رغم أنني اجتهدت، أو بالأخص كانت أمي الجميلة هي من اجتهدت فقد اشترت لي كل شيء جديد، وصففت شعري قدر استطاعتها وأرسلتني للمدرسة ببشرة لامعة بعد غسلي بالليفة والصابون، لكن هربت منها تفاصيل صغيرة، ففي النهاية كيف لم تكن لتهرب منها مثل هذه التفاصيل، إذا كانت أرملة وصلت مؤخرًا للعاصمة بما يكفي بالكاد لحفظ كرامتها! وهو ما يشرح بصورة تامة الأخطاء المتعددة التي ارتكبتها مع شخصي وفي مسألة تقديمي باليوم الأول الحاسم من الدراسة، ومنها على سبيل المثال الحقيبة الجلدية الجديدة وسترة الصوف الخضراء التي حاكتها بيديها والسروال الصوفي الخشن، لكن بين هذا الكم من الحماقات، جميلتي أجوستينا، كانت هناك حماقة واحدة قاتلة وهي الجورب الأبيض، لأنه مع هتاف "جورب أبيض وسروال داكن هو مخنث رسمي"، انقض عليّ شقيقك خواكو، أمير القطيع وانهال علي بالضرب في علقة رهيبة، لا زلت أشكره عليها حتى يومنا هذا لأن تلك الصفعات نزعت لمرة واحدة وأخيرة من على شخصي هيئة الريفي يتيم الأب. في هذا المساء سرقت نقود أمي من حقيبتها لشراء مجموعة من الجوارب الداكنة وبنطال جينز أزرق، ثم جعلتها تبكي وأنا أخبرها بأن تنسى مسألة حياكة المزيد من السترات الصوفية لأنني لن

أرتديها، وبمجرد التعافي من علقة خواكو سقطت فوقه و"كسرت أمه"، حقًا كان هذا هو ما فعلته، لدرجة أنهم اضطروا لتجبيره، وهكذا تعادلنا ومنذ ذلك الحين قررت تقليد صديقي خواكو في كل ما يفعله، التجسس على كل واحدة من تحركاته، لأنه في مدرسة (الليسيه) للبنين يا أميرتي الجمية الشاحبة، لم أتعلم الجبر ولم أستكشف حساب المثلثات أو أدرك عن أي شيء يتحدث الأدب ولم يحدث حتى أي لقاء بيني أنا والكيمياء، تعلمت في مدرسة (الليسيه) للبنين السير مثل أخيك، والأكل مثله، والنظر مثله، والحديث مثله، وازدراء الأساتذة لكونهم من طبقة اجتماعية أقل، وعلى نطاق أوسع، الإسراف في الازدراء كسلاح فائق لفرض السيطرة، ومن سوى خواكو كان ليصبح ضوئي ومرشدي إذا كان أبي مجرد شاهد قبر أضع أنا وأمي زهور القرنفل عليه كل عام في يوم الموتى، بينما أهداه أبوه سيارة (رينو٩) على الـ"زيرو" بنظام صوت هائل حينما كنا مجرد فتية في السنة الرابعة بالثانوية. في سيارته الـ(رينو) الجديدة كليًا انفتحت أذناي على معجزة " meesees braun yugotta lobleedotta" لـ"German Germits"، وكم أعجبنا بخواكو! فقد كان هو الوحيد القادر على نطق (Herman´s Hermits) وغناء أغنية " Mrs Brown you´ve got a lovely daughter". كانت كل الأمور تتمحور حول الانبهار والاكتشاف كلما سمح لي خواكو بالاقتراب من عالمه.

كنا ننطلق بكل سرعة في سيارة (رينو ٩)، نطير لنتخطى الحواجز والإشارات الحمراء ونتباهي كذكور مسيطرين ونلقي بالعملات على عاهرات النواصي ثم نركن السيارة أمام (كريم إيلادو) مشعثي الشعر

ومنتصرين كزمرة من أكلي لحوم البشر لنطلب ال"هوت دوج" ومشروبات الشعير. كيف كنت لأعرف أنا المنتقل حديثًا من الريف والمقيم في شقة داخلية بحي سان لويس برتراند المحترم الذي تشكل حول كنيسة قديسه الحامي.. كيف كنت سأعرف يا أجوستينا أنه في هذه الحياة يوجد اختراع رائع اسمه مشروب الشعير بالفانيليا وأنه يمكنك طلبه عبر الميكروفون ليحضروه لك في السيارة؟ الألبومات التي كانوا يجلبونها له من نيويورك لخواكو والرائحة الجديدة لسيارته (رينو٩) وهذه الحرية الذهبية لأطفال يقودون دون رخصة على طريق الشمال السريع، كل هذه الأمور كانت كثيرة عليّ وجعلت قلبي يدق بحدة مجهولة ومتوحشة وظللت أكرر جملة واحدة لنفسي: كل هذا يجب أن يكون ملكي، يومًا ما سيكون ملكي، كل هذا ملكي، كل هذا! كانوا يغنون (Yesterdei) للـ(Bicles) و(Sauns of Sailens) لـ(Saimonan Garfinquel) ويلعنون (Saimonan) لأنه سرق هذه الأغنية من هنود أمريكا اللاتينية، لتنتهي المسألة بالانفجار النهائي والمطلق، أورجازم الكون بأغنية (Satisfacchon) لـ(Rolin) وعبارة (!Aicanguet-no! Satisfachon). باتت هذه العبارة هي هتاف معاركي، أمنيتي، شعاري، عقيدتي هي (Anaitrai)، سري هو (Anaitrai)، قسمي هو (Anaitrai)..

- هيا يا خواكو قل لي ما هو معنى (Anaitrai)؟.

يا لها من كلمة ملعونة شديدة القوة والاستثنائية، لكنه كان يعي جيدًا الأفضلية التي كان يمنحها له تفوقه في الإنجليزية علينا، وكان يستمتع بتركي معلقًا بين رغباتي.

- معناها هو معناها.

هكذا كان يجيبني قبل أن يغني وحده بلكنته المثالية " I can´t get no satisfaction ´cause I try, and I try, and I try".

وحينها كنت أعاند لأسأل مجددًا وأنا أموت تقريبًا:

- هيا يا رجل. لا تكن لئيمًا قل لي ما هو معنى (Anaitrai)؟ ما هو معنى (Aicanguet-no) وإلا كسرت لك فمك![17]

لكنه لم يكن لينًا، فقد كان يعرف تحديدًا كيف يجب أن يجيب ليضعني في مكاني:

- لا تصر يا مكاليستر، فوحدهم من يجب أن يفهموها سيفهمونها.

كنت أبتكر بكل تأكيد حيلي البائسة الخاصة لتحقيق النجاة الاجتماعية، مثل تلك المرة التي اكتشفت فيها بين ملابس والدي القديمة، قميصًا من ماركة (لاكوست). كان مهترئًا وباهتًا وأهلك من كثرة الاستخدام وواسعًا للغاية بالنسبة لمقاسي، لكن كل هذا لا يهم، فلم يكن هناك شيء قادر على تلطيخ مجد اكتشافي، وبمقص الأظافر شرعت أنزع شعار السحلية الكبيرة. ومنذ تلك اللحظة بدأت مهمة حياكته يوميًا في القميص الذي سأرتديه. تضحكين ملكتي أجوستينا؟ أنا أيضًا أضحك، لكن لا يمكنك أن تشكي إلى أي درجة ساعدني إظهار

---

(١٧) يسخر ميداس مكاليستر هنا من طريقة نطقه السابقة للإنجليزية، وهكذا مثلا فإن أغنية (yesterdei) لـ(Bicles) هي "Yesterday" للـ"بيتلز" و(sauns of sailens) لـ Saimonan Garfinquel) هي أغنية "Sons of silence" لـ"سايمون أند جارفونكيل" و(Satisfachon) لـ(Rollin) هي (Satisfaction) لـ"رولينج ستونز" و(Anatrai) هي "and I try".

سحلية (لاكوست) على صدري في ثقتي بنفسي ووصولي إلى الرجل الذي أنا عليه اليوم.

عبر عملية تجسسي المنهجية على عالمك تمكنت من إدراك امتلاكي لمهارة خاصة ليست لدى شقيقك خواكو، ولنقل أنه بين منزلك ومدرسة (الليسيه) للبنين انكشف لي التناقض العظيم، فأنا الريفي الحقير، ابن الأم ذات الخفين والقاطن في الشقة الصغيرة بحي سان لويس برتراند بمفرش الكروشيه الموجود فوق تلفازها. كنت أعرف كيف أصنع النقود، يا أميرتي، بنفس السهولة التي أتنفس بها، أما شقيقك خواكو، ابن الأغنياء، حفيد الأغنياء والذي تربي على وفرة كل شيء، فكانت معطوبة عنده، وتمثلت ألمعيتي في تفهم أن كل من هم على شاكلة خواكو في هذا العالم لن يملكوا سوى ما يرثونه فقط، فالناس لا تقول مثل "جد الجد بغّال، والجد عال العال، والابن سايرة معاه الأحوال، والحفيد يشحت بالعيال" من فراغ، بمعنى آخر، تلك الحلقة الحلزونية قائمة على التدهور البطيء، ملكتي أجوستينا، حيث يبدأ سطوع الماضي في فقدان بريقه دون أن يدرك أحد الأمر، حيث تتآكل الثروة الأصلية ولا يتبقى منها سوى الإيماءات، الأبهة، الشعور بالتفوق، التظاهر بالعظمة وسحلية قميص (لاكوست) ليراها الجميع على صدر القميص.

أنا على النقيض، ذلك الذي بدأ من العدم، كنت أكتسب هبة يا أجوستينا يا حياتي، هبة ولدت من الاحتياج والغم، وهي هبة صناعة النقود برنينها الجميل، لكن كان ينقصني أخطر شيء، جميلتي

أجوستينا، أهم شيء حقًا وسط هذه التفاصيل ذات الأهمية المنخفضة، وهو الوصول إلى منزل صديقي خواكو لأجدك هناك تقومين بحل الواجبات مع أمك، لأنه حينها خرجت من أعمق أعماقي تنهيدة الحقيقة، التي كسرت صدري.

- اه يا سيدة لوندونيو yugotta lobleedotta.

لأنه عامًا تلو الآخر بينما تكبرين بجانبنا كنتِ بعيدة، كنتِ أنت هناك أجوستينا يا حبيبتي. أخت خواكو، أكثر النجوم بعدًا وأكثرها غرابة، شديدة النحافة، شديدة البياض، تائهة دائمًا داخل عقلك كمن يختبئ بين كراكيب سقيفته، كنتِ أنتِ الميدالية الذهبية، الجائزة الكبرى المحفوظة للأفضل بين الجميع، الجائزة الوحيدة التي لم يكن شقيقك خواكو يقدر على انتزاعها منا، ربما كان الأكثر ثراءً وصاحب أعلى درجات ومن يرتدي ملابس الماركات، ربما كان نجم نجوم التنس والتزلج على الماء، من يقضي كل ربيع في باريس، وصاحب اللون البرونزي الذي لا يزول، لكن كان هناك شيء وحيد حُرّم على شقيقك خواكو دخوله، وهذا الشيء الوحيد هو أنتِ يا أجوستينا. كانت المرة الثانية التي شاهدتك فيها هي بغرفة الطعام بمنزلك في لاكابريرا، كان يبدو لي كقصر للسلاطين، قصر لدوقي ويندسور، وكنت أنت هناك تصنعين أبراجك الصغيرة من بسكويت الزبد والمربى، وأنا وخواكو على أحد طرفي المائدة، أنت وحيدة أسفل الثريا الكريستالية الكبيرة على الطرف الآخر، منهمكة بصناعة أبراج البسكويت، كنتِ شديدة الصغر، شديدة الشفافية، بعينيك السودواتين هائلتي الاتساع وشعرك

الأسود الطويل إلى حد الجنون، إلي أين كان يصل شعرك، طفلتي أجوستينا! أعتقد أنه حينها كان يصل إلى الأرض تقريبًا، حينما تمكنت في النهاية من نزع عينيّ من عليك، نظرت حولي وفهمت أن هذه الحجرة تحتوي على كل عناصر سعادتي، ما أرغب في قوله لك أنه في هذه اللحظة كانت هناك طقطقة داخل رأسي وعرفت أن كل ما يجب عليّ تحقيقه لكي أصبح سعيدًا موجود هنا، تلك الأسقف شديدة الارتفاع كأنها تأوي جبابرة وليس بشرًا، تلك الثريا الكريستالية التي كانت انعكاساتها تتراقص كقوس قزح مقسم إلى ألف قطعة فوق مفرش الطاولة، تلك المزهريات العامرة بالورود والتي كان يبدو أن حديقة كاملة قد قُطفت من أجل ملئها، إناء البورسلين الذي يبدو رقيقًا كقشرة بيض، أدوات المائدة الثقيلة التي لم يكن هناك أي شيء يربطها بتلك الأغراض السخيفة والخفيفة التي كنا نطلق عليها في سان لويس أدوات المائدة.

- إنها من الفضة!

صرختي فيّ من الطرف الآخر من المائدة وهذا كان أول شيء تقوليه لي في هذه الحياة من فمك، وهنا عرفت أيضا أنه يجب علي أن أحصل على فمك، فمك ذو الشفاه الرقيقة والأسنان المثالية. دعيني أخبرك أنه في الحقيقة، في ذلك اليوم تبينت عدة أشياء لا يفترض أن يفهمها طفل عمره ١٢ أو ١٣ عامًا، فمثلاً لاحظت بعناية مسألة الأسنان، لأن أسنانك كأسنان شقيقك كانت مثالية بفضل التقويم، وفي نفس المساء وأنا أتفقد حمامات منزلك وأتحقق من ماهية المادة التي صُنع

بها هذا العالم المختلف عن عالمي والذي كان يغريني إلى درجة الجنون، أدركت أنكِ أنتِ وعائلتك لا تغسلون أسنانكم بفرشاة الأسنان مثل بقية الفانين، بل بجهاز أمريكي تدعونه (ووتر بيك)، وهكذا أخذت قرار التزمت به حرفيًا، جمع النقود ببيع صورة شقراوات مكتنزات في المدرسة، لكي أشتري أولاً جهاز (ووتر بيك)، وثانيًا لإجراء علاج لتقويم الأسنان. انظري كيف هو عالمنا، أميرتي أجوستينا، أدين في مسألة النمو المبكر لذكائي لتفهمي في سن صغير أنه بالأسنان الصفراء والمعووجة والمحطمة، لا يمكن الوصول لأي مكان، أما ابتسامة مثالية مثل أطفال لوندونيو، ومثل تلك التي حققتها لاحقًا، فهي مفيدة للغاية، ربما أكثر من الشهادة الجامعية. بكل تأكيد كانت مسألة الطعام الذي تقدمه الخادمتين، وكل منهما ترتدي ملابسها كما يجب- كخادمة- كاشفة بالنسبة لي. كانا يقدمانه في ذلك الإناء الرقيق كقشرة بيض فوق تلك المائدة التي تتسع لـ١٢ شخصًا والموجودة في منزل والدك، وهي نفس المائدة التي- دعيني أخبرك- أن لدي واحدة مطابقة لها في شقتي الحالية. كنت أقول لكِ إن هذا الطعام، سواء الشوكولاتة مع الكعك المصنوع من دقيق الذرة، أو ملفوف الموخاباناس، أو بسكويت القشطة، كان بالضبط هو نفس ذلك الذي تقدمه لي أمي في صينية (ميلماك) البلاستيكية التي لا تُدمر في صالة-غرفة طعامنا في سان لويس برتراند. هذا التفصيل بدا لي طريفًا، ملكتي أجوستينا، بدا لي طريفًا مسألة أن تقولوا "تناول الشاي" بينما نقول نحن "كوباية شاي تحبس". تقدم العائلتان في الخامسة مساء نفس المعجنات المصنوعة من الدقيق

بالطريقة الريفية، ملفوف الموخاباناس في سان لويس برتراند وأيضًا في ذلك الحي الراقي في بوجوتا، ومن هنا استنتجت أن الفجوة التي لا يمكن إقامة جسر فوقها بين عالمك وعالمي تتعلق فقط بالمظاهر والبريق الخارجي. أضحكتني المسألة وشجعتني على بدء الكفاح، قلت لنفسي في ذلك اليوم: إذا كانت المشكلة تتعلق بالتغليف- سبق وأخبرتك أن عمري كان حينها ١٣ عامًا- فأنا قادر على إنشاء الجسر المطلوب فوق هذه الفجوة، وبالفعل حينما أكملت عامي الثلاثين كنت قد صنعت ذلك الجسر وأصبح فمك ملكي، وبالمثل ثريتين متطابقتين من ماركة (باكاغا) وغرفة طعام تتسع لـ١٢ فردًا لم تُستخدم بعد، و٢٤ مجموعة من أطقم المائدة الفضية وابتسامة خالية من العيوب، ورغمًا عن كل هذا، انظري إلي اليوم، بعدما بت طيفًا لذاتي، مهزومًا بسبب إدراكي الخاطئ، ففي النهاية لا يمكن انتظار الكثير من ذكاء طفل ارتكز على تخمين أن الفارق يتعلق فقط بمسألة المظهر، فهذا لم يكن صحيحًا. لم يكن صحيحًا بكل تأكيد، وها أنا ذا أدفع ثمن خطيئتي بالدم.

* * *

لا زال بدني يقشعر كلما تذكرت واقعة الخط الفاصل لأنه ربما لم يسبق وأن نبذتني زوجتي حتى في أحلك اللحظات بكل هذه الضراوة، وهي تجز على أسنانها ودوامة من الغضب تتراقص في عينيها. كانت أجوستينا تأمرني أن أبقى بعيدًا عن هذا الخط. كنت أفعل كل ما في وسعي لأطيعها لعلها تهدأ، لكن الفاصل الجغرافي الذي فرضته كان

متحركًا، ما صعب الأمور بصورة أكبر، بمعنى أخر كان يتنقل من هنا إلى هناك وفقًا لنزواتها الهائمة، ولهذا كانت مسألة عدم الوقوع في الخطأ مستحيلة. في إحدى اللحظات جلست فوق أحد مقاعد غرفة الطعام، والذي كان- ليزداد الأمر غرابة- في جانبي، لكن أجوستينا سارعت بضمه لجزيرة أراضيها الخاصة، أعلنت غرفة الطعام من ضمن أملاكها. أخرجتني من هناك بخشونة وقالت لي:

- إذا حاولت التقدم خطوة أخرى نحو أي جانب فسأهاجمك كحيوان مفترس. اخرج من هنا يا ابن العاهرة. أبي لا يرغب في رؤيتك حتى ولو في لوحة مرسومة، وأنت أيضًا أيتها الخنزيرة الصامتة.

قالتها للمسكينة الخالة صوفي، التي كان تقطب جبينها كإشارة على الشعور بالذنب والغم والإنهاك لأقصى درجة، فهذه المرأة التي لم تظهر حتى الآن سوى كل ثبات وقوة معنوياتها، باتت مثبطة العزيمة أمام الفوعة الاستثنائية لهذه النوبة، فهي منذ وجودها في منزلنا لم تحضر شيئًا مشابهًا ولقول الحقيقة فأنا أيضًا مثلها. فما يحدث حينها كان كبيرًا للغاية.

- اذهبا للقيام بالهراء الذي يخصكما في أي مكان آخر أيها الخنزيران المقرفان.

كانت أجوستينا هائجة للغاية ومن شدة بذاءاتها كان لا يمكن اعتبارها كمجرد بذاءات، فكانت قائمة على المغالاة الصرفة في استخدام اللغة. لا بد أنها كانت تشعر بحاجة ملحة وهائلة لطردنا من

منزلها، لا بد أن وجود أو وصول أو عودة أبيها كان حدثًا يفطر قلبها ويقسم كينونة وجودها، من جانب مع أبيها، وفي الآخر مع البقية التافهة من الفانين.

راقبتها وأنا أرغب في خبط رأسي بالحائط حينما فكرت في كل الأسئلة التي لم أسألها لها عن السيد كارلوس بيثينتي لوندونيو، والذي رغمًا عن موته منذ عدة سنوات فهو الآن الضيف الغامض الذي يترصدنا، من يطردني من منزلي ويبعدني عن زوجتي. هذا الرجل هو التجسيد الحي لكل ما أبغضه، لكنه على النقيض بالنسبة لأجوستينا هدف لعشق غير مفهوم، عشق شبه ديني، أو ديني دون كلمة شبه. أصعب شيء كان مراقبة السيطرة التي يفرضها السيد لوندونيو على ابنته، لدرجة أنني فكرت في كلمة "الاستحواذ"، والتي لم تشكل أبدًا جزءاً من قاموسي، لأنها تنتمي لمملكة اللا معقول التي لا تهمني بأي صورة، لكن رغمًا عن هذا كانت تلك الكلمة وليس أي كلمة أخرى تسير جيئة وذهابًا في رأسي. عجزت عن تجنب الشعور بها تجري في عروقي كثلج سائل، أتحدث عن قناعتي بأن زوجتي كانت تقع تحت وطأة استحواذ رغبة أبيها. كان ازدواج شخصيتها جليًا لدرجة أنه كان يصعُب عليّ وضع عقلي في مكانه وعدم نسيان أن عقل زوجتي المريض هو ما كان يستحوذ على الرغبة المفترضة لوالدها وليس العكس. دائمًا ما راودني شعور أنه أثناء أزماتها، فإن زوجتي تمر بمناطق عزلة مُهلكة، كأنها تجد نفسها بصورة موحشة وحيدة على مسرح بينما أشاهد أداءها من على مقعد محاطًا بباقي أبناء الجنس البشري، لكن رغمًا عن هذا

فإن الوحيد هذه المرة كان أنا، بينما كانت هي تحظى بالصحبة، صحبة قوى أعلى منها وهي رغبة المرحوم أبيها. كانت أجوستينا تتحدث بلا توقف عن أبيها وزيارته المقبلة وهي تنطق الكلمات بسرعة جعلت فهمها مستحيلة، وهذا أيضًا لأنها كانت في أغلب الوقت تتحدث نحو الداخل، تمتص عباراتها كأنها تجمعها من الهواء لتبلعها بدلاً من إخراجها من داخلها.

- أجوستينا يا حبي، لا تبلعي الكلمات فقد تصيبك بالاختناق.

لكن صوتي لم يصل لها، كل ما يخصنا كان هو الغرابة والبعد، كنا حيوانين منهكين لا ينجح أي منهما في الاقتراب من الآخر رغمًا عن تواجدنا في نفس الكهف، بينما كانت المدينة في الأسفل تتحسس الصمت، منحنية ومكسورة، كأن رعب تلك الليلة قد حطمها لتصبح الآن في انتظار بداية الكارثة المقبلة.

- أجوستينا يا حياتي، دعينا لا نسمح للجنون، الصديق القديم، بأن يقضي على أي مكمن للسعادة.

لكن أجوستينا لم تسمع، ففي تلك الليلة كانت هي والجنون كيانًا واحدًا.

- زوجتي مجنونة.

اعترفت لنفسي لأول مرة في تلك الليلة، لكن رغمًا عن هذا فإن هذه الفكرة لم تنجح في إقناعي، فهذا ليس صحيحًا، لأنه يا أجوستينا

يا حياتي فخلف جنونك لا تزالين أنت هناك، رغمًا عن أي شيء لا تزالين أنت، وربما أيضًا في النهاية أنا لا أزال أنا. هل تتذكريني يا أجوستينا؟ هل تتذكرين نفسك؟

لم أخش أبدًا من أن تؤذيني بدنيًّا، لن تنجح في هذا وأنا أطول منها بعشر سنتيمترات وأثقل منها في الوزن والحجم بمقدار الضعف، ورغمًا عن هذا ففي تلك الليلة كان الخوف قائمًا، فكل شيء في تصرفاتها كان يُظهر رغبة في الاعتداء والإيذاء، طريقتها في الإمساك بالأشياء أو استعمالها كانت تنم عن نية بل وربما حاجة ملحة لضربنا بها. آخر شيء كنت أرغب فيه في هذه الحياة هو الدخول في شجار وضرب المرأة التي أعشقها وأنا أعرف أن الأمور ستنتهي بأذيتي لها، لكنها رغمًا عن هذا كانت تفعل كل ما في وسعها لتسريع الوصول إلى اشتباك من هذا النوع، كانت تبحث بكل السبل الممكنة عن تفريغ حاسم لا يمكن التراجع عنه لشحنة من العنف البدني تنهي قراري بعدم الاعتداء عليها أيًا كان الوضع، بدا الأمر كأنها اعتزمت هزيمة إصراري على الحفاظ على تعايشنا السلمي رغمًا عن كل شيء، كأنها تصر على تجريدي من حبي الأبدي لها ، ذلك الحب الذي يسمح لي بصورة منهجية بالتغاضي عن كل استفزازاتها، ربما كانت أجوستينا تعتقد أن هذا هو السبيل الوحيد للتخلص من العقبة الرئيسية أمام وصول أبيها. أنا كنت هذه العقبة. من هو السيد لوندونيو؟ ما هو علاقته بابنته؟ ومن أين جاءت سلطته عليها؟ ما الذي كنت لأمنحه لمعرفة الأمر!

حينما عدت إلى الشقة في تلك الليلة بجائزتي الحزينة في يدي، هذا الدليل القاطع على هزيمتي وهو الحقيبة التي أخذتها أجوستينا معها إلى فندق (ويلنجتون)، وصلت مهووسًا بهذا الرجل الذي قضت معه ليلة، أو ليلة واحدة من الليالي التي أعلم بأمرها، الرب وحده يعرف كم من ليالي قد كانت! وضعت الحقيبة في أكثر نقطة واضحة فوق مائدة غرفة الطعام لكي تراها فجأة، كنت في حاجة لمعرفة رد فعلها ورؤية إذا كانت قادرة على النظر في عينيّ، لكن ما فعلته كان إلقائها نحوي بغضب وهي تسأل:

- من ترك قطعة الخراء هذه هنا؟

نست الموضوع بعدها فورًا. كان الهذيان الذي يُنتجه داخلها وصول أبيها الوشيك يجعلها مُفرطة الحركة. بدت كأنها تشع نورًا من فرط الحمى، وبدأت أنا أدرك أنه حتى ولو كانت قصة العشيق هذه صحيحة، وحتى ولو كانت أجوستينا قد حظت بمئة عشيق آخر من وراء ظهري، فإن الخصم الحقيقي، ذلك الذي لا يمكن تدميره، والراسي في أعمق أعماق اختلالها وربما حبها هو شبح أبيها الذي لا يمكنني حتى تشكيل فكرة مبهمة عنه، بعيدًا عن التصور المسبق الكاريكاتيري الموجود لديّ عنه كرجل إقطاعي من سانتا فيه دي بوجوتا. هذا الرجل يتفوق عليّ بهذه الأفضلية، أفضلية أن يكون مجهولاً مطلقًا. تذكرت وأنا حبيس جدار الرفض الذي نصبته زوجتي، تلك السيرة الذاتية المجنونة التي سعت ذات مرة لأن أساعدها في كتابتها ولم تصل حتى لصفحتها الأولى. بت مقتنعًا الآن بأنها في الحقيقة كانت

تترجى للحصول على المساعدة، وفي حاجة لمراجعة أحداث حياتها مع أحد للعثور على معنى لها، ولتضع أباها وأمها في مكانهما الصحيح بإخراجهما من داخلها، حيث يعذبانها، لكي تفرغ كل ما يخصهما في عدة صفحات من الورق، لكن حينها كيف كنت لأعرف كل هذا! ففي الحقيقة بدا لي أن فكرة السيرة الذاتية الحمقاء واحدة من ضربات عصي العميان التي تقوم بها يمينًا ويسارًا لأنها بكل بساطة تنقصها الرغبة لفتح عينيها ومعرفة أين تسير على أرض الواقع. حدث حينها أنه بعدما قدموني لها في نادي السينما، ألقيت عليها الوداع متأثرًا بجمالها، والذي لكي أقول الحقيقة ضربني كصاعقة، لكن كما يقولون إن الصاعقة تبهرك ثم تختفي لاحقًا، أو بمعنى آخر أنها لم تترك داخلي أي ترقب لانتظار نسخة ثانية منذ ذلك اللقاء الأول. كنت واثقًا من أن تلك الفتاة الغريبة والثرية والجميلة مثل واحدة من النجوم الهاربة التي تمر في طريقك ثم تتجاهلك، لهذا كان اندهاشي هائلاً حينما عثرت على في مكتبي بالجامعة على خطاب مذيل بتوقيعها.

***

تقول أجوستينا: أمرني أبي بالعودة قبل منتصف الليل، ولم أرغب في التأخر ولو دقيقة واحدة، يجب أن ألتزم بالأوامر مثل سندريلا، وبالأخص في هذه الحالة لأنها تأتي من أبي. هذه هي رغبته، سمحت لي طيبته بالخروج مع الفتي صاحب السيارة ال(فولكسفاجن) بشرط أن أعود قبل منتصف الليل. حينما وضعت المفتاح في القفل لأدخل للمنزل في الموعد المحدد، كان هو هناك، أبي، متأهبًا ويقظًا في انتظاري على كرسي الصالون.

- أهذا أنت يا أبي؟

وفي الظلام رن صوته العميق وهو ينفث دخان البايب:

- مع من أتيت في هذه السيارة؟

- وحيدة مع الفتى الذي أقلني.

انفجر أبي غضبًا:

- أبدًا، لا تأتي أبدًا وحيدة في سيارة مع أي فتى لأنني لا أسمح لك بهذا.

تفاجأت هي من أن صوت أبيها كان هائجًا ومضطربًا بهذه الصورة، فأنا لم أفعل أبدًا شيئًا قد يثير قلقه. ربما أكون قد عصيته في السنوات السابقة، ربما كنت فظة أو طالبة سيئة، ومقابل كل هذا كنت

أحصل على تأنيب حاد منه، لكن لا شيء مثل هذا. حتى هذه الليلة كان أبي بعيدًا عنا، فحتى وهو يؤنبني كان يفعلها وكأنه غائب وفجأة أصبح كافيًا أن أفعل ما فعلته لكي أحصل على اهتمام وغيرة أبي، لأجعله يهتز، لكي لا يتوقف عن التفكير في أي شيء سوى خروجي ليلاً والتزامي التام بتنفيذ أوامره.

- معنى وصولك متأخرة أنك لا تحترميني.
- أنا أحترمك يا أبي، إذا كان هذا هو شرطك، فسألتزم به للأبد. أتيت في منتصف الليل يا أبي كما أمرت.
- لكنك أتيت وحيدة في سيارة مع هذا الفتى، لتكن المرة الأخيرة.

وبعدها استلقت أجوستينا على فراشها ولم تتوقف عن التساؤل إذا كان أبيها قد خمن ما جرى؛ أن فتى الـ(فولكسفاجن) دعاني للسينما حقًا، لكن لم يصطحبني إليها، وأننا ظللنا نتحدث دون أن نخرج من السيارة بينما نأكل الهوت دوج عند (كريم إيلادو) حتى أخرج من بنطاله "الشمعة البيضاء الكبرى". أجوستينا لم تراها في ظلمة الشارع الخاوي، لم تنظر إليها بعينيها التي رفضت رؤيتها، لكنها رأتها بيدها وعرفت أنها ضخمة وقوامها مثل الشمع، ثم تركتها لكي تصل إلى المنزل عند منتصف الليل كما وعدت أبيها، وهناك وجدته ينتظرني في عتمة الصالة حيث تشتعل شكوكه ومعها بريق البايب. أجوستينا تفكر إلى حد الجنون في أنه لم يحدث أبدًا أن انتظرها، لم يحدث أبدًا أن خاطبها بنبرة مضطربة:

- لماذا كنت وحدك مع هذا الفتى، إذا كنت قد أخبرتك أن تخرجا في صحبة.

- أوصلني فقط يا أبي.

هي لم ترغب في الاعتراف له بأنها تعرفت عليها، تساءلت إذا كانت لديه هو الآخر، وأنها هي "عصا القيادة" العظيمة التي يمتلكها، وبعدها وأنا في فراشي لم أتمكن من النوم، ما كان يبقيني يقظة لم تكن السيارة أو الليلة أو أول موعد دون صحبة، ولا حتى ما خرج من بنطال الفتي وكان قوامه مثل الشمع، بل معرفة أن أبي ظل ينتظرني حتى وقت متأخر. أجوستينا تقول إنه لم يسبق أبدًا أبدًا قبلها أن ظل مستيقظًا ومعلقًا بوصولها. حينما عادوا لدعوتي مجددًا للسينما واقفت لأنني عرفت أن هذا سيقلق ويؤرق أبي، فأجوستينا هذه المرة لن تصل في الثانية عشر بالضبط بل بعدها بقليل لدفع قلق أبيها عدة سنتيمترات للأمام، ستتحدى غضبه، لكن قليلاً فقط، وليس بالصورة الكافية لكي يضربها، قليلاً فقط لكي تتحقق من أن ما ظنت أنها لاحظته للمرة الأولى كان حقيقيًا، أنها إذا خرجت ليلاً مع فتى فإن الأب لا يمكنه تجاهلها، وهكذا تعلمت أجوستينا أخيرًا القيام بشيء يشغل اهتمام أبيها، وفي تلك المرة الثانية مع الفتى الآخر، الذي اصطحبها بالفعل إلى السينما، طلبت منه أجوستينا أن يتركها تلمس "الشمعة الكبرى"، وتركني بالفعل وهذه المرة كانت تشتعل، لم يكن قوامها شمعي بل اشتعلت وأحرقت راحة يدي، وعادت أجوستينا للمنزل وهي تعرف أن أبيها، الذي ربما خمن ما فعلته، سيكون هناك في انتظارها، على

حافة الانفجار من الغضب، لكنه في النهاية لن ينفجر لأنه عاجز عن تجريمها، بإمكانه فقط أن يموت مُعذبًا من الشك في أنها ربما قد تكون فعلت شيئًا في هذه السيارة، ورغمًا عن أنه عاجز عن إثبات المسألة، إلا إنها تؤلمه. أيًا كان السبب فيجب أن يشعر الأب بالألم، فهو نفسه من تولى عبر خفقان قلقه كشف هذا السر لها، ليمنحها هذه السلطة عليه ويتنازل لها عن مساحة المناورة التي عرفت كيف تستخدمها منذ ذلك الحين. من الذي كان يستغل هذا العذاب؟ من كان يُخضع من لهذا العذاب؟ الأب؟ الابنة؟ كانت مسألة لا يمكن معرفة رأسها من قدميها ويصعب فك شفرتها.

بعدها جاءت المرة الثالثة التي اهتم فيها الأب، لكن هذه المرة تقول أجوستينا إن غضبته المكتومة زادت، وإن كانت فقط بمقدار عدة درجات قليلاً، وليس بالصورة الكافية لكي يضربني، لم يضربني أنا بتاتًا، بل فقط كان يضرب "بينتشي"، لكن هذه المرة كان يرتعش صوته حينما عنفني على الوصول ربع ساعة متأخرة، سيقول أبي إنه سيمنعني من الخروج مجددًا مع هذا الفتى وهذا سيكون بالنسبة لي دليلاً على حبه الكبير الساهر.

- أمنعك يا أجوستينا. أتفهمين؟ أمنعك من أن تخرجي معه مجددًا

وحينها أقسمت أجوستينا بالرب أنها لن تخرج معه أبدًا:

- أقسم لك يا أبي، لن أخرج معه أبدًا، إذا كان لا يعجبك الأمر، فلن أكرره.

- بالفعل يا أجوستينا. لا يعجبني. يوجد شيء غريب في هذا الفتى، في الطريقة التي ينظر بها. لا أعرف من هم أبواه. لا أرغب في أن تخرجي مع غرباء.

- حاضر يا أبي، حاضر يا أبي، حاضر يا أبي.

وبعدما أصبحت في الفراش شعرت أجوستينا أنها تطير من فرط الحمى والفخر لكونها سببًا لضيق أبيها وترأست بنفسها مراسم طقس صغير ومنفرد وسري بين الظلمات، فهي لن تخرج بتاتًا مع هذا الفتى من جديد وقالت لنفسها كأنها تصلي: أقدمه لك كقربان يا أبي، فلن أخرج معه بتًاتًا لأنك طلبت مني هذا، ولن أخرج أيضًا مع من لديهم تلك الطريقة في النظر، مع من لديهم آباء مجهولون، مع من يثيرون فيك الشك لأي سبب والذين على المدى الطويل سيظهر أنهم الجميع. قدمت قرباني. كنت كل مرة أقدمه، التزمت بقسمي بأنني لن أخرج أبدًا مع هذا أو ذاك، دائمًا ما بحثت عن رفقة جديدة، ازدريت من ازدراهم أبي، كهدية له. كان يطالب برؤوسهم وكنت أقدمها له كقربان مقابل أن ينتظرني على كرسي الصالون بالبايب وهو ينظر مرة تلو الأخرى لساعته مترقبًا ساعة رجوعي، دقيقة بدقيقة ظل أبي يسهر في ليلاتي، بينما أخرج في كل مرة مع شخص مختلف، وأطلب منهم جميعًا أن يتركوني ألمس "الشمعة الكبرى" وهكذا تعلمت أنه توجد أنواع وأحجام كثيرة منها، بعضها مشتعل والآخر بارد، بعضها سريعة والأخرى بطيئة، فقط بيدي، فقط بيدي، لم أتركها تعتلي أجزاء أخرى في جسدي، أو تدخل أبدًا بين ساقيّ، أو أن هذا كان فقط في الشهور الأول، فاليد

كانت كافية لكي يخمن أبي الأمر المسألة من بين الظلال المرسومة على وجهي، عاجزًا عن أن ينطق بأي شيء، فلم يكن لديه أدلة، مجرد ظلال وإشارات، هي والعدم سواء. فقط بوضع يدي على "الشمعة الكبرى" لكل من اصطحبوني للسينما أو لـ(كريم إيلادو) في الشارع ١٠٠ تحققت من أن أبي سيهتم ويسهر حتى منتصف الليل. كانت طريقة الوصول متأخرة لربع ساعة أو ٢٠ دقيقة ناجحة، وكنت متحمسة من معرفتي أنها ستكون بالنسبة له وقتًا طويلاً من المعاناة.

لم يسبق أبدًا وان امتلكت مفاتيح حب أبي، لم يسبق أبدًا أن فكرت في أنني اكتشفتها فقط حينما بدأ الشباب يدعوني للسينما، لا قبلها ولا بعدها تمكنت من الحصول على اهتمام أبي.

- لا تخرجي مع هذا الشاب.

هذا كان مطلبه الدائم وطريقة عقابه لي أو بالأخص عقابه لنفسه لأنني وصلت متأخرة ٢٥ دقيقة.

- لا تقبلي دعوات من هذا الشاب مجددًا فهو..

من بيريرا أو بوكارامانجا أو من كالي فأبي لا يروق له سوى أبناء بوجوتا ذوي العائلات المرموقة، وفي ساعة الحقيقة لم يكن ليعجب بهم، لو كانوا يمضغون العلكة أو يستخدمون أدوات المائدة بصورة غير صحيحة، فالأب يقدر دائمًا على العثور على شيء خاطئ بهم، كان يمقت جهله بهوية أبناء من أخرج معهم للتنزه بالسيارة وأنا كنت أعرف أن بين يديّ إمكانية إسعاده، وأنه يجب عليّ القيام بتضحية صغيرة،

التضحية بهم، فهم لا يهمون، مقابل المنفعة الكبيرة في اكتساب اهتمامه، في تركيز كل اهتمامه عليّ حتى منتصف الليل. نعم يا أبي! أنا أتنازل عنهم، من أجلك أتنازل عن كل من ذهبوا وكل من سيأتون، واحدًا تلو والآخر، جميعهم مرة واحدة، إذا ما انتظرتني مستيقظًا لتنظر لي لدى وصولي وعلامة استفهام هائلة ترتسم في عينيك الراغبتين في التأكد من أنني لم أفعل تلك المسألة في السيارة، لأقسم لأبي بأنني لم أفعل شيئًا، لكن أنا أعرف كيف أفعلها لأنثر داخله بذور شك يقتل، والحقيقة أنني فعلتها في السينما ولكن لبعض الوقت وفعلتها من أجلك يا أبي، لكي أجعلك قلقًا وساهرًا، فأخيرًا تفهمت كيف أمارس قوايّ على أبي. لا أعرف إن كان حبك هو ما حققته بين سيارات ألف وواحد حبيب، لا أعرف إن كان حبك، أم كان مجرد عقابك فقط.

***

"كهدية من السماء".

هكذا يصف نيكولاس بورتولينوس في مذكراته الفتى الذي وصل من أنابويما ليطلب فصولاً في البيانو من عازف ألمانيا وساسايما العظيم، هذا الفتى الذي عزف بأيدٍ لا تزال ناعمة- لكنها بالفعل متمرسة- مقطوعة (القطة الطماعة) باحترافية لا تبدو متوائمة مع شعره الطويل كفتاة شقراء، وصوته الذي كان يتأرجح بين علو قمم الجبال وعمق وديان لا تزال في طور التشكل، لهذا فإن المايسترو العظيم ظل مُخدرًا وهشًا أمام هذا الزائر غير المنتظر، كأنه شاهد للتو معجزة، فهذا الطفل

الذي خرج من العدم كان جميلاً وموهوبًا وظهر هكذا فجأة، كأنه هبط من السماء، كأنه خرج من حلم، كأنه "هدية من الليل"- كما كتب بورتولينوس في مذكراته- لكن على عكس مصارعي الأنقاض اليونانية، الابنين العزيزين للهذيان، كان الفتى الذي عزف (القطة الطماعة) حقيقيًّا، بالفعل كان حقيقيًا، يجب قول إنه كان من شحم ولحم، جميل إلى حد القسوة، طفولي ويفيض بالموهبة، هو يبدو كنسخة من فاراكس ابتكرها نيكولاس في واحد من أحلام يقظته المثالية، لكنها ليست مُصابة مثل الفتيين الواقفين على أرض رخامية، لا تدمي من جراحها، بل هي- ويا للمفاجأة- حية وبصحة جيدة ويمكن لمسها، ربما يمكن لمسها، قد يُستحب لمسها. يمكن تخمين كم كان نيكولاس يحب أن يلمسه، ولذا تجرأ في الحقيقة على لمسه في كتفه، أو إذا كان القول بأنه لمسه مبالغًا فربما يجب تنقيح الفعل، فهو قد حف بكتفه بالكاد في ذلك اليوم الذي بدأ فيه كل شيء.

وهنا تدخل بلانكا في المشهد، ونيكولاس يمسكها في يده لكي تُملّي عينيها بالأعجوبة ويقول لها:

- هيا يا بلانكا، حبي أنا، ستسمعين موسيقى لم تسمعيها من قبل في حياتك.

تأتي بلانكا مستاءة غير مصدقة. هي معتادة منذ فترة على المفاجآت لكنها قلقة من دفقات الهلوسة التي عادت لتشق جبهة زوجها. تبحث بلانكا عن قوى لم تعد موجودة لديها لتمارس المهمة المرهقة لإنزال

تخيلات نيكولاس إلى الأرض وتحجيمها في أبعادها الصحيحة، لكنها، رغمًا عن هذا اعترفت في مذكراتها أن شعورًا غريبًا قد اكتسحها حينما شاهدت هذا المخلوق الجالس على البيانو: "شعرت فجأة بأن قدرتي على المسامحة قد عادت"، مسامحة الحياة على صرامتها، ومسامحة نفسها على أخطائها، ومسامحة نيكولاس على أهواله، والبدء من جديد.

"إذا كان يجب عليّ أن أقدم تفسيرًا لهذا الشعور الغريب والعميق الذي اكتسحني حينما شاهدت أبيليتو الذي أسماه نيكولاس فاراكس، فيجب أن أقول إنه كان صورة حية لنيكولاس الذي عرفته منذ عدة سنوات، حينما كان لا يزال واعدًا واحتمالاً لا تحوم حوله أطياف"، بمعنى آخر حينما كان زوجها لا يزال رجلاً قويًا وصل للتو من ألمانيا وبدت فيه الهلوسة كمجرد لمسة شعرية دون أن يتجلى التواؤها.

هكذا وفجأة ـ كأنه سحر ـ وجدت بلانكا نفسها بعد الاستماع للشاب وهو يعزف (القطة الطماعة) أمام نسخة صافية وخفيفة وغير مؤلمة من نيكولاس، ولامت نفسها على استشعارها لاختلاج إحساس محبب غير مبرر بأن الحياة عادت لنقطة البداية لتقدم لها فرصة ثانية. بالنسبة لفاراكس، فبمجرد رؤيته لتلك المرأة ذات الوجه الحسن والهالات الأربعينية والرموش الحالمة تدخل للصالة وهي في يد المايسترو، شعر بإحساس خوف يشل يديه ويمنعه من العزف على البيانو، لكن هذا لم يحدث في الواقع، بل على النقيض، ردت يداه بسعادة وثقة لأن أمام عينيّ تلك المرأة ذات النظرة الحزينة، شعر فاراكس

كأنه في منزله، كأنه مع أمه، مع أخته، مع أحد قد يحبه، ربما مع أحد أحبه بالفعل، من النظرة الأولى.

جلس نيكولاس وبلانكا جنبًا إلى جنب متعانقي الأيدي للاستماع إلى الزائر، زوجها مفعم بالحماس والترقب، ، يستند بردفيه بالكاد على حافة الأريكة، يطقطق بفمه كأنه جوعان، كأنه مقدم على التهام وليمة، وهي تحاول فعل الأمرين في نفس الوقت: تنظر بعين إلى الفتى وبالأخرى تراقب نظرة زوجها، أما فاراكس فقد سلم نفسه لإيقاع المعزوفة ناسيًا جمهوره اللامع، يهتز في مقعده لتحديد الإيقاع ويصاحب المقطوعة بدندنة غير واعية، ساحرة وطفولية. حينما وصل عزف (القطة الطماعة) لنهايته نُطقت واحدة من تلك الجمل الشهيرة، التي تبدو ظاهريًا بسيطة، لكنها لها رنتها وتحدد مصير سواء من يقولها أو من يسمعها. قال نيكولاس لفاراكس:

- أنت وأنا نفهم بعضنا.

استخدم لفظ "أنت" ودون رسميات، رغمًا عن أنهما يعرفان بعضهما بالكاد، رغمًا عن فارق العمر بينهما الذي يتخطى ٢٠ عامًا، رغمًا عن أن أحدهما هو المعلم والآخر هو المتدرب. لم يعرف فاراكس كيف يرد أمام مخاطبته المفاجئة بـ"أنت"، أو أمام نظرة المايسترو المشتعلة، أو أمام ملامسة يده الخفيفة لكتفه، لكنه فهم أن حياته ستتغير بداية من هذه اللحظة. وصلت "نحن نفهم بعضنا" إلى أذنه كأنها الهام، ثم سألته بلانكا بصوت رقيق ليس هو صوتها في الحقيقة:

ـ هل يمكننا الاستماع لشيء آخر؟

وكأن فاراكس قد أدرك أهمية اللحظة، بدأ في عزف مقطوعة (الدانوب الأزرق) بكل الروعة التي تطلبتها الحالة.

بعيدًا عن الغبطة التي تلمع في سطور مذكرات الزوجان، قد يتساءل المرء إذا كانت تلك هي حقًا اللحظة "شديدة الحلاوة" التي تصفها بلانكا مقتبسة تلك الكلمتين من رونسار؟ وإذا كانت هي حقًا، فهل كانت كذلك لثلاثتهم؟ أم لاثنين منهم فقط؟ هل تنبأ أحدهم بالألم وأطياف المستقبل؟ في ذلك اللقاء الأول..من منهم شعر بالغيرة ومِن ومَن؟ ما الذي رآه نيكولاس في أبيليتو، هذا الذي أسماه فاراكس، أو اختلط عليه الأمر بخصوصه مع فاراكس؟ تلميذ واعد؟ خصم في المهنة؟ خصم في الحب؟ هدف للرغبة؟ هل رأي وريثه؟ خليفته في فنه وبشكل ما في حياته؟ أم أنه رأى فيه، أسفل حطامه، حامل النبأ الصامت عن اقتراب نهايته؟ توجه بلانكا في مذكراتها السؤال وفقًا لمعايير أوسع، حينما تتأمل في مسألة إذا كانت كينونة اللحظات الحاسمة هي هكذا منذ لحظة حدوثها، أم أنها على النقيض تصبح حاسمة على ضوء ما يحدث بعدها وبسببها. لا توجد مذكرات أو خطابات قد تفسر ما الذي حدث لإوخينيا في قاعة البيانو الكبيرة التي تنضح بالرطوبة، أو في أي ركن بقت منفية حينما نساها أباها وأمها وفاراكاس، حينما تركوها وحيدة مع العساكر المعدنية التي اصطفت في ترتيب عسكري.

كان فاراكس يأتي من بعيد، وبناء على مدى تواضع ملابسه واهتراء مخلاته، كان يبدو أنه من المحتمل-أو إن صح القول من المستحيل- أن يمتلك المال اللازم لسداد نفقات طعامه وسكنه في القرية، لهذا دعاه آل بورتولينوس في تلك الليلة لتناول العشاء معهم في المنزل والمبيت إذا كان يرغب وبالفعل كانت هي رغبته، ليس فقط في تلك الليلة بل كل الليالي التي ستليها خلال ١١ شهرًا لاحقا.

- لو كان الصمت فارغًا!

صرخ نيكولاس بهذه العبارة في فجر المرة الأولى التي قضاها فاراكس بالمنزل.

- لو لم يكن الصمت قذرًا وملوثًا بهذه الصورة الداعرة.

انطلق يغمغم في غرفة نوم زوجته بلانكا وأيقظها. سألته وهي تعتدل على السرير بينما تحاول تخمين إلى أين سيذهب بهما هذا الموضوع الشائك في تلك الساعة من الليل:

- ما الذي تقوله؟

- أقول لك، بلانكا: ليت الصمت لم يكن فاسدًا.

سألته فقط لكي تكتسب بعض الوقت لترتدي على الأقل روب الاستيقاظ:

- ولماذا قد يكون فاسدًا؟

ـ من الضوضاء، من الضوضاء، وأي شيء سيكون غير الضوضاء؟ أم أنك لا تسمعينها؟ الصمت موبوء بالضوضاء التي تختبئ فيه، مثل السوس في العوارض الخشبية، وتلتهمه من الداخل. يجب أن يكون المرء أصمًا لكي لا يسمع نخربته وأزيزه. أم أنك نائمة ولا تفهمين ما أقوله؟

هكذا عنفها بورتولينوس وهو يجذبها من حاشية قميص نومها، بينما كانت ترجوه أن يخفض صوته لكي لا يوقظ الطفلتين والزائر، وهي تحاول العثور في نفس الوقت على نقط علاج الطنين، أو الصفير المزمن، الذي كان زوجها يعاني منه في كلتا أذنيه وفقا للأطباء.

ـ أنا في حاجة إلى صمت فارغ للتلحين يا بلانكا، كما يحتاج الشاعر إلى ورقة فارغة، أم تعتقدي أن اللورد بايرون كان ليتمكن من كتابة شيء يستحق على ورقة إذا كانت ممتلئة قبلها بالكلمات؟

وبعدما شاهد أن زوجته قد اصفر لونها من كثر الرجرجة أفلتها وعدل من قميص نومها الذي اعتصره ومرر يده على شعرها المنتفش ثم جلس بجانبها وقال:

ـ كل شيء بخير، حبيبتي بلانكيتا، كل شيء بخير. لم يحدث شيء. لا تفزعي بهذه الطريقة، أرغب فقط في أن تفهمي أنه على خلاف الاعتقاد السائد، فإن الصمت ليس وليًا للنعم أو مريحًا.

يشرح لزوجته بعد أن تخطى مرحلة الهياج ودخل في طور الكآبة أنه يوجد نوعان من الضوضاء يلاحقانه ويوترانه إلى حد الوهن، أو أنها كانت أنواع كثيرة في الحقيقة، لكن أسوأها وأكثرها استمرارية كانا نوعين، الأول هامس وخبيث، كصوت امرأة عجوز بلا أسنان توشوش الأذن بسر لا ينتهي، والثاني أجش، أحيانًا كخرخرة قطة وأحيانًا وفي مرات أخرى كصوت آلة، كدوران ساقية أو عجلة طاحونة.

- حينما تستحوذ الضوضاء الهامسة على مسامعي، أتمكن من التلحين، لكن أعجز عن التفكير، ومع الضوضاء الأخرى يحدث العكس.

- هي أمور تخصك يا نيكولاس، استلق يا حياتي، فأنا لا أسمع لا شمطاوات أو قطط.

وحينها يخرج من الغرفة وهو يلعن ليصفق الباب. في اليوم التالي وعلى الإفطار، بينما يعتني الضيف الشاب بتقديم الشوفان لصوفي وإوخينيا، ابنتي العائلة، أو إن صح التعبير، الوحيدتان على قيد الحياة بعد إجهاض خمسة أطفال، يكرر نيكولاس على المائدة نفس الوصف الذي قاله لبلانكا عن مصيبته السمعية ويقول:

- الفارق أن الضوضاء الجشاء الآن لا تتردد كساقية أو طاحونة بل كمقعد مجرور في رواق شديد الطول.

يجيبه فاراكس بصوته المقلق كطفل والذي يتخلى كلما مرت الدقائق عن هذه الكينونة، ففي اللحظة التي يتحدث فيها الآن بات أكثر رجولة من تلك التي كان يقدم فيها الشوفان:

- لديكم كل الحق يا أستاذ. معكم كل الحق يا مايسترو، فلهذا أبحث عن قمم الجبال وهناك أستعيد الصمت الداخلي والخارجي.

تبدو هذه الكلمات بالنسبة لنيكولاس عميقة وحكيمة، وتتبدل ملامح وجهه كأنه سمع حقيقة أخر الأسرار المكنونة، يضحك بوداعة ويصمت كأنه نعس لفترة ثم يهمس لفاراكس:

- أنت تفهمني. أنا وأنت نفهم بعضنا.

وهي الجملة التي تفسرها بلانكا كتأنيب غير مباشر بسبب الكلمات الحمقاء التي نطقتها قبلها بساعات حول نفس الموضوع لتخوض لأول مرة هذه التجربة التي باتت مستمرة منذ ذلك الحين، فأي شيء ستقوله سيبدو أرعن بالنسبة لزوجها على عكس كل ما هو ملائكي واستثنائي ويخرج من شفاه فاراكس. بعدها بعدة أيام جاء عيد ميلاد بلانكا الـ٣٤ واحتفل الثلاثة والطفلتان به وهو ما وصف بالإجماع كيوم مثالي، كانت لحظات وصفها نيكولاس بالإنجليزية في مذكراته كـ"نعيم عائلي"، كُرست للتمشية بجوار النهر وتحليل جماعي لهروب باخ والانغماس في قراءة بعض قطع من أعمال شكسبير وجوته بصوت عالي. ابتسمت السماء- كما تقول بلانكا- لهم في هذا اليوم وسمحت لنيكولاس بأن يستيقظ دون تورم ليستعيد جزئيًا جانبًا من حُسن مُحياه، وبأن يوقظها بباقة من أزهار الزنبق التي قطفها بنفسه من محيط النافورة الحجرية، بل وأن يهديها ليلاً قلادة من اللآلئ مع ورقة كتب عليها "خذيها..هي دموعي". ركضت بلانكا من فرط انتشائها نحو

مذكراتها وكتبت "ألست أسعد امرأة في العالم؟"، لكن هناك شيء سيء لم تكن ترغب في تسجيله وربما يكون قد حدث في وقت لاحق بالحفل، لأن الجملة التي تظهر بعدها في المذكرات، والتي كُتبت بحبر وروح أخرى تقول "أكملت اليوم عامي الرابع والثلاثين وكنت سعيدة بصورة هائلة، لكن رغمًا عن هذا هناك صمت غريب يتمدد في المنزل". لا تقدم مذكرات نيكولاس معلومات مفيدة بخصوص الموضوع، فالشيء الوحيد الذي سجله في صفحة تخص هذا التاريخ هو "اليوم هو عيد ميلادها. بلانكا تصفف شعرها نحو الأعلى، على هيئة إكليل يظهر شكل وجهها ويجعلني أنجذب لها. أتساءل كيف لامرأة مثلها أنت تحبني؟".

* * *

كانت الرسالة التي ألقيت من أسفل باب مكتبي مكتوبة بخط مراهق وسخيف، ذلك الذي يظهر فيه حرف الـ"i" بتلك الدائرة المخزية فوقه بدلاً من النقطة. لا زلت أحتفظ بهذه الرسالة، أسير بها دائمًا في محفظتي لأنها كانت بداية قصتي مع أجوستينا. حدث هذا بعد ١٠ أو ١٢ يومًا من تعرفي عليها وكانت تقول:

"أستاذ أجيلار. أنا فتاة ذلك اليوم من نادي السينما وأحتاج لطلب خدمة منكم تتعلق برغبتي في كتابة سيرتي الذاتية، لكن لا أعرف كيف أنفذ المسألة. ربما ستسأل إذا كان قد حدث لي شيء له أهميته، شيء

يستحق أن يُروى، والإجابة هي لا، لكن على أي حال هو هاجس لدي وأعتقد أنك قد تساعدني في هذا الشأن لكونك أستاذًا في الأدب".

وبدلاً من أن تسجل رقم هاتفها لكي أخبرها بردي، وضعت عنوانها. أكملت بعدها بفقرة ثانية أكثر غرابة من تلك الأولى، تلك الفقرة التي أربكت نومي من كثرة التفكير في محاولة لقياس الحجم الحقيقي لأبعاد الغزل فيها. فما الذي قد ترغب فيه فتاة شقية بهذه الصورة من رجل مثلي؟ هل هي حقًا تحاول مغازلتي؟

"انظر يا أستاذ، قبل الدخول في مسألة السيرة الذاتية، أرغب في التعرف على يديك. اليدان هما أول شيء أنظر إليه في أي رجل. الأيدي.. لا تعرف كيف تستهويني أيدي الرجال- حينما يستهويني أحدهم بالطبع- لأنه رغمًا عن تركيزي فيها، فقليلة هي المرات التي تعجبني فيها حقًا، لأنها لا تبدو في الواقع كما تخيلتها. لدى خروجنا من نادي السينما لم أتمكن من مشاهدة يديك لأنك كنت تضعهما في جيبك، لهذا فكرت في أنه ربما قد تقدر على إرسال نسخة مصورة منهما لي، في الحقيقة لأي واحدة من الاثنتين، لكن على أن تكون مصورة من طرف راحة اليد، والجانب الآخر. ستخبرني ما هو اسمه، أتحدث عن عكس راحة اليد. أعني أن تضع يديك على آلة ناسخة كأنها ورقة وتخرج صورة منها وترسلها لي. هناك أمر آخر يستهويني وهو الشعر، شعر أي كائن من الثدييات، لكن بالأخص شعر ذكور الجنس البشري، حينما أشاهد شعرًا جميلاً لدى رجل، فإن عدم إقدامي على لمسه يكلفني أهوالاً. لم أتمكن من رؤية شعرك أيضا في الواقع لأنك كنت

ترتدي تلك القبعة من الصوف الأسود. أخبروني أنك تنتمي لليسار وكنت أرغب في معرفة لم يسير اليساريون دائمًا وفي أي مناخ بقبعات لثلج الشتاء، لكن لا تظن أنني لم أنظر إلى حاجبيك، رموشك وذقنك، لقد تفحصت كل هذا وأعجبني لأنه كان حريريًا وكثيفًا وداكنًا، لكن فوق كل شيء أعجبني شاربك بتلك الشعيرات البيضاء التي تمنحه بريقًا، لكن أظن أن سؤالك أن تقص خُصلة من شعرك لترسلها لي هو مغالاة قد لا تقبلها، لهذا أرتضي بنسخة مصورة من يدك وردك على الموضوع الآخر. أجوستينا لوندونيو".

لا توجد في كلية الآداب بالجامعة الوطنية سوى آلة تصوير واحدة وهي موجودة في قسم العمادة، والذي بجانب العميد والطلاب الذين يحومون هناك لإنهاء الإجراءات أو التحقق من الدرجات، تبقى دونيا لوثيريتو السكرتيرة فيه كإحدى علاماته الثابتة، هي سيدة لطيفة للغاية إلا إذا تعلق الأمر بماكينة التصوير، التي تسيطر عليها ببخل مهين لنا نحن الأساتذة كلما استدعت الحاجة، ليس لأنها ترمقنا فقط بنظرة تأنيب حينما نستخدمها أكثر من مرة واحدة في الأسبوع، بل أيضًا لأنها تجبرنا على تقديم وصولات بكمية الأوراق المستهلكة، لهذا لم أكن أرى سبيلاً ممكنًا للهروب من نظرات كل هؤلاء القوم لأصنع نسخة مصورة من يدي. خرجت من مكتبي وسرت حتى قسم العمادة بخطوات ثابتة وقناعة مطلقة بإنجاز المسألة، مستعدًا لضرب العميد أو لوثيريتو نفسها بل وحتى الظهور كمعتوه أمام طلابي إذا ما استدعت الضرورة لكي أفوز بتلك المرأة التي فرضت عليّ القيام بمثل هذه المآثر المميزة، كل هذا

وأنا أضحك على نفسي من الأمور التي قد يفعلها رجل أربعيني بدأ شعره يشيب في الخفاء.أتممت بطولتي بالضغط على الأزرار بيمناي وأنا أنسخ راحة اليد اليسرى وظهرها- أو "عكسها"- وفقًا لمصطلح ذلك المخلوق الغريب الذي يدعى أجوستينا. وضعت النسختين في ظرف بجانب رد يرفض مسألة التعاون في السيرة الذاتية، لأشرح لها أن سبب تسميتها "سيرة ذاتية" وليست "سيرة" فقط هو أنه يجب على المرء بنفسه- وليس أحد آخر- أن يكتبها ولأنهي الموضوع راهنت بكل شيء ودعوتها إلى الخروج في موعد يوم الأحد التالي في بستان أزهار الأرطاسيا بحديقة الاستقلال في العاشرة والنصف صباحًا، حيث انتظرتها منذ العاشرة والثلث حتى ما بعد الحادية عشرة ولدي قناعة بأنني أضيع وقتي بصورة بائسة، بائسة لأنه لم يكن هناك أدنى احتمالية لوصولها، ورغمًا عن هذا حينما كنت على وشك الرحيل، وصلت بالفعل وكانت تجلب معها لي كهدية بعض الفشار الذي جلسنا لنتشاركه على مقعد وانتهى الأمر بتناولها وحدها له بينما أشرح لها طبيعة السمينار الذي حاضرت فيه حول نظريات الرواية لدى كل من جرامشي ولوكاش وجولدمان. بعدها أظهرت لي ما فعلته بصور يدي اليسرى التي أرسلتها لها، ما أضحكني لأنه بدا لي اعتداءً صارخًا على تفكيري الفولتيري العقلاني، فقد صنعت أجوستينا نسخة مصغرة وحولتها إلى بطاقة ذات واجهين، راحة اليد من ناحية وظهرها في الجانب الآخر. قالت لي:

- أدعوها "اليد التي تلمس" وهي خيرة. أعطيتها في الشارع إلى واحد من هؤلاء المتخصصين في التغليف، هؤلاء الذين قد يغلفونك أنت

، بالكامل إذا لم تتوخ حذرك وانظر لقد أنهاها بصورة مثالية. أحملها معي في محفظتي وهي تميمتي.

أجلس أنا الآن والخالة صوفي في سكون في ركن الصالة حيث حبستنا أجوستينا وهي على صرخة واحدة:

- للخلف يا خنازير!

كان هناك شيئًا مرعبًا وشيطانيًا في كل هذا.

بينما كانت أجوستينا تكرس وقتها لانتزاع كل قطع الأثاث والأغراض الموجودة في جانبنا لتنقلها عندها، استغللنا الوقت للحديث عن القنبلة. أخبرتني الخالة صوفي بأنها شاهدت عبر النافذة كيف ارتفعت فوق المدينة سحابة أشبه بالفطر يبلغ ارتفاعها مئتي متر، وحينما سألتها إذا كانت أجوستينا قد تأثرت كثيرًا، حكت لي أنها عقب الاستيقاظ مع الانفجار، نهضت متهيجة للغاية وهي تقول إن هذه هي الإشارة.

- الإشارة إلى ماذا يا طفلتي؟
- إلى أنه يجب أن أستعد لوصول أبي.

سألتها الخالة صوفي بحرص:

- هل ترغبين في أن أساعدك؟
- إذا كنتِ ترغبين أن تساعديني فلترحلي حالاً من هذا المنزل.

استقر الخط الخيالي الذي كان يفصل الشقة إلى قسمين. لم يعد يتنقل كثيرًا وأصبح الركن المخصص لي أنا والخالة صوفي لا يُفضي إلى باب الخروج أو الهاتف أو الحمام أو المطبخ وكل شيء آخر بما فيه الطابق الثاني أصبح تحت سيطرة أجوستينا بحقوق حصرية.

- لا تجلسا على الأريكة. اللعنة! هي لي أنا وأبي..إلى حظيرتكم يا ملاعين. هذا الجانب الموجود هناك للخنازير وهذا الجانب الموجود هنا لنا نحن.

وهكذا باتت "نحن" تشير لها ولأبيها، لأن "نحن" التي كانت بينها وبيني لم يعد يتبقى منها شيء. قالت الخالة صوفي:

- هي في هذا الشأن مطابقة لأمها. دائمًا ما تبحث عن كارلوس بيثينتي ودائمًا ما تغفر له في حياته والآن أيضًا في مماته.

كانت أجوستينا تُعذبنا نحن الخنازير. أضحك وأنا أتذكر ما حدث بنوع من الحنين وأعترف بأن كل مأساة لها وجهها الهزلي. كانت تعذبنا بعجزنا حتى عن الحصول على كوب من الماء أو الاتصال بالهاتف. نفد صبر الخالة صوفي وقالت إنه أيًا كان الثمن فإنها ستكسر الحصار لأنها لم تعد تطيق عدم الذهاب لحمام.

- حتى لو اشتعلت تلك الفتاة غضبًا، فيجب أن أتبول.

قالتها وتمكنت من الإفلات وصعود السلالم في محاولة لدخول الحمام العلوي، لأن دخول ذلك الآخر كان ليصبح مستحيلاً دون أن

تراها أجوستينا وبعدها بعدة دقائق نزلت بشال لها و"روانا" لي لأن الضباب البارد الذي ينزل في كل ليلة نحو الثالثة فجرًا من مونسيراتي كان قد حل علينا. شاهدت الخالة صوفي وهي تتسلل خلسة نحو المطبخ وقلت:

ـ يا لها من ماكرة! ستُهرب شيئًا من الطعام.

تذكرت في تلك اللحظة أن كل ما ألقتيه في معدتي خلال الساعات الأخيرة كان بضع قضمات من قطعة الدونتس الوردية مع أنيتا! يا لجمالها! يا لطعامتها! هل أنيتا من حي ميسيين نائمة الآن؟ لكن لم يكن طعامًا ما خرجت به الخالة صوفي من المطبخ وهي تخبؤه في جيبها، بل راديو صغير يعمل بالبطاريات لتستمع للأخبار. تساءلت الخالة صوفي:

ما الذي حدث لكل هؤلاء القوم المساكين؟

وبمجرد إنهاء جملتها اكتشفت أجوستينا وجودنا وخطفت منا الشال وال"روانا"، لكن كنا حينها قد سمعنا أن بابلو إسكوبار أعلن مسؤوليته عن الهجوم.

***

ما قادني من المجد إلى الهلاك كان أمرًا بسيطًا كلفة صامولة. بدأ بنمنمة وأسرار تأتي وتذهب من هنا إلى هناك في قاعات وغرف ملابس وحمامات (أيروبيكس)، كواحدة من تلك المؤامرات التي تظل تنتفخ تحت الأرض حتى تنفجر ويطير الخراء في كل اتجاه. أعتقد أن من ضغطت زر

التفجير واحدة تدعى ألكسندرا. تمتلك جسد إلهة للجمال إلا أن روحها فاترة، لكن لا أعرف، في الحقيقة لست متأكدًا من أنها كانت السبب. ألكسندرا هذه كانت ترتاد (أيروبيكس) لتحافظ على هيئتها وفي بداية المسألة كانت رفيقتي. سبق وأخبرتك أن أجملهن ينتهي الأمر وهن في فراشي وهذه لم تكن استثناءً، لهذا كان بيننا شيئًا مثل العلاقة العابرة التي تملصت منها سريعًا، فكما قلت لك، هي فتاة جسدها رائع لكن عقلها جهنمي. حينما أفكر في الأمر مجددًا ربما كان إلقائي بالذنب عليها فيما حدث لي بعدها نوعًا من جنون الارتياب، ففي ساعة الحقيقة قد تكون أي واحدة هي السبب، فأي واحدة كان من الممكن أن تقرأ (الإسباثيو) وتجلب النمنمة إلى هنا، لكن الأمر مريب بالفعل، جميلتي أجوستينا، لماذا؟ لأنه من الغريب أن يقرأ أحد في هذا الجانب من المدينة تلك الجريدة الشعبية القائمة على الفضائح، لأنها بكل بساطة لا تتماشى مع البروفايل المطلوب، فزبائني عامة يعتقدون أنه لا يجب إهدار الوقت في الأخبار السيئة، خاصة إذا كانت بخصوص قوم لا يعرفونهم، وإذا تحمسوا حتى للقراءة، فإنهم يقرأون (التيمبو) التي تقص عليهم الأمور كما يحبون سماعها، لكن شاء حظي العثر أن يجد خبر نُشر في (الإسباثيو) حول الاختفاء الغامض لمرضة ما طريقه إلى (أيروبيكس سنتر). حادث تافه من ضمن الحوادث الشائعة والتي لا ينتبه إليها أحد في هذا البلد، لأنه إذا كان لا أحد يعترض حينما يسرقون أو يفككون مستشفى بالكامل، فمن سيقلق بخصوص اختفاء ممرضة واحدة؟!، لكن رغمًا عن هذا فلتنظري يا أجوستينا كيف يعمل الحظ حينما يلتوي: تابعت (الإسباثيو) قصة

المرضة المفقودة ونشرت تصريحات لخطيبها قال فيها إنه شاهدها أخر مرة تدخل "جيم" بشمال المدينة. حتى الآن تسير الأمور بصورة سيئة لكنها مقبولة، جميلتي أجوستينا، لكن في اليوم التالي نشرت (الإسبائيو) خبرًا موسعًا وبـ"بوم!" حددت أن الجيم المقصود هو (أيروبيكس سنتر) ملك ميداس مكاليستر، بل ونشرت صورة لدولوريس وهي حية ومبتسمة، لنقل إنها صورة لدولوريس وهي أكثر شبابًا وأقل تحطيمًا من دولوريس التي عرفتها، لكنها بكل تأكيد كانت دولوريس، رغمًا عن أن (الإسبائيو) لم تدعوها بهذا الاسم بل سارا لوث كارديناس كاراسكو، ولم تُقدمها كساقطة متخصصة في السادومازوخية ماتت وهي تكمل مصيرها الشرعي كآكلة خراء محترفة، بل كخريجة تمريض أكدت زميلاتها في العمل انقطاع أنبائها عنهن، بجانب شهادة من يقول إنه رفيقها ويُدعى أوتونييل كوكويه، والذي كما خمنتِ ليس أحد سوى قوادها الناقص، لكنه أخفي هذه المعلومة وقدم نفسه كمحاسب، لأنه بكل تأكيد عجز عن كشف طبيعة مهنته غير الشرعية البائسة، لهذا فإن اتهاماته لم تتخط كونها مجرد نصف حقائق، مجرد محاولة من غريق للنجاة، فعلى سبيل المثال أكد أن المرضة سارة لوث، خطيبته، كانت تتدرب في (أيروبيكس سنتر) حيث خرجت ذات ليلة ولم تعد أبدًا بعدها، لكن نساء حصة الـ"سوبر رومبا" في السابعة صباحًا التقطن كل هذا. عبر ألكسندرا كما أشك. وأخبرن من يأتين لحصة الـ"سبينينج" في الظهيرة، لتخبر هؤلاء من يأتين لنفس الحصة في الخامسة مساءً وهكذا انتقل الأمر منهن لنساء حصة الساعة الثامنة، ثم من يأتين للتدليك أو لاستخدام غرفة اكتساب اللون

البرونزي، بمعنى آخر أن هذا الفيلم كان قد اكتسب بحلول الليل أبعادًا هوليوودية.هكذا كان بعضهن يصمتن كلما مررت من أمامهن، فيما لجأت أخريات للتصرف بجنون أو الضحك، أما أكثرهن جرأة فتقدمن لسؤالي عما حدث، دون أن تغيب المغازلة المباشرة كمن عرضت نفسها لتصبح الضحية المقبلة إذا كنت أنا حقًا صاحب "اللحية الزرقاء".

باتت بعض الألعاب لها شعبيتها مثل الإفزاع أو سماع التأوهات أو لعبة اكتشاف القاتل أو الإشارة للمشتبه فيه، وهكذا جرت الأمور وامتلأ (أيروبيكس) بالاشاعات والمخاوف والأشباح والهزل والسخرية، ودائمًا يُفضي أي شيء إلى شيء آخر وفقًا لقانون التبعات القاسي حتى جاءت لي الشرطة بأمر استجواب وتفتيش، لكن كما هو متوقع، يا طفلتي الشاحبة، لم تجد سوى العدم وأنا أيضًا لم أدع شيئًا ينزلق مني هنا أو هناك.

- تدخل الكثير من السيدات هنا بصورة يومية سيدي الرقيب.

قلتها للملازم الأول الذي ذكرني على الفور برتبته فاعتذرت له:

- حسنًا سيدي الملازم، كنت أخبر سعادتك بأن ٣٠٠ سيدة يدخلن يوميًا عبر هذا الباب وعبر هذا الباب أيضًا يخرجن من جديد.

بعدها بدأ الملازم الأول يتمم بعض الإجراءات الروتينية، مثل مراجعة سجلات الحضور للتحقق من أنه لا وجود لاسم سارا لوث وقدمت له السجل بكل ثقة.

- تفضل سيدي الملازم. إبحث إذا كنت ترغب في هذا.

وفي هذه النقطة- استعدي دميتي أجوستينا لأن الحكاية ستتحول قليلاً نحو السريالية- لك أن تتخيلي كيف كان اندهاشي حينما شاهدت الملازم الأول وهو يعثر فوق أحد الأسطر على توقيع سارا لوث كارديناس كاراسكو بكل أحرفه ونبراته وهو مكتوب بخط مفخم وحبر أزرق. أقسم لك أنني كنت على وشك السقوط نحو الخلف مغشيًا عليّ حينما شاهدت المسألة، لابد وأنها تلك الحمقاء دولوريس من ليلة عرضها المؤلم الأول ذو النهاية المؤسفة، لابد وأن تلك البلهاء شاهدت سجل توقيعات من يحضرن الحصص ووجدت أن ترك توقيعها سيكون شيئًا رائعًا ومميزًا، فلم لا؟ فهي في نهاية المطاف كانت تظن نفسها فنانة أو عارضة وربما حلمت بتخليد نفسها في دفتري بترك توقيعها، لهذا اضطررت لتليين المسألة وأنا أشرح للملازم أن تسجيل إحداهن لنفسها في حصة مجانية دعائية ليس شيئًا غريبًا.

- هذا مكان عام، سيادة الملازم. الدخول والخروج متاح لأي شخص. ربما تكون تلك الفتاة قد مرت من هنا بالفعل، لكن هذا الأمر لا يعني شيئًا.

أكدت المسألة له عدة مرات، لكن أيضًا وقبل أي شيء حنيت له يديه بمبلغ كافٍ من المال لكي يصطنع الغباء ويتركني في سلام، أو في سلام نسبي لأن كل هذا الموضوع كان قد توغل إلى داخل أعصابي وحينما تتكور العقدة لا يوجد من يفكها، وإذا كنت لا أقص عليك ما يأتي بالتفصيل، يا أجوستينا يا قلبي، فهذا لأنه في نهاية المطاف لم تجلب لي زيارة التفتيش البروتوكولية هذه التي انتهت بدفع "المعلوم" أي تبعات

أمنية أو قضائية. المشكلة المستمرة كان لها طابع شخصي أو عاطفي إن صح التعبير، لأن زبائن الجيم لم يرغبوا في الخروج من هذا الفيلم، وظلوا يضخمونه بل مع ترك العنان لخيالهم بصروة يومية، ففلانة مرت الليلة الماضية أمام المكان وشاهدت الأنوار مضاءة، أو أن الجيران سمعوا صوت الموسيقى لوقت متأخر، أو أنه كان هناك صراخ امرأة محبوسة وحركة للسيارات عند المدخل، أو أن هذا الجيم مرعب و يا ترى من هي الضحية تعيسة الحظ المسكينة؟ في النهاية يا أجوستينا الجميلة لأنني لا أرغب في اصابتك بالملل بصورة أكبر، فإن الحقيقة الواحدة والوحيدة هي أن شبح دولوريس أو سارا لوث كما باتت تدعى الآن، بدأ في النمو وخنقي وتلطيخ سمعة (أيروبيكس) بصورة سيئة في كل الأنحاء، لدرجة أنني نفسي كلما كنت أدخن سيجارة من الماريجوانا للاسترخاء قليلاً كنت أنغمس في تخيلات عن كل ما هو كريه، تخيلات ظهر فيها الجيم كأحد غرف محاكم التفتيش وأجهزتي العزيزة كمنصات للتعذيب ودولوريس مصلوبة على جهاز (ناوتيلوس ٤٢٠٠). كنت أقول لنفسي: ما هذا الهراء. هذا هو انتقام هذه المرأة لأحاول عبر الحوار الوصول إلى أحد أشكال التفاوض:

- أوعدك يا روح دولوريس المباركة، أنه بمجرد هدوء هذه الجلبة قليلاً، فسأرسل المال إلى جون خايرو أو هنري ماريو أو أيا كان اسم طفلك، لكي يدرس. أؤكد لك، عزيزتي سارة لوث، إنه إذا ساعدتيني على إخماد هذه البلبلة فأنا قادر على تمويل مستقبل ويليام أندريس ابنك في دراسة التكنولوجيا.

ولكي تكتمل كل المصائب، كان الوقت قد مر وتخطينا الموعد الذي أخبرني "مستريو" بأن بابلو يتعهد بإعادة أموالنا فيه، لهذا تخيلي، طفلتي أجوستينا، كيف سقط عليّ "العنكبوت" سالاثار ورونالد سيلفرستين بأسئلة تبدأ بمتى وماذا وكيف وما الذي حدث بحق الجحيم؟ لأعترف بالذنب وأطلب العذر لإخماد هذا الحريق الثاني:

- أفهمك يا "عنكبوتي" العزيز. إنه أمر مؤسف يا سيلفر. معكما كل الحق. إنه خراء. أعترف بأن هذا التأخير مثل الخراء، لكن ستريان كيف ستحل كل الأمور.

قلت لهما هذا ملكتي أجوستينا، لكن في الحقيقة لم يكن لديّ أي فكرة عما يدور في رأس إسكوبار، فـ"مستريو" لم يلتزم حتى بمواعيدنا. كنت أقضي ساعة تلو الأخرى في المقبرة منتظرًا أن يظهر في النهاية بالنقود، أو بجزء منها، أو على الأقل بتفسير، لكن لم يحدث شيء. مرت الأيام ولم يحدث شيء.

أمرني العنكبوت بنبرة حاسمة:

- تحرك يا ميداس. إبحث عن بابلو وأبلغه بأن هذا التأخير الصغير يتركنا في ضيقة.

- إهدأ يا عنكبوتنا العجوز، فبمجرد ظهور المرسال، سأخبره بالشكوى.

- لم تعترف لي قط، ميداس يا بني، أنه ليس لديك صلة مباشرة بإسكوبار.

- حسنًا بالفعل، بل لا، على العكس، سابقًا كانت لدي صلة مباشرة معه لكن الآن الوضع قد تغير قليلاً. حاول أن تتفهم الأمر يا عنكبوتنا العجوز.

كان عشاؤنا التقليدي يوم الخميس هذا الأسبوع في (ليسبلاناد) متوترًا لهذا السبب، فال"عنكبوت" وسيلفر عجزا عن مسائلتي أمام خواكو وأيبربي- فهما لم يكونا على اطلاع بالمسألة- واكتفيا بالسخرية مني بلا رحمة وكنت أشعر بأنني في حالة يُرثى لها، لدرجة أنني طلبت طبقي المفضل طائر الحجر بصوص الكستناء والشوكولاتة، لكن لم أقدر حتى على تذوقه، فمعدتي لم تكن في مزاج للاحتفالات، مع هراء الصحبة وملاحقة دولوريس وأزمة (أيروبيكس) وتأخر بابلو، وفوق كل هذا يد أخرى موضوعة فوق عنقي تتمثل في قرضين اضطررت لأخذهما لجلب المال اللازم. كان هذا يوم الخميس، ملكتي الصغيرة أجوستينا، وبعدها تمامًا في اليوم التالي.. بوووم! انفجرت قنبلة في (ليسبلاناد). لم يصب أحد منا بأذى وظلت أجسادنا على صورتها الأصلية في قطعة واحدة، حسنًا، أقصد من لم يكونوا في المطعم، لأن من كانوا هناك تشرذموا إلى أشلاء. نجوت بفارق ٢٤ ساعة، دميتي الجميلة، حظي كان رائعًا وانفجرت القنبلة الجمعة. لو انفجرت قبلها بيوم لم أكن لأصبح هنا لأحكي لك هذه القصة. كان انفجارًا هائلاً وفي الهواء طار الضيوف والطهاة والفرنسي كورتوا وقبوه الممتلئ بأنواع رائعة من النبيذ والنساء

ذوات الحقائب المصنوعة من جلد التمساح وجلد التمساح نفسه بل وحتى القطط الضالة، وحينما أعلن إسكوبار مسؤوليته عن الاعتداء، تساءل الكل عن ماهية الأسباب التي دفعته لكسر الهدنة مع أوليجاركية بوجوتا وزرع قنبلة ضخمة متوحشة في مطعم للأثرياء في قلب منطقة سكنية بشمال المدينة. قال البعض إنه كان ثائرًا وأعماه كبرياؤه بعدما تجاهلوه في أحد الأندية الاجتماعية، وذهب آخرون إلى أن وكالة مكافحة المخدرات كانت تضيق الأمور عليه، أو أن المسألة كانت بسبب تهديدات تسليمه للخارج، أو رفع اسمه من قوائم الانتخابات أو لأن الحكومة لم تلتزم باتفاقاتها معه، أو لكل الأسباب السابقة. ما حدث أن سكان الشمال بدأوا يرتعشون لأنهم كانوا يعتقدون حتى هذه اللحظة أن حرب بابلو لم تكن ضدهم، لكن قتلى ومصابي وأنقاض (ليسبلاناد) كانوا هناك لإثبات العكس. حاولت أن أشرح لهم دون رغبة منهم في الاقتناع أن ما يحدث لإسكوبار هو أنه مل من خلل عمل الميزان، الذي ارتكز على تسلمنا المال منه بيد ومحاولة قتله باليد الأخرى. وظل "العنكبوت" كحشرة النعرة التي تلدغ الجواد النبيل يلاحقني طوال الوقت:

- اشرح لي الآن، ميديتاس يا بني، هل أصيب بابلو بالجنون؟ ما الخراء الذي سيحدث لاستثمارنا؟ من سيجيبني؟

أما روني سيلفر فكان على نفس المنوال، بينما "مستريو" فكان لا حس ولا خبر، حتى دخلت في واحدة من مراحل الاكتئاب العميق التي تحدث لي أحيانًا وتقوقعت وحدي في غرفتي لأشغل وأطفئ أي شيء

بالريموت من على السرير وأنام ١٢ أو ١٤ ساعة متواصلة بستائر مغلقة في ليلة واحدة هانئة وطويلة، وهناك وسط ظلمة غرفتي، أميرتي أجوستينا، بعدما فصلت الهاتف، بدأت أفكر في بابلو وتذكرت لقائي الثاني والأخير معه. لم يكن في مزرعته (نابوليس) ولم يكن به راقصات سامبا ولا زرافات ولا مسبح أوليمبي ولا أي شيء من هذا الهراء، بل كان في منزل قبيح بدت رائحته كعرين نمر شرير. لم أعرف أبدًا في أي من أحياء ميدين الشعبية كان موجودًا، لأنهم اصطحبوني إلى هناك بعد تغمية عينيّ. على أي حال، فمخبأ "الزعيم" في تلك المرة لم يكن يحتوي سوى على عدة مقاعدة وبعض الأسرّة، وهناك كان بابلو موجودًا مرتديًا قميصًا وقبعة، وأسمن من ذي قبل. أضحكني لأنه أظهر لي صورة التقطها لنفسه قبلها بشهور. هل تخمنين أين كانت يا أجوستينا يا جميلة؟ حسنًا كانت أمام لا أكثر ولا أقل من البيت الأبيض في واشنطن، لأنه كما قال لي كان يدخل ويخرج من الولايات المتحدة كلما رغب. كانت الصورة حقًا لا تُعقل. بابلو إسكوبار، أكثر مجرم مطلوب في التاريخ يرتدي قميصًا أبيض وبوجه مكشوف، بلا نظارة سوداء أو قبعة أو لحية مستعارة أو جراحة تجميلية، هكذا بكل بساطة، كما هو، يقف كأي سائح مستندًا على السور الحديدي للبيت الأبيض، الذي كان يظهر في الخلف بأعمدته الإيونية وواجهته المثلثة الشمالية، لهذا أجوستينا، حينما رأيت هذه الصورة، قلت له:

- لا يمكنني التصديق، دون بابلو، الرئيس ريجان يبحث عنك في كل الكوكب وأنت أمام القضبان الحديدية لمقر إقامته.

فأجابني:

- مشكلة ريجان معي، صديقي ميداس، هو أنه من يقف خلف القضبان.

لكن تغيرت أحداث الفيلم منذ ذلك المساء الذي مر عليه بلا مشكلات في عاصمة "الإمبراطورية"، لأن داخل هذا المكان المتهالك والمظلم الذي أصبح مغارته لم أراه في خير حال، بل كانت هناك نقطة صغيرة جعلتني أفكر أن نهايته قد اقتربت: صندوق من الورق المقوى به بقايا من السمك المقلي كان قد تركه بعد تناول الطعام. اشتراه له بكل تأكيد المسلحون الذين كانوا يحرسونه من أحد المطاعم الشعبية الصغيرة. حتى الآن كل الأمور معقولة، لكن ما لم أفهمه، ملكتي أجوستينا، هو لم لم يأمر بابلو بأخذ هذه البقايا الدهنية والباردة بعيدًا، لا أعرف إن كنت لازلت معي، ليس شيئًا له أهمية، لكن هي واحدة من الأمور التي ألاحظها دائمًا، فأنا أميل لتفسير هذا النوع من الإهمال كأنها إشارة على التدهور.

لا يهدر بابلو وقته، يذهب مباشرة إلى قلب الموضوع وفي ظرف ٢٠ دقيقة كنا قد حددنا أربعة أمور عالقة بخصوص العمل وبدأ يسألني عن أكثر ما يقلقه، كان يرغب في معرفة ما الذي كان يُحاك في بوجوتا بخصوص معاهدة تسليم تجار المخدرات إلى الولايات المتحدة، وحينما أخبرته بأن الكونجرس بكل تأكيد سيصدق على سريان الأمر، شاهدته يرتعش من فرط الغضب المقدس وسمعته ينطق عبارة فظيعة، العبارة التي

تردد صداها داخل ذاكرتي بعدها بفترة حينما انفجرت قنبلة (ليسبلاناد)، وهذه العبارة هي التالية، ملكتي أجوستينا، انتبهي لها جيدًا لأنها هي التتويج التاريخي لثأره: "سأستثمر ثروتي لجعل هذا البلد يبكي". هل التقطي دوي المسألة يا عروسة؟

ولأن بابلو مثل طائر العنقاء ولديه تسعة أرواح مثل القطط، فبعد مرور وقت قليل تمكن من التغلب على تلك الفترة الصعبة التي كان يمر بها وقت لقائنا الثاني وأصبح مجددًا سيد الكون مع المزيد من راقصات السامبا وجيوش القتلة المأجورين وحفلات العربدة .بالدم في كل الأراضي الوطنية، والمزيد من الاجتماعات مع رؤوساء سابقين للجمهورية و المزيد من الزرافات والطائرات الصغيرة والمسابح الأوليمبية. كان قد مر في تلك الفترة عامان منذ سمعته ينطق ذلك التهديد، ثم جاءت هذه الليلة وحينما انفجرت قنبلة (ليسبلاناد) تذكرت المسألة وقلت لنفسي:

ـ لقد حانت الساعة. اللعنة!

"سأستثمر ثروتي لجعل هذا البلد يبكي"، هذا هو ما قاله لي بابلو، يا أجوستينا يا جميلة، وثروته تقريبًا هي الأكبر في العالم. إذا كان هذا الرجل سينتزع منا دمعة واحدة مقابل كل دولار يحققه، فاحسبي كم من دمعة سنذرفها.

***

سألت الخالة صوفي:

ـ متى كانت آخر مرة رأيت فيها أختك إوخينيا؟

مجرد سؤال روتيني لم أشتبه أبدًا في عيار الإجابة التي سيولدها.

ـ المرة الأخيرة؟ حسنًا كان في يوم الدينونة التي قضت على العائلة.

ـ عن أي شيء تتحدثين يا خالة صوفي؟

ـ عن هذا يا أجيلار..عن اليوم الذي لم يبق فيه من العائلة سوى الذكرى، ولقول الحقيقة، فإن الذكرى القاسية هي التي بقت. أحدثك عن أحد الشعانين منذ ١٣ عامًا.

ـ يوم أحد؟ يوم أحد! لماذا كل ما يحدث لنا يجب أن يحدث يوم أحد!

قصت عليّ الخالة صوفي:

ـ أجوستينا كانت فتاة عمرها ١٧ عامًا وأنهت في هذا العام الثانوية، أما خواكو فكان عمره ٢٠ عامًا وقد التحق بالجامعة بالفعل، أما بيتشي فكان قد أكمل عامه الخامس عشر، لكنه كان لا يزال طفلاً، صحيح أنه كان طويلاً للغاية ووصل إلى طوله الحالي ١٨٧ سم، إلا أنه كان لا يزال طفلاً، وخجولاً للغاية أيضًا، ويرتبط بصورة بائسة بالمنزل وبالأخص أخته أجوستينا. كان طفلاً قليل الأصدقاء.

كانت السادسة والنصف مساءً حينما حدث ما حدث وتناولوا- مثلما جرت العادة في كل أحد حينما كانوا في منزل المدينة- غداءً من مشروب الموز المثلج ويخنة الفلفل بكل ملحقاتها بجانب حلوى القشطة. حينما دقت الساعة الثالثة كان الجميع في المنزل وهو شيء غير اعتيادي.

ـ كان خواكو يرتدي حذاء رياضيًا وبنطالاً قصيرًا أبيض لأنه قضى الصباح في ممارسة الرياضة بالنادي، أما الطفلين الآخرين أجوستينا وبينشي، فكانا لا يزالا في بيجاما النوم، ففي أيام الأحد بمنزل لاكابريرا كان كارلوس بيثينتي الأب يمنحهم امتيازًا خاصًا للجلوس هكذا على طاولة الطعام. أنا وأختي إوخينيا كنا قد ذهبنا بالسعف لمباركته في عظة الثانية عشر في كنيسة (سانتا مارتا دي لوس أنخليس) وعدنا إلى المنزل سيرًا، توقفنا في أحد الأسواق بالشارع لشراء الأفوكادو من أجل اليخنة ولأن ساعة العصاري هذه كانت لذيذة، جلسنا لفترة على رصيف قصير لنتشمس قليلاً، وإن كنا في الحقيقة قد جلسنا لأن إبزيم فردة حذاء أختي إوخينيا قد انقطع. انظر كيف هي الحياة يا فتى، انظر كيف هي يا أجيلار، إذا لم ينقطع إبزيم الحذاء، لم نكن لنجلس ونتحدث معًا، وهو الأمر الذي كان غريبًا بيننا باستثناء فترات قليلة عشنا فيها معًا في هذه الحياة.

سألتها:

ـ هل تتذكرين هذه المحادثة؟

ـ أتذكرها بكل تأكيد. بدأنا بالحديث عن إبزيم الحذاء وتبادلنا بضعة عبارات حول كيف يُمكن اصلاحه وقلت لها: "غدًا إذا كنت ترغبين، حينما أذهب لمستوصف (أرينيراس)، قد أتركه عند محل لاصلاح الأحذية، سأسلم الفردتين لتغيير النعلين بالمرة".. حينها كنت أعمل منذ عدة سنوات كممرضة متطوعة في مستوصف لأبناء

عاملي الرمّالات في الشمال، ولا أعرف ما هي الطرق التي أخذتها محادثتنا، لكنها توقفت عند ساسايما، وهو الموضوع الذي كنا عادة نتجنبه لأنه حقل ألغام ممتلئ بأمور لا يجب الحديث عنها وحدثت هناك، لكن كان النصيب يرغب في ذلك اليوم أن ينتهي بنا الأمر ونحن نتحدث عن اللغز الذي شكله مرور فاراكس بطفولتنا.

سألتها:

- فاراكس؟ يبدو كاسم كلب.

أجابتني الخالة صوفي:

- لا فاراكس لم يكن كلبًا على الإطلاق، بل فتى يافع وسيم وأشقر يدرس البيانو. كان يدعى ابيليتو كابايرو، لكن كنا ندعوه فاراكس.

سألتها:

- ومن أين جاء اللقب؟

- هذا أمر لا أعرفه، فالألقاب مثل الأمثال، لا يمكن أبدًا معرفة من الذي اخترعها. على أي حال ففي ذلك اليوم ولأول مرة في حياتنا، بدأت أنا وإوخينيا في الاقتراب معًا من حواف هذا البئر الغامض الذي شكله مرور فاراكس في منزل عائلتنا والطريقة المتوحشة التي تغيرت بها الأمور بين أبي وأمي منذ جاء وظهوره نفسه الذي لم أجد له تفسيرًا. كنت أقترب أنا وإوخينيا رويدًا رويدًا من لب الموضوع

وكنت أنا من رفعت الجلسة مذكرة إياها بيخنة الفلفل. كنت أنا من منعت مُضينا قدمًا في هذه المسألة.

قلت لها:

ـ ربما بسبب الخوف.

ـ بالفعل.. ربما، فقط ربما، بسبب قناعتي أن كل الأسرار محفوظة في صندوق واحد، صندوق الأسرار، وإذا كشفت واحدًا منها، فهكذا تخاطر بكشف البقية.

قلت لها:

ـ وأنت كان لديك سر ضخم في مواجهة أختك.

ـ بالفعل لكن هذه مسألة اعترف لك بها، فدعنا لا نعد إلى هناك.

وافقتها:

حسنًا، لنستمر مع الأختين الجالستين وهما تتحدثان عقب مباركة السعف وتأخرهما قليلاً في العودة للمنزل.

ـ قلت لإوخينيا "هيا فيجب أن يكون زوجك وأبناؤك قد شعروا بالجوع"، فسألتني بعد ان ابتسمت. أعتقد الآن أنها ابتسمت بحزن: "كم من عام عشتيه معنا! أسمعك دائما تقولينها بهذه الصورة: زوجك وأبناؤك، زوجك وأبناؤك"، أتساءل إذا كنت في مرة ستقولين صهري وأبناء أختي. تحديدًا بسبب كلمات مثل هذه ـ الحارقة بالنسبة لي ـ كنت أتجنب المحادثات مع أختي.

اعترفت لي الخالة صوفي أنها كان تخشى مما قد يحدث:

ـ فمن ناحية كنت أشعر باندفاع لأكشف لإوخينيا كل شيء وأطلب منها لألف مرة غفرانًا أعرف أنها ستعجز عن منحه لي، لكن من ناحية أخرى كان هناك شيء داخلي يتمرد لتتولد فيّ رغبات فظيعة لأن أقول لها في وجهها: "زوجي وأبنائي، يا إوخينيا. زوجي وأبنائي، لأنهم لي أكثر مما هم لك".

لكن المحادثة اتخذت منعطفًا آخرًا ولم يواصلا الحديث لا بخصوص مسألة فاراكس ولا ذلك الموضوع الشائك الأكثر تعقيدًا، وظل الموضوع على حجمه لأنهما لم يعودا للحديث عنه مجددًا.

قالت لي الخالة صوفي:

ـ كان هذا الأمر أحد القوانين السارية في حياتنا: اللجوء لملاذ الصمت حينما تكون الحقيقة على وشك الازدهار.

فقلت لها:

ـ ويا للثمن الذي ندفعه بسبب هذا اللجوء!.

فردت الخالة صوفي:

ـ أعرف ما تقوله. تشير إلى العقد التي تعاني منها أجوستينا في رأسها.

ـ بالفعل يا خالة صوفي أشير تحديدًا إلى هذا.

- على أي حال ظل اليوم مشمسًا وضحكت أنا وإوخينيا فيما كان يتبقى من طريق نحو المنزل وهو أمر غير تقليدي، أقصد الاستماع لأختي تضحك. كنا نضحك لأنها كانت تعرج بسبب إبزيم الحذاء المقطوع، وبعدها أثناء الغداء جلست إوخينيا على رأس المائدة، كما هي جميلة وصامتة وشاردة، بينما انشغلت بتقديم يخنة الفلفل وأنا أدخل وأخرج من المطبخ لأتأكد من تجهيز صواني الدجاج والذرة ووضع كريمة اللبن في فناجينها الصحيحة، والقبار والأفوكادو، ويخنة الفلفل مع أعشاب الجواسكا الساخنة في الوعاء المصنوع من الطمي، لأنه في أيام الأحد كنا نقدم الطعام بملعقة خشبية في وعاء من الطمي الأسود الآتي من راكيرا، كما اعتدنا طوال الوقت حينما كنا في منزل أمي، وذلك رغمًا عن أن الطعام المحلي لم يكن أبدًا مرضيًّا لأبي، الذي كان وقت تلحين الـ"بامبوكوس" يصبح كولومبيًّا، لكنه في ساعة الطعام كان لا يزال ألمانيًّا، لكن كنت أقول لك يا أجيلار إنه في وجود كارلوس بيثينتي فإن أختي كانت تطبخ صامتة.

سألتها:

- وأجوستينا؟

- أجوستينا هي الأخرى. تلك الطفلة كانت تتأمل والدها وهي مأخوذة لدرجة أنها لم تكن تقدر على نطق ولو كلمة واحدة. بعد الغداء انشغل كل واحد لفترة بشيء يخصه. أغلق كارلوس بيثينتي وإوخينيا

عليهما غرفة النوم ورحل خواكو في سيارته أما أجوستينا فلا أعرف.

- حاولي التذكر يا خالة صوفي. أرغب في معرفة ما الذي فعلته أجوستينا بعد الغداء.

- لا أعرف يا أجيلار، فأي شيء سأقوله لك بخصوص هذا الأمر سيكون كذبًا، لكن على النقيض أتذكر بصورة مثالية أنني خرجت للحديقة الأمامية لتشذيب شجيرات الورد، وأيضًا أن "بيتشي" ارتدى سويتر فوق بيجامة النوم وجوربه وحذاءه ذي الرقبة الطويلة وقال إنه سيقود الدراجة عبر الحي، لكنه في الحقيقة كان يدور حول المربع السكني، مرة تلو الاخرى مع اتجاه عقارب الساعة، بحلقات شعره السوداء غير المصفف ووجهه شديد الجمال وعينيه العميقتين ورقة تقاسيمه التي تصل إلى حد الأنوثة، بل أنني حتى تساءلت: "متى سيكبر هذا المخلوق. يا له من فتى وحيد. لا بد من أن خوفه من والده هو الذي لا يسمح له بالنضج أو امتلاك الأصدقاء". فكرت في كل هذا وأتذكره بوضوح متوحش.. قرأت أنه حينما سقطت القنبلة الذرية على هيروشيما فإن الظلال ظلت مطبوعة على الجدران التي كانت تنعكس عليها، لذا أقول لك أن كل ما حدث أثناء إلقاء قنبلتنا الذرية العائلية ظل محفورًا بإزميل في ذاكرتي، لدرجة أنني أحتفظ في بؤبؤ عيني بصورة الورود الصفراء الطويلة التي قطفتها في ذلك المساء لمزهريات غرفة الطعام. كانت نحو الخامسة والنصف مساء حينما جلبت الخادمات الشوكولاتة مع

الـ"موخاباناس"[(١٨)] والـ"بانديوكاس"[(١٩)] إلى صالة التلفاز الصغيرة، ورويدًا رويدًا بدأنا نصل جميعًا، بما فينا خواكو الذي كان يصل دائمًا في وقت متأخر بأيام الأحد، والأغرب من هذا، أن كارلوث بيثينتي الأب كان موجودًا. هذا كان غريبًا بالفعل لأنه باستثناء ساعات تناول الطعام كان إما يتواجد خارج المنزل أو يغلق مكتبه على نفسه. لم يكن أبدًا رجل يُكرس وقتًا طويلاً لعائلته، لكن أقول لك يا أجيلار، أننا جميعًا كنا هناك كأن أحد ما قد استدعانا، كأن مخرج مسرحي يدير المشهد تأكد من عدم غياب أي أحد، بقولي هذا أرغب في أن أقول لك أن وجودنا جميعًا في هذا الموعد يوم الأحد كان مكتوبًا. ربما كنا بدأنا نصل إلى صالة التلفاز الصغيرة بعدما جذبتنا رائحة الـ"بانديوكاس" فور خروجها من الفرن، لكن هذا قد يكون تفسيرًا سهلاً، التفسير الوحيد العميق هو الاعتراف بأن ما حدث كان القدر يخطط له منذ وقت طويل.

قدمت الخالة صوفي الشوكولاتة وكان الطفلان الصغيران منشغلان في نقاش حول أي قناة سيشاهدانها في التلفاز، بينما بدأ كارلوث بيثينتي وخواكو مباراة شطرنج فيما كانت إوخينيا تغزل شالاً صوفيًا بلون الليلك.

ـ قد تسأل ما أهمية هذه التفاصيل الصغرى وسأرد عليك بأن لها كل الأهمية. لأن هذه كانت مرتنا الأخيرة معًا. دون أن يتوقع أحد

---

(١٨) نوع من المخبوزات المحشوة بالجبن والموجود في بعض دول أمريكا اللاتينية وأصله عربي ومشتق من كلمة "المُجبّنة".

(١٩) مخبوزات كولومبية تقليدية تصنع من الجبن ونشا شجرة الكاسافا ودقيق الخبيز والملح.

جاءت زيارة أميتا وهي خادمة عملت لعدة سنوات في المنزل، في الحقيقة منذ كانت صغيرة للغاية حتى اليوم الذي قالت فيه إنها حُبلى، قبل أحد عشر شهرًا من ذلك الأحد. هذا من ضمن الأشياءة الفظيعة في إوخينيا، الجانب المظلم من روحها، فحينما عرفت أن أميتا تنتظر مولودًا طردتها وبكى الأطفال، حاولت التدخل لكن إوخينيا كانت لا تلين. ربما حينها خرج من داخلها أيضًا ذلك النوع من الرعب الذي تشعر به تجاه الحياة الجنسية للآخرين وهو الأمر الذي حدد دائمًا حياتها، ربما هو رعب أيضًا من حياتها الجنسية الشخصية، لن يكون أمرًا غريبًا، لكن يأتي في المقام الأول هذا الاندفاع لرقابة الحياة الجنسية للآخرين وتنظيمها وهو كان شيئًا تشاركته مع كارلوس بيثينتي، داخل هذا الميل المظلم كانا يتواجدان هما الاثنان، كان يتفقان هناك، كانا يتواطئان هناك وهذا كان حجر أساس سلطة كل واحد منهما، شيء مثل العمود الفقري لكرامة العائلة، كأنهما عرفا عبر نوع من التعلم الوراثي أن من يتحكم في الحياة الجنسية لبقية العشيرة سيمسك عصا القيادة. لا أعرف إذا كنت تفهم إلى أي شيء أشير يا أجيلار.

- أفهم بكل تأكيد. إذا لم أفهم هذا لم أكن لأقدر على فك شفرات هذا البلد.

لكن الخالة صوفي ظلت تقدم شروحات وافرة كأنها تمنحها لنفسها أكثر من أي شخص آخر:

- هو أحد أشكال القوة التي تتفوق في شدتها على أي شيء وتجري مجرى الدم، رقابة قاسية وبغيضة للحياة الجنسية في أي صورة معبرة عنها كأنها شيء منفر، فإوخينيا كانت ترى القبلات بين أي ثنائي في الحديقة أو العناق في البحر كإهانة، لدرجة أنها كانت تعترض على عدم منع الشرطة قيامهم بـ"هذا" علانية، و"هذا" هنا ترتبط بأي شيء يتعلق بالحياة الجنسية أو الشهوانية، وهما شيئان لم يكن لهما أي اسم عندهما وتحصرهما فقط بالإشارة لهما بكلمة "هذا" التي كانت تنطقها بطريقة عوجاء كأن مجرد نطقها سيدنس فمها. لا أعرف من أي جاءت بهذه الفوبيا، لأنه لا أبي ولا أمي كانا هكذا. كان لديهما أشياء غريبة لكن هذه لم تكن من ضمنها، كما أن أهالي ساسايما لم يكونوا هكذا، إوخينيا في هذا أشبه بكارلوس بيثينتي، سأقول إنها تعملت منه، وانطلاقًا من هنا بدأت في اعداد نسختها المتطرفة، تفسير الحياة الجنسية للناس كتحدٍ شخصي يجب أن يكون خاصية قديمة في عائلات بوجوتا، أو ربما هذا الأمر تحديدًا هو الطابع المحدد لتميزها. لا أعرف كيف أقولها لك يا أجيلار، لكن ما أعرفه حقًا هو أن الألم يصنع عشه هنا في القلب، هو ألم يُورث ويتكاثر وينتقل، ألم يفرضه البعض على الآخرين، وفي حالة إوخينيا أشك في أنها كانت بنفس هذه القسوة حتى مع حياتها الحميمية الشخصية، لكن في حالة كارلوس بيثينتي أعرف أنها كانت مجرد واجهة.

اقترحت عليها وأنا أسألها على الفور:

ـ لنعد إلى ذلك الأحد حينما كان "بيتشي" يدور حول المربع السجني بالدراجة وأنت تشذبين أشجار الورود وأجوستينا موجودة في مكان ما بالمنزل، أم أنها كانت قد خرجت؟

أكدت لي الخالة صوفي:

ـ لا. لا. كانت لا تزال هناك. لا أعرف ما الذي كانت تفعله لكنها بكل تأكيد كانت هناك. كان المسرح قد نُصب بالفعل ونحن الممثلون مستعدين وكان ينقص فقط الضغط على زر التفجير والذي لم يتأخر كثيرًا في الوصول. كانت نحو السادسة والربع في ساعة الغروب، حينما دخلت أمينتا. كنا لم نرها منذ فترة وجلبت معها ابنتها حديثة الولادة. جاءت لتقدمها لنا ولإعلان أنه تكريمًا لأختي ولشخصي فإنها ستسميها إوخينيا صوفيا ولتطلب منهما أن يكونا عرابيها.

ـ لتطلب من من؟

ـ من إوخينيا وكارلوس بيثينتي. كان التعميد بعد عدة أسابيع، والطفلة كانت جميلة كدُمية. ألبستها أمينتا بالكامل باللون الوردي، غطاء الرأس والفستان والقفاز واللكلوك، حتى الغطاء الذي كان تلتحف به كان ورديًا بالكامل، وحينها عانقت إوخينيا أمينتا كأنها تقول لها "عفونا عنك"، لم تقلها لكن أعرف أنها فكرت في هذا، فالولادة بالنسبة لها كانت كغفران الخطيئة الكبرى، قالت أختي إوخينيا، وأنا الآن أقتبس كلامها بالضبط: "بالصوف المتبقي حينما أنتهي من الشال

سأحيك لهذه الجميلة زيًّا كاملاً ليحميها من برد المهد". كان هذا هو ما قالته نصًا. كما أقول لك يا أجيلار أتذكر كل إشارة وكل كلمة مما حدث حينها منذ ١٣ عامًا مثل الظلال المحفورة على جدران هيروشيما. أنا متأكدة أيضًا من أن أجوستينا تتذكر المسألة، خطوة تلو الأخرى وشيئًا تلو الأخر، أجوستينا وكل من كنا هناك لدينا تلك العلامة المختلجة في قلوبنا وذاكرتنا. كنا جميعًا نرغب في حمل طفلة أمينتا حديثة الولادة باستثناء كارلوس بيثينتي وخواكو اللذين كانا يتأملان المشاهدة من بُعدهما كرجلين يلعبان الشطرنج ولا يختلطان بأمور النساء هذه، وكانت الحركة التالية من نصيب أجوستينا. في ذكرياتي يُكرر كل منهم حركاته بالحرف في هذا السيناريو الذي لا يوجد مهرب منه، كأنهم ينفذون أدوارهم في رقصة مسرحية. نهضت أجوستينا، التي كانت تجلس على الأرض أمام التلفاز، وكما قلت لك كانت لا تزال ترتدي بيجامة النوم. أنت تعرفها.. بيجامة لم تكن في الحقيقة بيجامة بل أحد تلك القمصان الواسعة، تلك التي لا تزال تستخدمها للنوم، الفارق أنها الآن ترتدي قمصانك أما قبلها فكانت ترتدي قمصان أبيها. وقفت أجوستينا واقتربت من أمينتا وطلبت منها أن تحمل إوخينيا صوفيا. أخذت الطفلة بغريزة الأمومة التي تسمح للمرأة بمعرفة كيف تصنع مهدًا بذراعيها لمخلوق مثل هذا دون أن تفعلها من قبل وبدأت تداعبها وتقول لها بنصف لسان تلك الأشياء التي دائمًا ما تُقال للأطفال، بصحبة بعض الأصوات الضوضائية المتكررة كأنها محاكاة لهديل الرضيعة.

سألتني الخالة صوفي:

ـ أنت تعرف عن أي شيء أتحدث؟

وقلت لها نعم أنني أعرف وطلبت منها ألا تتوقف وتواصل الحكاية.

ـ ما قالته أجوستينا لطفلة أمينتا كان بالضبط "يا أخواتي على الجمال" وهي تداعبها بحب بطرف سبابتها أسفل شفتيها وفي تلك اللحظة نهض "بيتشي" الذي كان يجلس هو الآخر على الأرض ووقف خلف أجوستينا وهو ينظر للطفلة من فوق كتف أخته وداعبها بنفس الطريقة أسفل شفتيها وكرر الكلمات التي نطقتها أخته للتو بنصف لسان وبنبرة ولكنة متطابقة: "يا أخواتي على الجمال!"، وفي تلك اللحظة نهض كارلوس بيثينتي الأب، الذي كان حاضرًا كما أخبرتك لكن دون الإشتراك في هذا المشهد العائلي، من على مقعد الصالون وعينيه تشتعلان بالغضب ووجه لـ"بيتشي" ركلة شديدة العنف في ظهره بارتفاع كليتيه. كانت ضربة مفاجئة ومن شدة وحشيتها ألقت بالفتى على الأرض ليرتطم قبلها بالتلفاز الذي سقط أيضًا. تسارعت نبضات قلوبنا جميعًا داخل صدورنا كأنها ستنفجر وخلال بضع ثوان لم يصدر منا أي رد فعل، بعد أن أصابنا الشلل من هول ما حدث، وعلى الفور شاهدنا كارلوث بيثينتي الأب وهو يذهب نحو كارلوث بيثينتي الابن الذي كان لا يزال ساقطًا عن الأرض ليوجه له عدة ركلات أخرى في ساقيه وهو يقلده قائلاً:

- يا أخواتي على الجمال! يا أخواتي على الجمال. تكلم كالرجال. اللعنة. لا تكن مخنثًا.

* * *

تقول أجوستينا: وحينها جاء يوم غضبة "الأب" وكان الأخ الأصغر هو كبش الفداء. بسبب خطيئته، بسبب خطيئته، بسبب خطيئته الكبرى هو ملقى على الأرض وركلات "الأب" تتساقط عليه كالمطر. كم من مرة حذرتك، أخي الجميل الشاحب، يا طفلي المهزوم، من معارضة رغبة "الأب". "تحدث كرجل"، هكذا أمرك وحينما فعلت ما فعلت تحول إلى وحش قوي قد انتصب أمامك، أنت الذي لم تكن سوى مجرد طفل مضروب على الأرض، وقواي التي هربت مني لم تقدر على حمايتك، لم تصل لك. "تحدث كرجل"، هكذا أمرك وغضبه كان عادلاً ومهيبًا وملأ المنزل. بعدها تراجع هو للخلف، "الأب" نفسه، مندهشًا من قوته وقسوة عقابه. واعتدل الأخ الأصغر وأنير وجهه، أو ما كان يمكن رؤيته من وجهه خلف شباك حلقات شعره التي كانت تغطيه، بتعبير غريب هل بكيت يا "بيتشي"؟ هل رجوت الغفران؟ لا. لم تبك. لم ترغب في قول شيء. لم تمتلك صوت الرجل الذي طلبه "الأب" لقول حقائقك، بل اعتدلت في جلستك بصعوبة لأن ظهرك كان مصابًا واستندت بيدك عند مكان "الضربة الكبرى" ورفعت بالأخرى الآلة من على الأرض.

يسألها أجيلار:

ـ أي آلة يا أجوستينا؟

ـ الآلة التي انكسرت.

ـ هل تتحدثين عن التلفاز؟

ـ نعم أتحدث عن هذا.

ـ وما الذي فعله أخوك به؟

ـ وضعه مجددًا في مكانه؟

ـ ولم تعتقدين أنه فعل هذا؟

قالت أجوستينا:

ـ فعلها بدافع الكبرياء.

ثم غيرت نبرتها وعادت تتحدث إلى نفسها، تتكلم كأسقف، كأنها تعظم كل الأسماء، كأنها تتحدث مع أشخاص كانوا في الحقيقة غائبين:

ـ كان كبرياؤك هو ما رفع الآلة. هل كنت ترغب في إظهار أنك لن تركع لل"أب"؟ كنا نحن البقية ننظر لك من فراغ الألم.

يناديها أجيلار:

ـ تعالي يا أجوستينا. لا تتحدثي كأنك تلقين عظة. لنتحدث معًا. أنا وأنت.

ـ اتركني يا أجيلار. اتركني أواصل عظتي. لا تقاطعها، فمن المهم أن تعرف أن كل ما يفعله "الأب" الآن هو النظر واللهاث لأنه فقد أنفاسه بعد "الجهد الكبير"، إذا قاطعتني لا يمكنني إخبارك أن "الأب"

أصابه الإعياء بعدما أكمل واجبه المقدس بعقاب الابن. الآن هو في الظل وفقد دوره البطولي، لأن الأخ الأصغر، "الكبش"، هو من يتحرك وسط تماثيل الجير.

يسألها أجيلار:

- قولي لي ما هو اسم "الكبش" وما هي أسماء تماثيل الجير
- الكبش اسمه "بيتشي"، اسمه كارلوث بيثينتي كأبي لكن نناديه "بيتشي" وأسماء تماثيل الجير هي إوخينيا وخواكو وأجوستينا وبيتشي وأمينتا وصوفيا.
- من هي صوفيا؟
- صوفيا هي صوفي الأخت.
- أخت أبيك أم أمك؟
- ليست أخت أبي. لا. هي أخت أمي، وأخي الصغير، الذي نناديه "بيتشي"، هو من يعتدل الآن على الأرض، ورغمًا عن ظهره المتألم ينحني ويرفع الآلة.
- ألم نتفق أنه كان تلفازًا؟
- حسنًا، بالفعل، التلفاز الذي بات آلة مكسورة ووضعه في مكانه رغمًا عن تحطم الشاشة.
- هل تتذكرين ما كنتِ تشاهدينه أنت وأخوك في التلفاز قبل أن يغضب أبيك؟

ـ يا للأسئلة الغبية يا أجيلار. كنا نشاهد (هي مان وشيرا)[20]. تشاجرنا لفترة على القناة وفي النهاية اتفقنا على (هي مان وشيرا) وكنا سعداء. تذكر المسألة أمر جيد. أتساءل إذا كان "بيتشي" هو الآخر يتذكر مسألة (هي مان وشيرا)، لأنه بعدها بدقائق جاءت الضربة وانكسر التلفاز على الأرض وظل يطلق شرارًا لأنه كان لا يزال موصولاً. كان "بيتشي" هو من فصله. امتلك الهدوء اللازم لفصله. تحركت بهدوء يا "بيتشي بيتشيتو" ووقفت بكل طولك، كنت أطول من "الأخ الأكبر"، أطول بكثير من "الأب" ونظرت لنا جميعًا، واحدًا تلو الآخر، وأطلت نظرتك لكل واحد منا. سقطت على ركبتي لأتوسل للغفران بصوتي الداخلي ولأستدعي قواي، التي لم ترغب في الظهور لي بعد "الحدث". التف "بيتشي" ويده موضوعة مرة أخرى فوق منطقة الألم في ظهره وبالأخرى رفع مجددًا شعره من على وجهها وتمكننا في النهاية من مشاهدة أنه لا يبكي وخرج من هناك وهو يسير ببطء، كأنه ليس في عجلة، شاهدتك تبكي كثيرًا يا "بيتشي بيتشيتو" بعد ضربات "الأب"، لكن هذه المرة لا! هذه المرة كنت أنت الضحية السالمة التي انسحبت بعد الفداء.

يسألها أجيلار:

ـ عن أي فداء تتحدثين؟ الركلات التي وجهها أبوك له؟

فتقول له أجوستينا:

---

(٢٠) مسلسل كارتون للأطفال.

ـ إذا كنت تعرف، فلم تسأل. صورة "بيتشي" لا تفارقني كأنها حُفرت في عقلي.

يسألها أجيلار:

ـ ما الذي كان يرتديه؟

ـ زي الطقس.

ـ أعتقد أن هذا غير صحيح، فقد كان بالبيجامة.

ترد عليه أجوستينا بعد أن لانت نبرتها وانخفض صوتها:

ـ صحيح. كان لا يزال يرتدي البيجامة، لكن أنا رأيته طويلاً بصورة مدهشة. اعتقدت أن الباب لن يتسع لعبوره، شعره المنتفش كان الشيء الوحيد الهائج فيه، أما بقية كل ما فيه فكان يتحرك ببطء، بلا ترنح أو قلق، ولأنه من هناك كان يُمكن رؤية السلم الحجري الذي يلتف صعودًا إلى الطابق الثاني، فمن مكاننا شاهدنا كيف صعدت على السلالم، يا أخي، درجة تلو الأخرى. توقفت فقط للحظة لتثني ظهرك وتغلق عينيك قليلاً وعلى الفور واصلت "الصعود". حينها رغبت في اللحاق بك، لكن أوقفني فجأة هتاف الأب: "اتركوه وحده. لنرى إن كان سيتعلم في النهاية". أمر، وأطاعت أجوستينا. ظلت ساكنة في مكانها، بركبتين متورمتين. أنا أطيع رغبتك أيها "الأب". لا تدع غضبك يسقط فوقي. لقد انسحب "الكبش" الذي يضايق "الأب"، ويمكن أن يجلس "الأب" مجددًا ليستأنف مباراة الشطرنج مع الأخ الأكبر، من النقطة التي

أوقفها فيها لفرض "العقاب". فكرت حينها في أنه سيبكي الآن بعدما حبس نفسه في غرفته.

قالتها أجوستينا لأجيلار. هذا الرجل صاحب اللحية الذي يقف أمامها ويسمعها. تحب أجوستينا لحيته لأنها كثيفة وحريرية. تحب شاربه الأشيب.

- هذا هو ما فكرت فيه يا أجيلار، لكن "بيتشي" لم يحبس نفسه في غرفته بل غرفتي، وإن كنت قد عرفت هذا لاحقًا، اعتقدت أنه حبس نفسه في غرفته ليبكي بعد "العقاب" وأنه سيتركني أنا فقط أدخل ليحصل على "العزاء"، لكنها لم تذهب هذه المرة خوفًا من الأب الذي قال: "إلي أي شيء تنظرون، ليواصل كل منكم ما كان يفعله"، وهو الأمر الذي كان مستحيلاً بالنسبة لي رغمًا عن خوفي، لأنني كنت أشاهد التلفاز ولم أقدر، وكأن شيئًا لم يحدث استمر "الأب" في توزيع أوامره: "أنت يا أمينتا، يمكنك الرحيل. مبروك على ولادة ابنتك وأقبل أن أكون عرابها، واصلي الحياكة يا إوخينيا، وأنت يا صوفي، قدمي لي كأسًا آخر من الشوكولاتة؟

يسأل أجيلار:

- هذا هو ما كنتم تتناولونه، الشوكولاتة؟

فتقول أجوستينا:

ـ لا أرغب في الحديث عن هذا الموضوع. لا تقل مجددًا هذه الكلمة. الشوكولاتة. لا تعجبني.

ـ لا تحبين الكلمة أم الشوكولاتة؟

ـ لا أحبها حقًا يا أجيلار. لا أرغب في أن تسألني مجددًا. المهم هو أن أوامر "الأب" أشارت إلى أن كل شيء في المنزل يسير بصورة طبيعية، لكن يديه قالتا شيئًا آخر فقد كانتا ترتعشان. أراهما ترتعشان يا أجيلار، فحتى لو حاول "الأب" التظاهر فهو يختلج من وحشية أفعاله، في تلك اللحظة هو لا يزال بريئًا من "تبعات" أفعاله، أو ربما يستشعرها لكنه لا يعرف بوضوح ما هو قادم فوق رأسه، وحينها رأيناك يا "بيتشي بيتشيتو"، يا أخي الصغير الذي كم أرغب في رؤيته مجددًا، حينها شاهدنا "عودتك". أنت الآن تهبط على السلالم وتبدو ضخما وينير وجهك بالعدل والجمال. لا مكان للدموع في عينيك، فقط نظرة حازمة جعلت "الأب" يرتعش ولم تسمح ليده المستعدة للعبة التالية بوضع الحصان على اللوحة. لم ينجح الأب أبدًا في وضع هذه القطعة، يا أجيلار، ظل الحصان دائمًا في يد "الأب". أنت كنت "الحصان" يا أخي الأصغر لأن يدك كانت هي القطعة الحقيقية، النهائية، المدمرة التي ستحيل المنزل والحي أيضًا إلى حطام ، تذكر الأمر يا "بيتشي بيتشيتو"، فأنت قد نسيته، تذكر أننا كنا في الطقوس كنا نكرر هذا: أننا لن نستخدم "القوة" ونحن سعداء بأن الأمر سيدوم للأبد وأنها رغمًا عن كونها في حوزتنا إلا أننا لن نستخدمها فهذا هو مكمن قوتنا، إبقاؤها سرًا

وعدم استغلالها. نزل "بيتشي" على السلم وهو يشع نورًا، عاد الشقيق الأصغر نحونا متقزحًا، متطهرًا عبر الألم، متحصنًا في يده اليمنى بـ"مفاتيح الدمار".

ـ أتشيرين إلى صور الخالة؟

ـ نعم يا أجيلار. أتحدث عن هذا تحديدًا. جاء "بيتشي" وهو يرفعها عاليًا وتمكنت من الصراخ فيه بصوتي الداخلي، ذلك الذي لا يُسمع لكن صداه يتردد، صرخت فيه داخلي بكل قوة قوتي الغائبة: "لا تفعل هذا، يا أخي، تذكر الـ(قسم)، تذكر الـ(تحذير)، لو أظهرتها، لو رأوها، ستفقد قيمتها، لو كشفتها ستهرب قواي كما يهرب الماء من الأيدي لأنها قوى خفية والنور يصهرها. أكرر لك (التحذير)، مفاتيح الدمار تلمع وتغرس الرعب فقط حينما تظل مخفية، ستهزمني إذا كشفتها وأمام هزيمتي لن يقدر أحد على حمايتك من يد "الأب"، سامحني يا "بيتشي"، أطلب منك الغفران ألف مرة.

ـ لماذا تطلبين منه الغفران يا أجوستينا؟

ـ لأن تلك كانت "المرة الرهيبة" التي تخدرت فيها قواي لكن من الآن ومستقبلاً فإن أجوستينا ستمنع تكرار المسألة. تقسم لـ"بيتشي" بأنها ستصبح منتبهة بصورة أكبر. سأنتبه أكثر، أقسم لك يا "بيتشي بيتشيتو"، أعد ثقتك فيّ ولا تفعل ما ستفعله لأنك ستتركني بلا قوة، وأيضًا لأنك أقسمت في طقسنا أنك لن تفعلها أبدًا، انك لن تتركهم يعرفون ما نمتلكه، لكن "بيتشي" فعلها، على الطاولة

الصغيرة الموجودة في الوسط، وأمام أعين الجميع، "الأب" والأم والخالة، والأخ الأكبر، وأمامي، أمام أعين أجوستينا، الأخت التي كانت ترجو في صمت ألا يحدث هذا الذي حدث على الفور وقسم قصتنا إلى اثنتين، والأخ الأصغر الذي وصل طوله إلى ثلاثة أمتار.

يقاطعها أجيلار:

- أليس هذا كثيرًا؟

- حسنًا ليس كثيرًا للغاية، لنقل إلى مترين تقريبًا.

- هذا يبدو معقولاً بصورة أكبر.

- بطول مترين وهالة من حلقات الشعر الأسود التي تصل للسقف، ألقى بـ"الصور" وكل من كانوا هناك شاهدوها واشتعل الهواء وانفتحت الهوة من أسفل أقدامنا.

تقول أجوستينا له بصوت مختلف، صوت كل الأيام:

- أتفهم يا أجيلار؟ ما أرغب في قوله لك هو أنه بداية من هذه اللحظة لم تعد حياتنا كما كانت. أفهم الأمر الآن لكن أحيانًا أنسى.

أكملت أجوستينا للرجل صاحب اللحية الموجود هناك ليستمع إليها:

- غرست عينيّ في الأرض. لم أكن داخل جسدي حينما غرس الشقيق الأصغر نظرته المنتصرة في الأم، منتظرًا أن تضع فوق حلقات شعره

الأسود تاج الوريث لأنه هزم "الأب" للتو. كانت هناك، أمام عينيّ الأم، الأدلة على كره الأب، خداع الأب.

يصر أجيلار على سؤالها:

ـ أخبريني. ما هي هذه الأدلة.

تردد أجوستينا:

ـ هذه، هذه، سبق وأخبرتك "الصور".

ـ قولي لي أي "صور"

ـ أسأل الخالة صوفي عن الأمر.

ـ لا. أرغب في أن تقولي لي بنفسك.

ـ صور لنهدي الخالة صوفي التقطها أبي. الخالة صوفي العاهرة. الساقطة! الساقطة! وأبي الداعر! كان يفترض أن تعانق الأم الآن ابنها المصاب، "الكبش"، كان يفترض أنها ستأخذه بين ذراعيها المغرمين، الابن الضحية، الأم الضحية، كان يفترض أن العدل سيتحقق في النهاية وسُيطرد "الأب" الخائن من المملكة، لهذا غرس الابن الأصغر، "الكبش"، عينيه الواسعتين في عيني الأم في انتظار ترحيبها، لكن أنا كنت أعرف أن الأمور لن تسير بهذه الصورة، كنت أعرف هذا يا أجيلار، كنت أعرف أن هذا الدعم لا يمكن انتظاره من الأم، لأن قواي رغمًا عن غيابها، وبأصواتها الصغيرة همست في أذني. قالت لي إن هذا لن يحدث، إن الأم لن تتحالف أبدًا مع أصغر أبنائها، إن الأم لن تتحالف أبدًا مع الابنة.

ـ أتقصدين معك.

ـ أقصد مع الابنة، أو بمعنى آخر أجوستينا لهذا صرخت فيه: لا يا "بيتشي". لا تفعلها. رجوته بصوتي الداخلي، الذي لا يخرج لكن له صداه، لا تفعلها يا "بيتشي"، أنت تجهل أساليب الأم، لا يجب أن تثق فيها، فلتخشَ من الضعف الشديد للـ"أم"، ضعف الأم أكثر خطورة من غضبة "الأب"، لكن الابن الأصغر لم يصدق المسألة ولهذا سقطت الصور أمام أعين الجميع، تلك التي التقطها "الأب" للخالة "المستسلمة والعارية"، تلك التي اغتصبت زوج أختها، "الخالة الفظيعة"، التي ستُطرد هي و"الأب"، لكي تنسى الأم الأحزان والهجران. كان الشقيق الأصغر يرغب في الثأر لنفسه وللأم، لكي لا تصبح ملكة الثلوج بقطعة من الجليد مغروسة في قلبها، كان يرغب في التغلب على سلطة "الأب" التي تجرح وتُجبر على الركوع، كان يرغب في طرد "الأب" وإذابة قطعة الجليد المغروسة في قلب الأم. كان "بيتشي"، "الكبش"، المصاب في ظهره، ينظر لنا من علو طوله الهائلة، واستمرت امبراطورية "الكبش" لدقيقة، انحنت العائلة راكعة أمام دليل الخيانة، وحدها الأخت بقت بعيدة، بعينين مغلقتين لأنها الوحيدة التي كانت تعرف أن "ثورة الصور العظمى" قد بدأت، أن السر قد انكشف، أن صندوق باندورا قد فتح، وأن "الغضب" قد فك قيوده. ظل "الأب" مبهوتًا، ولأول مرة كان "الأب" أصغر من قزم، أصغر من فأر، أما الخالة صوفي، صاحبة النهدين الكبيرين، فقد غطت وجهها

بيديها، بينما كان الأخ الأكبر هو الوحيد الذي تجرأ على لمس الصور ليشاهدها واحدة تلو الأخرى، دون أن يحاول "الأب" حتى منعه لأن "الأب" كان قزمًا، كان فأرًا ينتظر فقط رد فعل الأمر. كان "الأب" ينتظر أن تدع الأم سيفها يسقط عليه، والأخ الأصغر فكان ينتظر أن تجعل الأم سيفها يسقط على رقبة "الأب"، أنا وحدي كنت من أعرف أن الأمور لن تسير بهذه الصورة، أننا لن نصنع تحالفًا مع الأم، وأنه على النقيض، فإن قوانا ستتعرض لتصفية أبدية وأن "الكشف العظيم" سيصبح بلا معنى، ومجرد لعبة أطفال بائسة.

تنظر أجوستينا لأجيلار وتضحك:

- أنت تسخر مني يا أجيلار لأنك تقول إنني أتحدث مثل طرزان حينما أهذي.

- تتحدثين مثل البابا.

- بالفعل صحيح. أحيانًا أتحدث مثل البابا حينما يوزع بركاته من شرفته في ساحة القديس بطرس.

***

وفمك يا أجوستينا؟ تعلمت الكثير من الأشياء عن فمك! كان الأمر يبعث على التوتر. صدقيني. أتحدث عن رؤيتك مجددًا وأنت تجلسين على الطرف الآخر من المائدة مثلما كنا طفلين، لكن هذه المرة

ليس بمنزلك في لاكابريرا، بل في مزرعتك الموجودة بالأراضي الباردة، حيث كنتم دائمًا يا آل لوندونيو تظهرون في أفضل أحوالكم، لا بل في أوجكم وعلى راحتكم، في سراويلكم المخملية القديمة، وفي أحذيتكم الطويلة ذات الأعناق المخصصة لركوب أحصنتكم، وأنتم تلبسون بأريحية سترات من صوف الـ"تويد" أو بلوفرات واسعة حيكت يدويًا من صوف الخراف الخام ذي الرائحة النفاذة، تلك الخراف التي كانت أيضًا، شأنها شأن الأحصنة، من أملاك حضراتكم. أنا لا أتحدث بكل تأكيد عن السترات الضيقة التي كانت تحيكها أمي بنفسها بإبر خضراء ورمادية اشترتها من محل الخردوات الواقع على الناصية. يجب أن تفهمي أنه بين هذا وذاك توجد مسافة كونية، فالملابس التي استخدمتموها آل لوندونيو فيما كنتم تطلقون عليه "الأراضي الباردة" تعمل بصورة جيدة وتفرض نفسها حينما تتكامل مع بطء الحركات المتماشية للغاية مع نمط المناظر الطبيعية وقراءة الكتب بالفرنسية بجوار المدفأة ووجود عدد كبير من الكلاب التي عاملتموها أفضل من البشر، ونصل هنا إلى نقطة أخرى معقدة، أتحدث عن معاشرة الكلاب، فهي أحد المتطلبات التي- شأنها شأن عباءة التعميد- إذا لم تولد بها فإنك لا تكتسبها. أنا على سبيل المثال لا يمكنني تجنب غسل يديَّ بعد لمس أي كلب لأن رائحته تلتصق بي وتضايقني، لكن هذا لا يحدث مع أي من حضراتكم آل لوندونيو، فأيًّا كان ما تفعلونه، وأيًّا كان من تختلطون معه، ففي مسألة طيب الرائحة تنتمون دائمًا إلى فريق (روجيه أند جاليت) الرزين والنظيف، باستثنائك أنت، أجوستينا يا حياتي، فأنت تميلين ولا أعرف السبب نحو العطور

التي يفترض أنها شرقية، لكنها تكدر شقيقك خواكو وتسبب له الحساسية.

أتذكر بوضوح جلي إعجابي بخواكو في كل مرة قال فيها ونحن بالمدرسة: "يوم الجمعة سنذهب إلى الأراضي الباردة"، في إشارة لمزرعته ذات السهوب، أو أيضًا: "أمي اليوم في الأراضي الحارة"، وهذه كانت مزرعة ساسايما، وإذا لم يكن هذا أو ذاك فكان يقول "سنبقى هنا"، وهنا تعني المنزل الواقع في المدينة بحي لاكابريرا السكني. فكيف لم أكن سأحبط بعد كل هذا؟ فأنا كنت أسمع أمي كل فجر وهي تقدم الشكر للـ"قلب المبارك" على منحنا قرض من (البنك المركزي للرهون العقارية) لدفع ثمن ٢٤ مترًا مربعًا هي مساحة هذه الشقة في سان لويس برتراند والتي نمت فيها كل ليلة منذ كان عمري ١٢ عامًا وحتى أصبح ١٩ عامًا. كانت هذه الشقة بالنسبة لي مدعاة لعار لا يمكن الاعتراف به ولم أرغب أبدًا في اصطحاب أي من أصدقائي إليها، وبالأخص خواكو، فقد حبكت على الجميع قصة أنني كنت أعيش في شقة علوية ببناية في حي "تشيكوه"، وهكذا مع هذا السيناريو فلم أكن قادرًا على اصطحاب أي منهم هناك لأن أمي مريضة وعلى عتبة القبر وأي ضجيج أو مضايقة قد تصبح مميتة لها. أمي المسكينة.. آه لو علمت بحجم الافتراء الذي أذعته عنها، بكرامتها وتضحياتها وفستانها الأسود الصغير، وحذائها الملتوي والسبحة التي لم تفارق يدها ورحلاتها من متجر إلى آخر بحثًا عن أفضل الأسعار للعدس والرز! أمي كانت تتفق بصورة مثالية مع حي كان الكل فيه متساوين تقريبًا، لنقل أن أمي كانت تتفق مع النموذج السائد

بين الأمهات في سان لويس برتراند، لكن اصطحابها للمدرسة لكي يراها أصدقائي؟ هذا لم يكن ليحدث أبدًا! أحدثك عن مشكلات معقدة، جميلتي أجوستينا. أنت تعرفتِ بالفعل عليها وتعرفين أن أمي المباركة من النساء اللواتي يبقين جوارب النيلون فوق الركبة بعقدة مشدودة تظهر حينما تضع ساقًا فوق الأخرى، بكلمات أخرى هو منظر مفزع. قلت لها دائمًا إنه إذا كان الالتهاب الوريدي يجعلها تعرج، فالسبب هو أن الأربطة الضاغطة التي تستخدمها مع جوارب النيلون تقطع دورتها الدموية. إذا كان حيي السكني لا يمكن تقديمه، فإن أمي المباركة كانت كذلك هي الأخرى، ولا يمكنك أن تتخيلي، أميرتي أجوستينا، الحيل التي اضطررت لهندستها عامًا تلو الآخر لأبقي كلاهما في الخفاء وكأنهما ليس لهما وجود أمام البقية، فلكي أقابل خواكو وبقية الرفقة أمام بنايتي المفترضة في حي "تشيكوه"، كنت أركب قبلها الحافلة من سان لويس وحتى تقاطع لاباراليلا مع الشارع ٩٢ لأقطع بعدها سريعًا ثمانية مربعات سكنية سيرًا على الأقدام لأصل قبل الموعد بعدة دقائق وألقي للبواب بإكرامية لكي لا يكشفني وأظهر بصورة مريعة، وبفضل باكورة هذه الممارسات، أصبحت ساحرًا فيما يتعلق بفن التظاهر، وحتى ساعته وتاريخه، طفلتي الحزينة، لا يوجد أحد من الطرف الذي تنتمين إليه في هذا العالم تعرف على أمي أو يعلم حتى بوجود هذه الشقة في سان لويس برتراند، حسنًا.. لا أحد سواك، فلأنني كنت أحبك وأثق فيك بصورة جمة اصطحبتك بالفعل لتناول تصبيرة الظهيرة في تلك الصينية البلاستيكية التي لا تُكسر مع أمي

المباركة وتحت قسم مقدس بأنك لن تكشفي هذا السر، ولست في حاجة لقول أنك حفظتيه كأنه سر ديني حتى يومنا هذا. أعتقد أن هذه الظروف المعيشية التي مررت بها في مراهقتي يجب أن تكون السبب وراء تنويمي مغناطيسيًا في حينه، بل وتنويمي مغناطيسيًّا حتى الآن، حينما علمت أنكم آل لوندونيو يمكنكم توزيع أسبوعكم على ثلاثة منازل مختلفة دون الحاجة للسفر، لأن رحلات حضراتكم كانت شيئًا آخر نحو أماكن بعيدة وعلى متن طائرة، لكن الطفل الذي كنت عليه لم يكن يهتم بهذا الأمر كثيرًا، كان ما يثير حيرتي حقًا هو مسألة عيشكم لحياة طبيعية بصورة متزامنة في ثلاثة منازل مختلفة دون الحاجة لحمل حقائبكم من ناحية إلى أخرى، لأن حضراتكم كان لديكم ملابس في الأنحاء الثلاثة، ليس هذا فحسب، بل و أيضًا اسطوانات موسيقى طويلة المدة، وأجهزة تلفاز، وطباخة وبستاني وألعاب وشباشب. كل هذه الأمور مضروبة في ثلاثة، بل وحتى بيجامات النوم كانت تنتظركم أسفل الوسادة حيثما وصلتم، أي حياة عائلية جميلة داخل مثلث متساوي الأضلاع بمنزل رائع في كل زاوية وكل مناخ ممكن، وعلى بعد ساعة ونصف واحدة من الاثنين المتبقين. هذا هو المطلوب، ملكتي أجوستينا. هذا بالنسبة لي كان قمة الأناقة، الثالوث المقدس، مكان لا يوجد شيء بعده في مسألة المثالية الجيومترية.

وبينما كنا هناك مجددًا في غرفة الطعام ومن الطرف الذي أجلس عليه على الطاولة تحققت رغم مرور السنوات أنك لا زلتِ تمتلكين نفس العينين المتسعتين بصورة هائلة ونفس الشعر الطويل والأصابع التي تطل

من ثقوب قفاز سائقي الدراجات النارية أو مدمني المخدرات، هذا القفاز الذي يثير العدوانية في شقيقك خواكو. تحققت من أن قوامك الرشيق لا يزال تائهًا في هذه الملابس السوداء التي تجدها أمك غير لائقة بالمرة ليوم مشمس في الريف. لدى دخولك كانوا ساخطين بعض الشيء من حضورك، عزيزتي أجوستينا، فأنتِ دائما كنت تهوين خرق قواعد ملبسهم لتشعريهم بعدم الراحة. المكان؟ مزرعة عائلتك في السهوب. الساعة؟ ظهيرة يوم السبت. المشكلة؟ سلسلة التبعات المدمرة التي كانت يجب أن تفضي إلى فشلي أنا وأنت، لكن لنضع توطئة للموضوع لنقل أن الأمور بدأت من اليوم السابق، يوم الجمعة، في السادسة مساء. كنت أجلس وحيدًا على فراشي وسط ظلمة الغرفة وأنا أغلق عينيّ بينما ينهار عالمي فوق رأسي، بعدما استولى شبح دولوريس على (أيروبيكس) وانهار وضعي المالي بسبب بابلو، ومع إصرار صديقيّ "العنكبوت" وسيلفر على شن حملة صليبية ذات طابع شخصي ضدي كأن متاعب طمعهما كانت ذنبي أنا، وفي هذه الأثناء يرن الهاتف، هو شقيقك خواكو يدعوني لقضاء عطلة الأسبوع في منزله بالأراضي الباردة، لكن أرفض بصورة قاطعة وبينما أنا على وشك إغلاق الهاتف والانغماس مجددًا في انفصالي التطوعي عن العالم، يُسقط اسمك من فمه قائلاً:

ـ أجوستينا ستأتي معنا.

ـ ماذا؟

وثبت وأنا أقولها لأهتم فجأة لأن هذه الجملة كانت أول شيء نجح منذ عدة أيام في لفت انتباهي ليؤكد لي خواكو:

ـ كما سمعت. قلت لك إن أجوستينا ستأتي معنا.

وحينها سألته وأنا متعجب عن سبب هذه المعجزة، وهي حقًا معجزة لأنك تزورين العائلة قليلاً منذ بدأت في العيش مع أجيلار، نظرًا لأن العائلة، التي لا ترغب في معرفة شيء عن أجيلار، تقبلك دائمًا طالما كنتِ حاضرة وحدك، لهذا سألت خواكو عن سبب المعجزة وقال لي إنه على ما يبدو فإن زوجك قد سافر لايياجيه للقيام بعمل ما وحينها تغير رأيي على الفور طفلتي أجوستينا بخصوص نزهة الأراضي الباردة وقلت لخواكو:

ـ حسنًا. أنا قادم.

لأنه حتى أكثر حالات الإحباط عنادًا لم تكن قادرة على منعي من استغلال هذه الفرصة الفريدة لرؤيتك ولتقضية عدة أيام بجانبك مع تلك الكلاب الضخمة المنتشرة حول أرجلنا في الرواقات الصامتة والمطلة على أشجار الأوكالبتوس المموجة في ساعة العصاري، مع رائحة السماد والرؤية المريحة لمزراع تمتد في الأفق. يا لجمال هذا الأمر الداعر، ملكتي أجوستينا، لو كنت أكذب حينما أقول إنه هو جنة عدن فليقطعوا إحدى يديّ. وفجأة كنا هناك في الفردوس بين أشجار الأوكالبتوس والكلاب وكل الأجواء الريفية وكنت تشعين لمعانًا أخاذًا، تمزحين كأنك في أفضل لحظاتك، تضحكين بسهولة لدرجة أنني، الذي لم أقابلك منذ عدة شهور، ظننت أنك قد شفيتي. تناولنا عدة أكواب من بيرة (هينيكين) وهزمتني بصورة فاضحة في لعبة (سكرابل)، دائمًا ما

كنت متوحشة فيما يتعلق بهذه اللعبة، وأيضًا في حل الكلمات المتقاطعة وبالمثل في صناعة الأحاجي والتقاط المعاني المزدوجة والألغاز، إن صح التعبير، كنت ماهرة في التلاعب باللغة واللعب وفقًا لنزواتك بالكلمات. كان يومًا رائعًا. كنتِ في غاية الجمال وكانت هناك مشكلة وحيدة يا أجوستينا يا روحي أنا، وهو أن عينيك كانتا تتسعان أكثر من العادة وأن شعرك كان يطول في كل مرة تفتح فيها أمك فمها لتُطلق واحدًا من تفسيراتها العُرفية للأشياء، تلك التفسيرات التي كانت تتعارض بكل وضوح مع كل الأدلة، وبعدها في غرفة الطعام هذه الممتلئة عن آخرها بصور قديسي الاستعمار كأنها كنيسة صغيرة، لاحظت أن كل كذبة بالنسبة لك كانت كعذاب شهيد، وأن كل إهمال كان شركًا لعقلك الهش، وظللتِ صامتة ومنفية على حافة هاويتك، بينما ظلت أمك وخواكو وزوجة خواكو يتنازعون على الكلمة وهم يناقشون النبأ العظيم، فقد اتصل "بيتشي" من المكسيك لإعلان أنه سيأتي قبل نهاية العام إلى البلاد لقضاء عدة أسابيع. بعد سنوات كثيرة من غياب "بيتشي" الذي رحل طفلاً، سيعود كبيرًا. لاحظت كيف هزك الخبر وسيطر عليك، ففي النهاية هذا الأخ الأصغر يجب أن يكون الشخص الوحيد الذي أحببتيه حقًا، ومن يعرف ماهية العصافير المجنونة التي بدأت تطير في رأسك مع إعلان عودته، لكن بقية العائلة كانت في حالة ترقب، فأمك تقترب من الموضوع وتبتعد عنه، تلف العبارات وتُحلّيها بتلك الموهبة المدهشة التي طالما ميزتها، في تغطية الأمور، تلك الموهبة التي يستخدمها خواكو برشاقة كبيرة لأنه تدرب عليها من الصغر

لتبقى الحقائق السهلة عالقة داخل شراب الغموض هذا الذي يتناسب مع كل شيء ويُمدِنه حتى لا يتبقى أي شيء من جوهره الأصلي، أو لحين إنتاج مراجعات تاريخية ملائمة وأكاذيب كبرى بحجم الجبال يحيلها التوافق القائم بينهما إلى حقائق أصلية. أتحدث عن جواهر مثل هذه: أن "بيتشي" رحل نحو المكسيك لرغبته في الدراسة هناك وليس لأن أساليبه الأنثوية تسببت له في علقات متكررة من أبيه، أن الخالة صوفي ليس لها وجود، أو أنه يكفي عدم الإشارة إليها لكي لا تصبح موجودة، أن السيد كارلوس بيثينتي لوندونيو أحب أبناءه الثلاثة بالتساوي وكان زوجًا وفيًّا حتى يوم مماته، أن أجوستينا رحلت من منزل العائلة وهي في السابعة عشر لكونها متمردة، و"هيبي" ومحبة للماريجوانا وليس لأنها فضلت الهروب قبل الاعتراف لأبيها بأنها كانت حُبلى، أن ميداس لم يجعل أجوستينا تحمل ولم يتركها بعدها، أنها لم تضطر للذهاب وحيدة للإجهاض، أن السيد كارلوس بيثينتي لم يمت بسبب مرض مزمن بل بسبب الألم الأخلاقي الذي تعرض له في يوم مر فيه بسيارته من شارع الـ"هيبيز" حيث رأى ابنته الوحيدة أجوستينا تجلس على الرصيف وهي تبيع سلاسل من الحبوب والكرات الملونة، أن خواكو لم يجرد شقيقيه من ميراث الوالد، بل هو يصنع خدمة بإدارته لهما، أنه لا يوجد رجل يدعى أجيلار، وإذا كان موجودًا فهو لا يرتبط بأي شيء بعائلة لوندونيو، وأن الطفلة أجوستينا ليست مجنونة بالكامل، بل هي "هكذا"- يقولها إوخينيا وخواكو بهذه الصورة لكنهما لا يوضحان ما هو معنى "هكذا"- أو أنها متوترة أو يجب أن تتناول (إكوانيل)، أو أنها لم تنم

جيدًا في الليلة الماضية، أو أنها تحتاج لتحليل نفسي، أو أنها تجعل أمها تعاني فقط من أجل معارضتها، أو أنها كانت دائمًا غريبة بعض الشيء. هذا هو (كتالوج آل لوندونيو للأكاذيب الأساسية)، لكن كل واحدة من هذه الأكاذيب تنقسم إلى مئة فرع في فنون التمويه.

وفي هذه الأثناء، بينما نظرت إليك يا أجوستينا يا حياتي، وأنت هناك عند الطرف الآخر من الطاولة، لاحظت أن سماعك لموسوعة أنصاف الحقائق هذه منعك من تناول ولو قضمة واحدة وأن طعامك بات باردًا في طبقك، ورأيت يديك البيضاوتين الجميلتين تتشابكان كأن كل واحدة فيهما ترغب في تفتيت الأخرى. يداك المتدثرتان دائمًا بهذا القفاز الغريب الذي لا تنزعينه أبدًا والذي سيتسبب بعدها بقليل، لنقل في ساعة تناول الحلوى، في أن يخبرك خواكو بنبرة غاضبة إنه من المستحسن أن تنزعيه للجلوس على الطاولة، وحينما يقول لك هذا، ستصبحين شاحبة، رغمًا عن أن لون بشرتك نفسه شفاف بفعل كينونته وستكونين على الحافة، حافة هذا الشيء الذي لا اسم له لأن أمك تولت مهمة محو هذه الكلمة من قائمة الكلمات المسموح بها في منزلك، سيتحدث خواكو بحماس، يا طفلتي الجميلة المجنونة، عن نزهات الخيول التي سيقوم بها مع "بيتشي" لدى وصوله وتعلن أمك أنها ستعد له طاسة كبيرة من حلوى اللبن لكي يأكلها بمفرده وتتوقع السعادة الكبرى التي سيشعر بها "بيتشي" حينما يرى أن غرفته في منزل لاكابريرا لم تمس. تقول أمك متأثرة:

- أنا لم ألمس شيئًا.

والحقيقة أنها متأثرة بالفعل، إلى حد البكاء، لذا تقول وصوتها ينكسر:

- أنا لم أحرك شيئًا من هنا. لا ملابسك ولا ألعابك كل شيء لا يزال كما هو منذ رحلت، كأن الزمن لم يمر.

كأن شيئًا لم يحدث. أليس كذلك يا إوخينيا؟ لأنه في عائلتك يا إوخينيا. لا يحدث شيء أبدًا. هذا هو ما كنت أرغب في قوله لها لكي تتوقفي أنت يا أجوستينا عن عقد يديك. طفلتي المسكينة يزداد ابتعادها ويزداد شحوبها بينما أتساءل ما الذي يمكنني فعله لأزيل تعبير الفزع هذا من على وجهك، الذي يدل على أن شيئًا وشيكًا سيحدث لك، أن شيئًا ما يقترب، أن شيئًا ما يقترب دون أن يكون له مسمى. حينما يصل بيتشي تخطط إوخينيا لتنظيم نزهة عظيمة في ساسايما، الأولى منذ عدة سنوات لأن المزرعة باتت مهجورة وفي يد الخادم بسبب العنف، لذا تقول إوخينيا بعينين امتلأتا بالدموع:

- لكن سننظم عودتنا إلى الأراضي الحارة. سأمر بطلاء كل المنزل وإصلاح المسبح للاحتفال بوصول بيتشي بنزهة عائلية كبيرة في ساسايما.

ويوافق خواكو ويوضح أنه في هذه المرة سيترك أمه تفرح بالأمور الصغيرة، كما يفعل دائمًا، لكن أي منهما لا يتحدث عن النقاش المتوحش الذي جرى بينهما قبل الغداء بقليل، وهما محبوسان وحدهما في المكتبة التي لا تتمتع حوائطها بالسمك الكافي لمنع البقية الموجودة في

الخارج من الاستماع لما جرى، فحتى زوجة خواكو الحمقاء ذات الطرطور أدركت أنه يجب التظاهر بأن أحدًا لم يستمع لصراخ خواكو وهو يحذر أمه من أنه إذا جاء "بيتشي" إلى بوجوتا مع رفيقه العاطفي في المكسيك، فلا "بيتشي" ورفيقه الداعر سيدخلان هذا المنزل، ولا منزل لا كابريرا، ولا منزل الأراضي الحارة.

- لأنهما إذا اقتربا من هنا سأخرجهما ضربًا بالركلات.

وتصرخ أمك فيه لكن بحدة أقل وهي تكرر عبارة واحدة مرة تلو الأخرى:

- اخرس يا خواكو. لا تقل هذه الأشياء الرهيبة.

فما هو رهيب ولا يجب قوله بالنسبة لها هو أن "بيتشي" لديه رفيق عاطفي وليس أن خواكو سيخرجه ورفيقه ضربًا بالركلات، لكن في النهاية ركّب كل من كان في الخارج أذانًا صماء، فمن تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه. وكأنهما نسيا محادثتهما الصارخة منذ لحظة في المكتبة، وكأن "بيتشي" لم يكن لديه حبيب في المكسيك، وكأن عدم ذكر هذا الأخير يعني حكمًا بعدم وجوده، خططت أمك وخواكو طوال الغداء الإصلاحات التي سيقومان بها في ساسايما من أجل زيارة "بيتشي". بعدما فرغنا من الطعام أخذت خادمة الأطباق ووضعت الأخرى الحلوى على الطاولة، وفي اللحظة التي مددت يدك لأخذ تفاحة من طبق الفاكهة، لم يقدر فجأة شقيقك خواكو، الذي كان يبذل جهدًا

ضخمًا لضبط نفسه، على تحمل المزيد ثم آمرك بأن تنزعي قفازك "العفن" في التو واللحظة.

* * *

كان نيكولاس يرى في النهر نُسخًا طافية من أوفيليا[٢١]، لكنها أصغر سنًا كأخته الكبرى إلسه التي لم تخرج أبدًا من ألمانيا، وإذا كانت قد خرجت منها يومًا ما، فهذا لأن النهر جرفها إلى أراضٍ أخرى.

خلال موسم الأمطار، حينما اضطروا للبقاء لساعات طويلة بين الأروقة المفتوحة لمنزل ساسايما الريفي ليتحدثوا وهم يشاهدون هطول السيول، أخبر نيكولاس بلانكا وفاراكس بحكايتها. قص عليهم كيف جلبت العار للعائلة في مسقط رأسه بكاوب بصورة هددت بتفكيكها. كشف لهما نيكولاس بكلمات يحرسها الحياء والألم التوتر البالغ الذي كان يتولد حول كينونتها البائسة، بل إنه ترجم لهما خطابين بالألمانية، الأول يحثه فيه والده على مراقبة التصرفات الأخلاقية لأخته، وفي الثاني تُلمح أمه عبر كلمات مُجمّلة إلى أفعال "غير لائقة ومؤسفة" تمارسها إلسه علنًا وجلبت الخزي للعائلة.

كشف نيكولاس لهما أن هذه الأفعال المخزية كانت مرتبطة بنوع معين من الحكة. كانت إلسه مصابة بنوع من الآكلان القاسي الذي قادها بقسوة نحو هلاكها. حتى ولو قيل إنه لا أحد يهلك من وصمات

---

(٢١) شخصية أدبية لشكسبير في مسرحية هاملت انتحرت غرقًا.

يُمكن التعامل معها عبر الإذعان والكتمان وإبقاءها سرًا، إلا أن هذا لم يحدث كما تبين في اليوم الذي جاء فيه إلى منزل آل بورتولينوس بكاوب مجموعة من الأقارب متشحين بالسواد في زيارة عزاء بعد موت إحدى الخالات. جلسوا بكل كياسة، لنعي الفقيدة في صمت مطموس، على كَراسٍ تراصت على شكل دائرة حول سجادة وطاولة صغيرة. كان الأمر يبدو كأنهم ينتظرون في مسرح فارغ- وأيديهم على حوافه- بداية أحد العروض، وإن كانوا يعرفون بالطبع أنه لن تُقام أي عروض، بل على النقيض من هذا، فما استدعاهم كان قد انتهي أمره بالفعل ،وهو بمعنى آخر النزاع الطويل للخالة التي ماتت بسبب مرض لا اسم له مثل كل الأمراض التي تجر كل الخالات مثلها نحو القبر. كان كل الحاضرين مطأطئي الرأس وعيونهم مُعلّقة بغرض صغير، ربما كان خاتمًا أو قطعة من الورق أو زر معطف ظلوا يمررونه فيما بينهم وهم ينتظرون ختام مراسم العزاء وقدوم لحظة الوداع، وحينها بدأ أحد المقاعد في الاهتزاز. رفعوا جميعًا أنظارهم نحو مصدر الضجيج ليشاهدوا مندهشين أن الطفلة السه، التي كانت تتشح بالسواد وتبدو كامرأة جميلة للغاية باعتراف أقارب أبويها، وضعت يدها أسفل تنورتها لتفرك ما بين ساقيها بحركات متشنجة وأعين تائهة، كأنها وحدها، كأن الاحترام ليس أمرًا مفروضًا في ليالي العزاء، كأن أبويها لم يجذباها من ذراعها لإخراجها فورًا من هناك وهما يشعران بالعار والارتباك.

وفقًا لبلانكا، التي تنسخ في مذكراتها الكلمات التي سمعتها من نيكولاس، فإن سبب تصرف إلسه كان آكلان "يسمم أثمن أجزاء

جسدها"، أو لقول الأمر وفقًا للمصطلحات الطبية، فهي حكة تؤثر على أعضائها التناسلية، والتي يعرف كل من عانى منها، أنها لا تجبر المصاب بها على الهرش فقط، بل أيضًا الاستمناء، لأنها بخلاف الألم الناجم عنها، فهي تُثير، وتطلق جزعًا مشابهًا للرغبة لكنه أكثر حدة. أعلن الأبوان عجزهما عن السيطرة على ابنتهما، بعد تجربة عدة علاجات متنوعة، واختارا حبسها في غرفتها لساعات طويلة تحولت رويدًا رويدًا إلى أيام، وفي عزلتها انغمست في حالة تدهور عقلي بطيئة شخصها أطباء تلك الفترة على أساس أنها جنون صامت أو اختلال عقلي يتمدد في صمت، بمعنى آخر، انكفاء متقدم نحو داخلها بشكل جعل كل ما يُرى منها في الخارج خليطًا مقلقًا ومزعجًا من الأمور الباطنية والظاهرة وشذوذ الحركة والاستمناء. باتت إلسه بمرور الوقت فتاة ضائعة بالنسبة للعالم، ومهزومة من قبل تلك الحُرقة فيما بين ساقيها والناجمة عن الطفح والبثرات والتقيحات التي غطت فرجها لتجعله حاضرًا بصورة فجة لكنه في نفس الوقت غير صا لح للرؤية، محمومًا من الرغبة لكنه في نفس الوقت غير مرغوب، منفرًا أمام أعين البقية، وبالأخص منفرًا أمام عينيها.

بينما يحدث كل هذا، كان نيكولاس ينضج بصورة رائعة، مفعمًا بالحُسن كمريم العذراء- كما اعتادت أن تقول أمه- قوي الذاكرة ليتلو قصائد طويلة وموهوبًا في العزف على البيانو، بمعنى آخر كان نيكولاس هو الطفل الذي تصفه الخالات- قبل موتهن بأمراض لا مسمى لها- بأنه كامل الأوصاف، شمس أبويه اللذين كانت إلسه بالنسبة لهما عقوبة غير

مستحقة. كان نيكولاس، الطفل الجميل، يسمع كيف يصرخ أبوه وهو فاقد للسيطرة في السه:

- لا تفعلي هذا يا خنزيرة. إنه أمر قذر.

وشاهده يلجأ معها لاستخدام القوة الجسدية، في حالة بين الهياج والكرب، لكي لا تضع يدها هناك في الأسفل، فهذا أسوأ شيء قد يحدث للعائلة. كانت السيدة أمه تبكي:

- أفضل أي شيء عن هذا، أي شيء، حتى الموت نفسه.

كان هذا التعنيف الذي تتحمله إلسه باستسلام وبعناد قائم على عدم زحزحة تصرفاتها ولو قيد أنملة يؤلم نيكولاس كأنه حديد مستعر، كان في صمت أخته الغريب شيء مفترس لا يشبع، يصيبه بالرعب لكنه يستهويه وحينما كان يعثر عليها ويديها مربوطة خلف ظهرها، وهي العقوبة التي شاع فرضها عليها، كان ينتظر ابتعاد الأبوين لتحريرها، وحينما يرى أنها تعود لتكرار الأمر، كان يقترب منها ويقول لها في أذنها، بأكثر نبرة مقنعة ممكنة:

- لا تفعلي هذا، وإلا سيأتي أبي ويربطك من جديد.

من عد الساعات التي قضاها الطفل نيكولاس مستندًا على ذلك الباب المغلق بالمفتاح وهو يشعر على وقع نبضة تلو الأخرى كيف كان يختلج آكلان أخته المتوحش في الجانب الآخر؟ بعدها سقط الثلج وذاب الثلج وغنت العصافير فوق أشجار الكرز المزدهرة وكل هذه الأشياء

التي تحدث في الدول التي لا تنتمي إلى هذا الجزء الذي نحيا فيه من العالم، وظل الطفل نيكولاس يطور أذواقه ويظهر مواهبه، كانت الطفلة إلسه تجتر حيرتها وهي محبوسة داخل غرفتها ومتقوقعة داخل زمنها، وهي تعاني بمرور الوقت من ظلها نفسه، ثم تعلم نيكولاس سرقة المفتاح واختراق خدع الألغاز وجعل عذاب أخته عذابه، ليجلس بجانبها ويتظاهر بأن يديه هو الآخر مقيدتين خلف ظهره. كان يواسيها:

- أترين يا السه؟ أنا الآخر عاقبوني مثلك. أنت لست الشريرة الوحيدة.

لكنها كانت تبدو كأنها لا تسمعه، فهي مشغولة دائمًا بهذا الأكلان الذي يلتهمها، بداية من أحشائها، ثم ساقيها، فجذعها، فنهديها، فأذنيها، فأنفها، يلتهمها كلها، بما فيها عينيها، وحتى صوتها وشعرها..كل كيانها. كان نهمها الداخلي يستهلكها، كلها عدا فرجها، الذي كان يتقد من فرط الالتهاب والهجر، كفنار حزين يدل على هلاكها. وأيضًا هلاك نيكولاس شقيقها؟ لأنه حدث لاحقًا أن أهدته أمه، هو الابن الذهبي، بيانو صغير اعترافًا بموهبته المبكرة، بيانو أبيض كما وصفه بورتولينوس في مذكراته. بجانب تحقيق آمال أمه وإثارة إعجاب الكل بموهبته في السهرات العائلية، فقد كان يعزف سرًا موسيقى لاندلر والفالس لإلسه وحدها:

- أرقصي يا أختي الجميلة.

لتخرج إلسه من زاويتها المنعزلة وترقص، رقصات عرجاء لكنها في النهاية رقصات، ولو كان كل هذا لا يكفي، فإنها ذات مرة ابتسمت

بينما ترقص، وحينها علم نيكولاس ما هي فائدة الموسيقى وتمنى من كل روحه أن يصبح يومًا ما عازفًا محترفًا. لكن ذات ليلة شتاء لا تُنسى ألقت إلسه بنفسها في نهر الراين ضمن نوبة حمى لتموت غرقًا، وحينها عرف نيكولاس شيئًا آخر، شيئًا قد يكون قد تحقق منه بشحمه ولحمه حينما أصبح بالغًا، وهو أنه أمام لطمات الجنون، فإن الموسيقى نفسها، إن عاجلاً أم آجلاً، ستنهزم. قد يُقال إن الآكلان في فرج الأخت صنع عشًا له في روح الأخ، الذي قضي أيامه وهو يردد أسماء الأنهار بترتيب أبجدي: هاسه ، هافل، هونته، كوتشر، ليخ، ليده، ربما ليصاحب إلسه في رحلتها الطويلة، إلسه التي في عناءها نحو العدم تمر طافية أسفل جسر كاوب الحجري القديم، بينما على الجانب الآخر من المحيط تجلس بلانكا فوق حجر أسود على ضفاف نهر "دولثى"، لمشاهدة المياه وهي تجري.

* * *

أخبرتني الخالة صوفي بأن لديها مدخرات في المكسيك وعرضت سداد كل ما يلزم لتقديم العلاج الطبي المناسب لأجوستينا. بعد واقعة المنزل المنقسم، التي خرجنا منها منهكين ومُغربلين ومجروحين، سكبت كل ما لديها، بعد أن نقحته قبلها بعدة أيام احترامًا لخصوصيتي مع أجوستينا وما أطلقت عليه بصورة غامضة "أساليبي". انفجرت الخالة صوفي في النهاية وعنفتني على عدم تلقي أجوستينا الاهتمام الطبي المناسب. قالت لي:

ـ بات واضحًا أن المشكلة لا تُحل عبر الحب والصبر.

ولأول مرة منذ تواجدها معنا شاهدتها غاضبة، وإن كانت قد اعتذرت وهي تشرح لي أنها تشعر بأنها أوشكت على استنفاد قواها، وأن أعصابها باتت على وشك الانهيار، وأنها لا تتخيل كيف يمكنني مقاومة حالة التوتر القصوى القائمة في بيتي يومًا تلو الأخر:

ـ إذا سمحت لي، فيجب أن أن أقولك لك..

طلبت الخالة صوفي إذني لتخبرني بشيء لكنها قالته قبل أن أسمح لها:

ـ عدم معالجة هذه الفتاة عبر أخصائي يبدو لي فعلاً اجراميًّا بحقها، وبحقك أنت أيضًا.

أجبتها:

ـ كل أنواع الأطباء والمستشفيات والعقاقير والعلاجات.. لا يوجد شيء على مدار تلك السنوات الثلاثة التي عشناها معًا لم نجربه، وحينما أقول لا يوجد شيء فأنا أعنيها: التحليل النفسي؟ علاج الأزواج؟ الليثيوم؟ (بروزاك)؟ علاج السلوك؟ (جيستالت)؟ سمِّ شيئًا واحدًا يا خالة صوفي وسترين أننا قد جربناه بالفعل.

ولأنها نظرت لي بوجه مندهش، بذلت جهدًا لأمدها بتفسير عقلاني:

- ما يحدث يا خالة صوفي، هو أنه حينما تكون أجوستينا في حالة جيدة فهي امرأة شديدة الاستثنائية، شديدة السحر، لدرجة أن المرات الكثيرة التي تسوء فيها حالتها تنمحي من ذهني، في كل مرة نتخطى فيها أزمة أقنع نفسي بأن هذا هو الظهور الأخير لمشكلة عابرة، بكلمات أخرى يا خالة صوفي، دائمًا ما رفضت الاعتراف بأن أجوستينا مريضة، لكن هذا لا يعني أنني لم أفعل كل ما في وسعي لشفائها، أقول لك إنني تركت عملي كأستاذ.. حسنًا في البداية كانت المسألة لأنهم أغلقوا الجامعة، لكن كما يعرف الكل فإنهم أعادوا افتتاحها منذ عدة شهور، ما يحدث هو أن العمل في مسألة (بورينا) يتيح لي وقت فراغ أقدم فيه لها العناية التي تتطلبها. أعترف لك بأننا لم نمر أبدًا بموقف شديد الخطورة مثل هذا. نعم كانت التقلبات موجودة وبكل الألوان والمقاسات، أزمات اكتئاب تنعزل فيها أجوستينا في صمت مُحمل بالأسرار والأحزان، فترات هائجة تمارس فيها إلى حد الإنهاك نشاطًا ما بصورة مهووسة ومفرطة، أشواق ذات لمسة صوفية تُهيمن فيها الصلوات والشعائر، فترات خواء عاطفي تتشبث فيها بي بقلق كأنها يتيمة، فترات بُعد ولامبالاة لا تراني ولا تسمعني فيها ولا يبدو حينها أنها تعرفني حتى، لكن حتى الآن لم تكن هناك مشكلة بمثل هذا العمق والعنف والامتداد. كانت المرة الأخيرة منذ خمسة شهور وفيها كانت تستمع لثلاثيات شوبرت(٢٢) لتبكي معها لساعات كاملة. حينما تركتها في الصباح

---

(٢٢) فرانز شوبرت: مؤلف موسيقي نمساوي ألف أكثر من ألف مقطوعة رغم رحيله المبكر.

كانت هادئة ومنشغلة في أمر آخر ولدى عودتي في المساء وجدتها مرة أخرى مكتئبة وهي تؤكد أن شوبرت هو الوحيد في كل هذا العالم الذي يفهم أحزانها، الأمر المضحك أن هذا التناغم البائس كان فقط مع الثلاثيات. حسنًا.. مع الثلاثيات ومقطوعة (الموت والخادمة)، لأنها كانت تستمتع لبقية العمل بهدوء أعصاب.

سألتني الخالة صوفي:

ـ لماذا لم تُخف الثلاثيات؟

ـ لم تكن هناك حاجة لذلك، ففي يوم جيد كانت قد نستها بكل بساطة.

***

وبعدها كنت أنا وأنت يا أجوستينا ننطلق فوق دراجتي النارية بكل سرعة وبلا خوذ لنهرب من أمك وأخيك خواكو وجنونك نفسه الذي كان يلاحقنا مُحلقًا بلا أجنحة لمحاولة عرقلتنا. لحسن الحظ فإن دراجتي النارية (بي إم دابليو أر ١٠٠ أر تي)، هي الآلة الوحيدة في العالم التي تمتلك التسارع الكافي للهروب من هذه المصيبة. في غرفة الطعام بمنزلك في الأراضي الباردة انطلقت كل أجراس الانذار، أولاً بيديك وهما تتشابكان، وبعدها تلك التكشيرة القبيحة التي رسمتيها على وجهك، ثم جاء الضوء الأحمر، اشارة "أنقذوا أرواحنا" العظمى، أو بكلمات أخرى حينما اكتسب صوتك نبرة معدنية وتكلمت كأسقف. في تلك المرة حذرت بنبرة حاسمة من أشياء لا أعرف ماهيتها وترتبط

بإرث ما. أعتذر لك حينما أعترف بأن هذا المشهد كان مُروعًا. حينما تتحدثين بهذه الصورة، فإن رؤيتك تصبح مخيفة ومزعجة، كأن الصوت الذي يخرج منك ليس صوتك، دميتي الجميلة، تهيجتِ كثيرًا بمسألة الإرث هذه، لكن كما أتذكر كان هناك شيئًا آخر، أعتقد أنك كنتِ تتحدثين عن السلطة، كنتِ تقولين شيئًا مثل أنه لا يمكنك الهروب من الإرث، أو أننا كنا نعيش تحت وطأة سلطة الإرث، لا أعرف يا أجوستينا يا فتاتي، حقًا لا يُمكنني تحديد المسألة لأنها ليس لها تحديد ممكن. حينما تنطلقين مع الهذيان تنجرفين مع تيار لغة شديدة التوتر والتعقيد وتتجاسرين بغضب لتنطقي حكمًا وتطلقي أحكامًا يبدو أنها تعني بالنسبة لك إما الحياة أو الموت لكنها عند بقية البشر بلا معنى، بكل تأكيد هذا ليس ذنبك، بل أعتقد أنك حتى ليس لك يد في كل ما تمرين به، لكنك في الحقيقة حينما تُطلقين لنفسك العنان تصيبنني بالقشعريرة، فكل ما تفعلينه حينها يميل بصورة مثيرة للشبهات نحو كل ما هو ديني. لا أعرف إن كنت تفهميني: تبدأين في نطق كلمات مُفخمة وبليغة والتنبؤ بأشياء كأنك نبي، لكن نبي متكبر وثقيل الظل. أتفهمين ما أقوله يا جميلتي المسكينة؟ نبي غير عاقل ومجنون بشكل داعر، لدرجة أنه حتى الآن، وفي هذه اللحظة تحديدًا التي تتحدثين فيها معي بصفاء الآن وأنت في كامل عقلك، حتى في هذه اللحظة أخشى أن أنطق أمامك كلمات مثل "إرث" أو "نداء" أو "هبة العيون"، لأنني أعرف بناء عن خبرتي أنها تعمل في عقلك كمفتاح يطلق الجنون ويفتح أبواب الهلاك، لهذا ونحن هناك في غرفة الطعام بمنزل الأراضي الباردة وسط تخطيطات إوخينيا

وخواكو لإقامة مهرجانات وحفلات ترحيبًا بـ"بيتشي" حينما بدأت تتحدثين بهذه النبرة المعدنية، تجهزت ذهنيًّا للتصرف سريعًا حينما تستدعي الحاجة وظللت أقول لنفسي:

- سيأتي الأمر، سيأتي الأمر، سيأتي الأمر.

وحينما أمرك أخوك خواكو بنزع القفاز عرفت أن هذه هي النقطة التي ستجعل كأسك يفيض. نهضت من على المائدة عازمًا على أخذك من هناك واصطحابك بعيدًا تحت أي ذريعة. أمسكتك من يدك وقلت لك:

- هيا. تناولي قهوتك وهيا. بعد إذنك إوخينيا، بعد إذنك خواكو، سأعود طائرًا إلى بوجوتا لأنه يتوجب عليّ القيام بأمر ما.

لا أتذكر حتى العذر الذي اخترعته. كل ما أعرفه هو أنني أمسكتك من يدك وأنك لم تقاومي لنعتلي نحن الاثنان الدراجة النارية. أوصتنا إوخينيا التي خرجت لوداعنا بصحبة قطيع كلابها الوديعة:

- اعتنيا بنفسيكما. لا تبقيا طويلاً في الخارج بعد حلول الليل لأنه أمر خطير.

فقلت لها:

- بكل تأكيد. اهدأي فسنعود هنا مبكرًا.

لكن كنت أعرف أن إوخينيا تعرف أننا لن نعود، وكيف لم تكن لتعرف هذا، إذا كنا قد أخرجنا حقائبنا أنا وأنت ورحلنا هكذا بكل

متاعنا؟ أقصد أننا أعلنا أن خطة عطلة الأسبوع قد أُجهضت. هذا هو ما كانت تفهمه أمك وهذا ما كان يجعلها تشعر براحة كبيرة، لأنه بابعادك عن هناك، أجوستينا يا صغيرتي، كنت أُبطل عمل القنبلة الزمنية التي بدأت تدق مع موضوع حبيب "بيتشي" وضيق خواكو من هذه المسألة، وشرارة الهذيان التي كانت تتقد في عينيك، بمعنى أخر، أنه حينما شاهدتنا نبتعد، فإن أمك وافقت على هذا داخل نفسها بل وأنها حتى كانت ممتنة وتظاهرت بأن شيئًا لم يحدث وهتفت بينما نعبر البوابة:

- لا تنسيا جلب الـ"بانديوكاس" من أجل إفطار الغد.

- بكل تأكيد إوخينيا. كم واحدة ترغبين أن نجلبها؟

هكذا أجبتها وهو ما يمكن ترجمته إلى لغة آل لوندونيو كالتالي: "أعلم أنكِ تعرفين جيدًا أن هناك مأساة على وشك الحدوث، لكن اطمئني سأتجاهلها، لا تقلقي، لن أتحدث عنها صراحةً لأنني أيضًا أعرف لعبة (إذا لم تفكر في هذا فهو ليس له وجود وإذا لم تذكر ذلك فهو لم يحدث)".

بكل تأكيد، إوخينيا، سنعود مبكرًا وإلخ إلخ إلخ. أنتِ تعرفين ما أشير إليه، أجوستينا يا حبي، إلى تبادل الجمل التي تشير في الحقيقة إلى نقيضها، ورغمًا عن كل شيء أشعر بالأسف على أمك. هل فكرتِ ذات مرة، طفلتي أجوستينا، كم كانت حياة أمك المسكينة مختلفة عما تخيلته في أحلامها؟

بينما كنتِ تجلسين خلفي على الدراجة النارية، واصلتِ إصدار تحذيراتك المُهلكة بخصوص الإرث الشهير، حتى انطلقنا نحلق فوق هذا الطريق غير الممهد وفي كل مرة أظهرت فيها علامة على تهدئة السرعة كنتِ تمنعيني من الخلف:

- أسرع يا ميداس، انطلق، لا تتوقف.

لتأتي مرة أخرى مسألة السلطة والإرث. آه يا أجوستينا يا فتاتي، حينما تهرب منك رأسك نحو هذا الجانب الملتوي، فالرب وحده هو القادر على حمايتنا! أقول لك بصراحة لا أعرف كيف لم نمت على هذا الطريق، أنا متشبثًا بدراجتي النارية، وأنت متشبثة بي، وجنونك متشبث بك، ونحن الأربعة نحلق في فرار أعمى على سرعة ألف كلم في الساعة حتى وصلنا إلى بلدة بوينتي بييدرا الصغيرة وهناك طلبتِ أن نتوقف لتناول القهوة ووافقت. دخلنا أحد المتاجر وطلبنا فنجانين من القهوة الخام وضحكتِ، بعدما استعدتِ رأسك لدرجة أن كل شيء كان مضحكًا بالنسبة لك، كأنك عدتِ لتسكني نفسك وليس ذلك الكيان الآخر. قلتِ لي وأنت تعانقيني:

- يا سلام يا سلام يا سلام! هربنا قبل أن تسوء الأمور.

لأجيبك وأنا أيضًا في مزاج جيد:

- يا لك من مستفزة يا أجوستينا! أعتقد أنك تستخدمين هذا القفاز الفظيع فقط لإثارة جنون أخيك خواكو.

ـ هو في الحقيقة عفن للغاية.

اعترفتِ بالمسألة واقترحتِ أن نذهب لدفنه في مكان ما، لهذا اعتلينا الدراجة النارية مجددًا ووجدنا على ضفة الطريق حقلاً بدا مناسبًا لك. نزعتِ القفاز وألقيتِ به في ترعة ومكثنا هناك ننظر كيف تبتلعه تلك المياه الخضراء والثخينة، ولأن النهار كان لا يزال جميلاً والشمس أخاذة، قررنا أن نُمدد جسدينا فوق العشب وفجأة بات العالم كوميديًّا، طفلتي أجوستينا، فرغمًا عن امتلاكك لهكتارات لا يمكن حصرها، كنا هناك نغزو أرضًا بعيدة، ونتوخى الحذر لكي لا تطاردنا الكلاب، لكننا كنا سعداء، مراهقين مرة أخرى، صديقين، رفيقين، يبدو أن مسألة أن من يتشاركون الفراش لا يتباعدون بالكامل حقيقة. بدأنا نتحدث عن عودة "بيتشي" وكان هذا النبأ يزلزل كيانك. قلتِ:

ـ حينما يعود أبي

فصححت لك:

ـ تقصدين حينما يعود "بيتشي".

صححت لك ما قلتيه مرة ثانية، لكن في الثالثة علمت أنه من الأفضل أن ننهي المسألة ونحول مسار الحديث لنخرج من هذه الأرض الملغومة وقلت لك:

ـ أنت لا تعرفين المصيبة الموجودة عندي في (أيروبيكس).

لكنك كنتِ تعرفين بالفعل لأن قبلها بساعات كانت المسألة قد جاءت على لسان زوجة خواكو، التي ترتاد الجيم، حينما سألتني إذا كنت قد تمكنت من حل لغز الفتاة المختفية، ووسط هذه المحادثة اقترح أخوك عليّ للسخرية منك، أو ربما للسخرية مني، أن أصحبك إلى هناك لكي تتنبأي بمكان تلك المرضة. قال أخوك مازحًا:

- مع الحظ الجيد ستعثر عليها أجوستينا في ألاسكا، مثل ابن الوزير، وهكذا ستهدأ فتيات (أيروبيكس) ويتوقفن عن القاء اللوم على ميداس.

وبعدها في ذلك الحقل عُدت لطرح هذه المسألة مجددًا للسفسطة وتشتيت انتباهك وتبريد ثورات خلاياك العصبية وسعدت حينما رأيت أنك التقطتِ الطعم، فقصص المفقودين والألغاز دائمًا ما تصيب وريد إعجابك، لهذا ألقيت لك بالحبل وابتكرت نسخًا هزلية من المأساة من أجلك. بدأت أقلد شبح سارا لوث وفتيات الجيم الهستريات اللاتي يفزعن منه، قمت بألف حماقة من أجلك، جميلتي أجوستينا، في ظل سعيي لكي لا تبدأ يداك مجددًا في التشابك، ومحاولاً ألا يعود هذا الوميض المؤذي لنظرتك وتحمستِ، قلتِ إنك مرتبطة بهذه المرأة وأنك تشعرين أنها لديها رسالة من أجلك:

- أعتقد أنها تحتاج لإخباري بمكانها.

قلتِ هذا وتخوفت. هذه العبارات بدت لي كإشارات مضيئة على الهذيان لهذا أصررت على الذهاب للسينما. قضينا فترة طويلة لمحاولة

الاتفاق على الفيلم. كنت أرغب في مشاهدة (إيه تي) بينما كنتِ مصرة على (فلاش دانس)، ولأن كلانا لم يرغب في التنازل، قررنا في النهاية تدخين سيجارة من الماريجوانا ونحن هناك ممدان تحت لطافة شمس المساء الأخيرة، ودون أن نعرف كيف ومتى عدنا مجددًا لمسألة الممرضة. كنت أرى كل الأمور في أبهى صورها بفضل هذه العُشبة المقدسة وبدأت أحسب أنه في نهاية المطاف فإن الفكرة لم تكن سيئة تمامًا. كانت درجة الحرارة ستنخفض قريبًا ولم نتفق على مسألة السينما ولم يكن لدينا أي مستقبل في هذا الحقل، وربما كان خواكو محقًا حينما قال إن إحدى ومضاتك المنذرة قد يكون لها أثر ذو نفع بين فتيات (أيروبيكس)، بمعنى آخر، أثر له منافعه بالنسب لي لإلهاء كل العالم عبر رؤياكِ، والتي مع كل اعتذاراتي يا دمية حياتي، دائمًا ما بدت لي غير معقولة. أعترف أني وصلت إلى تخيلك ثملة من هبة التنبؤ، بعينين نصف مغلقتين، تتنفسين بعمق لتدخلي في حالة الغشية قبل أن تصدري حكمًا يحدد الموقع المفترض للممرضة في مكان بعيد تمامًا، لنقل أنه قد تراءت لي الصورة التالية: أنا أدخل معك للجيم قبل بداية فصل الـ(سوبر رومبا) في الخامسة مساءً، المزدحم دائمًا في أيام السبت، لهذا سنحظى بجمهور كاف، قبل أن أصرخ:

- انتباه من فضلكم! الكل، انتباهٌ نظرًا لوجود قلق كبير بخصوص امرأة قد فُقدت للأسف، ولأننا نرغب من كل قلبنا في المساعدة للعثور عليها، ولأننا أيضًا أول المهتمين بظهورها وعودتها سالمة وبكامل

صحتها إلى أحبائها كما تستحق وكما نستحق جميعًا فقد جلبت لكم المستبصرة المعروفة والشهيرة أجوستينا لوندونيو.

وبمجرد أن أذكر اسمك سيتعرف كل الحضور عليك وسيتعجبون:

ـ بالفعل! إنها هي! الفتاة التي تعثر على المفقودين!

لأطلب بعدها الصمت لكي أواصل حديثي:

ـ ستمرر الآن أصابعها على التوقيع الذي تركته هذه المرأة سيئة الحظ على سجل حضورنا وستبدأ قواها الذهنية في العمل لمحاولة تحديد موقعها.

هكذا تقريبًا تخيلت صورة المسألة حينما احتضنت المبادرة الحمقاء لاصطحابك إلى (أيروبيكس) لتقومي بأمورك المعهود ولتقولي عن اقتناع أشياء مثل:

ـ أراها، أراها. يمكنني رؤية أن امرأة تدعى سارة لوث كارديناس كاراسكو هربت مع حبيب دومينيكاني إلى سان بدرو دي ماكوريس وأنهما يعيشان هناك في سعادة دائمة.

أو السيناريو رقم ٢:

ـ أين أنتِ يا سارا لوث؟ سارا لوث؟ آه، بالفعل.. أنا أراكِ. حاستي السادسة تخبرني بأنك سجينة في مدينة نيوروك. أوه لا! كنتِ تهربين المخدرات يا سارا لوث وكشفتك المضيفة لأنها وجدت أن عدم

تناولك لهذا الدجاج مع الجزر الذي قدمته لك في صينية من الورق المقوى أمرًا مثيرًا للشبهات. قبضوا عليك بعد العثور على أكياس من الكوكايين في معدتك بمطار جون إف كينيدي وأنت الآن مقيدة بالسلاسل وحُكم عليك بالسجن ١٢٧ عاما في زنزانة بلا نوافذ.

أو ربما السيناريو رقم ٣ والذي يعد أفضل من كل ما سبق:

- لا أيها السادة. هذا ليس توقيعها. قوة عينيّ العظيمة كشفت لي أن هذا التوقيع مزور. هذا التوقيع ليس حقيقيًا، ترك أحدهم هذا التوقيع الذي لا يخص سارة لوث كارديناس للقيام بمزحة ثقيلة.

لا أعرف يا أجوستينا يا فتاتي. أرجوك مجددًا سامحيني، فالأمر لم يتعد كونه واحدًا من مقالبي البلهاء، أحد حماقات الماريجوانا، واحدة من تلك الأفكار السخيفة والمسلية التي قلت إنها قد تصب في مصلحتي ولن تضرني على أي حال. كيف كنت سأعرف أن الأمور ستنتهي كما انتهت؟ ففي نهاية المطاف أنت الخبيرة في مسألة النبوءات.

* * *

قبل النحيب على ثلاثيات شوبرت، قبلها تقريبًا بثلاثة أشهر، كانت الأمور لا تُحتمل ولجأت للتأمين الاجتماعي حيث تبين أنه بسبب قيود بوليصتي كأستاذ جامعي، فإن علاج زوجتي لا يمكن أن يتم سوى في مستشفى (لا أورتوا) الخيري، حيث خصصوا لها طبيبًا يدعى والتر سواريث، والذي كان يُخضع مرضاه لعلاجات النوم بأميتال

الصوديوم. أودعوها في واحد من أروقة جناح العلاج النفسي، أرقدوها على فراش واقتصر كل ما فعلته على مشاهدتها تنام وقبول أنها قريبًا ستفتح عينيها أو تحرك شفتيها لمحاولة قول شيء ما، أو لظهور مساعدي الدكتور والتر سواريث بجرعة جديدة من الباربيتورات، وهو مسحوق مائل للصفرة ذو رائحة كبريتية كانوا يذيبونه ويحقنونها به عبر الوريد، وهكذا كانت تمر أيامي ولياليّ، في تأمل تلك الجميلة النائمة التي كانت تشع شحوبًا وغيابًا بين ملاءات المستشفي المستهلكة والتي شهدت الكثير من الآلام البشرية، بينما يبدو شعرها كنبات لبلاب استحوذ منذ قرون على الوسادة. لم أتمكن من نزع عينيّ من فوق هذا الطيف الناعم ورعشته الخفيفة، رموشها الساقطة على وجنتيها كأنها دمية قديمة منسية على رف في محل للتحف. كنت أبحث عن رسائل خفية في معدلات تنفسها ودرجات بشرتها وحرارة يديها وصمت أعضائها وتموج الزمن فوق جسدها الساكن. أتحلمين يا أجوستينا؟ أم أنك تسبحين فقط في بحر من الضباب؟ أأنت وحيدة ومتحصنة داخل موتك الصغير أم هناك شق يمكن مرافقتك عبره؟ وبينما أسهر على غيابها المستسلم عن الوعي لكي لا تنزع بحركة لا إرادية الإبرة التي تضخ المنوم عبر وريدها، ولكي لا تؤثر عليها تيارات الهواء، ولكي لا يمسكها برد الفجر بلا غطاء، ولكي لا تعذبها الكوابيس، ولكي لا يستحوذ عليها أي شيطان كان، وبينما أسهر هناك وتمر الساعات في لا أورثوا عليّ كأنها أشباح، فكم من مرة تذكرت صفحات الياباني كاواباتا الرهيبة التي تسكنها فتيات عاريات راقدات تحت تأثير المخدرات لا يبقى فيهن ملمح من الحب أو

الخجل أو الخوف! كان تأثير الدواء يتراجع ثلاث مرات في اليوم وكان يجب أن أقدم لها الطعام وأصحبها للحمام، وهكذا لعدة دقائق كان جسدها يعود إليها، لكن روحها كانت لا تزال تائهة، ونظرتها منكبة داخل نفسها، وحركاتها آلية وبعيدة، كدمية تُحرك بخيوط، كان هناك ست مريضات يتشاركن الغرفة مع أجوستينا ليرتحن من الذنوب والهلاوس والقلق عبر أميتال الصوديوم الشهير للدكتور والتر، وكانت واحدة منهن، تلك الموجودة على السرير المجاور، امرأة عجوز، خفيفة كأنها نسمة هواء. كان زوجها، وهو عجوز مثلها، يمشط لها شعرها ويدلك لها ساقيها لتسهيل عمل الدورة الدموية، ويدهن لها يديها بالكريمات لأنه يقول:

- لا أحب أن تجف يدي تيريسا حبيبة قلبي. هل شاهدت يا أجيلار الصغير مدى بياض يدي تيريسا حبيبة قلبي. لاحظ. لا توجد ولو بقعة واحدة، وهذا لأن الشمس لم تلمسهما أبدًا، فهي دائمًا ترتدي قفازًا لحمايتهما حينما تخرج للشارع.

كان اسم هذا الرجل غير تقليدي، كان يُدعى "إيفا"، لأنه وفقًا لما شرح لي فإن "إيفا" هو اختصار "إيفاريستو"، ولعبت مع دون إيفا مباريات شطرنج لا تعد ولا تحصى بينما تغرق فتاة كل منا في النوم إلى أماكن تدنو من الموت. أحيانًا كان يأتي دون إيفا بجيتار ويجلس بجانب تيريسا حبيبة قلبه ليغني لها في أذنها أغنيات "بوليرو" قديمة بصوت منكسر لكن بتنغيم لا عوار فيه، صوت مغني محترف، ومرة تلو الأخرى كان يغني لها تلك الأغنية التي تقول "دميتي الحلوة بشعر من

ذهب وأسنان من لؤلؤ وشفاه من ياقوت"، وليبرر لي هذا التكرار قال لي:

- هي الأغنية المفضلة لتيريسا منذ كنا حبيبين أهديتها لها في كل أعيادنا معًا. هناك أغنيات أخرى تحبها بكل تأكيد، مثل (أشجار الأكاسيا) و(طعم لي) و(قبلني كثيرًا) و(عذرًا).

ثم أضاف دون إيفا:

- فلتعلم يا فتى، تيريسا حبيبة قلبي امرأة حساسة للغاية ومحبة للموسيقى الحلوة وكل ما هو رقيق وجميل، لكن هيا اقترب وانظر كيف تبتسم حينما أغني لها (دميتي الحلوة)، ركز يا فتى، لا أعرف إن كنت قادرًا على ملاحظة الأمر، فهي بالكاد شبه ابتسامة، لكن أنا أحفظ حتى أصغر ملامح محياها، أعرف أن ابتسامة تضيء وجهها في كل مرة أغني لها فيها هذه الأغنية.

كان دون إيفا يمكث بجانب زوجته منذ وصولها للمستشفى كأنه في واجب ديني من الثامنة بالدقيقة صباحًا حتى الثامنة مساءً بالدقيقة وحينما ينهض للرحيل كان يوصيني دائمًا بنفس الطريقة وهو يربت على كتفي:

- سأذهب للعمل وسأترك تحت عنايتك حياة حياتي.

وفي واحدة من المرات سألته عن عمله وأجابني دون إيفا:

- أنا مغني "بوليرو" وأعمل ليلاً في (لوثيرو أثول) وهو بار محترم وله سمعته يقع بالقرب من هنا.

وصفه لي بهذه الكلمات وفي وقت ما، بينما كنت أسير نحو المستشفى عن تقاطع الشارع ١٢ مع الشارع العاشر تعثرت في (لوثيرو أثول) الشهير، والذي كان في الحقيقة وكرًا وضيعًا وبائسًا للساقطات، ولأنها كانت السابعة والنصف صباحًا وفي ساعة التنظيف، كانت هناك امرأة تكنس وخلفها باب مفتوح على مصراعيه وتمكنت من النظر حتى نهايته وشاهدت مجموعة من الطاولات الصغيرة الخشبية التي وُضع شمعدان على منتصف كل منها، وستائر متربة تخفي غرفًا متواضعة في كل منها سرير لفرد واحد وطشت، مصابيح حمراء مطفئة يفترض أنها تضع قناعًا ما على المأساة ليلاً، ومنصة خشبية بها ميكروفون وحيد تخيلت أن دون إيفا يغني فوقها (دميتي الحلوة) لكي ترقص الساقطات وزبائنهن بينما يفكر هو في تيريسا حبيبة قلبه والتي بجانب أجوستينا حبيبة قلبي تُهدهد بأميتال الصوديوم عذابات جنونها، وبعدها بدقيقة خرج دون إيفا من إحدى الغرف وخلفه فتاة سمينة كان يبدو جليًا أنها من العاملات في هذا المكان. حاول في البداية التهرب من مقابلتي لكن لأن الأمر كان لا مفر منه، لذا فقد حياني بحرارة وقدم لي المرأة التي كانت معه:

- هذه جيني باولا.

قالها لي ورفع كتفيه كأنه يعتذر:

- أنا أدعم تيريسا حبيبة قلبي وجيني باولا تدعمني. ما الذي يمكننا فعله يا أجيلار يا صغيري. الإنسان مخلوق يسهل النيل منه وفي حاجة مُلحة دائمًا للصحبة.

مرت الأيام متطابقة من الأول وحتى الرابع وفي اليوم الخامس ونحن في وسط واحدة من مباريات الشطرنج التي لا تنتهي، قلت لدون إيفا إنه بداية من هذه اللحظة فسأمنعهم من تخدير زوجتي مجددًا لأنني سأخرج بها غدًا، فلم أقدر على مقاومة عذاب رؤيتها هكذا: ضائعة وخامدة وغير موجودة. قلت له:

- أي شيء إلا هذا، دون إيفا، أي شيء إلا هذا الشيء الذي يبدو قريبًا للغاية من الموت.

- حسنًا فعلت يا فتى. إرحل بها هيا. معك كل الحق فيما تقوله.

- وأنت يا دون إيفا، لماذا لا تذهب بتيريسا حبيبة قلبك إلى المنزل. يمكنك الاعتناء بها صباحًا والحصول على من ينوب عنك ليلاً بينما تعمل.

فأجاب دون إيفا:

- أنا لا يمكنني فعل هذا بتيريسا حبيبة قلبي. أنت لا تعرف مدى الفزع الذي يصيبها حينما تستيقظ.

بعدها بعدة ساعات خرجت أنا وأجوستينا من (لا أورتوا) واستقبلتنا واحدة من ساعات العصاري الخاصة ببوجوتا والتي حينما

ترغب في التألق لا يمكن مقارنة أي شيء بها. أتحدث عن سماء الجبل العالي ولونها الأزرق كأزهار الأرطاسيا ورائحة خضرة الجبل، وعلى عكس تيريسا، فإن أجوستينا حبيبة قلبي لم تفزع من العودة للاستيقاظ، بل على العكس، كانت سعيدة ومستعدة للعودة لعالم اليقظة.

- يا لجمال الشمس!

قالتها وهي تستند على أحد الحوائط الحجرية التي سقطت عليها أشعة الشمس ومن مكانها نظرت إلي وهي تميل برأسها قليلاً وهي متعجبة وسعيدة كأنها توقفت عن رؤيتي لفترة من الزمن لتجدني الآن قد تغيرت بشكل مبهم دون أن تقدر على تحديد ماهية هذا التغيير ثم قالت في النهاية:

- شعرك بات يلمع بصورة أكبر.

ثم مدت يدها لتلمسه:

- وبات لديك شعر أبيض أيضًا.

- من فضلك أجوستينا. لا تمزحي، فمنذ عرفتيني ولدي شعر أبيض.

- بالفعل لكن هذا مختلف.

أنهت الموضوع دون أن تعتني بشرح المسألة وطلبت مني العودة للمنزل فورًا، وهكذا سرنا متعانقين في شوارع وسط المدينة ونحن في قمة السعادة التي يفترض أن المؤسس دون جونثالو خيمينيث دي كيسادا كان عليها في أول مرة وطأت فيها قدمه هذا السهب منذ أكثر من أربعة

قرون ووجد حينها أنها أرضًا مباركة، وردت المدينة علي حماسنا بتواضع كأنها قرية تأسست مؤخرًا، استقبلتنا ساحة بوليفار بلمعان ذهبي وإضاءة مائلة وبناء على طلب أجوستينا دخلنا الكاتدرائية حيث أريتها مقبرة خيمينيث دي كيسادا:

ـ انظري يا أجوستينا. كنا نتحدث عنه وهنا تحديدًا تقع مقبرته.

وحينها سارت نحو الموهف حيث اشترت ستة قناديل من الشمع الأحمر وأشعلتها ووضعتها بجانب المقبرة، فسألتها:

ـ ألا تفضلين تقديمها كقربان إلى أحد القديسين. انظري، فهناك يوجد يوسف النجار مع الرب طفلاً بين ذراعيه. في هذه الكنيسة يوجد قديسة تنتصب بين الأطفال الملائكة، لا بد وأنها (عذراء كارمن)، وها هي هناك (العذراء المتألمة) تشع نورًا من تاجها، أي واحد من كل هؤلاء سيخدمك، لكن على النقيض لا توجد أي ضمانات قدسية من مؤسس سانتا فيه دي بوجوتا، فمن يعرف كم كان مقدار طيبته في الحقيقة!

فأكدت لي أجوستينا:

ـ هو طيب بالصورة الكافية، فبمجرد وصولهم للسماء يصبحون جميعهم سواسية.

فسألتها:

ـ ولماذا ستة شمعدانات؟

- واحد لكل واحدة من حواسي الخمس، لكي لا يخدعني أي منها مستقبلاً.
- والسادس؟
- هذا لعقلي، ولنر إذا كان دون جونثالو سيصنع معجزة رده لي.

* * *

دون معرفة متى حدث هذا، أصبح أبيليتو كابايرو ولقبه فاراكس، مركز منزل آل بورتولينوس. هو تلميذ البيانو المفضل لدى نيكولاس ورفيق بلانكا في مهام تغذية الأرانب وجلب البيض من قفص الطيور وإطلاق سراح الكلاب ليلاً وطرد الخفافيش التي تتكوم في السقف وتمشية الزوج لتخفيف شجنه، أصبح كاتمًا لأسرار صوفي التي بدأت تلتقي عُشاقًا في الخفاء وشريكًا في ألعاب إوخينيا البطيئة والصامتة. بأسلوب مترو ومنظم تصف بلانكا كيف مرت ساعات حياتها دون إفلات أي من الخطوط العامة للسرد أو إقصاء أي تفاصيل، فيما يُظهر نيكولاس بمذكراته الشخصية غيابًا جليًّا للدقة في قصصه، والتي أحيانًا تُبتر من منتصفها، وفي أحيان أخرى تخلو من التسلسل المنطقي، فيستحيل غالبًا فهم عما تدور من شدة تعقيدها، لكن هذه الفوضى الكاملة والتي وفقًا لمستوى ما يمكن وصفها بالأدبية يواجهها ميل غريب ومهووس بإبراز عدة أحداث معينة، فعلى سبيل المثال في الزاوية اليسرى العليا يكتب " م ز م ب"، أو "ممارسة زوجية مع بلانكا" في كل مرة يقوم بها معها، وهو الأمر الذي يشيع حدوثه بصورة

مدهشة، أو تحديدًا بصورة يومية دون انقطاع، فكانت أكثر فترات الانقطاع المسجلة طولاً هي خمسة أيام بالكاد وتتعلق بأسبوع إحباط حاد تعرض له. ومن ضمن الحسابات التي سجلها بصورة اعتيادية في هوامش مذكرته: "بالأمس حلمت ب(ف)"، أو "حلمت خلال القيلولة ب(ف)"، والتي تشير فيها (ف) بالطبع إلى فاراكس.

رغمًا عن أن كلا الزوجين كان يُقسِمان على احترام خصوصية وسرية مذكرات الآخر، إلا أن بلانكا كانت تتصفح مذكرات نيكولاس بصورة اعتيادية، ربما ليس بسبب فضول شرير في أغلب الأحيان بل لتحصل على أدلة بخصوص حالته الروحية تسمح لها باستباق أزمات الغضب أو الاكتئاب الكبرى، وبكل تأكيد كان نيكولاس مدركًا لهذا التجسس المنهجي، لأنه حينما كان يرغب في ألا تدرك ماهية شيء يقوله فكان يكتبه بالألمانية، مثل تلك الصفحة التي كُتبت في شهر أبريل، حينما ألحق بعبارة "بالأمس حلمت ب(ف)" الشهيرة بأخرى بين قوسين كتب فيها بحروف متلاصقة لا يمكن قراءتها تقريبًا «*Ich bin mit auffälligen Erektion aufgewacht*»، أو بمعنى أخر "استيقظت بانتصاب ملحوظ". لم يكن نيكولاس يُدرّس للفتى فصولاً في البيانو فقط بل كان أصر على تعليمه التلحين، وكشف له البُنى الموسيقية والأسرار الغنائية للـ"بامبوكوس" والـ"باسيوس"، وأدخله في مجال قراءة الشعر الإنجليزي والألماني لكي تصبح مصدرًا مُلهمًا لكلمات مؤلفاته المستقبليه، وإذا لم يكن كل هذا كافيًا، فبدأ يهديه واحدًا تلو الأخر،

أغلب كتبه، وهو الأمر الذي فاجأ بلانكا التي كانت تشاهد أرفف كاملة تختفي من المكتبة لتظهر مبعثرة على أرضية غرفة فاراكس.

- قل لي يا نيكولاس، لماذا تعطي كلَ كتبك للفتى؟

كانت تسأله لكنها لم تنجح في الحصول منه سوى على إجابات مبهمة من نوعية:

- لكي يتعلم يا امرأة، فالعازف والعدم سواء إذا لم يعرف كلاسيكيات الأدب بصورة عميقة.

كان نيكولاس قد بدأ يهجر بصورة تدريجية علاقته مع ابنتيه، والتي لم تكن أبدًا وثيقة، وفي كل مرة كانت إحداهما تطلب اهتمامه كان يجيبها "اسألي فاراكس فهو يعرف" أو "اطلبي ما ترغبين فيه من فاراكس فهو لديه"، أو "اذهبي مع فاراكس فهو سيرافقك". وفي وسط كل هذا كانت قوة الفتى تزداد بدنيًا وروحانيًا كأنه يتغذى على ود وعناية عائلته بالتبني، أما نيكولاس فكان يتدهور وكلما مرت الأيام كان يبدو أكثر انتفاخًا وتيهًا في تأملاته الخاصة، منفصلاً عن كل ما يحيط به وعُرضة للخلط بين الأشخاص الحقيقيين ومن يتخيلهم، وبالأخص بين أبيليتو وفاراكس والعكس صحيح. بشكل مؤلم أكثر من أي شيء آخر، كان وعيه يبدو كأنه يتجزأ أمام عرض "أبيليتو الواقع" و"فاراكس المخيلة" وهما يتقاتلان فيما بينهما فوق الرخام الأبيض والناعم بين بعض الأنقاض القديمة وكل منهما يُؤذي الآخر ويَدمي ويؤذيه هو أيضًا، نيكولاس نفسه، أو كي يصح التعبير، يؤذونه هو فقط لأنه هو الضحية

الحقيقية لتلك المعركة الخيالية، وهو من يدمي في هذا المعبد الذي يتفتت إلى تراب وسط الوميض العظيم.

- أشاهد سطحًا منحوتًا، يا بلانكيتا حبي أنا، أرى نطاقًا صافيًا ويخطف بصري البريق المعدني للدماء فوق هذا النطاق. لغز الدم المراق يرهقني ويستهويني.

- عن أي شيء تتحدث يا نيكولاس؟ انظر لقد برد غداؤك. توقف عن التفكير في الدماء وتلك الأمور القبيحة، فنحن نجلس على المائدة مع الطفلتين وفاراكس.

يسألها بشجن:

- أبيليتو أم فاراكس؟
- من فضلك يا نيكولاس. أنت تعرف جيدًا أنهما نفس الشيء.
- صحيح يا بلانكيتا، لكن أحدهما فقط هو الحقيقي، أحدهما فقط هو القوي، ولا أعرف أيهما.
- أنت تحلم يا نيكولاس. نهضت من القيلولة لكنك لم تستيقظ بعد.

- سامحيني، بلانكيتا يا يمامتي، ولكن فقط في الأحلام - أحلام اليقظة؟- أتمكن من فهم جوهر الأمور واليوم فهمت أن ذلك الذي يلعق جراحه سيدمي حتى الموت.

- هي خيالات تمتلكها يا نيكولاس. ما تعاني منه الآن هو الجوع.

- أنت لا تفهمين يا امرأة أنه ستحدث مأساة لأنه لا يمكنني تمييز من هو له وجود بالفعل، إذا كان فاراكس أم أنا، فاراكس أم نيكولاس، أحدهما سينتصر والآخر محكوم عليه بالفناء لأنه لا يوجد مكان قد يتسع لهما معًا على وجه البسيطة.

كمحاولة لفهم هذيان بورتولينوس، يمكن رسم هذا المخطط المكون من عدة خطوات: أولاً، يشيد نيكولاس فقاعة أو عالمًا موازيًا يكتسب فيه ما يتخيله قيمة واقعية حقيقية، مثلما حدث حينما تعرف على أبيليتو وعرّفه على أساس أنه فاراكس الذي يظهر في أحلامه. ثانيًا، تنقسم الفقاعة إلى اثنتين متناقضتين، مثلاً أبيليتو وفاراكس أو فاراكس ونيكولاس، وهو الأمر الذي يُقسم عقله إلى قطبين ويجبره على التأرجح بين الطرفين بسرعة لا تُحتمل. ثالثًا، تُخزن فقاعة نيكولاس أعمق أحاسيسه لجعل كل ما فيها مسألة حياة أو موت، لدرجة أنه بعد بناءه لصراعات مستحيلة بين قوى معاكسة، يصلب نفسه فوق البناء الذي خلقه بنفسه.

تقول بلانكا متأسفة:

- أنا شاهدة عاجزة ومغمومة على كيف تقوده كلّابة التناقضات بكل قسوة نحو هزيمته.

رابعًا، ينطلق نيكولاس، بعد الانتهاء من تشييد عالمه الموازي بصورة مثالية في كل تفاصيله، ليكسر كل اتصالاته مع العالم الحقيقي ويبقى وحيدًا متقوقعًا داخل فقاعته. خامسًا وأخيرًا، خلال عملية

الهذيان يرى نيكولاس نفسه يُجر من قبل لوعة ذاتية التغذية، يعيش مسحورًا ويعجز عن الخروج من الهذيان، لكنه لا يرغب في الهرب لأن العلاقة التي أرساها معه هي علاقة عبد يخضع أمام سيده. كانت كينونة الأمور داخل رأس نيكولاس بورتولينوس على هذه الشاكلة تقريبًا، لكن ليس بصورة كلية بكل تأكيد، فالأمور دائمًا ليس لها صورة كلية، فمسألة أن يهذي- أو يبدو غريبًا كما اعتادت ان تقول ابنتيه- هي الخبز الذي يتناوله الجميع في كل يوم بمنزل ساسايما، والأمر الغريب مؤخرًا أن بلانكا هي الأخرى تبدو كمن انقلب حالها رأسًا على عقب، فلم تعد الأمور مثل سابق عهدها منذ دق فاراكس الباب بسترته المصنوعة من قماش الآلباكا ومخلاته الممتلئة بالعساكر المعدنية، أصبح فاراكس حلم وكابوس كلاهما، حب وخصام كلاهما وذلك في دوامة تتصاعد، تتصاعد حيث تزداد رقة الهواء إلى درجة لا تسمح بتنفسه. هل لا يشك بورتولينوس في أنه إذا كان على بلانكا الاختيار بين الرجلين اللذين يعيشان في منزلها، فإنها في أعماق قلبها ستختار الأكثر شبابًا، حتى ولو قالت شفتاها شيئًا آخر؟

اعترف لها نيكولاس ذات مساء حينما كانت الأمطار تغمر العالم:

- كنت أحب الرقم اثنين يا بيانكيتا حبي أنا. كان الرقم اثنين يسمح لي بالدفاع عن نفسي. كان الرقم اثنين يملأ الفراغ الموجود بيني وبينك، على عكس الرقم ثلاثة الذي يفجر رأسي إلى مليون قطعة.

***

لكنك في (أيروبيكس) لم تقولي شيئًا مما كان يتوجب عليكِ قوله، أجوستينا يا حبي. أقولها لكِ وأنت تجلسين بجانبي ويبدو أنك استعدتِ عقلك. لم تختاري الخيار الأول، والذي رحلت فيه دولوريس أو سارا لوث مع حبيب مجهول إلى جمهورية الدومينيكان، ولا الخيار الثاني الذي يقول إنها مهربة مخدرات وألقي القبض عليها في الولايات المتحدة، ولا حتى الخيار الثالث الذي لم يتطلب أي خيال وكان الأسهل بفارق كبير عن البقية لأن قولك إن هذا التوقيع الموجود في السجل مزيف لم يكن ليكلفك أي شيء. وإذا كانت قائمة الاحتمالات المفيدة غير محدودة وعدد المصائر الممكنة لا نهاية له، فلمَ لم تتمكني من تهدئة متدربات فصل ال(سوبر رومبا) في الخامسة مساء؟ لمَ لم تؤكدي لهن أن تلك التي تُطلق على نفسها ممرضة قد سافرت على سبيل المثال إلى بوليا في جنوب إيطاليا أو نونافوت في شمال كندا؟ لكن لا، بكل تأكيد لا، فأنت الوفية دائمًا إلى نفسك وجنونك اخترتِ كما جرت العادة التطرف وانعدام العقلانية والميلودراما وانطلقتِ تحركين يديك في الهواء وتلفظتِ بسخافات أمام ٥٠ شخصًا من محبي اللياقة نظروا إليك في فزع. يا لها من هفوة عظمى جميلتي أجوستينا! أظن أنك كنتِ لتصبحي في قمة الخجل لو لم تكوني بمثل هذا الجنون، فبأسوأ صوت معدني لديك، ذلك الذي يبدو صداه كأنه يصدر من داخل قصعة، شرعتِ تقولين:

- لقد حدث شيء هنا! لقد حدث شيء هنا!

ومنذ نطقتِ بهذه العبارة تجمدت الدماء في عروقي وعرفت أنه لا يوجد سبيل لإيقافك وأن الكارثة قد حلت بالفعل.

ـ لقد حدث شيء هنا!

أصررتِ باقتناع مؤثر على المسألة وشرعتِ تتشممين كل أنحاء الجيم كأنكِ كلب صيد، مشطتِ المكان بحثًا عن الأدلة هنا وهناك بينما كنت أكافح لإقناعك بالذهاب إلى أي مكان آخر. قلت لكِ في الخفاء لكي لا تسمع متدربات حصة الـ(سوبر رومبا):

ـ هيا يا أجوستينا. هيا لنترك المسألة عند هذا الحجم، بل سأدعوكِ لمشاهدة (فلاش دانس). هذا الفيلم الذي كنتِ ترغبين في رؤيته منذ وقت قليل. هل تسمعيني؟ (فلاش دانس) يا أجوستينا هل يبدو لكِ مألوفًا؟

لكن لا، لم يكن هناك شيء قادر على إخافتك. كنت عازمة حقًا على العثور على دولوريس حتى ولو كانت قد اختبأت في إلية العالم، كنتِ مصرة على عدم الاستسلام حتى تعثري عليها سواء حية أو ميتة. زاد تهيجك واستيائك بصورة أكبر حتى تلفظتِ بعبارة:

ـ لقد حدث شيء فظيع هنا.

ولم أعرف أين قد أختبيء أمام عملائي، فقارئة الأفكار التي جلبتها بنفسي لإخماد الحريق بدأت على النقيض في تأجيجه وفي رؤية الدماء، فقد قلتِ:

ـ أرى دماء كثيرة.

وأنا أحاول بكل ما في وسعي أن أردعك:

- لا يا أجوستينا. دماء لا. أقول لكِ بكل أمانة. لم يكن للدماء أي وجود هنا.

وهذه كانت حقيقة يا ملكتي. لا أعرف من أين أتيتِ بمسألة الدماء، إذا كانت دولوريس لم تسقط منها ولو قطرة واحدة، فالمسكينة تهتكت من الداخل لكن دماء؟ ذلك الشيء الذي يُطلق عليه دماء لم يكن له وجود. أقسم لك على هذا بالرب نفسه فالآن لا يوجد داعٍ للكذب، لكنكِ يا أجوستينا كنت مُصرة، فقد كنتِ قد اتخذتِ بالفعل هذا السبيل ولم يكن هناك أحد يقدر على لإيقافك.

- أرى دماء. أرى دماء. دماء لا يمكن الاعتراف بها وتُغرق القنوات.

- لكن يا أجوستينا، لا قنوات ولا قرف! فكري جيدًا قبل أن تتلفظي بحماقات.

ثم رفعتِ صوتك:

- لقد قتلوا هذه المرأة هنا. قتلوها بركلاتهم.

وأنا أقول:

- أي ركلات. سيطري على نفسك يا دميتي. حاولي تعديل نبرتك قليلاً.

ولم أكن أكذب عليكِ أيضًا في هذه المسألة يا طفلتي، فالركلات كانت جزءًا من فيلم آخر، لكن وسط ضوضاء الخلاط التي كانت تدوي في رأسك فإن كل الأمور أصبحت مزيجًا واحدًا، فالركلات هي

الفظائع التي كان المرحوم أبوك والوحش أخوك يتنويان فعلها مع "بيتشي" بسبب حياته المُخنثة، وما أعرفه هو أن الشيء الوحيد الذي لم تتعرض له دولوريس تلك الليلة هي الركلات، لكن أنتِ يا أجوستينا يا حبي، كنتِ قد اعتليتِ بعناد شديد غشيتك الاستبصارية ولم يكن هناك أحد يقدر على إنزالك من فوقها. في النهاية لماذا أواصل إخبارك بالكارثة الرهيبة التي نظمتيها؟ ما هو الغرض الآن من شروعنا في حساب الخسائر والدمار؟ ما أرغب في الحديث معكِ عنه حقًا هو الملحمة التي كانت عليها عملية إخراجك من (أيروبيكس) بعدما وصلتِ إلى المرحلة العليا في هذيانك المستهلك، فأنت لم تسمعي أو تري أو حتى ترغبي في معرفة أي شيء عن العقل، حاولت اصطحابك فوق دراجتي النارية إلى شقتي، لكن ليس لديكِ أي فكرة عن الألعاب البهلوانية المطلوبة لوضع شخص يتشنج ويرتعش فوق دراجة نارية، لهذا وبكل آلام روحي تركت دراجتي (بي إم دابليو أر ١٠٠ أر تي) المباركة في (أيروبكس) وطلبت سيارة أجرة وذهبت بك إلى قدس أقداس حياتي وفتحت لكِ الأبواب، وفكرت أن صفاء غرفتي وسيجارة أخرى من الماريجوانا ربما قد يساهمان في تهدئتك.

- هيا يا أجوستينا يا حلوة. إستلقِ على سريري وأنا سأغطيك ببطانيتي المصنوعة من جلود صغار الفيكونة[٢٣]. هل رأيتِ مدى نعومتها؟ بالفعل، أفترض أنكِ محقة، فجلود صغار الفيكونة يُمنع استخدامها غالبًا من قبل عدة جمعيات تحمي حقوق الحيوان، لكن لا تقلقي

(٢٣) حيوان من فصيلة اللاما مهدد بالانقراض.

فهذه الجمعيات لن تجد سبيلاً لدخول غرفتي، وما رأيك إذا قدمت لكِ كأسًا من الـ(بايليز) مع قطعتين من الثلج لنبدأ في مشاهدة فيلم على (بيتاماكس)؟ قولي لي ما رأيك في كل هذا؟ حسنًا، أفهم. يبدو لك الـ(بايليز) منفرًا وأن جودة الصورة منخفضة، حسنًا فليذهب الـ(بايليز) و(بيتاماكس) للجحيم! هذا ليس شيئًا قد نتشاجر من أجله. إذًا، انتظري فهنا لدي أحدث الأغنيات: (ذا جيرل إز ماين) لمايكل جاكسون وبول مكارتني. هل سمعتيها؟ لكن يا جميلة، يبدو أنك لا تدرين أي شيء في هذه الحياة ، فهذه الأغنية استحوذت على عقل نصف العالم والثنائي الذي غناها ملأ جيوبه منها بالملايين. ما الذي يحدث؟ لا تحبينها؟ أترغبين في أن أوقفها؟ اللعنة يا أجوستينا! يا للخراء الشاق الذي يتكبده المرء من أجلك! هذه المسألة النفسية الملعونة تجعلك حقًا شخصية لا تُطاق!

لم أعرف ما الذي يجب أن أفعله معكِ أو كيف يمكن تهدئة هيجانك، لهذا ذهبت بكِ إلى حمامي يا دميتي، وهو شيء أعتبره جوهر مذهب اللذة، فكل ما هو جيد في هذه الحياة، يحدث لي في هذا الحمام الكبير كشقة متواضعة في سان لويس برتراند، فهو مُصفح بالكامل بجرانيت (كالوبا بلاك) الأسود القادم مباشرة من مالاوي، ومجهز بساونا فنلندية معبقة برائحة السندر، بخلاف نافذته الهائلة التي تدخل منها كل أشعة شمس الصباح، وصف مجلات (نيوزويك) و(تايم) و(سيمانا) الموضوعة فيه بجوار المرحاض، وأيضًا وبالأخص حوضيه التوأم، كل منهما في مكانه بجانب ذلك الآخر. في الحقيقة لم أر أبدًا فائدة لوجود

حوضين سوى غسل كل يد في واحد منهما بالتزامن، لكن على أي حال فإن وجودهما يخلق فيّ شعورًا ممتعًا يبدو كرعشة الجماع. وهكذا حاولت إدخالك في ملذات البخار والماء وأنا كلي ثقة في أن هذا سيجعل المعجزة تكتمل، لكن لم تبدُ عليكِ بادرة تقول إن هذا قد يحدث، وقاتلتِ بمقاومة ملحمية تركتنا نحن الاثنين مبللين من قمة رأسنا وحتى أخمص قدمينا وقلت لك:

- والآن ما الذي سأفعله معك أيتها الفتاة سيئة التربية، أيتها المخلوقة التي لا تقبل الترويض، ستموتين من البرد والحمى وهذه الملابس المبتلة.

لكن فجأة طرأت لي فكرة، أو بمعنى أصح هذه الفكرة كانت كنيران ظهرت وسط الظلمة وأنارت لي إدراكي فقلت لنفسي:

- كم أرغب في أن أبقى وحيدًا.

وأمام هذه الاحتمالية الصرفة شعرت بارتياح لا نهاية له. فكم كنت أرغب في البقاء وحيدًا وسط صمت غرفتي، وحينما تركت نفسي أنساب مع رغبات الاستقلالية المتطرفة هذه أدركت أنني قد استنفذت كل آمال الخلاص والرحمة تجاهك بالكامل، ودون أدنى تأخير أو كسل، اتصلت بـ"رورو".

- من هو رورو؟

- كيف تقولين من هو "رورو"؟ لكن بحق الرب! أنت يا أجوستينا تعرفين جيدًا من هو "رورو". "رورو" الطيب. ذراعي الأيمن في

الجيم، الكسول الذي يصل طوله إلى متر و٩٠ سم ولديه جبهة لا تتعدى سنتيمترين، هو كنشارلز أطلس، ربما غبي بعض الشيء لكن لا يوجد من هو أطيب منه، هو من يُشرف على كل تمارين الإطالة والأوزان وال(سبا).

لم أفكر في الأمر مرتين لأنني أعرف أنه لا يوجد شيء في هذا العالم قد يرفض هذا الرجل القيام به من أجلي، لهذا اتصلت به وقلت له:

- تعال يا "رورو". أخرجني من هنا وأحسِن إليّ.

في هذه اللحظة من الأناركية القصوى كان هناك شيء واحد واضح أمامي وضوح الشمس، أجوستينا يا قلبي، وهو أنني رغبت في وجودك خارج غرفتي، خارجها، خارجها، خارجها بصورة كبيرة، خارجها بصورة مطلقة. كنتِ تصرخين في المكان الوحيد الذي أطالب فيه بالسكون المطلق. كنتِ تزرعين الهرج والمرج في الركن الوحيد الذي أحب إبقائه مُنظمًا. كنتِ منطلقة وخارج السيطرة تمامًا بين هذه الحوائط الأربعة التي اعتدت أن أُبقي كل الأمور فيها تحت السيطرة وهكذا قلت لك:

- توقفي يا حلوتي، الفوضى في جنتي الخاصة شيء لا يمكنني مسامحتك عليه، حقًا لا أطيق الانتظار حتى يصل "رورو" ليصحبك بعيدًا عن هنا. أنا في حاجة للانغماس في الانتعاش واستعادة وتيرتي الصحية وتهدئة توتري بلطمة قوية في الجاكوزي وإشعال المدفأة بضغطة على الريموت لأجلس بعدها عاريًا هكذا أمام النار كآدم في كهفه البدائي

وأدخن سيجارة من ماريجوانا (سانتا مارتا جولدن) وأكرس كل وقتي للنسيان وتصفية ذهني والتحليق في الفراغ الجميل للزرقة المتسعة، وهكذا تمكنت من تحديد أن الخطوة الأولى التي يجب القيام بها هي الاتصال بـ"رورو" لكي يأتي لأخذك يا أجوستينا، لكن الشك القائم كان بخصوص الخطوة الثانية، فلأي مكان بحق كل الشياطين يجب أن أرسلك؟ هل أعيدك إلي أمك، مجنونة كما كنتِ، وبلا دفاع وبقلب مفتوح؟ لا، بكل تأكيد لا، وهكذا استبعدت هذا الخيار الخاطئ. لم تكوني لتسامحيني أبدًا، وشيء بمثل هذه القسوة لم أكن أنا نفسي أقدر على فعله. هل أرسلك إلى شقتك برفقة "رورو" حتى عودة زوجك الطيب أجيلار من ابياجيه، والذي كما يبدو هو أكبر حارس مجانين مُضحي في هذه المدينة؟ لم تكن فكرة سيئة، بل كانت الأفضل أيضًا بلا أدنى شك، أو كانت بالفعل الفكرة الوحيدة الجيدة، لكنها كانت غير قابلة للتطبيق عمليًا لأنه لم يكن لدي أي فكرة أين تسكنين، لم تخبريني أين تقع شقتك ولكِ أن تتخيلي أنه في ظل مستويات التفكك العصبي التي كنتِ عليها، فإن سؤالك بخصوص الأمر كان ليصبح مضيعة للوقت. إذًا إلى إحدى المستشفيات؟ اقترحت المسألة عليكِ، كنت أرغب في معرفة إذا كان إرسالك إلى مستشفى نفسي سيبدو لكِ جيدًا، وفجأة تلقفتِ كل الكلمات سريعًا كأنك تحولتِ من الحديث بالسنسكريتية أو الروسية إلى حالة فهم مفاجئ للإسبانية. خشيتِ على ما يبدو من أن تتعرضي للحبس هناك طوال حياتك،

من أن تشيط رأسك من الصدمات الكهربائية، من أن يضعوكِ في سبات دائم مثل الجميلة النائمة. لا أعرف حقًا ماهية ما كان يفزعك لكن أقنعتني نظرة القنوط والغم التي ارتسمت في عينيكِ وأمرت "رورو":

- اصحبها إلى فندق. عاملها بكل الحب لأنك تنظر إلى تحفة حقيقية. هي متهيجة بعض الشيء لكن هذه المسألة ستنتهي في ظرف ثانيتين أو ثلاثة. خذ يا "رورو" هذا هو رقم بطاقتي كي تجعلها تسكن في فندق (ويلنجتون)، هم يعرفوني هناك جيدًا وقل لهم إنني سآمر في يوم آخر للتوقيع. أغلق على نفسك معها في جناح، ثم اتصل بي لتبلغني بنجاح المهمة وبعدها انتظر تعليماتي. في الوقت الحالي فقط اصحبها، لكن اسمعني جيدًا، ليكن أفضل جناح، حيث يمكنها تناول أفضل الأطعمة وأخذ حمامًا منعشًا والنوم فوق فراش جيد حتى تنتهي هذه النوبة. اعتنِ بها هذه الليلة، صديقي الوفي "رورو"، وغدًا إذا استيقظت في حالة جيدة، فأعدها لي مجددًا.

لكن العبد في التفكير والشيطان في التدبير، كان هذا اليوم مليئًا بالخراء بصورة لا يمكن مناقشتها. رغمًا عن الجودة الفائقة لماريجوانا (سانتا مارتا جولدن) التي دخنتها ببطء وتركتها تتغلغل داخلي حتى جذور شخصيتي، فإن التأنيب كان يلاحقني ويرفض تركي في سلام. كنت قد نجحت بالفعل في إخراجك من قدس أقداسي، أجوستينا يا طفلتي، والآن كنت أكافح لدفعك خارج أفكاري أيضًا، لكن أنت كنتِ تنظمينها لتعودي مرة تلو الآخر ووسط تموجات ومداعبات هذا

الدخان الذهبي، حاصر وعيي طنين دبابير مزعجة، هذه الدبابير هي لحظات معينة من الماضي بدت كأنها نسخ كربونية مما كنا نعيشه حينها، بل كأنها نسخة طبق الأصل تقريبًا، لا أعرف، ملكتي أجوستينا، أفترض أنه بالنظر للخلف فإنكِ لن تظلميني إذا قلتِ أنني دائمًا ما تركتك وحيدة حينما كنتِ في حاجة إلي وجودي، بل وأنني خذلتك في كل اللحظات الحرجة. دق جرس الهاتف وأجبت عليه فورًا. كنت أظن أنه "رورو" وسيخبرني بأن كل الأمور رائعة وتحت السيطرة، لكن رغمًا عن هذا لم يكن هو، لم يكن "رورو"، بل كان هناك صوت أنثوي مجهول يأتي من الجانب الآخر:

- السيد ميداس مكاليستر، هل تتذكرني؟

وكيف كنت سأتذكر، يا أجوستينا يا حلوتي؟ إذا كان صوتًا لا يمكن التعرف عليه، ومجهول تمامًا بالنسبة لي، ولكي أقولها بكلمات أفضل: ليس لدي أي فكرة داعرة عنه! خاصة في ظل عُلو دماغي، وحينها بدأت صاحبة هذا الصوت تذكرني بهويتها:

- جئت منذ فترة إلى (أيروبيكس) مع اثنتين من أقاربي، هل تتذكرني؟

وأنا أفكر عن أي قريبتين وقرف وخراء تتحدث.

- لكن يا لذاكرتك السيئة، سيد مكاليستر.

وأنا أصارع لتصفية ذهني.

- وصلنا إلى هناك نحن الثلاثة لتسجيل أنفسنا لكنك أوصيتنا بأنه من الأفضل أن نذهب لمكان آخر. هل بدأت تتذكر؟

- آها. وكيف لي أن أنسي! وكيف لي! وكيف لي!

ظللت أنطق عبارات مبهمة مثل هذه، في ظل جهلي البريء بما كان سيحل فوق رأسي وأنا أنتشل بصعوبة من بين ضباب الماضي صورة ثلاثي "جوز الهند الذهبي" بسراويلهن الليكرا وهن يخرجن من سيارتهن الرياضية ذات اللون الأخضر الليموني ثم قلت لها:

- أه بالفعل! حضراتكن سألتن عن الفصول وفي النهاية قررتن أنه من الأفضل أن تسجلن أسمائكن في مكان آخر.

- لا يا سيدي. كنت أنت من قررت أن منشآتك لن تستقبلنا. حسنًا، أنا سعيدة بتذكرك للمسألة وأتصل بك لأبلغك أن ابن عمي بابلو يتذكر هو الآخر.

حينما سمعت اسم بابلو يا أجوستينا، مر كل المشهد في رأسي سريعًا وبكل وضوح كأني أشاهده على التلفاز وقبل أن أتمكن من الرد ولو بحرف واحد ألقت لعنتها الكبرى ثم أغلقت السماعة. أي لعنة؟ حسنًا تلك اللعنة القادرة على جعل أكثر الناس فتورًا يرتعش. قالت لي عبر الهاتف:

- فقط أتصل بك سيد مكاليستر لأنقل لك رسالة من ابن عمي بابلو. بابلو يقول لك إن الإهانات ضد العائلة هي الوحيدة التي لا يمكن غفرانها.

هل ترغبين في معرفة ما الذي فعلته حينها يا أجوستينا؟ لا شيء يا فتاة، لا شيء على الإطلاق سوى الارتجاف.

* * *

حينما رأيت الرسالة التي أرسلتها لي أنيتا عبر جهاز النداء، اندهشت من معرفة أنني أعطيت لها رقمي. كنت لأقسم أنني لم أفعل هذا. في الليلة الأولى التي تحاورت فيها معها كنت منغمسًا بطريقة بوليسية في إعادة بناء أحداث واقعة الفندق الشهيرة، لدرجة أنني أعطيت لها رقم جهاز النداء دون أن أدرك، لكن الآن وبينما أتناول الإفطار في منزل مارتا إلينا مع ابنيّ عدت لتلقي نبأ من أنيتا التي لا تُنسى، والتي في الحقيقة كانت منسية بالنسبة لي طوال ٣٢ ساعة اضطررت لعيشها ورأيت فيها أشكال الجحيم منذ أوصلتها عند حي ميسين. بينما أسخن فطائر الذرة وأقلي البيض لتونبو وكارلوس، قبل نصف ساعة من توجههما للمدرسة الثانوية حيث يدرسان، تلقيت رسالة منها قالت فيها نصًا:

"لدي معلومات عاجلة لك. لنتقابل في (دون كونيخو) اليوم في التاسعة مساءً. توقيع: أنيتا من (ويلنجتون). المسألة بخصوص زوجتك. أعرف أنها ستهمك".

أعترف بأن رد فعلي كان غريبًا: فكرت على الفور أنني سأوافق وسأذهب للموعد، لكن ما حفزني لم يكن اهتمامي بأجوستينا، فلأقول الحقيقة في هذه اللحظة ولأول مرة منذ أن عرفتها، كان اهتمامي

بأجوستينا في حالة سبات عميق تنخفض حرارته عن الصفر بعدة درجات، بمعنى آخر لم أرغب في معرفة أي شيء آخر عن زوجتي، فبعد أيام وليالٍ كثيرة من عدم التفكير في أي شيء بتاتًا سواها، كانت قد امحت فجأة بفعل السحر من رأسي المسكينة المنهكة من السباب واللامبالاة والغيرة والغموم. ففكرت:

- نعم. أنا مهتم فعلا بهذا الموعد المرُسل عبر جهاز النداء، لكن ليس من أجل أجوستينا، بل أنيتا.

سبب وجودي صباحًا في منزل مارتا إلينا هو أنني قضيت الليلة هناك. نام ابني تونيو على أريكة الصالة وتنازل لي عن فراشه ولأول مرة منذ انفصالي عن زوجتي الأولى قضيت ليلة في منزلها، أو بمعنى أخر ما كان منزلنا وأصبح الآن منزلها هي والولدين. أرغب في شرح لماذا انتهت المسألة بالقيام بأمر يتعارض مع عادتي، فما حدث هو التالي؛ فطوال اليوم الذي أعقب مشهد المنزل المقسوم، ظلت أجوستينا غارقة في نوم عميق، مساوي في حدته لمدى النشاط المسعور الذي أظهرته طوال الليل لكنه ذو طابع معاكس، وقرب الغروب حينما استيقظت، عاودت الهجوم بنفس قصة الخط الفاصل وكل مقوماتها المتطابقة في حالة الجزع والتوحش: الحدود الخيالية، زيارة الأب، الشتائم والتي كانت هذه المرة بكل اللغات. صرخت فيّ:

- *Filthy thing; Out, dirty bastard; Vade retro, Satana*; Fuera basura.

لدرجة أنني لم أعد قادرًا على التحمل وقلت لها وأنا أبتعد:

- حسنًا يا أجوستينا. إذا كنتِ ترغبين في أن أرحل، فسأرحل!

بعدما بت مطرودًا من منزلي بفعل مؤامرة من زوجتي المجنونة وحماي الميت ودون وجود سنت في جيبي، فمن الذي قد أطلب منهم المساعدة لو لم يكونوا ابني وزوجتي السابقة؟ مارتا إلينا الموثوقة للغاية، المسؤولة للغاية، التي يسهل توقعها للغاية. لا تزال جميلة رغمًا عن هيئة "ربة المنزل" التي اكتسبتها، ورغمًا عن العمل طيلة ٢٦ عامًا يومًا تلو الآخر في نفس الشركة دون أن تتغيب ولو ليوم واحد أو أن تتأخر على المكتب. مارتا إلينا الأم الاستثنائية، رفيقة الكفاح والمراهقة المشتركة. مارتا إلينا، شديدة الصلابة، شديدة الطيبة، صديقتي العظمى طوال حياتي. لم أعرف قط ما هي التعويذة التي سقطت فوق رأسي لتجعلني أتوقف عن حب مارتا الينا. حينما استيقظت في منزلها أدركت أنه لأول مرة منذ ليالٍ لا حصر لها، قد تمكنت من النوم بهدوء، وبعدها سمعت الأصوات الناعسة لابني وهما يتحركان حافيين في المنزل والصوت الواضح لمارتا إلينا وهو يُدشن اليوم بأوامر موجزة:

- لا تصنعا ضوضاء قد توقظا أباكما. خذ قميصك يا تونيو لقد انتهيت من كيه. كارلوس خذ حذائك الرياضي فاليوم لديك حصة ألعاب.

وللحظة بات جليًا لي أن هذه هي بالفعل أصوات السعادة وليس غيرها، وأن حلاوة هذا العالم تتعلق بسماعها في كل صباح. فتحت عينيّ

ووجدت أنه حولي، في هذه الغرفة التي تركها لي ابني تونيو، وبعيدًا عن استثناءات صغيرة، فلم تكن هناك أغراض لا أعرفها، أو أغراض لم أضعها بنفسي هنا، أو أغراض لا تحدثني عن قصتي الشخصية، أغراض ظلت طيلة سنوات في مكانها. طلبت مني زوجتي السابقة أن أساعدها في إعداد الإفطار وللحظة شعرت بشيء أشبه بازدواج الشخصية. أعترف بهذا. رأيتني كأنني لم أتوقف أبدًا عن تسخين فطائر الذرة للولدين فجر كل يوم، وأعجبني هذا الذي رأيته، لدرجة أنني تساءلت ما الذي ساء حقًا، أين كان الكسر ولماذا انكسر ما انكسر إذا كان هنا هو المكان الذي يكبر ابناي فيه وتنتظر معهما امرأة لا تزال تحبني وتبقى مكاني محفوظًا بلا تغيير كأنني سأعود في يوم من الأيام؟ تساءلت عن السبب الملعون الذي يدفعني للف والدوران بسخافة والبحث في مكان آخر عن شيء لم أفقده. بكل تأكيد كنت أتذكر بشكل مبهم شعور عدم الرضا الذي أبعدني عن هنا ودفعني للبحث عن شيء آخر في الخارج. أكررها: كنت أتذكره، لكن فقط بصورة مبهمة ولم أجد تفسيرًا ممكنًا. في تلك اللحظة تحديدًا كان كل شيء يدعوني للمكوث في هذا المكان الذي كان وجودي فيه لا يزال حاضرًا رغم غيابي عنه لأربع سنوات. اكتسحني بقوة غير مألوفة شعور يقول أن كل قطع لغز حياتي لها مكان تسكن فيه بهذا المنزل وأنه رغمًا عن هجراني له إلا أنني لم أخسره. كان كل شيء يدفعني نحو العودة، كل شيء باستثناء الحماس وفي تلك اللحظة من انفصام الشخصية لم يبد الحماس كعامل شديد الأهمية بالنسبة لي.

خرج الفتيان نحو المدرسة وطلبت من مارتا إلينا الإذن للاستحمام ووافقت على أن أفعل المسألة في حمام الولدين لكنها ندمت بعدها وقالت:

ـ لم يترك الولدان مياه ساخنة فيه. من الأفضل أن تستحم في حمامي.

وهكذا دخلت حمام مارتا إلينا وبدأت في نزع ملابسي دون أن أتجرأ على اغلاق الباب. كان القيام بهذه المسألة يبدو سخيفًا، خاصة إذا كنت تعريت طوال ١٧ عامً أمام هذه المرأة، فما الذي قد يمنعني من تكرار هذه المسألة الآن؟ شعرت بغرابة، فعبر الباب المموارب تمكنت من رؤية أن مارتا إلينا أوشكت على الانتهاء من ارتداء ملابسها، كانت تجلس على الفراش وهي ترفع جوربًا مخمليًا على ساقيها وأحسست بشعور، بل تملكتني هوجة، أن هذه هي الصورة التي أرغب في مشاهدتها كل صباح في الأيام المتبقية من حياتي. تضبط مارتا إلينا تنورتها الآن، تضع الأقراط وترتدي حذائها، والغريب أنها أيضًا قد تكون تفكر بنفس طريقتي، لأنها هي الأخرى لم تغلق الباب. أخذت دُشًا سريعًا، وأعتقد أنه كان سريعًا خشية أن تنتهي من ارتداء ملابسها وتهتف من الغرفة أنها سوف ترحل. آلمتني فكرة أن ترحل. كنت أشعر أنني في حالة جيدة معها، فكرت في أنني سأحب أن أكون موجودًا هنا حينما يعود الفتيان لأنزل معهما للعب السلة في ملعب الحي والعودة جائعين لنطهو مكرونة الرافيولي التي يحبها كارلوس ولأسأل مارتا إلينا كيف كانت الأمور في المكتب بينما أفكر في شيء آخر وهي تقص عليّ بتغييرات بسيطة نفس القصة التي أحفظها من الذاكرة، لهذا أخذت دُشًا

سريعًا وبدأت في ارتداء ملابس اليوم السابق، لكن توقفت وفتحت خزانة ملابس مارتا إلينا وتأكد ظني بخصوص أن جانب كبير من ملابسي لا يزال معلقًا هناك، أو كل الملابس التي لم آخذها معي حينما انتقلت وحدي إلى منطقة أبراج سالمونا، بالفعل كانت لا تزال باقية هنا: قمصاني الإسكتلندية، سراويلي القطنية وسترتي الجلدية القديمة.

***

يقلي نيكولاس بورتولينوس اليوم النقانق من أجل العشاء ويقدمها في طبق لابنته الصغرى إوخينيا. يقول لها:

- أنت مثل جنية الغابة، ابنتي المسكينة إوخينيا. أنت جنية غابة صامتة ومتقوقعة في كهفها.

الأب والابنة وحدهما في المطبخ الضخم. تتكوم على حوائطه أجولة ممتلئة بالبرتقال جلبها الخادم اليوم بينما تتدلى سباطات العنب من عوارض السقف الخشبية. تعصر إوخينيا البرتقال في عصارة معدنية ثقيلة ثُبتت على المائدة بمسامير. لا يخرج منها فقط العصير الذي يملأ الدورق بل تنبعث أيضًا رائحة زهر البرتقال. ينظر نيكولاس بورتولينوس لعينيّ ابنته الصغرى، إوخينيا الغريبة ويسألها:

- هل تُبكيك رائحة البرتقال أنت أيضًا؟

يقص عليها:

- أشرقت شمس الصباح اليوم على الطريق وقد افترش بثمار برتقال دُهست على الأسفلت، سقطت طوال الليل من على متن شاحنات معبئة بها لتمر إطارات السيارات فوقها. جلست لفترة طويلة على ضفة الطريق، صغيرتي إوخينيا، ورائحة البرتقال كانت حزينة ونفاذة للغاية.

راقبته إوخينيا وهو يمضغ الطعام بفك متثاقل واجترار بقرة عجوز حزينة ثم فكرت وهي تشعر بالراحة:

- شكرًا للسماء، الأب ليس غريبًا اليوم.

تحتفل ساسايما بعيد الاستقلال في ٢٠ يوليو وأُعفيت الخادمات من العمل ليلاً ونزلت بلانكا مع فاراكس وصوفي إلى القرية لحضور العرض والألعاب النارية. سيتوجهوا بعدها إلى حفل الرقص العمومي. قالوا إنهم سيصلون في وقت متأخر، وبكل تأكيد إذا كانت الأجواء الاحتفالية تستحق فلن يعودوا حتى السابعة أو الثامنة من صباح اليوم التالي لأن التقاليد تنص على إنهاء الاحتفال مع الشروق بإفطار جماعي في ساحة السوق. أعلن العمدة المحافظ أن احتفال هذا العام سيشهد توزيع التامال والبيرة مجانًا. مكث نيكولاس وإوخينيا وحدهما في المنزل، فقد استدعتها الأم جانبًا قبل رحيلها وأوصتها بالاعتناء بالأب وتوقعت أن تكون المهمة سهلة هذه المرة. قالت لها:

- إنه هادئ. يكفي ألا يغيب عن ناظريك حتى ينام.

وهذه بالفعل واحدة من الفترات الصافية، التي بدأت تندر بمرور الوقت، وتكون فيها حالة الأب جيدة، حتى أنه أصبح مقبلاً على الحديث، ولأن إوخينيا ليست معتادة على أن يوجه أبوها كلامًا لها، فقد تلعثمت ولم تعرف كيف تجيب عليه. رغمًا عن أن عقارب الساعة دقت عند التاسعة، إلا أن الأب لم يطفُ بعد في مرحلة ما قبل النوم كما جرت العادة، بل هو مستيقظ وعلى وجهه يرتسم شيء ما يشبه الابتسامة. يبتسم الأب اليوم ويكركر بينما يقلي النقانق في المطبخ ويقدمها في طبق لابنته الصغرى ويبدو متصالحًا مع مملكة بساطة الحياة اليومية. تنظر إوخينيا له وتأخذ نفسًا عميقًا كأنها ارتاحت من حمل مضن.

"الأب حالته غريبة".. اعتادت الفتاتان على قول هذا حينما تشعران بأنه ينزلق نحو تلك المناطق المضطربة التي لا تقدران على اللحاق به فيها. "الأب حالته غريبة" ولا أحد يعرف العذاب الموجود في صوت طفل يقول هذه الجملة. المرة الأولى التي تعتقد إوخينيا أنها لاحظت فيها غرابة والدها تعود إلى تلك الحقبة التي كان فيها عمرها خمس أو ست سنوات. كانت تلعب بقواقع النهر وهو بالقرب منها منشغلاً بتنظيف الأوراق الذابلة التي تعرقل مجرى إحدى القنوات التي تنزل مياهها حتى البيت، ولأن الشمس كانت تضرب بقوة، فقد ارتدى الأب قبعة من القش لحماية رأسه، لكنها ليست قبعة واحدة. توقفت الطفلة إوخينيا عن اللعب وهي قلقة حينما لاحظت أنها ليست قبعة واحدة تلك التي يرتديها الأب، بل هي واحدة من القش فوق أخرى أصغر من القماش.

تتذكر أن تفهمها بغتة أن أباها يعاني من غرابة لا يُمكن علاجها كان أمرًا فظيعًا وشاذًا، لهذا اقتربت منه لتحاول نزع أحد القبعتين، كأن الإقدام على هذا سيحل المشكلة من جذورها، لكنه نظر لها بعينين شاردتين، عينين بعيدتين إلى ما لا نهاية، ومنذ هذا الحين تفكر إوخينيا بمبدأ "القبعة المزدوجة"، حينما يتصرف الأب بغرابة وتقول لنفسها "أبي في حالة القبعة المزدوجة"، لكن اليوم "الأب ليس في حالة القبعة المزدوجة"، لذا هما يجلسان الآن بعد العشاء على كرسيين هزازين في الرواق المطل على النهر، بكلمات أفضل الرواق المُطل على التجويف الذي يجري في نهايته نهر دولثى، والذي كان في ليلة عيد ٢٠ يوليو الوطنية هذه مجرد كيان مظلم ينساب بصوت منخفض أسفل سماء صامتة تضيء بين الفينة والأخرى بانفجارات بارود الاحتفال البعيد. يقول الأب:

- هناك حيث تدوي الصواريخ، هناك توجد جميلتي بلانكا مع صغيري فاراكاس وربما تتعانق أيديهما بينما تمتلئ عيناهما بالنجوم الصناعية.

ولأن إوخينيا تمعن نظرها فيه لمحاولة استقصاء إذا كانت بؤرة جديدة من الهذيان تتبرعم داخله فإن الأب يحاول تهدئتها بمداعبات خرقاء ومتثاقلة لشعرها شديد السواد قبل أن يقول لها:

- لا تقلقي يا ابنتي. ما يحدث هو أن أي منهما ليس لديه موهبة أدبية، أي منهما لم ينكشف له معنى المأساة. يجب أن يكون المرء قويًا كأبيك

لتنعدم رغبته في إنهاء النزاع في صالحه. يجب أن نتحلى بالكرم يا ابنتي، الكرم هو ما يفرض نفسه في هذه الحالة.

لا تفهم إوخينيا، شديدة الشحوب إلى حد الشفافية وهي غارقة في كرسيها الهزاز، معنى خطاب الأب، لكن هذا لا يزعجها، فهي معتادة على عدم فهم أي شيء تقريبًا مما يقوله. ترتفع أصوات حشرات الصرناخ والصراصير في تلك الليلة الهادئة، ربما ترتفع بصورة أكبر من اللازم وتخشى إوخينيا من أن تسمم مسامع أبيها، المختنقة بالفعل من الهدير المستمر للطنين، وكأن الأب تنبأ بما كانت تفكر فيه، يُحدثها عن الهمهمة الأبدية المحبوسة في طبلتي أذنيه:

- تقول أمك إنه طنين، لكنها مخطئة. هي جلبة مصدرها آتٍ من الفضاء ويبدو أنها لا تنبعث من نقطة محددة فيه، بل من كل الاتجاهات وفي نفس الوقت.

تحاول الابنة أن تشرح له:

- أبي هي فقط أصوات حشرات الصرانيخ.

لكن نيكولاس بورتولينوس يقول بينما يهز رأسه يمينًا ويسارًا:

- يُسمون صدى خلق الكون ـوعمره آلاف السنينـ الصرانيخ والطنين.

وبعدها بدأ يهز نفسه على كرسيه حتى نعس. كان ضخمًا، لينًا وقبيحًا في روبه الحريري الأسود الذي طُبعت عليه رسوم لفروع خضراء وفكرت إوخينيا:

ـ قبيح، لكنه هادئ.

بدأ تفكيرها يتأكد بتلاوة أسماء أنهار ألمانيا التي سمعته يهمهم بها:

ـ لان، ليبه، ماين، موزيل، نيكار، نايسه.

يتلو الأب هذه الأسماء وهو نصف نائم وفي لحظة يبدو كأنه قد استيقظ ليقول لابنته:

ـ لدي أخت جميلة جدًا في ألمانيا تُدعى إلسه. هل كنتِ تعرفين؟

تجيبه:

ـ نعم يا أبي.

لكن الأب يعود مرة أخرى لقائمته الأبجدية: أودر، الراين، الرور.

تفكر إوخينيا بينما تستسلم هي الأخرى للنوم:

ـ أمي كانت محقة، الأب اليوم ليس غريبًا.

لهذا كان اندهاشها بعدها بعدة ساعات كبيرًا. لا تعرف كم ساعة كانت قدم مرت حينما سمعت الصراخ المتصاعد من سواد النهر، صرخات نيكاسيو كبير الخدم وزوجته إيلدا. تلك الصرخة التي ترددت في الخلفية من وراء ضوضاء الصرانيخ وتحت تلألؤ الألعاب النارية الذي بدأ ينطفئ:

ـ وجدنااااااه. وجدنااااااااه.

تلاحظ إوخينيا أن الأب لم يعد موجودًا على الكرسي الهزاز، فلم يبق منه سوى خفيه وروبه الحريري وتركض بحثًا عنه في المنزل الريفي،

أولاً في غرفة نومه، لكن الفراش لا يزال مرتبًا ما يشير إلى أنه لم يمر منها، وبعدها في الحمام لكن المناشف التي لا تزال في مكانها تشهد على أنه لم يلمسها، ثم صالة البلياردو، فغرفة الطعام الضخمة والخاوية، والمطبخ بقشر البرتقال الذي لا يزال في مكانه فوق الطاولة برائحته النفاذة، فقاعة البيانو التي فزعت إوخينيا فيها حينما وجدت نفسها وجهًا لوجه مع كبير الخدم نيكاسيو الذي ظهر من العدم كأنه رعب حي.

- عثرنا على الأستاذ بورتولينوس في النهر. عثر عليه سكان قرية بيرخين دي لا ميرثيد وأتوا لابلاغنا، كان هناك في الأسفل بالقرب من بيرخين دي لا ميرثيد على بعد عدة كيلومترات من هنا. عثروا عليه عاريًا بعد أن فارق الحياة عند خليج صغير من الأحجار وهم يحضرون جسده الآن. النهر جرفه وتركه متكومًا عند بعض الماء الراكد.

تتذكر إوخينيا المراسم البطيئة التي أقيمت على أضواء المشاعل في الفترة بين منتصف الليل والفجر على ضفاف النهر، لكن الثقل الخاص لهذه الذكرى يذبل تحت الحمل الساحق للذنب. يصرخ صوت ما في إوخينيا من داخلها:

- بسببي، بسببي، بسبب ذنبي العظيم، بسبب إهمالي دفن جثة أبي المنتفخة خضراء اللون في السر، بسبب إهمالي ابتلع أبي كل مياه الأنهار قاطبة. غفوت وبسببي غرق أبي. قتلته في أحلامي وطنين أذنيه سيدوي للأبد في روحي، سيجعل روحي تتيه في كل أيام حياتي وهو يذكرني بوداعه. قالت أمها بصوت تائه:

- لا تضعوا صليبًا فوقه، بل حجر.

مجرد حجر من ضمن الأحجار الكثيرة التي تتدحرج في ذاكرة إوخينيا الممحية. "لا تضعوا صليبًا فوقه" ولم يضعوا صليبًا فوقه، ولا أي شيء قد يُعرّف مكان دفنه، وبعدها بعدة أيام استعادت إوخينيا بوضوح ذكرى رأت فيها نفسها وسط مشهد عائلي شديد الثبات لدرجة تجعله يبدو كصورة. يجلس حول مائدة غرفة الطعام أختها صوفي وفاراكس وأمها وهي، إوخينيا، التي تسمع أمها وهي تعلن بنبرة ودودة، مطمئنة، نبرة من ينتظر أن تستمر الحياة رغمًا عن كل شيء:

- يا فتيات، أبوكما قد عاد إلى ألمانيا حيث سيمكث لوقت لا يعرفه.

هذا هو ما تخبرهما به بلانكا، الأم، بطريقة حاسمة لا تشوبها شائبة ودون أي حق في الطعن عليها. تسأل إوخينيا:

- هل ذهب أبي إلى ألمانيا دون إلقاء الوداع؟

فهي لم تعد تعرف ماذا تفعل بحلم الدفن والمشاعل على ضفاف النهر، لا تعرف ماذا تفعل بأنهار ألمانيا التي كان أبوها يعددها ويهمس بأسمائها كأنها صلاة جنائزية. إذا كان الأب قد ذهب إلى ألمانيا فأين هي تلك الليلة التي ترك فيها نداء النهر يُغريه؟

- من حلم أن أبي نزل إلى النهار بسبب هفوتي؟ من حلم بأنني لم أتمكن من إيقافه؟ من حلم بأنني المذنبة بسبب نومي؟

عاد الأب إلى ألمانيا لكنه ترك هنا ألمه الكبير وساعات اضطرابه وعقله المظلم. إذا كان الأب قد عاد إلى ألمانيا، فربما لا يكون الذنب

ذنبها هي، إوخينيا، ربما إذا كان هناك مطمئنًا في أراضيه، فقد يكون سامحها على هفوتها الفظيعة، إذا كان الأب بعيدًا وفي صحة جيدة، فربما يهدأ صخب الذنب في رأس إوخينيا، ربما يسكن وينطفئ ويمكنها أن ترتاح. تشعر إوخينيا أحيانًا أنها لم تعد تقدر على النوم منذ ليلة الألعاب النارية تلك التي نامت فيها حينما لم يتوجب عليها ذلك. تقول الطفلة إوخينيا وهي على مائدة غرفة الطعام في ساسايما:

- بالفعل، بالفعل، بالفعل أبي ذهب بالفعل إلى ألمانيا دون أن يبلغنا ومن يعرف متى سيعود، هذا إذا عاد في يوم من الأيام.

وفاراكس؟ ما الذي حدث لفاراكس الذي اختفى قبل أن يظهر بالكامل؟ أبيليتو كابايرو هذا الذي يتلألأ في حلم عابر ويتبخر بعد الاستيقاظ منه؟

بعدما انتهيت من قراءة المذكرات والخطابات لم أجد إجابة واضحة، فبداية من نقطة معينة مُحي فاراكس وأبيليتو كأنهما كانا قد كُتبا بحبر سري. سألت الخالة صوفي عن الذي حدث لفاراكس:

- قولي لي يا خالة صوفي، إذا لم تعرفي أنت فمن سيعرف سواك لأن الجدة بلانكا لا تأتي على ذكره في مذكراتها. تتركه جانبًا كأنه لم يكن موجودًا من الأصل.

تجيبني الخالة صوفي:

- أعتقد أن فاراكس ظل معنا في منزل ساسايما لثلاثة أو أربعة أشهر بعد تاريخ عودة أبي لألمانيا، ثم جاء اليوم الذي لم يعد موجودًا فيه. أمسك سترته المصنوعة من الآلباكا ومخلاته القديمة وعساكره المعدنية وذهب إلى المكان الذي جاء منه، بمعنى أخر نحو أنابويما. ربما لم يجد معنى لمكوثه لأنه لم يعد هناك من يعلمه البيانو، ربما لأنه رفض قبول كل هذا الإرث الذي تركه له أبي. ربما لم يحب أمي أبدًا وربما أحبها كثيرًا. ربما قرأ في عينيّ وعيني إوخينيا تطلعات أقلقته. من يدري ما الذي حدث! فقد اختفى في ذات يوم كما اختفى أبي، تمامًا مثل أبي، لكن على الطريق وليس عبر النهر. أعرف فقط أننا لم نسمع أي شيء عنهما، أو بمعنى أصح عن ثلاثتهم، مجددًا لأن أمي لم تقدم أي تفسيرات أو أتت حتى على ذكر أسمائهم.

***

كنت أرتدي سروالي القديم الذي لا يزال محفوظًا في خزانة مارتا إلينا حينما سمعت أصواتًا نسائية في الصالة، أحدها لمارتا إلينا وآخر بدا لي مألوفًا لكن لم أتعرّف عليه في حينه، ثم صوت أنثوي ثالث لامرأة أكبر سنًا بدا مثل صوت الخالة صوفي. فكرت في أنها ربما تكون مارجاريتا، أم مارتا الينا، وإن كنت قد اندهشت من هذه الفرضية لأنني كنت أعلم أن المرض يبقيها محبوسة في منزلها، لهذا اختبأت- دون قميص أو حذاء- خلف باب الغرفة وأطللت برأسي لأكتشف أن من يتحدث في الصالة هي فعلاً الخالة صوفي وأنها كانت بصحبة أجوستينا.

أمام مارتا إلينا التي لم تتعاف بعد من الاندهاش وكانت تحاول التعامل بدماثة والخالة صوفي التي لم تعرف كيف تتصرف، كانت تقف أجوستينا وهي تتصرف كمساعدة اجتماعية، بل كجارة حشرية ومزعجة؛ تحدثت مع مارتا إلينا بنبرة غريبة، لنقل إنها لم تكن تحمل طابعًا شخصيًا لكنها آمرة، بمعنى آخر كانت توجه لها أوامر أو تشرح لها بتحذلق أن كل شيء في منزلها ليس في موضعه الصحيح وفقًا لعلوم ال(فينج شوي). أجوستينا، الخبيرة في ال(فينج شوي) كانت تنصح مارتا إلينا المفزوعة حول كيفية إعادة ترتيب منزلها. بدأت أجوستينا تتحرك في كل الأنحاء دون طلب من أحد، دخلت وخرجت من غرف الأولاد وهي تتحدث بسرعة مفمعة بالغضب. انكفأ قلبي داخلي حينما تفهمت أن أجوستينا في ظرف لحظات ستدخل غرفة مارتا إلينا وتجدني بعدما انتهيت من الاستحمام وأنا بنصف ملابسي. تملكتني في البداية تلك الدفعة التي قد يشعر بها عشيق سري في فيلم رخيص وذهبت للاختباء أسفل الفراش لكن على الفور روادني ذلك الشعور الغامض، فما كان في البداية فزعًا ورعبًا أمام فكرة أن تعثر أجوستينا عليّ، تحول بالنسبة لي إلى سعادة مطلقة. ربما ارتسمت ابتسامة بعرض وجههي، من الأذن إلى الأذن حينما فهمت بسرعة البرق أن أجوستينا جاءت إلى هنا لاستعادتي. لقد افتقدتني الليلة الماضية وجاءت اليوم من أجلي وبداية من هذه اللحظة بات كل المشهد خفيفًا وعابرًا بالنسبة لي، سأقول أيضًا أنه كان سعيدًا رغمًا عن سرياليته، رغمًا عن فزع مارتا إلينا وارتباك

الخالة صوفي التي حاولت على قدر استطاعتها أن تشرح لي أن منع أجوستينا من الخروج من الشقة كان مستحيلاً.

- وكيف عرفت أنني هنا؟

- لا أعرف يا فتى. عرفت المسألة هكذا بكل بساطة. حسنًا، تخيُل الأمر لم يكن بمثل هذه الصعوبة.

قلت لها:

- لا مشكلة يا خالة صوفي.

والحقيقة أن الأمور كانت أكثر من جيدة، فسعادتي كانت تفيض مني حينما علمت أن أجوستينا بطريقتها المجنونة جاءت للبحث عني. وقفت ساكنًا في مكاني، أو بمعنى أخر خلف باب الغرفة التي دخلتها أجوستينا كالنيزك وهي تمر أمامي دون أن تلتفت لرؤيتي كأنني شبح، لأن ما كانت تفعله حينها كان انتقاد الأثاث، واستبعاد المزهريات التي لا تراها صالحة. أمرت مارتا إلينا بتغيير ألوان الحوائط:

- من الذي خطر بباله طلاء كل المنزل بهذا الأصفر الزاعق؟ لن يخطر هذا ببال أحد سوى شخص عتيق وممل. آسف كثيرًا يا أستاذة (كانت تخاطب مارتا إلينا دائما بلقب أستاذة ولم تناديها ولو لمرة واحدة باسمها)، لكن كل أسرة هذا المكان موجهة بصورة خاطئة، وضع رؤوسها ناحية الجنوب أمر غاية في السوء بالنسبة للتوازن الداخلي، وشيء مثل هذا حتى أنت يجب أن تعرفيه، سيكون من

الأفضل أن تعملي على زيادة الـ(فينج شوي) لكي تسري في منزلك طاقة الشمال.

وصلت المسألة لدرجة أنها دست أنفها في خزانة ملابس مارتا إلينا ووصفتها بالمهملة وأوصتها بالتخلص من الأحذية المستهلكة وكل هذه الملابس التي لا تتماشى مع الموضة:

- بهذه الطريقة تبدين أكبر سنًا يا أستاذة. توقفي عن ارتداء اللون الأسود فربما هكذا تنمحي ملامح الحداد المرسومة على وجهك.

قالت حينما شاهدت ملابسي المحفوظة في الخزانة:

- حسنًا حسنًا، ما الذي لدينا هنا؟ أها! هذا لا بالطبع! إذا كان زوجك قد رحل عنك يا أستاذة، فمن الأفضل أن تعيدي له ملابسه لتستعيدي هذه المساحة. لا تعرضي نفسك يا أستاذة- حينما تحصلين على زوج جديد- لشعوره بالانزعاج حينما يجد مكانه محجوزًا.

لم أعرف إذا كان يجب عليّ البكاء أم الضحك. حقًا لم أكن أعرف إذا كانت أجوستينا تهذي أم أنها تتظاهر بالمسألة لتعذب مارتا الينا.

- انظري يا أستاذة، هذه الأدراج مزدحمة بأغراض لا فائدة أو رجاء منها، وهكذا يصبح كل ما تحققيه هو حجب الـ"تشي" واضعاف طاقة الـ"يانج".

كان كل ما يحدث هزليًا، لدرجة أنني اضطررت أكثر من مرة لكبت ضحكي، مثل حينما سبت أجوستينا لوحة زيتية معلقة في الصالة

وأمرت بازالتها فورًا من هناك، ووسط كل هذا كانت الغبطة تكتسحني وأنا أفكر في أنها محقة، فقد كنت أكره هذه اللوحة المنفرة حقًا والتي كانت مارتا إلينا تضعها في صالة كل واحدة من شققنا المتالية. للحظات كان هذا المشهد ليبدو مبهجًا لو لم تظهر زوجتي السابقة بمثل هذا الاستياء. سألتني وهي تجز على أسنانها في لحظة كنا فيها وحدنا:

- بحق الرب يا أجيلار. ما الذي يحدث لزوجتك؟

أجبتها:

- لا أعرف ما الذي يحدث لها مارتا الينا. أعتقد أنها تهذي.

لم أعترف لها أبدًا بمشكلة أجوستينا العقلية، ربما كنت قلت لها ذات مرة شيء مثل أن أجوستينا تصاب بالإحباط أو أن أجوستينا عصبية، لكن لم أقل لها شيئًا بخصوص هذه المسألة أي كلمة أخرى، وكانت النتيجة الآن، هي انفجار تلك العاصفة الهوجاء دون إنذار مسبق في منزل مارتا الينا.

- ولماذا فراش من أجل اثنين يا أستاذة؟ إنه يأكل كل المساحة ووفقا لما أفهمه فأنت تنامين وحدك.

لم يكن هناك أي شخص قادر على ايقاف "لعبتي المسعورة" التي لم تترك أي شيء سوى وانتقدته حتى النباتات:

- سيئة هي تلك النباتات ذات الأوراق المدببة، من الأفضل أن تحصلي يا أستاذة على نباتات ذات أوراق مستديرة. وما هي فائدة هذا

الحائط؟ نصيحتي لك هي أن تعلقي مرآة "با جوا" محاطة بأشكال مثلثة. فلتعلقيها الآن لتجنب وقوع مأساة!

أصدرت أجوستينا حكمها وارتعش صوتها قليلاً وهي تنطق كلمة "مأساة" كأنها تتوقعها. كانت مارتا إلينا تجاربها وهي تنزع اللوحات وتضع المرايا وتنظر لي بتعاطف وخوف وعزاء حتى جاءت لحظة معينة رجتني فيها:

- خذها بعيدًا عن هنا يا أجيلار. آسف كثيرًا لما يحدث لك، لكن خذها بعيدًا عنا هنا. واعملا على حل هذه المأساة بينكما فأنا لن أحمل لكما شموعًا في هذا العزاء.

وحينها دخلت أجوستينا للحمام وفتحت خزانته على مصراعيها ونادت على "الأستاذة":

- اسمعي يا أستاذة. هذا أمر سيء للغاية. لا يوجد سبب لبقاء كل هذه الأدوية في المنزل. العلاج الذاتي مضر بالصحة. هذا الكريم يحتوي على الكورتيزون. لا أوصيك به يا أستاذة، وهذا أيضا ليس جيدًا. الإفراط في استخدام المضادات الحيوية ليس أمرًا جيدًا.

قلت لنفسي:

- يا للضحك! كأن أجوستينا كانت قد تنبأت بمخي وهو يفكر في العودة مجددًا لهذا المنزل وجاءت صراحة لكي تحطم كل شيء حجرًا تلو الأخر، المنزل والفكرة، من يعرف فربما تكون بليمودا التي تخصني قد تنبأت فعلاً أنني للحظة ما بدأت في التخلي عنها.

كانت الخالة صوفي قد جلست على أحد مقاعد الصالون وبعدها صدرت منها حركة غريبة، كأنها تحاول النهوض لكن دون استجابة من ساقيها، أما مارتا إلينا فازداد غضبها بمرور الوقت من تعاملي مع هذه المسألة بتهاون ومن يدري كيف كان الموضوع لينتهي إذا لم تمسكني أجوستينا من يدي لتقول لي:

- لنرحل.

وحينما رغبت الخالة صوفي في المجيء خلفنا منعتها:

- فلتبقِ أنت هنا لبعض الوقت لزيارة هذه الأستاذة، فأحيانًا تكون مسألة ترك الأزواج يعتنون بشؤونهم بمفردهم أمرًا جيدًا.

لم تجد الخالة صوفي شيئًا لتفعله سوى الضحك على هذه المزحة ومن جانبي عدت لأشعر أنني إنسان من جديد، لأن هذه كانت أول مرة منذ الواقعة المظلمة، تظهر فيها المرأة التي أعبدها أدلة على احتياجها لي، وقبل خروجنا نزعت "لعبتي المسعورة" إحدى صوري التي كانت موضوع في اطار فوق طاولة صغيرة وقالت:

- هذه أيضًا سأخذها معي.

* * *

كان هذا أسبوعًا سعيدًا، فرياح الفرح تهب في أقل وقت تنتظرها فيه. آسف لمارتا الينا، التي سقطت بكل تأكيد بين شباك بوادر هذا

الأمل الذي بدا للحظة سهلاً ثم انكسر بعدها على الفور، لكن فيما يتعلق بنا، فنحن خرجنا سعداء من منزلنا. ارتسم تعبير يدل على الراحة على وجه أجوستينا وبدا لي كأجمل ما في هذه الحياة. قلت لهما، لأجوستينا والخالة صوفي، أننا لن نعود للشقة الآن بل سنسافر الآن إلى ساسايما عبر الطريق السريع نحو ميديين: بوجوتا، فونتيبون، موسكيرا، مدريد فاكاتاتيبا، ألبان، ساسايما. اعترضت الخالة صوفي:

ـ لكن هذا الطريق تسيطر عليه الجماعة المتمردة.

ـ بالفعل لكن فقط بداية من الثالثة مساءً.

لقد كنت أتحقق من المسألة وعلى ما يبدو فإن الجماعة المتمردة تبدأ في النزول من الجبل نحو الثالثة وحينها يُغلق العاملون بنقط المرور مراكزهم ويرحلون، لكن صباحًا توجد حركة مرورية للشاحنات.

ـ إذا ذهبنا وعدنا قبل الثالثة فلن يحدث شيء.

لم توجه أجوستينا، الجالسة في المقعد الخلفي، أي أسئلة أو تصنع أي مشكلة، فهي غالبًا كانت توافق على السفر إلى ساسايما أيًا كان السبب، أما الخالة صوفي فكانت ترغب في معرفة غرضي من هذه الرحلة فأوضحت لها:

ـ إلقاء نظرة على مذكرات الجدين وهذه الخطابات التي قلت بنفسك لي إنها موجودة هناك.

- بالفعل، لكن قلت لك أيضًا إنها مُغلق عليها بمفتاح، إنها ظلت دائمًا في خزانة ملابس مغلقة بقفل تحتفظ إوخينيا بمفتاحه.

- أتعرفين ما هي فائدة البلطة يا خالة صوفي؟ فائدتها هي تحطيم خزانات الملابس المغلقة.

لكن في ساعة الحقيقة، لم يكن هناك حاجة لأي بلطة، بل كل ما احتاجه الأمر كان مجرد دفعة جيدة بالكتف للباب المزدوج لكي ينكسر القفل، ثم البحث قليلاً بين الملابس المحفوظة لكي تظهر مذكرات الجد بورتولينوس والجدة بلانكا ورزمة من الخطابات، لكن هذا سيأتي لاحقًا، فبمجرد خروجنا من بوجوتا وفي أول نقطة تفتيش تأكد لي ما سمعته، أن الجيش يقوم بدورياته حتى الثالثة أو الرابعة تقريبًا، ثم ينسحب من أجل حماية نفسه وفي تلك الساعة تهبط الجماعة المتمردة من الجبل التي تظل تعسكر هناك حتى قبل مطلع الفجر بقليل. قلت لموظفة البوابة:

- بطاقة ذهاب وعودة من و إلى ساسايما.

فحذرتني:

- ستذهبون على مسؤوليتكم الشخصية، وعلى أي حال أنصحكم بالعودة قبل العصر.

واصلت الخالة صوفي ونحن في الطريق حكاية ما حدث في منزل لا كابريرا في يوم الركلة التي وجهها السيد لوندونيو لابنه الأصغر ولأول

مرة تحدثنا علانية أمام أجوستينا دون أن يحدث شيء. كنت أراقب كل واحدة من إشاراتها عبر المرآة العاكسة ولم أرصد أي تغيرات. لم تكن أجوستينا تسمعنا أو أنها تظاهرت بهذا، كان تركيزها يبدو منغمسًا في أكشاك بيع الفاكهة الكثيرة المنتشرة على امتداد الطريق، في أشجار الجكراندة الضخمة التي ظهرت عند الأطراف الأخيرة من الأراضي الباردة، في الهوات الضبابية التي تُؤطر منزَل الجبل. قالت الخالة صوفي:

- بوجه عام حينما كان كارلوس بيثينتي الكبير يضرب كارلوث بيثينتي الصغير، فإن الطفل كان يحبس نفسه في غرفته ليبكي ووحدها أجوستينا كانت من يفتح لها الباب لأنها تنجح في مواساته، لكن في هذه المرة لم تنته الأمور بنفس الطريقة.

في تلك اللحظة سألت أجوستنيا، الجالسة في صمت بالمقعد الخلفي للسيارة، إذا كنا قد عبرنا موسكيرا ولأنني أومأت برأسي، فطلبت أن نتوقف عند "العجوزة مبتورة الرأس" لنتناول أقراص الـ"أوبليا"، وابتسمت الخالة صوفي حينما سمعت طلبها وقالت:

- كنا نتوقف دائمًا هنا لتناول الـ"أوبليا" ونحن في طريقنا إلى ساسايما قبل أن يقتلوا صاحبة المكان.بعدها أيضًا حينما استأنفت ابنتها العمل.

وهكذا توقفنا. اسم المكان هو (أوبلياس فييتيكا) وفي مدخله حوض حجري قديم مغطى بالطحالب يمكن شرب المياه النقية منه. بجوار هذا الحوض كانوا قد قطعوا رأس صاحبة المكان منذ سنوات، وهي عجوز لم تكن حتى لتقتل ذبابة. لا يعرف أحد لم اغتالوها بهذه الطريقة

المتوحشة، لكن ما حدث أن هذه الواقعة حدثت ولادة العنف مجددًا في المنطقة ولهذا نتذكرها جميعًا. أوقفنا السيارة أمام المكان ودخلنا وسألتنا الابنة، التي بعد عدة عقود مرت منذ المأساة باتت عجوز مثل أمها العجوز، إذا كنا نرغب في إضافة الكريمة أو المربى لأقراص الـ"أوبليا" وردت أجوستينا بالنيابة عنا نحن الثلاثة:

- لا شكرًا. دون كل هذا. نريدها هكذا كما هي، فقط بحلوى اللبن مثل أيام الماضي.

وبعدها لدى خروجنا ونحن نمر أمام الحوض الحجري قالت:

- قطعوا رأس العجوز المسكينة هنا.

لكن قالتها بهدوء، كأنها تردد عبارة نطقتها أو سمعتها عدة مرات في هذا المكان أثناء طفولتها.

ومجددًا ونحن في السيارة حكت الخالة صوفي أن تلك الصور التي التقطها لها كارلوس بيثينتي وهي عارية سقطت على الطاولة أمام أعين الجميع:

- كنت قد نسيت أمرها لأنه كان يقسم لي أنها محفوظة في خزانة مكتبه، لكنها كانت الآن على المائدة أمام عيون أختي إوخينيا والأطفال الثلاثة، ولم يكن هناك أي عذر أو مهرب. إذا كنت في ذلك المساء أتمنى الموت بسبب تلك الركلة التي وجهها الأب لابنه، فحينها كنت أرغب في أن أكون مدفونة، والشيء الوحيد الذي كنت أفكر فيه

كان الخروج من هذا المنزل وركوب سيارة أجرة لأطلب منها أن تأخذني إلى أي مكان آخر بلا عودة.

اعترفت لي الخالة صوفي أن يقين مدمر استحوذ عليها وأخبرها بأن حياتها ستنتهي عند هذه النقطة:

- كنت قد فقدت للتو كل ما كان لدي، الحب والأبناء والسقف والأخت، لكن كل ما كنت أفكر فيه هو قصة كانت أسمعها وأنا طفلة حول خنزير صغير يشيد منزله من القش ليذهب أدراج الريح كلما هبت، وهناك وأنا أقف أمام أختي كنت أنا ذلك الخنزير الصغير، لقد شيدت منزلي من القش والآن جاءت العاصفة ولم تترك منه أثرًا، لم أقدر على نطق ولا كلمة. أعتقد في الحقيقة أنه ولا أحد مما كانوا هناك قد فتح فمه وفي ذهني قلت لأختي "حسنًا يا إوخينيا، كل شيء ملكك، هو زوجك، هم أبنائك، هو بيتك"، لكن أدركت على الفور أن هذا الأمر لم يكن صحيحًا، ففي ساعة الحقيقة أختي المسكينة لم تكن تمتلك أي شيء، فتلك الصور وبالأخص هذا الابن المضروب كانت بمثابة شهادة على أن منزلها هي الأخرى مصنوع من القش.

نظرت الخالة صوفي بعدها إلى "بيتشي"، الفتى الذي كان يقف في وسط الصالة بعدما كشف اللعبة، كانت كل جزئيات جسده في حالة توتر في انتظار النتائج.

- قلت لنفسي إن كارلوس بيثينتي سيقضي عليه، سيقضي عليه ويضربه بالتأكيد لأنه تجرأ على فعل ما فعله وحينها دارت رأسي وقلت لنفسي "إذا أراد أن يضرب الفتى مجددًا فسيجب عليه أن يفعلها على جثتي". كان أمرًا غريبًا يا أجيلار، فإذا كان الكشف عن تلك الصور قد شتتني بالكامل في اللحظة الأولى، ففي تلك التالية انكب الميزان عند ناحية أخرى وشعرت بأنني قد استعدت القوة التي نزعتها عني سنوات طويلة من الحياة السرية والغراميات السرية، وفكرت أنه بما أن ما يخصني قد انتهى فيمكنني الآن الدفاع عن هذا الفتى، لكن لم تكن هناك حاجة لذلك يا أجيلار، فالفتى كان يدافع عن نفسه بنفسه. وقف جيدًا على ساقين قويتين ومستعدًا لأي شيء مقبل، لم نراه أبدًا بمثل هذا الطول. لقد أصبح كبيرًا في النهاية، وهو ينظر بتحدٍ من أسفل حلقات شعره الهائجة التي كانت تحرس عينيه. كانت مسألة عدم تخمين أن رد فعل هذا الشبل ستكون منزوعة الرحمة وربما تصل إلى حد الموت، إذا تجرأ أبوه على وضع يده فوقه مجددًا، مستحيلة.

قلت لها:

- وهكذا تراجع الأب أمام الضراوة حديثة العهد التي اكتسبها ابنه.

فأجابت الخالة صوفي:

- ربما أو ربما أن كارلوس بيثينتي الأب كان ككارلوس بيثنتي الابن ينتظر رد الأم، فنهاية اللعبة كانت بيديها. كل النظرات أصبحت معلقة بإوخينيا.

سألتها:

ـ وما الذي فعلته؟

أجابت الخالة صوفي وهي تدير رأسها نحو الخلف لتنظر لأجوستينا التي تظاهرت بأنها لا تستمع الينا:

ـ فعلت أكثر أمر محير، فبعدما استعادت هدوءها وأخفت أي دلالة على الألم أو الاندهاش جمعت إوخينيا الصور واحدة تلو الأخرى، كمن يجمع أوراق كوتشينة، وحفظتها في حقيبة الحياكة ووجهت نظرها لابنها خواكو وقالت لهـ سأقول لك نصًا ما قالته لأنه أمر لا يمكن تصديقه وقد يبدو أنه من ابتكاري: "يا للعار يا خواكو! هذا هو ما فعلته بالكاميرا التي أهديناها لك في عيد ميلادك. تصوير الخادمات الصغيرات وهن عاريات؟" وعلى الفور أكملت مقطعها المسرحي وهي تخاطب زوجها "احرم هذا الفتى من الكاميرا يا عزيزي ولا تعيدها له حتى يتعلم كيف يستخدمها بصورة جيدة!"

سألتها:

ـ ما الذي تقولينه؟ هل اعتقدت إوخينيا حقًا أن خواكو هو من التقط الصور؟

ـ لا تكن ساذجًا يا أجيلار، فقد كان من الواضح أن المصور هو كارلوس بيثينتي بسبب القياس المميز لكاميرا (لايكا) التي لم يكن أحد يستخدمها سواه، وأي شكوك كانت لتوجد حول أن من

التقطت لها هذه الصور هي أنا؟ إوخينيا كانت تتظاهر بهذا ببرود دم مذهل وصوت لا يشوبه أي ارتباك للدفاع عن زواجها. أنا أفكر يا أجيلار منذ ١٣ عامًا عن المعاني المحتملة لرد فعل أختي وأصل في كل مرة إلى نفس الحل. لقد كانت تعلم ما يحدث، كانت تعلمه دائمًا، ولم تكن المسألة لتقلقها بشرط أن تبقى مخفية وهذا هو ما فعلته تحديدًا في هذه اللحظة، ارتجال مشهد أستاذي لضمان حفاظ السر على كينونته رغمًا عن الدلائل المغايرة. ما أرغب في قوله لك يا أجيلار أنها كانت تعرف أن زواجها لن ينتهي لأن كارلوس بيثينتي يصورني وأنا عارية، بل أنه سينتهي إذا عرف آخرون أن كارلوس بيثينتي يصورني وأنا عارية، ربما ليس هذا أيضًا، بل إذا اعترف آخرون بأن المسألة معروفة.

- هل أنت متأكدة مما تقولينه يا خالة صوفي؟

- لست متأكدة من أي شيء. أحيانًا ينتهي الأمر بوصولي لحل متناقض، أن إوخينيا أخذتها المفاجأة لدى مشاهدة هذه الصور التي كانت قاسية جدًا عليها مثل الركلة التي تلقاها "بيتشي"، لكنها اضطرت للتقليل من حجم كل ما حدث والتصرف بتلك الطريقة، لكن الأكثر إدهاشًا من كل هذا كان دور خواكو. صدقني يا أجيلار حينما أقول لك إنه في هذا المساء فقد ثبتت أواصر التحالف بين خواكو وأمه للأبد.

سألتها عن الذي فعله خواكو فقالت:

ـ نظر خواكو إلى عينيّ أمه وقال لها الجملة التالية، سأقولها لك كما نطقها بالضبط: "آسف يا أمي! لن أفعل هذا الأمر مجددًا"، أتتخيل يا أجيلار؟ فمسألة أن تعرف إوخينيا لائحة "المظاهر أولاً" بعد كل حياتها العملية أمر مفهوم، لكن أن يمارسها خواكو صاحب العشرين عامًا بطريقة مثالية، ويلتقط المسألة هكذا بينما تطير في الهواء، أمر مذهل. كل هذا انهار بسبب كذبة واحدة، كذبتي، كذبة غرامياتي السرية مع صهري. كانت أختي حينها تحاول إعادة خلق عالمنا بكذبة أخرى لتترك الأمور كما كانت قبل الزوبعة، زواجها وسمعة منزلها الطيبة، بل وحتى إمكانية بقائي فيه رغمًا عن كل شيء، الكذبة تقتل الكذبة. أخبرني أنت إذا كانت كل هذه الأمور لا تدعو للجنون.

سألت وأنا أجيب على نفسي:

ـ وماذا كان ثمن كل هذا، بجانب ارتباك رأس أجوستينا الذي لا يمكن سبر أغواره؟ هزيمة الابن أمام أبيه، الابن الذي كشف الحقيقة وواجه بها الأب، لتكذبها الأم فينكسر الأبن وينجو الأب.

عارضتني الخالة صوفي:

ـ تقريبًا، لكن ليس بصورة كاملة، لأن "بيتشي" كان يحتفظ بالبطاقة الرابحة الأخيرة في كُمه، ورقة حريته. حينما رأى أن كل شيء في المنزل أصبح ضائعًا وأن ضعف الكذبة كان يبتلعهم جميعًا، خرج هكذا من الباب الرئيسي تمامًا كما كان، بالسويتر والجورب

وحذاءه ذو الرقبة الطويلة فوق بيجامة النوم وابتعد في الشارع لكي لا يظهر مجددًا وأنا خرجت خلفه ولم أعد أبدًا.

كنا قد تقدمنا كثيرا في طريقنا وفي تلك اللحظة كنا نعبر أسفل جسر من الأسمنت وحينها قالت أجوستينا من مقعدها الخلفي:

- هذا هو الجسر الأول. انزعوا ستراتكم، فبعد ثمان دقائق حينما نعبر الثاني ستضربنا حرارة ورائحة الأراضي الحارة.

وحدث ما توقعته بالضبط، فبعد ثمان دقائق بالثانية عبرنا من أسفل الجسر الثاني وفي نفس اللحظة بعدما تسللت لفحة هواء لنا من النوافذ وعبر أنوفنا وصل لنا الحر بكل روائحه، رائحة الخضرة والرطوبة، والحمضيات وعشبة ياراجوا، رائحة الأمطار الغزيرة، رائحة النباتات العنيفة. أصبحنا في الأراضي الحارة وبات ينقصنا قليل من الوقت لنصل إلى ساسايما.

* * *

كل ما فعلته طوال ١٥ دقيقة كان الارتجاف، أقسم لك طفلتي أجوستينا، أن هذه المكالمة تركتني حرفيًا وأنا أرتجف وأنا هناك عاريًا وبائسًا كطفل ولد للتو، حتى رن الهاتف مجددًا وفكرت أنه سيكون "رورو" فعلاً هذه المرة، لكن أخطأت مجددًا، فهذه المرة كانت مكالمة من السيد سانشيز، أحد حراس (أيروبيكس) والذي حدثني وهو يلهث ولم يجد كلمات مناسبة لوصف الوضع لي:

- هم هنا. هم هنا، يا دون ميداس ويبحثون وينزعون كل أرضية الجيم، لقد دمروا الأرض الخشبية بالفعل ولا يزالوا يواصلون البحث.

كان أول ما فكرت فيه بعد الفضيحة التي دشنتيها مساءً هو أن الشرطة قد اقتحمت (أيروبيكس) وقلبته رأسًا على عقب للعثور على جثة دولوريس، لهذا سألت الحارس:

- من هم الموجودون هناك يا سيد سانشيز، رجال الشرطة؟

- لا يا دون ميداس ليست الشرطة، بل حارسي السيد "العنكبوت" الشخصيين وستة رجال آخرين، والسيد "العنكبوت" نفسه موجود في الخارج مع السيد سيلفر. هو ينتظر في سيارته.

لم أكن قد فهمت بعد وأصررت على التحقق منه:

- عن أي شيء يبحثون؟

لأن تلك المسألة فاجئتني فعلاً وكانت خارج الإطار، يا أجوستينا يا حبي، فإذا كانوا سفاحي "العنكبوت" فالأمر إذًا لم يكن يتعلق بالبحث عن دولوريس، ففي نهاية المطاف هم الوحيدون الذين يعرفون في أي أرض مقفرة قد ألقوا برفاتها، لهذا عدت لسؤال سانشيز:

- ما هو الخراء الذي يبحث رجال "العنكبوت" عنه في (أيروبيكس) في هذه الساعة من الليل؟

- المال، دون ميداس، يقولون إن هنا يجب أن يكون مخبئًا مبلغ ما قد.. كيف أقولها؟ أنا أكرر لك ما قالوه واغفر لي دون ميداس، يقولون إنك سرقته من السيد "العنكبوت" ودون سيلفر. أتصل بك لأحذرك دون ميداس، يقولون إنهم إذا لم يعثروا على شيء هنا، فسيخرجون فورًا نحو شقتك، هؤلاء القوم في حالة هياج دون ميداس، هم كثرة وفي شدة الغضب، يقولون إنه إذا لم يكن المال موجودًا هنا، فيجب أن يكون في شقتك، واعذرني على تلك الكلمة يا زعيم، فما أفعله هو تكرار الكلمات التي سمعتها منهم بكل احترام، يقولون إنهم إذا اضطروا لتعليقك من خصيتيك، فسيفعلونها لكي تصرخ بالمكان الذي أخفيت فيه النقود.

قد تسألين، يا أجوستينا يا جميلة، كيف تمكنت من تدارك المسألة والتفكير وإصدار ردة فعل وسط رحلة ما بين المجرات مع ماريجوانا (سانتا مارتا جولدين) التي جعلت خلاياي العصبية لينة واسفنجية كالمارشيملو وتتواثب بوداعة في صرح عقلي المفروش بالسجاد، وأقول لك إن الفزع قادر على صناعة المعجزات، أو إن ضربة الأدرينالين المزدوجة التي نتجت عن المكالمتين بددت حالة السبات تلك، لأنه في النهاية تمكنت من ربط ذيول الأمور ببعضها واستنتجت ما هي نتيجة ٢+٢، بمعنى آخر ربطت نسق وتتابع أحداث الشهور الأخيرة كما سأقولها لك: أولاً: قريبات بابلو أتين في (أيروبيكس) لطلب الاشتراك ورفضت بصورة قاطعة دون تمعن أو حساب تبعات تصرفي، ثانيًا: علم بابلو إسكوبار بالمسألة وقرر تعليمي درسًا، ثالثًا: بدأ بابلو الكمين

حينما أرسل "مستريو" ليأمرني بطلب مبلغ كبير من المال لصالحه، ذلك المال الذي لم يرده أبدًا، خامسًا وهو الأمر الذي لم يكن لدي تأكيد بخصوصه لكن خمنته انطلاقًا من مبدأ منطقي، وهو أن بابلو أبلغ روني و"العنكبوت" عبر شخص آخر بأنني كذبت عليهما وجعلهما يعتقدان أنه أعاد النقود إليّ في التاريخ المحدد وبالمكاسب المتفق عليها، أنه سلمها لي بالكامل لكي أرسلها لهما، سادسًا وأخيرًا: بينما كنت أجهز خريطة النقاط الخمس السابقة في ذهني، فإن روني و"العنكبوت" كانا يتوجهان نحو شقتي بزمرة سفاحيهم لخصييّ ونزع رموشي بقصافة الأظافر لكي أخبرهما أين أخفيت النقود التي يفترض أنني احتلت عليهما بخصوصها. هكذا أصبحتِ البانوراما معروضة أمامك يا طفلتي الحلوة، في ست خطوات مختلفة وحركة واحدة حقيقية. اسمعي الفزورة: لونها أبيض وتضعها الدجاجة وتؤكل مقلية فما هي؟ ها هو الحل أمام أعين الجميع، ها هي البيضة تظهر كاملة ومستديرة.

أعترف لك يا أجوستينا أنني دائمًا ما تصرفت معك كشخص همجي، لكن أطلب منك أن تحسبي نقطة في صالحي، فوسط كل هذا الذعر وحالة "لينقذ كل إمرء نفسه" التي استحوذت على شخصي تذكرتك يا أجوستينا يا ملكي أشجاني، هو أمر لا يُصدق لكنه صحيح. لقد تذكرتك وعرفت أنه إذا هربت من شقتي فلن أتلقى أبدًا المكالمة التي يجب أن يبلغني فيها "رورو" بوضعك، وفي الحقيقة كنت قلقًا من عدم معرفتي بنهاية نوبتك النفسية، لكن الحقيقة أيضًا أن هذا هو الحد الذي وصل إليه إيثاري البطولي فيما يتعلق بخصوصك، لأن المسألة لم تكن

تتعلق بالبقاء ساكنًا في انتظار أخبارك حتى يأتي "تشوبو" وعصابته من الحيوانات لفرمي، لهذا بكل آلام روحي وأنا أتمنى لك من بُعد أفضل الحظوظ الممكنة، سخنت أقدامي وانطلقت وأنا أعلم أنني لن أعرف شيئًا عنك مجددًا. حسنًا.. لا عنك ولا عن "رورو" ولا "العنكبوت" ولا الجميلات اللاتي يدخلن فراشي ولا عن أي شخص مطلقًا حتى اليوم، حينما شاء الحظ ألا أرى أحدًا سواك، أما البقية فلا، فقد انتهى الأمر، "فينيتو" وحجب نهائي مع قطع كل أسلاك الاتصال! كان الأمر كأنني قد تخلصت من كل شيء وعدت لأسكن مجددًا في العالم الآخر، ومع مرور أيام عزلتي توطد لدي أكثر وأكثر ذلك الانطباع بأنني لم يكن لدي وجود من الأساس، فهذه الحياة الأخرى التي أصررت بكل عناد ونظام على تشييدها في الهواء لم تكن موجودة في الأساس، ولأنه بات لدي وقت فراغ طويل فلم أجد مانعًا من التفلسف، فقد أصبحت وغدًا يحب التأمل يا أجوستينا. أحب التفكير في تلك الجملة التي تقول "كل ما هو في الحياة حلم، والأحلام هي أحلام". لا أعرف من هو الشاعر صاحبها، لكنها أصبحت شعاري الرئيسي، دميتي أجوستينا. أنا أرغب حقًا في معرفة من هو الذي قالها. من فضلك اسألي زوجك، الأستاذ أجيلار، فيجب أن تكون المعلومة لديه أم أنه ليس خبيرًا في مثل هذه الأمور؟

أخوك خواكو وايربي الـ"باراكو" و"العنكبوت" العاجز وشقتي الضخمة و(أيروبيكس) بكل فتياته النحيفات ودولوريس بميتتها المتوحشة وحتى دراجتي الحبيبة (بي إم دابليو أر ١٠٠ أر تي) كلهم بالنسبة

لي بمثابة أشباح وممثلين ومشاهد من مسرحية قد انتهت بالفعل. جاء عمال غرف الملابس ورفعوا كل شيء وأسدل الستار. حتى بابلو نفسه ليس سوى شبح، وهذه البلد بأكمله ليست سوى شبح، فلولا القنابل ودفقات الرشاشات التي يدوي صداها عن بعد ويصل تردد اهتزازاتها إلى هنا، كنت لأقسم أن هذا المكان المُسمى كولومبيا توقف عن الوجود منذ فترة. سأقص عليك كيف مرت دقائقي الأخيرة في العالم الآخر، فبعد تلقي مكالمتي قريبة بابلو وحارس الجيم الهاتفيتين ألقيت سيجارة الماريجوانا في المدفأة وارتديت أي بنطال وأول قميص وجدته وقبعة (هارفرد) وحذاء (نايك اير) بلونيه الأحمر والأسود وأمسكت بحقيبة أغراضي الشخصية التي كنت جهزتها صباح اليوم لأخذها لمزرعة آل لوندونيو، والتي كانت لا تزال جاهزة بفضل ألعاب القدر، لكن لخوض رحلة مختلفة عما هو متوقع. حملت فوق كتفي حقيبة جولف كنت أبقيها مربوطة وممتلئة بكمية كبيرة من الدولارات ودون أن أتوقف حتى لأمسك بالريموت وأطفئ الأنوار أو المدفأة نزلت للمرآب للبحث عن دراجتي النارية وهنا فقط تذكرت أنني تركتها في الجيم، لهذا توقف للحظة أثناء هروبي وسمحت لنفسي ببصيص من الحزن لتوديع دراجتي ال(بي إم دابليو) للأبد، وأيضًا الجاكوزي ودُشي ذو المرش المزدوج وبطانيتي المصنوعة من الفيكونة الصغيرة، ومجموعة اسطواناتي الثمينة ونظام (بوز) الصوتي الخارق. خرجت إلى الشارع حاملاً حقيبتي وحقيبة الجولف وأوقفت أول سيارة أجرة مرت وتحققت من أنه لا أحد يتبعني وتوجهت لأول مرة في آخر ١٤ عامًا نحو شقة أمي في حي سان لويس

برتراند. أنتِ لا تعرفين، أجوستينا يا طفلتي، صخب المشاعر المتعارضة التي مرت برأسي أثناء رحلة عودتي الإجبارية الليلية إلى الرحم، أو لقائي الانتهازي الجديد مع أصولي، هذه الرحلة كانت إما عودة مطلقة نحو الخلف أو استرداد لأمي النبيلة والمباركة التي أخفيتها لوقت طويل بسبب هذه العقد التي تصنعها بشرابات النايلون. لا أعرف إن كنت قد التقطتِ المفارقة، يا جميلتي، لكن يبدو أن أرض الأم التي أبقيتها سرًا ومُنعزلة بصورة منهجية وكتومة عن عالمي الصاخب كانت تمثل لي فجأة فرصة الخلاص، كأنها ملاذ ليس له وجه ولا يثير الشبهات، وهذا بسبب قانون غريب للقدر ينص على أنه يلتف حول نفسه ليعض ذيله.

كما قلت لكِ، أجوستينا يا ساحرتي، ففي هذه الليلة وأنا داخل سيارة الأجرة بينما أعانق حقيبة الجولف، شعرت أنني أعود للركن الوحيد للخلاص المحتمل، ولم أتحرك من هنا حتى اليوم، ساكنًا في مكاني، دون أن أتنفس تقريبًا خشية أن يكتشف أحد مخبئي، وكما يبدو فلن أتحرك من هنا فيما يتبقى من حياتي على هذا الكوكب، لأنه كما رأيتِ في الجرائد، يا أجوستينا يا ملكة الطعامة، أو من يعرف؟ فربما لم ترِ لأنك لا تقرأين الجرائد أبدًا، فإن الكونجرس قد صدق على تفعيل معاهدة تسليم المجرمين ووكالة مكافحة المخدرات، أو بكلمات أخرى رونالد سيلفرستين، صديقي روني سيلفر، العميل ٠٠٧، الرجل الطيب أو العميل الطيب، قد فتح تحقيقًا موسعًا ضدي يتهمني فيه بغسيل الدولارات بأدلة كافية وحاسمة، وها أنا هنا كما تريني يا ملكتي، أرتدي خفين ولا أحلق ذقني بينما أتناول بجانبك هذه الشوكولاتة الساخنة التي

أعدتها لنا أمي بكل إخلاص. أنا مجرم تُطالب حكومة الولايات المتحدة بتسليمه وجاري البحث عني في هذه اللحظة تحديدًا في البر والبحر والجو من كل الأجهزة الأمنية ومكتب الاستخبارات والشرطة الدولية، لكن لن يحدث لي شيء طالما ظللت منعزلاً في منزل أمي، أمي الجميلة المُغذية والعطّاءة والأكثر فاعلية من أي ريموت هجرته لأنه معها لا أحتاج حتى للضغط على أي زر، فهي تخمن رغباتي قبل أن أتمكن حتى من تشكيلها وتركض لإرضائي رغمًا عن عرجها. نجلس وحدنا على أريكة الصالة-غرفة الطعام أنا وأمي ونشاهد كل المسلسلات ونأكل الأرز والعدس ونصلي المسبحة الوردية مع الغروب. تخيلي، أجوستينا يا قلبي، فبسبب معدل نفقاتنا المتواضع، مع الدولارات التي جلبتها في حقيبة الجولف يمكننا أن نكفي أنفسنا حتى نهاية الزمان وما بعده، لأنني أعرف عن حق أنه لا يوجد في كل هذا الكون أي واشٍ أو جاسوس أو جندي مارين أو حتي أي من سفاحي بابلو إسكوبار أو حارس شخصي "للعنكبوت" يُمكنه معرفة مخبئي طالما ظللت هنا آمنًا في حجر أمي. أصبحت دُبًا في حالة بيات شتوي دائمة، أصبحت واعظًا يعتلي أعلى نقطة في منبره، راهب تبتي سينعزل لمئة عام في صومعته، فرانسيس الأسيزي.. أراهن أنك مندهشة، يا طفلتي الطعمة، من مشاهدة صديقك ميداس وهو يتحول إلى فيلسوف مزري، إلى نبي مستسلم في نهاية الزمان.. آمييين!

أنتِ فقط، أجوستينا يا صغيرتي، من بين كل سكان المعمورة، أنتِ فقط عرفتِ أنه إذا اختفيتِ دون أثر، فهنا هو المكان الوحيد الذي

قد تجديني في وأتيتِ لكي أقص عليكِ ما حدث في هذا السبت البائس، ولأن لديكِ كل الحق في معرفة المسألة، فها هي لديكِ وقد أظهرت لك قطعة كعكتي دون إخفاء شيء. أفترض أن آخرين هم من يجب أن يكشفوا لك البقية يا طفلتي الجميلة المستبصرة والعمياء في نفس الوقت. أنا سعيد حقًا برؤيتك في قمة الجمال وبصحة جيدة. أقسم لكِ أنكِ في ظل هذه الظروف كنت آخر شخص أتوقع رؤيته. أعرف أنكِ ستواصلين الاحتفاظ بسر سان لويس برتراند بنفس الوفاء الدائم وفي الوقت الحالي لا يخطر لي شيء قد أقوله لك. حسنًا، ما تعرفينه بالفعل هو أنه بداية من الآن فلدي كل الوقت الموجود في العالم للتفكير فيكِ، وهو ما أعتاد فعله حينما لا يجب عليّ التفكير في شيء.

***

أنيتا، أنيتا الجميلة تنتظرني وهي متألقة في (دون كونيخو). ترتدي زي عملها الأزرق الداكن، بتنورته القصيرة التي تصل إلى منتصف فخذها، لكنها غيرّت قميصها الأبيض ببلوزة سوداء ضيقة لا يقبلها مشرف الفندق بكل تأكيد لأنها تكشف عن فتحة صدر مثيرة جدًا. أنيتا السمراء من أي نقطة تنظر فيها إليها هي رهيبة! غيرت أيضًا حذائها بآخر له كعب طويل للغاية ولا يصلح أن ترتديه طوال اليوم بكل تأكيد بينما تقف خلف كاونتر الاستقبال. فكرت بمجرد رؤيتها: هذه الفتاة تبحث عن المشاكل والآن ما الذي سأفعله معها؟ كنت قد عدت مع أجوستينا والخالة صوفي نحو الخامسة عقب رحلتنا إلى ساسايما بعدما

تخطينا بنجاح تبادلات السيطرة على النظام العام التي أخبرتهما عنها وبين أيدينا غنيمة خزانة ملابس الجدين، وإذا لم أكن قد حددت في التاسعة هذا الموعد- الذي لم أرغب في الغياب عنه لأي سبب كان- لكنت قد انغمست في نفس هذه الليلة في قراءة المذكرات والخطابات لأكتشف في أقرب وقت ممكن الهوية الحقيقية لبورتولينوس الألماني وزوجته بلانكا. قد تضطر أحيانًا للانتظار لقرون لوقوع شيء ما وفجأة تحدث الأمور كلها مرة واحدة، ولدى دخولنا للشقة عقب عودتنا من ساسايما دق الهاتف. قلت للخالة صوفي:

- إنه "بيتشي" ويرغب في مكالمتك.

قلتها دون حاجة لسؤاله عن هويته، فلمن سواه قد يكون هذا الصوت الذكوري الذي يتحدث بلكنة كولومبية-مكسيكية؟

أعلنت الخالة صوفي بعد إغلاق الهاتف:

- سيأتي "بيتشي" لزيارتنا. اتصل ليؤكد الزيارة.

توجهت نظراتي أنا والخالة صوفي لأجوستينا، انتظارًا لرد فعلها. قالت بحماس طبيعي:

- إذا كان "بيتشي" قادمًا، فيجب أن نرتب هذا المنزل المقلوب رأسًا على عقب.

لدرجة أن أحدًا لم يكن يشك أنها أمس كانت تتلفظ بفظائع بصوت مفخم يبدو أنه صادر من داخل قصعة، وفي الحقيقة كانت

الشقة مقلوبة رأسًا على عقب بسبب الفصل الذي فرضته بنفسها حينما كانت تنتظر الزيارة التخيلية لأبيها. سألتها الخالة صوفي:

- إذًا.. هل يمكننا إعادة قطع الأثاث إلى مكانها؟

فوافقت أجوستينا وأخبرتها بأنه لا يوجد داع لتكويمها كلها في جانب واحد وقالت كأن شخصًا غيرها هو من فرض هذه الحماقة:

- فنحن لن نُشمع الأرضية أو نقدم دروسًا في الرقص هنا. يجب أن تُعاد قطع الأثاث إلى مكانها ونرتب الأمور بالكامل.

وهنا تعرضت لنوع معين من الارتباك وسألتها وأنا أخشى أن تنفجر كل مسألة أواني المياه وحفلات التطهير وكل هذا الإعياء الجهنمي مجددًا:

- فعلاً؟ ترتيبها بالكامل؟

فأجابت بتوتر كأنها سمعت سؤالاً عجيبًا:

- ترتيب المنزل، ترتيبه، أو بمعنى أخر إعادته كما كان من قبل.

وبدأت تنفذ المسألة بحماس متجدد أو مفرط فهمست للخالة صوفي بما أفكر فيه بقلق:

- أن تتحرك بمثل هذه الطريقة ليس جيدًا لها.

- بالفعل، ليس جيدًا لكن من الذي سيوقفها؟ لنثق في الرب يا أجيلار.

- حسنًا يا خالة صوفي، لنثق في الرب.

وبينما كانت أجوستينا تبدأ للمرة المائة إعادة ترتيب المنزل جلست أنا والخالة صوفي لنستريح لدقيقة بعد رحلة الذهاب والعودة الماراثونية إلى ساسايما وسألتها:

- أخبرني كيف التقيتِ مع "بيتشي" في المكسيك؟

وفي تلك اللحظة قاطعتنا أجوستينا وهي تقول:

- لا أعرف. لا أعرف. لست مقتنعة بهذه الحوائط باللون الأخضر الطحلبي.

فتجرأت على محاولة تهدئتها بأن ألحت لها:

- لكن الـ(فينج شوي) يوصي بها؟

فردت:

- فليذهب الـ(فينج شوي) للجحيم. أنا أفكر أن هذه المساحة ستبدو أكثر اتساعًا إذا طُليت الجدران بالبرتقالي المحروق.

قصت الخالة صوفي لي:

- كان هذا هو ما حدث: بعدما أطلقت إوخينيا رصاصة الرحمة بالكذب بخصوص الصور، خرج "بيتشي" للشارع كما هو، أو وهو يرتدي بلوفر وحذاء طويل الرقبة فوق البيجامة، بلا أي شيء آخر، لكن الأجواء التي اتخذ فيها القرار جعلتنا نعرف أن هذا الفتى لا يفكر في العودة بتاتًا. ، أما بالنسبة لي ففي ظرف ثوان كانت حالتي قد تغيرت من اعتقادي أن حياتي قد انتهت، إلى التفكير في أن الشيء الوحيد الذي انتهى هو حياتي كما كنت أفهمها حتى تلك اللحظة، لهذا

أمرت نفسي: كفانا من اللعب السلبي! وجاءت لحظة إلقاء ورقتي الرابحة. كانت حقيبة يدي لا تزال منذ عودتنا من القداس فوق المقعد بجانب قبعة الـ"سومبريرو" ذات الريشة التي كنت أرتديها والسعفة المباركة، فأخذتهم جميعًا بدلاً من حقيبة يدي وحدها ولا تسألني عن السبب ثم صعدت للحظة إلى غرفتي لأخذ المال الذي كنت أحتفظ به في درج الشيفونيرة، وقيمته سبعة آلاف و٥٠٠ دولار في صورة قسائم سفر و٢٥٠ ألف بيزو، ومعطفي وجواز سفري وصندوق مجوهراتي ومررت على غرفة "بيتشي" سريعًا وأخذت أول سروال رأيته في خزانة الملابس وطرت نزولاً فوق السلالم. إذا كنت أقول لك إنني طرت فيجب أن تفهم المسألة كما هي لأنني حتى لم أكن ألمس درجات السلم حرفيًا، وبينما أمر أمام صالة مشاهدة التلفاز الصغيرة حيث كانت لا تزال بقية العائلة موجودة، تمكنت من رؤية أجوستينا وهي على ركبتيها بوجه يكتسيه الإعياء وشعرت بنغزة في قلبي تقول لي: "هذه الفتاة ستدفع الثمن"، ووعدت نفسي بالعودة يومًا ما للبحث عنها، ثم خرجت إلى الشارع ورأيت أن "بيتشي" قد ابتعد عدة مربعات سكنية ولاحظت أن السعفة المباركة الشهيرة كانت لا تزال في يدي فألقيتها بعيدًا، وداعًا يا سعفة الشهيد! وركضت نحو الفتى ولحقت به وقلت له:

- هيا بنا نرحل من هنا.

فأجابني:

- لقد رحلنا بالفعل.

وصلت بعد التاسعة بقليل إلى (دون كونيخو) وهناك كانت أنيتا وفتحة صدرها الرهيبة، أنيتا وساقيها السمراوين، أنيتا وشعرها المسدل برائحة الخوخ، أنيتا المرأة التي ليس لديها أي عُقد، أنيتا العازمة على أخذي هذه الليلة إلى فراشها بأي طريقة ممكنة. جلسنا في (دون كونيخو) أمام كوبين من البيرة وطلب من معجنات اللحم بالفلفل الأحمر الصغير. قربت أنيتا صدرها ورائحتها الخوخية مني وقالت إنها تحققت من هوية الشخص الذي سدد تكلفة الإقامة في جناح الفندق الذي كانت أجوستينا فيه. قالت لي أنيتا:

- الدفع مجرد كلمة، فالفندق يبحث عن هذا الشخص الذي لم يدفع لهم أبدًا. ترك رقم بطاقة ائتمانية أبلغ البنك في اليوم التالي أنها أصبحت موقوفة، وهذا ليس هو الحساب الوحيد العالق له معنا، فبين هذا الشيء وذلك الآخر، يدين لنا بمبلغ مالي كبير.

لم تتوقف أنيتا عن الكلام ولم أكن أرغب في الإنصات، ففي اللحظة التي أقترب فيها الكشف عن اسم الرجل الذي كان مع أجوستينا لم أعد أرغب في معرفة هويته. لا أعرف لماذا، فالمسألة لم تعد تهم، فأنا وأجوستينا أكلنا أقراص الـ"أوبليا" عند "العجوز مقطوعة الرأس" وأي شيء آخر لم يعد له معنى. لقد أمسكتني من يدي لتعرفني على المنزل وحدائق ساسايما.

- هذا هو كهف أزهار الأوركيديا وهذ هو الإسطبل وهذا هو سرج حصاني الذي كان يدعى براندي، وهذا هو السهل الصغير الذي

كنا نلعب عليه الكرة وفي هذه الأروقة كنا نلعب "عسكر وحرامية"، وأمام هذه الشجرة سقطت من على براندي وانخلعت ترقوتي، تعال يا أجيلار، اجلس بجانبي على هذه الأرجوحة، فوق عصي البامبو هذه كانت أمي تغرس قطع الفواكه للطيور: الكاردينال وببغاء الدُرّة وعصافير الأثوليخو الزرقاء والكناريا، هذه هي السلة التي كانت الخالة صوفي تجمع فيها بيض الدجاج دائمًا والآن هيا بنا يا أجيلار، يجب أن ترى نهر دولثى. اسمعه. يُمكن سماعه من هنا. لا تعرف مدى نعومة وسواد أحجار نهر دولثى وكيف تسخن من الشمس سنجلس عليها ونضع أقدامنا في المياه.

بعد هذه الأحجار السوداء، لم أعد مهتمًا بمعرفة اسم رجل الفندق، فيمكنه أن يُدعى كما يشاء لأن أجوستينا حبي أنا رافقتني لأتعرَّف على نهر طفولتها. لا أعرف، بشكل ما كنت قد تركت خلفي آلام هذه الخيانة أو الخطأ أو أيا كانت التسمية ومعرفة اسم ولقب هذا الرجل الآن لم يكن ليفعل شيئًا سوى إعادة إحياء المسألة من جديد، لهذا فبينما كانت أنيتا تتحدث كنت ألهي نفسي بالنظر لأي شيء آخر، إلى أظافرها التي لا مثيل لها والتي لم تعد مقسمة إلى قطاعات بل ممتلئة بالنجوم، نجوم زرقاء صغيرة فوق خلفية فضية، أي أنها كانت أعلامًا لكن ليست لفرنسا، بل ربما دولة أخرى على علمها نجوم. واصلت أنيتا حكايتها لكن كنت أفكر في علم كوبا، لكن به نجمة واحدة. أبيض؟ أحمر؟ علم أمريكا؟ هذا العالم به نجوم كثيرة لكن عكس نجوم أظافر أنيتا، فهي نجوم بيضاء على خلفية زرقاء، علم الجزائر؟ لو كنت أتذكر جيدًا

فبه قمر ونجمة، أما علم إسرائيل فعليه نجمة داوود والأرجنتين فشمس والشمس في النهاية مجرد نجم. شككت في أن هذه النجوم تظهر على عدة أعلام عربية مثل العراق ومصر، لكن هذه يجب أن تكون خضراء. وبينما كانت أنيتا تلامس ساعدي بأطراف أظافرها الممتلئة بالنجوم فكرت: "هذا أمر لا يصدق، يا للشغف بالسماء! كل أعلام الأرض تقريبًا بها نجوم ولا يوجد علم أعرفه عليه الأرض نفسها!"، لكن رغمًا عن هذا لم أتمكن من تجاهل الاستماع لاسم الرجل حينما نطقه في النهاية فم أنيتا.

- ميداس مكاليستر؟ ميداس مكاليستر هو من كان معها؟ نعم أنا أعرف من هو ميداس مكاليستر هو حبيب سابق لأجوستينا.

وفي تلك اللحظة شعرت بالغثيان وفكرت أن تناول تلك الجعة وأكل معجنات اللحم هذه كان خيارًا سيئًا. كانت أحشائي تشتعل وقلت إن الذنب يقع على الفلفل الحار، أو بالأصح ميداس مكاليستر. بحثت عن حمام الرجال لأطس وجهي بالماء والبقاء وحدي لفترة وحينما عدت للطاولة كانت أنيتا قلقة بسبب تأخري وقالت لي:

- كنت سأذهب للبحث عنك.
- سنبحث عنه هو، فهو يدين لي بتفسير أو بالأصح يدين به لزوجتي.
- ما الذي ستفعله؟ ستضربه يا أجيلار؟

لكن لا، فكل ما كنت أبحث عنه هو مطالبته بأن يفسر لي ما حدث في عطلة الأسبوع تلك، وحينها عرضت أنيتا أن تخبرني بأين يفترض أن أجده، شريطة ألا تصل الأمور للضرب بالأيدي:

ـ هذا إذا وجدناه لأنه مختفٍ. أقول لك إنهم في الفندق يرغبون في قتله، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليه. يقولون إن الرجل قد اختفى من على وجه الكوكب لأنه عرف أن الحكومة ستصدر حكمًا بتسليمه.

وهكذا ذهبنا للبحث عن الجيم الذي يمتلكه، اسمه بالإنجليزية ويقع في أحد الأحياء السكنية بالشمال.عثرنا على المكان لكنه كان يُغلق فقد كانت نحو العاشرة، وكان الأسمر الطويل الذي أنزل الباب الحديدي وأغلق الأقفال هو من ظننته ميداس مكاليستر، تعرفت عليه بمجرد أن رأته عيناي. سألتها:

ـ هذا هو الرجل الذي كان معها؟

فصدقت أنيتا:

ـ بالفعل هو.

ـ إذًا لقد حانت ساعة الحقيقة.

لكنها لم تكن ساعة الحقيقة، بل ساعة الارتباك لأنني حينما واجهت ميداس هذا أقسم لي بمريم العذراء أنه ليس ميداس بل "رورو". صرخت فيه:

ـ بلا "رورو" بلا خراء.

كنت أواجه "رورو" هذا لكن بحرص فهذا الوحش كان رياضيًّا كبيرًا، أحد محترفي كمال الأجسام، حتى تدخل ثلاثة أو أربعة من متدربات الجيم أو أيًا كان المسمى الذي يُطلق عليهن. كن في هذه

الساعة يخرجن نحو سياراتهن وشهدن بأن هذا بالفعل هو "رورو" موظف الجيم المسؤول عن الأوزان وتمارين الإطالة وأن ميداس هو المالك، لكن لم يره أحد منذ عدة أيام.

ـ لم يظهر هنا مجددًا.

ـ حقيقي، لم يظهر هنا مجددًا.

ـ ألا يعرف أحد أين هو؟

ـ لا. لا أحد يعرف أين هو وأنتم لستم أول من جاؤوا للبحث عنه.

ـ بالفعل لستم أول من جاء. لقد اقتحموا هذا المكان أكثر من مرة وفي الغالب سيُغلق قريبًا وسيجري تشميعه.

قال "رورو":

ـ بالفعل هذا سيحدث بكل تأكيد، وبالمناسبة هو يدين لي براتب ثلاثة شهور.

عدت لمهاجمة "رورو":

ـ لكن أنا رأيتك تخرج من غرفة الفندق هذه الذي كانت زوجتي فيه.

قال لي من كنت أظنه ميداس مكاليستر وأكد أن اسمه "رورو"، بينما يمد يده بطريقة بدت لي ودودة وأمينة لنقل أنها مقنعة:

ـ إذًا أنت زوجها. تشرفنا. أنا "رورو". أنا من اتصلت بك لأطلب منك أن تأتي لأخذها من الفندق.

ـ ومن أعطاك الرقم؟

- زوجتك. زوجتك بنفسها هي من أعطتني الرقم وطلبت مني الاتصال بك.

سألته وأنا أشعر في النهاية أن روحي قد عادت لجسدي، فبعد السير لأيام وليال طويلة بلا روح تمكنت من استعادتها في النهاية:

- هي من طلبت منك أن تتصل بي؟ هل أنت متأكد مما تقوله؟

- أنا متأكد من أنني متأكد. أعطتني رقمك وإذا لم تفعل هذا فكيف كنت لأحصل عليه. فكر قليلاً وخمن يا أخي. لا تقفز إلى حلول متسرعة، كانت زوجتك هي من طلبت مني أن أتصل بك.

قلت له:

- أوه يا رجل! يا "رورو" في الحقيقة شكرًا للغاية وسامحني، لكن الآن قص عليّ، عن ماذا كانت كل هذه المسألة؟ ما الذي جرى لزوجتي؟ ولم كنت في هذا الفندق؟ ما الذي كنت تفعله معها؟

- هيا بنا.

قالت لنا أنيتا هذه العبارة فيبدو أنها كانت الوحيدة التي تعرف كيفية القيام بمثل هذه الأمور.

- سنجلس في البار الموجود عند الناصية ونقدم كأسًا للسيد "رورو" ونطلب منه أن يقدم لنا خدمة توضيح المسألة بصورة ودية. من أجل الصداقة فقط يا سيد "رورو".

- حسنًا، ليس لدي الكثير لأوضحه، لكن حسنًا وشكرًا، أقبل الكأس لأن البرد قوي ولا مانع من تدفئة حنجرتي.

وبمجرد دخولنا في البار وهو بين المطرقة والسندان ومع تناول عدة كؤوس من الـ"أجوا أردينتي" قال مجددًا إن اسمه هو "رورو" وتابع:

- أنا لم أفعل شيئًا يا أستاذ. لم أفعل شيئًا يا آنسة. كنت أعتني فقط بالسيدة التي كانت مفككة، هي جميلة للغاية، لكن اعذرني حينما أقول لك إنها مجنونة للغاية أيضًا. كنت أعتني بها لأنني تلقيت تعليمات للاعتناء بها.

- تعليمات مِن مَن يا "رورو"؟ خذ كأسًا آخر وقل لنا.

- تعليمات من زعيمي. قلت لك. زعيمي دون ميداس ومن غيره؟ كانت أوامره مقدسة بالنسبة لي وانظر كيف انتهى الوضع وهو يدين لي براتب ثلاثة شهور!

سألته:

- وفي أي داهية هو موجود الآن؟

- كما قلت الآن تمامًا! لقد حلت به داهية وهو الآن موجود فيها. الحقيقة الوحيدة أنه لا يوجد أحد يعرف مكانه. هل تعتقد أنني لم أكن لأذهب للحصول على راتبي المتأخر لو كنت أعرف مكانه؟

حينما تأكدت أن هذا الرجل لم يعرف شيئًا أكثر مما يقوله رحلت وأنا عازم على البحث عن ميداس مكاليستر بداية من اليوم التالي جوًا

وبحرًا وبرًا حتى أعثر عليه. كنت عازمًا على دفنه في الجحر الذي يختبئ فيها حتى ولو قضيت حياتي كلها بحثًا عنه. كيف كنت لأعرف في تلك اللحظة أن الشخص الوحيد في الكون الذي قد يعرف مكانه هي أجوستينا؟ لدى صعودي للشاحنة، شاهدت "رورو" يخرج من البار ويركض نحوي وهو يشير لكي أنتظر ثم قال وهو يسلمني بطاقة صغيرة:

- كنت سأنسى إعطاءك هذا. أمسكت بها زوجتك في يدها حتى سقطت منها هناك في الفندق وأنا أخذتها بعدما بدا لي أن أحدًا لم يراها ووضعتها في جيبي وبقت معي. لم ألقِ بها في القمامة خوفًا من أن يكون إهمالها فألا سيئًا يؤدي للثأر فمن يعرف ما هي القوى التي تمتلكها! خذها. أعيدها لك فهي تخص زوجتك التي كانت تمسكها بكل قوة. بمجرد أن أمسكت البطاقة تعرفت على يدي اليسرى المُصغرة والمغلفة بالبلاستيك، راحة اليد من ناحية وظهرها من الجانب الآخر. لم تكن سوى "اليد التي تلمس"، تلك التي أرسلت نسخة لأجوستينا منها في بداية قصتنا معًا، لهذا حينما رأيتها وعلمت أن أجوستينا تمسكت بها في بداية النوبة المظلمة، لم أتمكن من احتواء سعادتي وصرخت:

- لتسامحني يا فولتير، لكن هذه معجزة!

سألتني أنيتا وهي تنظر للبطاقة:

- أي معجزة؟ إنه أمر غريب جدًا. وأنا طفلة كنت ألعب لعبة "اليد المُشعرة" والآن أصلي صلاة "اليد الإعجازية"، لكن لم أسمع عن "اليد التي تلمس" قط.

اقترحت عليها:

- هيا يا أنيتا. اصعدي للشاحنة سأوصلك لميسين.

لكن لا يا سيدي. أنيتا كانت تنتظر شيئًا آخر، لقد تحملت "المُرة" وكانت الآن عازمة على المطالبة بحقها في "الحُلوة". أنيتا لم تخطط لإظهار فتحة صدرها الجميلة من أجل لا شيء، أنيتا كانت معتادة على وصول الرصاصة إلى المكان الذي تصوب نحوه. أنيتا الجميلة عادت لاستخدام "حضرتك" بدلاً من "أنت" وقالت:

- لا يا سيدي. لا أرغب في سماع اسم مييسين. ساعدتك في إيجاد ما تبحث عنه، الآن على حضرتك أن تصحبني للرقص لبعض الوقت.

- وكيف لا أصحبك يا أنيتا للرقص، إذا كان هذا هو أقل شيء يمكنني القيام به لشكرك على رفقتك الحلوة في ساعات الاضطراب.

وهكذا أنهيت هذه الليلة بملهى في حي تشابينيرو يديره قزمان. لم يكن ممتلئًا على أي حال لأننا كنا في وسط الأسبوع. يا لسعادة أنيتا التي ليس لها حدود حينما ترقص! ويا للجهد الذي بذلته لكي لا أحتضنها! ويا لخطيئة عدم تقبيلها! ويا للجرم الذي ارتكبته بإبعاد يديّ عن فخذيها! أنيتا المبتسمة اللطيفة اللذيذة تحت الإضاءة الخافتة لملهى حي تشابينيرو الذي يديره قزمان.. لكن قلبي في مكان آخر يا أنيتا، بل أن جسدي نفسه ليس بالكامل هنا معك، ولا حتى جسدي حتى نفسه! وداعًا أنيتا من حي مييسين! كنت سأحب أن أقول لها:

ـ سأبحث عنك في حياة أخرى وأتزوجك وأجعلك سعيدة يا أنيتا. أنت تستحقينها وأنا مدين لك.

كنت سأحب أن أقول لها:

ـ في حياة أخرى سأصحبك إلى جناح في فندق فخم يا أنيتا، وإذا كنت ترغبين سيكون في (ويلنجتون) نفسه. أنا أستحقها وهو شيء ستظلين مدينة به لي، لكن هذا سيكون في حياة أخرى، لأنه يجب عليّ الآن أن أعود إلى المنزل، يا أنيتا يا جميلة، فهناك تنتظرني حياتي. أقصد الحياة الموجودة الآن، ففي نهاية المطاف هذه هي الحياة الوحيدة الموجودة لدي وهي تنتظرني في المنزل. أن أحلم بك سيكون شرفًا، يا أنيتا يا سمراء، لكن الآن لا أرغب في هذا. لا يمكنني إدخال أشياء غير حقيقية في حياتي الحقيقية، لأنه لدي وفرة من هذا الصنف.

لدى رجوعي للشقة، نحو الثانية فجرًا، وصلت إلى أنفي رائحة انتزعت مني دموعي، ولا أقولها كاستعارة لأن هذه الرائحة التي لا أعرف كيف أصفها جعلتني أبكي؛ رائحة المنزل، ما الذي يمكنني قوله؟ رائحة كل يوم، رائحة الناس التي تنام ليلاً وتستيقظ في الصباح، رائحة الحياة الحقيقية، رائحة أن الحياة عادت لتصبح ممكنة في هذا المكان، لا أعرف لكم من الوقت، لكن على الأقل ستظل هكذا في الفترة التي ستستمر فيها هذه الرائحة وطالما لم ينكسر هذا الهدوء.

كانت أجوستينا نائمة على جانبي في الفراش وتركت لي رسالة على الكومود، رسالة مثل تلك التي جعلتها تنزلق من أسفل باب مكتبي في

الجامعة منذ ثلاث سنوات لتطلب مني شيئين: نسخة مصورة من يدي وكتابة سيرتها الذاتية. لم تكن الرسالة هذه المرة مُرفقة داخل ظرف بل مثنية إلى نصفين وعلى وجهها الخارجي كُتب اسمي، أجيلار. أنا لا أعرف ما هي السعادة. لا أظن أن أحدًا يعرف ماهيتها، لكن أنا واثق أن ما شعرت به حينما شاهدت اسمي مكتوبًا بخطها على تلك الورقة بتلك الكرة فوق الـ"i" بدلا من النقطة كانت السعادة. كانت الرسالة تقول:

- "أستاذ أجيلار. إذا كنت رغمًا عن كل شيء لازلت تحبني، ارتدِ رابطة عنقك الحمراء غدًا".

قرأتها عدة مرات قبل النوم وكان أخر تفكير مر برأسي قبل أن أنام هو:

- أنا سعيد. أنا سعيد في هذه الليلة، وإن كنت لا أعرف لكم من الوقت ستستمر هذه السعادة.

حينما استيقظت في اليوم التالي، كانت أجوستينا قد ارتدت ملابسها بالفعل وتتصل بالمطار لتتأكد من موعد وصول الرحلة المقبلة من المكسيك. أخذت دُشًا متأخرًا وهذبت لحيتي وصففت شعري بأفضل صورة ممكنة، مع الأخذ في الاعتبار بأن نمو الشعر لم يكن قد اشتد بعد الخراب الذي سببه دون أوكتافيو الحلاق. ارتديت قميصًا أبيض وبحثت بين الأدراج حتى عثرت على رابطة عنق حمراء قديمة كنت متأكدًا من وجودها في مكان ما. كنت أرى نفسي غريبًا للغاية. لم أستخدم هذه الكرافات أبدًا ولم يكن لدي سترة مناسبة، لكن على أي حال كنت

هناك مع رابطة عنقي الحمراء، حتى أنني قمت بدفق القليل من الكولونيا التي تُهديها لي دائمًا. حينما نزلت، مرت أجوستينا أكثر من مرة أمامي دون أن تقول لي شيء، ولا حتى "صباح الخير"، كانت تتظاهر بأنها لا تراني. كانت عيناها تتفاديان رابطة عنقي الحمراء كأنها ندمت على ترك هذه الرسالة لي، أو كأنها تخشى أن تتحقق من مسألة ارتدائي لها من عدمها، أو كأنها كانت تصطنع الجنون. كانت أجوستينا والخالة صوفي تضعان اللمسات الأخيرة على الغداء الترحيبي لـ"بيتشي" بعد جلبه من المطار، طبختا ديكًا روميًا وتجاهلتاني وهما تتحركان ببعض التفاح والخضروات، لهذا أعددت لنفسي قدحًا من القهوة وجلست لتناول الإفطار وتصفح الجريدة ومشاهدة زوجتي وهي تمر من أمامي مرة تلو الأخرى كأنها تنظر نحو الجانب الآخر، كأنها تصطنع الهدوء لكنها في نفس الوقت متوترة، وهي ترغب ولا ترغب في أن ترى بطرف عينيها إذا كنت قد ارتديت هذه الرابطة، حتى وقفت بنفسي أمامها وأمسكتها من كتفيها وجعلتها تنظري إلى عينيّ وسألتها:

- آنسة لوندونيو. هل هذه الرابطة حمراء بصورة كافية بالنسبة لك؟

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: +٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩ - +٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨

بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

"من أجمل الروايات التي نُشرت مؤخرًا. تفرض ريستريبو براعتها الكاملة على ما تكتبه، براعة مدهشة ومطلقة. يوجد بالفعل عنف ومخدرات وجنون - بل وربما الحب ذاته مجسدًا في صورة الجنون- لكن أهم شيء أنها رواية رائعة بحق، من ذلك النوع الذي قلما تجده."
جوزيه ساراماجو، عن رواية "هذيان"

رواية شديدة السحر والجمال. فعبر شخصياتها الاستثنائية وحبكتها الفريدة، تقدم "هذيان" تشريحًا دقيقًا للمجتمع الكولومبي ونقائصه، وتضع النفس البشرية وتناقضاتها تحت ميكروسكوب يكشف حقيقة روحها العارية. رواية عن الجنون والعنف والمخدرات قبل أي شيء، لكنها أيضًا عن الحب والوفاء. خليط يبدو متناقضًا بشدة، لكن لاورا ريستريبو تتمكن من جدل خيوطه برهافة وبراعة، لتقدم عملًا روائيًا ممتعًا. حصلت الرواية، في عام ٢٠٠٤، على جائزة "ألفاجوارا" العريقة.

*

لاورا ريستريبو، روائية كولومبية شهيرة صُنفت ضمن أهم الأصوات الأدبية في كولومبيا حاليًا. ولدت في بوجوتا عام ١٩٥٠، ودرست الفلسفة والآداب والعلوم السياسية. صدر لها ١٠ روايات ومجموعة قصصية حتى الآن، وتعد "هذيان" أشهر رواياتها على الصعيد العالمي، إذ حظيت بتقدير نقدي وجماهيري بالغ وتُرجمت إلى أكثر من ٢٠ لغة. حازت ريستريبو على عدة جوائز من ضمنها: "ألفاجوارا"، "جائزة فرنسا للثقافة"، و"سور خوانا إينيس دي لا كروث".

محمد الفولي، مترجم وصحفي وكاتب مصري من مواليد ١٩٨٧. درس الأدب الأسباني وأنصب اهتمامه بشكل خاص على علاقة الأدب وكرة القدم. صدرت له عدة ترجمات عن الأسبانية منها: "الشرق يبدأ من القاهرة" رواية للكولومبي آباد فاسيولينسي، "أغرب الحكايات في تاريخ المونديال" للأرجنتيني لوثيانو بيرنيكي، و"حكاية عامل غرف: مختارات من أدب كرة القدم الأرجنتيني". ينتظر حاليًا صدور مجموعته القصصية الأولى: "تقرير عن الرفاعية".

الكتب خان للنشر والتوزيع
ISBN 978-977-803-069-3
9 789778 030693